نينا دي غرامونت

NINA DE GRAMONT

سر اختفاء أغاثا كريستي

لغز الأحد عشر يومًا

The CHRISTIE AFFAIR

مكتبة رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

سر اختفاء
أغاثا كريستي



يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

The CHRISTIE AFFAIR

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر

Published by arrangement with
St. Martin's Publishing Group

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو 2022 م - 1443 هـ

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

إصدار

الدار العربية للعلوم ناشرون م م ح

مركز الأعمال، مدينة الشارقة للنشر
المنطقة الحرة، الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
جوال: 585597200 971+ - داخلي: 0585597200
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التوزيع في المملكة العربية السعودية
دار إقـــراء للـــنـــشـــر

نينا دي غرامونت

NINA DE GRAMONT

سر اختفاء أغاثا كريستي

لغز الأحد عشر يومًا

The CHRISTIE AFFAIR

رواية

مكتبة | 1180

تعريب ماجد حامد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



القسم الأول

«تهتمّ تلك الصغيرة كثيراً؛
هذا ليس آمناً، لا، إنه ليس آمناً».

هيركيول بوارو




تليجرام
مكتبة سور الأزبكية

هنا ترقد الأخت ماري

منذ زمن بعيد وفي بلاد بعيدة، أوشكتُ على قتل امرأة.

إن الرغبة في القتل شعور خاص؛ في البدء، يتسلّل الغضب إليك، ويكون أشدّ من أي وقت مضى، ويسيطر على جسدك كله، وكأنه قوّة غير بشرية، يُحكِم قبضته على إرادتك، وأطرافك، وروحك، ويوقظ فيك طاقة لا تدرك أنه سبق لك أن امتلكتها، فترتفع يداك البريئتان حتى لحظة وصولهما إلى شخص آخر كي تسلباه حياته. هناك متعة في الأمر، صحيح أنه يخيفني عندما أتذكره، ولكنني أجرؤ الآن على الاعتراف بجماله؛ إن العدالة جميلة.

لقد عشقتْ أغاثا كريستي جرائم القتل رغم رقّة قلبها، ولكنها لم تشأ قتل أحد أبداً، وأنا أيضاً لم أشأ.

اعتادت أن تمدّ يدها النحيلة وتقول: «ناديني أغاثا»، ولكنني لم أفعل ذلك وخاصةً في الأيام الأخيرة، بغض النظر عن عطل نهاية الأسبوع التي أمضيتها في أحد منازلها، أو الأوقات الخاصة التي تشاركناها سويًّا. لم يبدُ رفع الكلفة ملائماً رغم انتشاره في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى. كانت أغاثا راقيةً ومن الطبقة المخملية، ولكنها استعدت دوماً كي تتخلّى عن الأخلاق والأعراف الاجتماعية التي بذلت جهدي كي أتقنها ولا أنساها بسهولة.

لقد أحببتها، ورفضت حينها أن أثق في كتاباتها، ولكنني احترمتها دوماً، وما زلت، وقد أفصحت عن ذلك في الآونة الأخيرة إلى إحدى أخواتي، فسألتني إن كنت نادمةً إزاء ما فعلت، وعن كمية الألم الذي سببه ذلك.

أجبتها من دون تردّد: «بالطبع أنا نادمة»، وأي شخص ينكر ندمه فلا يعدو

عـن كونـه مختـلاً عقليـاً أو كاذبـاً، ولا ينطبق ذلك عليّ، فأنـا بارعة في حفظ الأسـرار. كان ذلك قاسـماً مشـتركاً بين السـيدتين كريستي الأولى والثانية، إذ علمت كل واحدة منا عجز المرء عن رواية قصته من دون كشف قصة شخص آخر؛ لقد رفضت أغاثا طيلة حياتها إجابتي عن أي سؤال حول الليالي الإحدى عشرة التي فُقدت فيها، ليس لأنها أرادت حماية نفسها فقط.

إنْ كنت مكانها، كنت سأرفض الإجابة أيضاً.

الاختفاء

في اليوم السابق

الخميس، 2 كانون الأول، 1926

أخبرت أرتشي أن الوقت غير مناسب كي يهجر زوجته، ولكنني لم أقصد ذلك؛ لقد طال وقت اللهو وقد حان الوقت كي ألعب ورقتي الرابحة، ولكن أرتشي أحب أن تسير الأمور كما يشاء، ولذلك اعترضت.

قلت له: «إنها هشّة جداً»؛ كانت أغاثا حينها تعاني بسبب وفاة والدتها.

أجابني أرتشي: «مضت أشهر على وفاة كلاريسا، لا فرق في الوقت، وسيكون الأمر بغيضاً عندما أخبرها». لا تستطيع استعمال كلمة هش كي تصف أرتشي حين جلس خلف طاولة مكتبه الكبيرة في لندن والمصنوعة من خشب الماهوغاني حيث كل شيء يحيط به يبدو عظيماً ومهيباً.

قال أرتشي: «لا يمكنك جعل الجميع سعداء، يجب أن يحزن بعضهم، وقد تعبت من كوني حزيناً دائماً».

نظرت إليه، من حيث أجلس على الكرسي الجلدي الذي يجلس عليه الخبراء الماليون ورجال الأعمال وقلت: «يا عزيزي، تحتاج أغاثا وقتاً أطول كي تتعافى»؛ لن يرتقي صوتي أبداً إلى نعومة صوت أغاثا، ولكنه ساعدني حينها على التخلص من لكنة إيست أند.

قال لي: «إنها امرأة بالغة».

أجبته: «يحتاج الإنسان دوماً إلى أمه».

قال أرتشي: «أنت متسامحة وطيبة جداً يا نان».

ابتسمت وكأن الأمر صحيح؛ كان المرض والضعف والحزن أبغض الأمور إلى قلب أرتشي، ولم يصبر على الشفاء، أما أنا، فقد حافظت على سلوك بهيج، وشخصية مرحة بصفتي عشيقته، على العكس تماماً من زوجته المخدوعة والتي تشعر بالأسى.

رقّت نظراته، وارتسمت ابتسامة على شفتيه، وكما يحب الفرنسيون أن يقولوا: «لا يوجد ماضٍ يدين الناس السعداء»، لم يسألني أرتشي أبداً عن ماضيّ، لقد أرادني أنا فقط وبملء إرادته، فمسح شعره بيده ورتّبه كي لا يزعجه، فلاحظت بعض الشيب عند جانبي رأسه، والذي أضفى عليه سمةً مميزةً. لعل الجشع قد ساهم في علاقتي مع أرتشي، ولكنه لم يمنعني من الاستمتاع معه؛ لقد كان طويل القامة، وسيماً، ومتيّماً بي.

نهض أرتشي من خلف مكتبه، ومشى حتى وصل إليّ، وركع أمام كرسيي.

قلت متظاهرةً أنني أوبّخه: «ماذا لو دخل أحد يا أرتشي؟».

أجابني: «لن يدخل أحد»، ثم طوّق خصري بذراعيه، ووضع رأسه في حضني. كنت أرتدي تنورةً ذات طيات، وقميصاً ذا أزرار، وسترةً صوفيةً فضفاضةً، وجارباً، إضافةً إلى لآلئ مزيفة، واعتمر قبّعةً أنيقةً جديدة؛ ربتُّ على رأسه بلطف، ودفعته في الوقت الذي قرّب فيه وجهه مني.

قلت من دون إلحاح: «ليس هنا»، وكنت سعيدةً جداً مثل فتاة نسيَها المرض والحزن طيلة حياتها.

قبّلني أرتشي؛ لقد كانت رائحة شفتيه مثل رائحة دخان الغليون، فأمسكت ياقة سترته ولم أعارض إطباق يده على نهدي. إن سارت الأمور كما خططت، فسأرسله إلى زوجته الليلة حاملاً إياي على عرش أفكاره. دائماً ما كنت أحمل معي إسفنجةً مشبعةً بسلفات الكينين – تكبّدت أختي الصغرى المتزوجة عناء

إحضارها إليّ – كي لا أحمل منه، وقد تجنّبت لقاء أرتشي من دونها، ولكن لم يكن الحذر ضرورياً حينها، إذ أعاد تنورتي بشكل لائق إلى وضعها، ورتب طياتها، ثم وقف وعاد إلى مكتبه.

دقّ الباب بخفة فور جلوس أرتشي على كرسيه، ودخلت أغاثا مسرعة، وقد كتمت السجادة صوت كعب حذائها. كانت أطول مني ببضع بوصات، وأكبر بعشر سنوات تقريباً، إنها تبلغ السادسة والثلاثين من العمر وقد تحوّل لون شعرها من الأصهب إلى البنّي.

قال أرتشي محتدًّا: «كنت تستطيعين دقّ الباب يا أغاثا».

أجابته قبل أن تلتفت إليّ: «هذه ليست غرفة تبديل ملابس يا عزيزي أرتشي... لقد فاجأني وجودك هنا يا آنسة أوديا».

اقتضت خطة أرتشي ألّا يعيرني انتباهاً في العلن، إذ دُعيت باستمرار إلى الحفلات وعطلات نهاية الأسبوع في منزل آل كريستي، ولو حدث هذا اللقاء خلال الأشهر الستة الماضية، لاختلق أرتشي عذراً واحداً على الأقل كي يبرر وجودي في مكتبه مثل: لقد أرسلها ستان إلى هنا كي تجري بعض الاختزال. كان ستان رئيس شركة إمبيرال بريتش ربر التي أعمل فيها، وصديق أرتشي أيضاً، ولكنه لم يرسل أحداً أبداً كي يقوم بأي عمل.

تجنّب أرتشي هذه المرة تبرير وجودي في مكان لا أنتمي إليه، فرفعت أغاثا حاجبيها بعد أن أدركت عدم انزعاج زوجها من حيلتها المعتادة، ولذلك خاطبتني في محاولة منها كي تتمالك نفسها، وأشارت إلى ملابسنا: «انظري إلينا، نبدو وكأننا توأم».

حاولت جاهدةً عدم لمس وجهي، لقد احمرّ كثيراً من الخجل؛ ماذا لو دخلت قبل دقيقتين؟ هل ستتظاهر أنها لا تعلم شيئاً، وتتجاهل كل الأدلة كما تتجاهلها الآن؟

أجبتها: «أجل، أجل، هذا صحيح، نحن كذلك».

كانـت جميـع نسـاء لندن توائم فـي ذلك الفصل، فقد ارتدين الملابس نفسـها، ووصلـت شـعورهن إلـى أكتافهـن. كان الفرق بيني وبيـن أغاثا أن ملابسـها تحمـل علامـة شـانيل الأصلية، ولآلئها حقيقيـة، ولكنها تجاهلت هذه الفروقات دوماً، إذ لم تكن من الناس الذين يولون هذه الأمور اهتماماً، وقد انعكس ذلك سلباً عليها عندما تعلّق الأمر بي، كما لم تعارض دخول ابنة كاتب، أو مجرّد سـكرتيرة إلى حياتها الاجتماعية. أخبرها أرتشـي أنني صديقـة ابنـة سـتان، ولاعبة غولف ممتـازة، وكان ذلك التبرير الوحيد الذي أرادته.

تبـدو أغاثـا فـي الصـور التـي التقطت حينها أكثـر كآبةً وأقـل جمالاً من الحقيقـة؛ تـلألأت عيناها الزرقاوان، وغطّى نمش الفتيات أنفها، واسـتطاعت تغيير ملامح وجهها سـريعاً. أخيراً، وقف أرتشـي كي يرحّب بها، وصافحها كمـن يصافـح شـريكاً فـي العمـل، وعندهـا أدركت أننا نخطـو نحو الأفضل: استحقت تلك المرأة الطموحة الجميلة رجلاً أفضل من أرتشي، رجلاً يمنحها الحـب ولا يخجـل عندمـا يحتضنها ولا يخونها. تسـلّلت مشـاعر الذنب إليّ كي تمنعني، ولكنني ذكّرت نفسي أن أغاثا ولدت قويةً، وستبقى كذلك على الدوام. كانت تلك المرة الثانية أو الثالثة التي تخبر فيها أرتشي أنها اجتمعت مـع وكيلهـا الأدبـي الجديـد؛ دونالـد فريزر؛ وقالـت: «رأيـت أن نغتنم فرصة وجودي هنا ونتناول الغداء معاً قبل انتهاء عطلة نهاية الأسبوع».

أشار أرتشي إلى مكتبه الفارغ وقال: «لا أستطيع اليوم، هناك أعمال كثيرة عليّ أنجازها»، ولكنه لم يبدُ مقنعاً.

قالت أغاثا: «آه، هل أنت متأكّد؟ لقد حجزت طاولةً في مطعم سيمبسون».

أجاب أرتشي: «أجل، أخشى أنني لن أستطيع تلبية طلبك».

سـألتني أغاثـا: «مـاذا عنك يا آنسـة أوديا، هل تودّيـن مرافقتي؟ غداء من أجل الفتيات؟».

وجدت نفسي غير قادرة على احتمال أن يُرفض طلبها مرتين: «أوه، أجل، سيكون ذلك لطيفاً».

سعل أرتشي منزعجاً؛ سيتوتر أي رجل آخر مكانه، إذ تقف أمامه زوجته وعشيقته، ولكنه تجاوز موضوع مراعاة المشاعر، إذ أراد إنهاء زواجه وإن كان ذلك من خلال ضبط زوجته لنا بالجرم المشهود. كان سيأخذ موعداً في متجر جيرارد أند كومباني من أجل شراء أجمل خاتم يحمل ماستي الحقيقية الأولى، بينما أتناول الغداء مع زوجته.

قلت وأنا أنهض عن الكرسي: «يجب أن تخبريني عن وكيلك الأدبي الجديد، لديك سيرة مهنية مثيرة للاهتمام يا سيدة كريستي»، لم يكن ذلك إطراءً، إذ تتفوق سيرتها المهنية بأشواط على أعمال أرتشي في الاقتصاد، رغم أنها لم تكن مشهورةً حينها مقارنةً بشهرتها اليوم؛ كانت على وشك أن تصبح نجماً يستطع في سماء الأدب، وكنت أحسدها.

احتضنت أغاثا ذراعي بذراعها، وقبلت ذلك بهدوء، إذ لا شيء يعكس طبيعتي أكثر من الألفة مع النساء، ويعود فضل ذلك إلى شقيقاتي الثلاث.

ارتسمت على وجه أغاثا ابتسامة حالمة وحازمة في الوقت نفسه. في بعض الأحيان كانت تشتكي من الوزن الذي اكتسبته في السنوات السبع الأخيرة بعد حملها بتيدي، ولكن بدت ذراعها نحيلةً ورقيقةً، وتركتها تصطحبني إلى خارج المكاتب إلى الشارع المزدحم حيث توردت وجنتاي من البرد، ثم أفلتت أغاثا ذراعي بقوة، وتحسست جبهتها من أجل تهدئة نفسها.

«هل أنت بخير يا سيدة كريستي؟».

أجابتني وقد احتدّ صوتها أكثر من السابق: «أغاثا، ناديني أغاثا من فضلك».

أومأت، وفعلت الشيء نفسه الذي أفعله في كل مرة تطلب ذلك؛ لم أنادِها بشيء خلال معظم وقتنا بعد ظهر ذاك اليوم.

هل عرفت يوماً امرأةً أصبحت مشهورةً؟ ربما وجدت شيئاً في ذكرياتك أليس كذلك؟ لقد تظاهرت أغاثا بتجردها من الطموح حتى مماتها رغم تصرفاتها والتصميم في كلامها، واعتقدت أنها أخفت قوتها جيداً، ولكنني استطعت اكتشافها من الطريقة التي جالت فيها عيناها في أرجاء القاعة، وتفحُّصها لكل الأشخاص الذين وقعوا في حقل بصرها، إذ تتخيل قصة تستطيع تلخيصها في جملة واحدة. ستود أغاثا معرفة تفاصيل ماضيك كلها على عكس أرتشي، وإن رفضت كشفها، ستختلق أموراً من وحي خيالها، وتقنع نفسها أنها حقيقية.

رافقنا أحدهم من مطعم سيمبسون إلى الطابق العلوي حيث قاعة السيدات، فخلعت قبعتها عندما جلسنا، وفعلتُ المثل، في الوقت الذي أبقت معظم النساء على قبعاتهن أعلى رؤوسهن. أرجعت شعرها الجميل إلى مكانه، لقد كان الهدف من حركتها هذه تهدئة نفسها وليس التعبير عن الغرور؛ لعلها أرادت سؤالي عن سبب وجودي في مكتب أرتشي، وعلمت أنني سأكذب، ولم تشأ سماع ذلك، فسألتني: «ما زالت والدتك على قيد الحياة يا آنسة أوديا، أليس كذلك؟».

«أجل، لا يزال والداي على قيد الحياة».

حدقت إليّ مباشرةً، وأدركت لاحقاً أنها كانت تقيّمني. لقد كنت جميلةً، ونحيلةً، ويافعةً، ورياضيةً، ولكنني لست هيلين[1]، ولو كنت كذلك، لأصبحت وأرتشي مرتاحَين أكثر في علاقتنا، وقد أشار اعتدال مفاتني إلى أن أرتشي يحبني على الأرجح.

سألتها: «كيف حال تيدي؟».

أجابتني: «إنها بخير».

---

(1) أجمل نساء الأرض عند الإغريق، التي وقعت في حب بارس عندما كان في ضيافة زوجها، وهربت معه إلى طروادة، مسببةً حرباً انتهت بسقوط المدينة.

سألتها مجدداً: «ماذا عن الكتابة؟».

لوّحت بيدها، وكأنها تشير إلى أن الكتابة تقع في أسفل سلم أولوياتها، ثم قالت: «إنها جيدة، ليست إلّا وسيلةً تشتّت انتباه المرء عن الأمور الأخرى»، ثم تغيرت تعابير وجهها وكأنها لا تستطيع منع نفسها عن الابتسام عندما تفكر في ذلك، وأدركت حينها أنها فخورة بعملها رغم ادعائها العكس.

صدر صوت هائل عندما أسقط نادل ذو رداء أبيض صينيةً محملة بالأطباق الفارغة، فقفزت إذ لم أستطع تمالك نفسي، وقد جلس إلى الطاولة المجاورة زوجان يتناولان الطعام، ووجدت الرجل وقد وضع ذراعيه على رأسه لا إرادياً؛ أشارت الأصوات الصاخبة في لندن منذ زمن قريب إلى شيء أخطر من الأطباق المحطمة، وقد رأى رجالنا أسوأ عواقبها.

ارتشفت أغاثا رشفةً من فنجان الشاي وقالت: «أفتقد الهدوء الذي سبق الحرب. هل تعتقدين أننا سنستعيد تلك الأيام يا آنسة أوديا؟».

أجبتها: «لا أتوقع ذلك».

قالت: «أعتقد أنّ سنك حالت دون عملك في التمريض».

أومأت بالإيجاب؛ لقد كانت معظم الممرضات اللواتي اعتنين بالجنود متقدمات في السن، وذلك من أجل الحيلولة دون حدوث قصص حب في وقت غير مناسب، وقد عُيِّنت أغاثا في صيدلية المستشفى في توركواي، حيث تعلمت كثيراً عن السموم.

قلت: «لقد امتهنت أختي التمريض بعد الحرب، وهي تعمل الآن في أحد مستشفيات توركواي».

لم تطرح أغاثا مزيداً من الأسئلة عن هذا الأمر، حيث إنها لن تعرف شخصاً مثل أختي، بل سألتني: «هل فقدت شخصاً عزيزاً عليك؟».

أجبتها: «خسرت شاباً عرفته في إيرلندا».

قالت: «هل قتل؟».

أجبتها: «ليس تماماً، دعينا نقل إنّه لم يعد إلى المنزل أبداً».

قالت: «لقد كان أرتشي في سلاح الطيران، أنت تعرفين ذلك طبعاً، ربما تبدو الحرب مختلفة بالنسبة إلى أولئك الذين يقاتلون من الجو».

ألـم يلخّـص ذلـك حالـة العالم كاملـةً؟ إذ يلقي أوزاره علـى الفقراء دوماً. أحبت أغاثا الاقتباس من ويليام بليك فقالت: «يولد بعض الناس من أجل نهارات بهية، وآخرون من أجل ليالٍ لا تنتهي». خلال تناولنا الغداء في مطعم سيمبسون اعتبرت أن أغاثا هي السابقة وأنا اللاحقة إذ كان زوجها يشتري خاتم خطوبتي.

لاحظـت محـاولات أغاثـا المسـتمرة إخفـاء تعابير وجهها، كمـا لو أنها أرادت قول شـيء ما، ولكنها فشـلت في حمل نفسـها على ذلك، كما كنت متأكدةً أنها أرادت مواجهتي، فلعلها تريد طلب الرحمة، ولكن يسهل تأجيل المحادثات البغيضة وخاصةً إن كان المرء ضعيفاً في المواجهة.

حاولـت فعـل ذلـك، وقالت؛ وقد كانت جادةً في كلامها: «كل الحروب سـيئة، ويصعب على الرجل تحمّل فظاعتها. سـأبذل قصارى جهدي لو كان لديّ ابن كي أبعده عنها، ولو كان مصير إنكلترا على المحك».

قلت لها: «وأنا أيضاً».

وضـع طبـق اللحـم خاصتنا على جانب الطاولة، واخترت قطعةً لم تكن مطهية بالقدر الذي أحبه؛ أفترض أنني أردت إثارة إعجاب أغاثا، إذ يتناسـب ثـراء النـاس طـرداً مـع تناول اللحم غير المطهو جيـداً؛ لقد تقلبت معدتي من منظر الدم الذي سال منها في أثناء تقطيعي إياها.

سألتني أغاثا: «هل ما زلت تفكرين بالشاب الإيرلندي؟».

أجبتها: «أجل، كل يوم».

قالت: «وهل هذا سبب عدم زواجك؟».

عدم زواجي؟ وكأنني لن أقدم على ذلك أبداً، فأجبت: «أعتقد ذلك».

قالت: «حسناً، ما زلت شابةً، ومن يدري؟ لعله سيأتي معافى ذات يوم».

أجبتها: «أشك في ذلك».

تابعت أغاثا: «خلال الحرب، اعتقدت أنني وأرتشي لن نتزوج أبداً، ولكننا تزوجنا وكنا سعيدين جداً كما تعلمين».

قلت: «أنا متأكدة من ذلك»، فتجمدت وعبست إزاء الحديث عن الحرب، فلعل افتقار أحدهم كل شيء يبرر سرقته شيئاً واحداً - زوجاً - من شخص يملك كل شيء.

عاد النادل، وسألنا إن كنا نريد جبناً، ولكن رفضنا. وضعت أغاثا شوكتها بعد تناولها لنصف شريحة اللحم، وكانت ستتجنب تناولها لو أنها في مزاج سيئ، وقالت: «يجب أن أقلل من تناول الطعام، يقول أرتشي إنني سمينة جداً».

أجبتها كي أخفّف عنها رغم أن ذلك صحيح: «تبدين رائعة، أنت جميلة حقاً».

ضحكت أغاثا بخبث ساخرةً من نفسها، وليس مني، فأطريت عليها مجدداً، إذ لا أحب جرح مشاعر أحد. لقد فارقت والدتها الحياة في وقت سيئ، في الوقت نفسه الذي سيفارقها فيه أرتشي، أما والد أغاثا فتوفي عندما كانت في الحادية عشرة من عمرها، وأصبحت بعد خسارة والدتها آخر سليلات العائلة.

دفعت أغاثا الفاتورة بعد إصرارها على ذلك، وخرجنا من المطعم؛ التفتت إليّ في الشارع، وأمسكت ذقني بين سبابتها وإبهامها وقالت: «هل لديك خطط من أجل عطلة نهاية الأسبوع هذه يا آنسة أوديا؟»، شعرت من نبرة صوتها أنها تعرف تماماً ما هي خططي.

أجبتها: «في الحقيقة، لا، ولكنني سأمضي عطلةَ الأسبوع القادم في فندق بيليفورت في هاروغيت»، وتساءلت مباشرةً لماذا أخبرتها، فأنا لم أخبر أرتشي بذلك حتى، ولكنني شعرت أنني مقربة منها؛ فأنا أشاركها زوجها، ومقربة منها أكثر منه أحياناً.

قالت: «ترفهين عن نفسك، هذا لطيف منك». شعرت أن ذلك لا يتناسب مع طبيعتها الواعية، وشكرت الرب أنها لم تسألني كيف أستطيع تحمل نفقات الإقامة الباهظة تلك.

أفلتت ذقني، ورأيت في عينيها شيئاً لم أفهمه تماماً، وقالت: «حسناً، إلى اللقاء. عطلةً سعيدةً».

التفتت بعد أن خطت بضع خطوات، ثم توقفت، وعادت إليّ، وقد تغيرت تعابير وجهها تماماً وجحظت عيناها.

قالت أغاثا وهي ترتجف: «أنت لا تحبينه، وسيغدو الأمر أسوأ لو أحببته، لذلك ابتعدي عنه واتركيه مع الشخص الذي يحبه».

تلاشت كل تعابير وجهي تماماً، وشعرت وكأنني شبح عندما لم أجبها، وأن جسدي تمزق إلى أشلاء صغيرة حملها الهواء بعيداً. لم تلمسني أغاثا مجدداً، بل حدقت إليّ، وتفحصت ردّ فعلي؛ لقد جفت الدماء في وجنتي، ومنعني الذنب من الحركة أو التنفس.

كانت كلمتا: «سيدة كريستي»، جُلّ ما استطعت قوله، فلقد أرادت اعترافاً لست مخولةً أن أدلي به.

قالت: «آنسة أوديا»، وعادت إلى طبيعتها المعتادة؛ لقد عكست نبرة صوتي إنكاراً، ونبرة صوتها نبذها لي.

وقفتُ خارج المطعم أراقبها تبتعد، وأذكر أنها اختفت في غيمة كبيرة من الضباب، ولكن لا يعقل أن يكون ذلك صحيحاً، إذ كان الوقت نهاراً والرؤية واضحة وصافية، فلعلها انعطفت على الأرجح، أو شقت طريقها عبر حشد من الناس.

كان يفترض بي أن أعود إلى العمل، ولكنني اتجهت إلى مكتب أرتشي بدلاً من ذلك، إذ لم يعد عملي كسكرتيرة مهماً بالنسبة إليّ، في الوقت الذي

أصبح فيه أرتشي يغطي نفقاتي شيئاً فشيئاً. علمت أنه سيقلق بشأن تناولي الغداء مع أغاثا، وإن أخبرها أنه سيغادر الليلة، فستقول له إنني لا أُحبه، ولذلك كان ضرورياً أن أبدو وكأنني أحبه حقاً.

مررت في طريقي قرب مكتبة تعرض كدسة من كتاب أطفال وردي اللون يحمل صورة الدب ويني الذي أمسك خيطاً في نهايته بالون يحلق في السماء. بدا مرحاً، ولذلك دخلت واشتريت نسخةً من أجل أرتشي كي يهديها إلى تيدي، وفكّرت لوهلة أن أمنحها إياها شخصياً كهدية لعيد الميلاد؛ سيكون والداها قد انفصلا حينها، وربما تقضي تيدي عشية الميلاد مع والدها، ونتبادل ثلاثتنا الهدايا تحت شجرة الميلاد. يسمع المرء أحياناً عن أطفال اختاروا العيش مع والدهم بعد الطلاق، وقد ادعى أرتشي دوماً أن تيدي تحبه أكثر مما تحب أمها، ولكن كانت تلك طبيعته، يختلق أمراً ويصدقه.

عدت إلى المكتب، وأعطيت أرتشي الكتاب كي يأخذه إلى تيدي بنفسه، ثم أقفل الباب، وجذبني إلى حضنه، وأخذ يفك أزرار تنورتي، ورفعها إلى خصري، وهمس في أذني وهو يرتجف: «لن يحدث الأمر هكذا مجدداً»، ولكنني علمت أنه يحب هذه الطريقة، أليس الرجال كلهم مثله؟

ابتعدت عنه ورتبت تنورتي، ووجدت أن قبعتي ما زالت على رأسي، وبالكاد تزحزحت.

عاد أرتشي إلى مكتبه وسألني: «كيف بدت أغاثا؟».

أجبته: «كانت حزينةً وقلقةً»، إن أخبرته يوماً أنها واجهتني سأنكر ذلك.

قال: «يجدر بك ألّا تتساهلي معها، ومن الأفضل غرس السكين سريعاً».

أجبته: «أنا متأكدة أنك محق».

أرسلت إليه قبلةً في الهواء، واتجهت إلى الباب، وأنا آمل أن احتجاجاتي لم تؤثر في عزيمته؛ لقد جعله حديثي مع أغاثا أكثر إلحاحاً على تركها.

أدرت مقبض الباب، ولكن أرتشي ناداني قبل أن أخرج وقال: «اسمعيني

يا نان، سأكون رجلاً حراً عندما نلتقي في المرة القادمة».

أجبته: «هذا ليس صحيحاً، ستصبح ملكي».

ابتسم أرتشي، وأدركت أنّ لا شيء يدعو إلى القلق على الأقل بشأن نقل أرتشي المستجدات إلى أغاثا؛ هناك مهمة على عاتقه، وعندما يقرر تنفيذها فسيفعل ذلك ببرود الطيار الذي يرمي القنابل من السماء من دون أن يعرف أحد ممن في الأسفل أنّه القاتل أو المدمر.

الاختفاء

في اليوم السابق

الخميس، 2 كانون الأول، 1926

هناك قصة واحدة يتناقلها الرجال عبر التاريخ ويقصها كل واحد منهم على مسامع عشيقته، وهي أنه لا يحب زوجته، وربما لم يحبها أساساً، ومضت سنوات على المرة الأخيرة التي مارسا فيها الحب، وأن العاطفة والمودة والفرح لم تعد سمة زواجه، وأن المنزل أصبح مكاناً قاحلاً وبائساً، وأنه يقيم هناك من أجل الأطفال، أو المال، أو المظهر الاجتماعي، وأنه عندما يبحث عن راحته، فلا يجدها سوى في حضن عشيقته الجديدة.

ما مدى صحة هذه القصة؟ لا أعتقد أنها صحيحة، على الأقل بالنسبة إلى عائلة كريستي.

لقد انطلق أرتشي تلك الليلة في رحلته المعتادة من لندن إلى سونينغديل، وقد أطلق الزوجان على منزلهما اسم ستايلز نسبةً إلى القصر الجميل في رواية أغاثا الأولى، والذي بُني على الطراز الفيكتوري والذي تحيط به حدائق واسعة. دخل أرتشي المنزل، ووجد أغاثا تنتظره وقد حضّرت نفسها من أجل العشاء؛ لم يخبرني أبداً ما ارتدته، ولكنني أعلم أنه فستان أخضر مائل إلى الزرقة من الشيفون، وأعتقد أنه أبرز حجم نهديها. أخبرني أنها كانت مشتتةً جداً ما دفعه إلى الانتظار حتى الصباح كي يخبرها أنه سيغادر.

قال أرتشي: «يصبح المرء عاطفياً أكثر ليلاً، أليس كذلك؟».

علمت أغاثا أن الأخبار قادمة، ولكنها قررت خوض معركة صامتة، وقد اعتاد كلبها بيتر مرافقتها، ولكنها أرسلته إلى الفراش مع تيدي تلك الليلة كي لا يسبب إزعاجاً لهما، وحاولت جاهدةً رسم تعابير السعادة على وجهها والتي يريدها زوجها.

فكرت أحياناً أن أغاثا اختلقت شخصية هيركيول بوارو بصفته نقيضاً لأرتشي، إذ يتعاطف هيركيول مع أي تلميح عاطفي أو عاطفة ضالة، ويستطيع امتصاص الحزن من المرء وتقييمه، ويتغاضى عنه، على عكس أرتشي الذي يأمر الشخص أن يبتهج وأن يُظهر ذلك. جلس الزوجان قبالة بعضهما إلى الطاولة من أجل تناول عشاء هادئ بعد تأجيلهما لأمر لا مفرّ منه، وعندما سألته عن الحديث الذي دار بينهما، أخبرني أنه مجرد حديث عادي.

سألته: «كيف بدت؟».

قال أرتشي وكأن كلماته تهينها: «كانت غارقةً في الكآبة».

بعد العشاء، طلبت منه أغاثا أن يذهب إلى غرفة الجلوس كي يحتسيا البراندي، ولكنه رفض ذلك، وصعد إلى الطابق العلوي كي يرى تيدي التي كانت مربيتها وسكرتيرة أغاثا الشخصية، هونوريا، تضعها في السرير، واندفع الكلب خارج الغرفة فور دخول أرتشي، فصاحت تيدي محتجةً: «لقد وعدتني أمي أن يقضي بيتر الليلة معي».

لحسن الحظ، كان مع أرتشي كتاب الدب ويني بمثابة هدية ليعوضها عنه، فمزقت تيدي الغلاف بحماسة، وفوراً قرأ لها والدها الفصل الأول، ثم توسلت إليه أن يتابع القراءة، وعندما فرغ من القراءة وجد أن أغاثا قد غطت في نوم عميق – كالموتى حسب وصف أرتشي – من دون أن تعرف أن تلك الليلة كانت فرصتها الأخيرة كي تستعيد زوجها.

يوم السبت، وصلتُ إلى ستايلز كي أعيد سيارة أرتشي من غودالمينغ،

فرأيت كتاب الدب ويني على الطاولة في الرواق مغلفاً بالورق البني كما أعطيته لأرتشي، وقد أظهرت أغاثا في مطعم سيمبسون غموضاً وحيويةً تندر رؤيتهما في شخص أصابه الأرق، وهي التي عانت من ليالٍ من قلة النوم، لقد أحبت زوجها حباً جمّاً بعد اثني عشر عاماً من الزواج، وكأنها لا تعلم كيف تسير الأمور في هذا العالم رغم بلوغها السادسة والثلاثين من عمرها؛ أعلم أنها لن تخلد إلى النوم قبل أرتشي، فهذا ما أعتقد أنه حدث:

عندما وصل أرتشي إلى المنزل استقبلته أغاثا؛ ما قاله أرتشي كان صحيحاً إلى هنا؛ بدت تعابير وجهها حازمة، فقد قررت أن تستعيد زوجها، ليس بفعل الغضب والتهديدات، بل بسبب قوة عشقها المطلقة، ولذلك انتقت ملابسها بعناية، لقد عرفتُ ما ارتدته لأنني وجدته مجعداً ومكوماً على أرضية غرفة النوم، ولعل الخادمة استاءت من جمع الملابس وغسلها، فانحنيت عندما رأيت الفستان وانتشلته، ووضعته عليّ كي أرى إن كان يناسبني؛ لقد كان فستاناً طويلاً جداً من الشيفون أخضر اللون المائل إلى الزرقة، ولامس الأرض، وفاحت منه رائحة خفيفة ولطيفة من عطر باردلي ذي رائحة الخزامى الإنكليزية القديمة.

يعد ارتداء ثوب كهذا في الشتاء أمراً سخيفاً؛ لقد بدت جميلةً مع النمش المتناثر البارز على أنفها وثدييها، وهي تنتظر استقبال أرتشي ولعلها حملت مشروباً في يدها، ولكن ليس من أجلها – فهي لا تشرب أبداً – إذ أعتقد أنه كان شراب سكوتش الذي يفضله أرتشي. نادته: «أي سي»، واقتربت منه، ووضعت يدها على صدره، وبادلته كأس الشراب مقابل معطفه؛ لقد أطلقا على بعضهما اسم «أي سي» منذ ليلة زفافهما؛ لكنه لم يجبها، وناولها المعطف مع كتاب الأطفال المغلف قائلاً: «خذي، هذا من أجل تيدي»، ولم يخبرها أنني من اشترته، ولكنني أرجح أنها عرفت ذلك فلم يسبق للكتب أن جذبت اهتمام

أرتشي، فهو لم يقرأ أياً من روايات أغاثا بما في ذلك روايتها الأولى، فوضعت أغاثا الكتاب على الطاولة من دون أن تفتحه.

في غرفة الجلوس، صبت كأس ماء لنفسها؛ لقد أجادت الانتظار، حيث انتظرت سنوات حتى تزوجت أرتشي، ثم سنوات حتى انتهت الحرب كي يعيشا معاً وهي التي أرسلت كتابها الأول إلى ناشر وانتظرت عامين قبل أن يصلها القبول؛ وعندما وصلها الردّ كانت قد نسيت أنها راسلت هذا الناشر. وقّعت عقداً مجحفاً مع بودلي هيد من أجل رواياتها الخمس الأولى، وأدركت ذلك فوراً، وفضّلت انتظار انقضاء مدته ولم تقبل التفاوض على العقود الكثيرة التي قُدِّمت لها. بعد ذلك، أصبحت حرةً، فتعاملت مع ناشر أفضل؛ يجب على المرء أن يوجه تركيزه إلى شيء محدد ويأمل الأفضل، وأن ينتظر الوقت المناسب من أجل فعل شيء معها.

كان المنزل شديد البرودة، فانتصب وبر ذراعيها العاريتين، وهذا ما جعلها تقف بمحاذاة أرتشي الذي كان صلباً لا يخترقه البرد، ويشع حرارةً حقيقيةً؛ وأنا هنا لا أتحدث عن الناحية الجسدية.

سألها: «أين تيدي؟».

أجابته: «إنها تستحم في الطابق العلوي برفقة هونوريا، ثم ستخلد إلى النوم».

أومأ واستنشق رائحة عطر الخزامى؛ يحب الرجل أن تتودّد إليه المرأة، وخاصةً إن كانت غريبةً، وهذا ما أصبحت عليه زوجته عندما عقد العزم على إخبارها أنه راحل. طلبت أغاثا من الطاهية إعداد وجبته المفضلة؛ لحم بقر وبيلينغتون؛ إذ وجدت أن هذا العشاء يناسب فصل الشتاء. أشعلت أغاثا شمعتين، ووضعت زجاجةً من النبيذ الفرنسي الجيد، ثم سكبت كأساً من أجلها كي تشارك أرتشي في الشرب من دون أن تحتسي إلا رشفةً واحدة، ثم جلست إلى جانبه وليس قبالته كما أخبرني. أرتشي أعسر وهي يمنى،

وبذلـك تصـادم مرفقاهما بحميمية شـخصين عاشـا وقتاً طويلاً تحت سـقف واحد، وتشـاركا السـرير نفسـه. كان أرتشي رجلاً من لحم ودم، والأسواء من ذلك، أنه كان رجلاً يشعر بشي من الكآبة. ليس صحيحاً أنه لم يحبها أبداً، لقد أثار تصميمه على الزواج مني فضولي إزاء آخر مرة شعر بمثل هذا التصميم، وذلك عندما أراد الزواج من أغاثا؛ لقد انتظرا رغم الحرب، والفقر، وفي ظل إصرار عائلتيهما على الانتظار وخاصةً أمه. لقد بدت أغاثا في ضوء الشمعتين جذابة بقدر ما كانت عليه ليلة زواجهما. اقترب عيد زواجهما، ويستحيل عشية عيد الميلاد عدم التركيز على ذكريات كهذه.

أنهى أرتشي طبقه، ولم يذهب إلى غرفة تيدي كي يتمنى لها ليلةً سعيدةً، فقد تأخر الوقت، وستكون نائمة.

أنـا واثقـة مـن أنه جرّد زوجته من فسـتانها، فهـو يحب رؤية المرأة عاريةً في الوقت الذي يكون فيه مرتدياً كامل ملابسـه، وتلك كانت فرصته الأخيرة لرؤيتها هكذا.

ارتجفـت زوجتـه وحيـدةً فـي غرفـة النوم من السـعادة والفـرح بقدر ما ارتجفت من البرد. لقد أشـعلت الخادمة النار في غرفة نومهما، وبدت أغاثا تحت الضوء الخافت الوامض ضعيفةً أمام العشق.

إنّ حياة الزوجين مترابطة، ولم يكن أرتشـي عديم المشـاعر، ففي ليلته الأخيرة معها أطلق العنان لمشاعره، بعد أن كبتها لأشهر.

ناداهـا باسـمها مـراراً وتكـراراً، أتوقع أيضاً أنّه قـال لها أحبكِ، وبدورها قالـت لـه أحبـكَ، وجرت الدموع على خديها، وكأنها اسـتعادته إلى الأبد. لم يلاحظا تجعد ملاءات السرير تحتهما، لأنهما سهرا حتى وقت متأخر، ومارسا الحـب مـرةً تلـو الأخـرى؛ لقد كانت أغاثا عشـيقته تلـك الليلة، وهي التي لن تكون زوجته مجدداً.

الاختفاء

اليوم الأخير الذي شوهدت فيه

الجمعة، 3 كانون الأول، 1926

عندما استيقظت أغاثا كانت وحيدة، فقد سبق لأرتشي أن استيقظ عند الفجر متناسياً ليلتهما؛ وحدهم الرجال يمكنهم القيام بذلك؛ استحم ليتخلص من رائحتها ومن سائر ما شعر به تجاهها ليلة أمس. تقلّبت أغاثا في السرير، وعندما لاحظت أنها كانت عارية، استعادت ذكرى الليلة الماضية، فمددت أطرافها وهي تبتسم منتصرة، لقد استعادته، وفازت بالحرب.

دندنت وهي ترتدي فستان نومها الحريري الطويل، ثم ارتدت عباءة ناعمة القماش، وتوجهّت إلى الطابق السفلي. ألقت نظرةً سريعةً على المرآة، وعندها مررت أصابعها عبر خصلات شعرها الأصهب الباهت. من فرط سعادتها، رأت نفسها جميلة؛ سيهيم زوجها حباً بها عندما يرى إشراقتها، فما من شيء أثير على قلبه مثل رؤيته للمرأة بأبهى إطلالة. أسرعت إلى الطابق السفلي كي تلحق به قبل أن يغادر. يمكنني أن أتخيل الجزَع الذي ارتسم على محياها، عندما بلغت الطابق السفلي، ورأته بكامل ملابسه، وإلى جانبه حقيبة السفر، وقد بدت ملامح وجهه في غاية الجدية.

امتقع وجهها، وشحبت وجنتاها، وتلاشى الفرح والبهجة حتى قبل أن يلاحظهما، فسألته: «أنت لست مغادراً في عطلة أليس كذلك؟».

أخذ كلامه طابعاً تحذيرياً، وبدا أنه يؤنب طفلةً أساءت التصرف: «أغاثا».

كـررت أغاثـا اسـمها عالياً، وتردد صـدى صوتها في المنزل، وبلغ أعلى الـدرج، وربمـا وصـل غرفـة تيدي التي لا تعرف إن كانت نائمة أو مسـتيقظة؛ لـم يذهـب أي منهما كي يطمئنّ عليها؛ فردّدت اسمها مجدداً وقالت: «تتحدث وكأنني من أخطأ وأسبب المتاعب، ولكنك أنت المخطئ».

تنهّـد ونظـر صـوب المطبخ حيث تحضر الطاهية الفطور. في أي لحظة، سـتحضر هونوريا تيدي، ولم يشـأ أن يسـمع أحد أغاثا التي ستنتابها الهستيريا فور الإفصاح عن الأمر الذي لا سـبيل لتجنبه؛ لقد رسـم خطته ولن يسـمح لأي شخص بأن يعيقها، وهو الذي اشترى خاتم خطبته، ووضعه في حقيبته، بعد أن دفع ثمنه كاملاً.

حافظ أرتشـي على نبرة صوته كوالد يوبّخ طفلاً مذنباً وقال: «سـنتحدث في غرفة المكتب»، اقترب منها، وأمسك بها من مرفقها.

لـم تملك أغاثا مكتباً خاصاً بها، فهي كانت تكتب في أي مكان يمكنها أن تضـع فيـه طاولـةً وآلـةً كاتبةً، فهي لم تعتبر نفسـها مؤلفة، فقد شـكّل لقب السـيدة الزوجـة مهنتهـا وهويتها الأساسـيتين. فقد كان زواجهـا منه هو الذي يحـدد ماهيتهـا، فمـا الذي سـتكون عليه عندما تخسـره؟ جلسـت على أريكة حريرية في مكتب أرتشـي، وهرول بيتر إلى جوارها وقفز جالسـاً إلى جانبها. لم يحب أرتشي جلوس الحيوانات على الأثاث، ولكن هناك أموراً أكثر أهمية يجب التطرق إليها الآن، ولذلك تجاهل الأمر، وأغلق الباب بقوة.

ذات مـرة، أخبرتنـي أغاثـا عـن صدمتهـا العاطفية الأولـى، عندما أحبت صبياً، ولكنه لـم يبادلها المشاعر، حينها ركضت إلى والدتها مرتجفة الشفتين، فأعطتها كلاريسـا ميلر منديلاً بإحدى يديها، وأشـارت بسـبابة يدها الأخرى قائلةً: «البكاء ممنوع، إياكِ والبكاء».

كانـت الطاعـة إحـدى صفات أغاثا، كما أن رضى والدتها جُلّ ما ترجوه وتطمح إليه، فارتعشت مرةً واحدة، وحبست دموعها، وحالت دون انسيابها.

لكنها سرعان ما تجاوزت الرفض، ومع بلوغها سن الشباب، أصبحت تنضح أنوثة، وما كانت تمل من رفض الشبان الذين طلبوا وصالها، تعرفت إلى أرتشي عندما كانت مخطوبةً من شاب يدعى تومي، والذي كان خجولاً ولطيفاً، وكانت متأكدةً أنه لن يضعها في مثل هذا الموقف الذي هي فيه الآن، وحاولت جاهدةً اتباع نصيحة والدتها الراحلة.

لم يجلس أرتشي إلى جانبها على الأريكة، بل جلس على كرسي قبالتها، حتى لا تستطيع معانقته وهذا ما سيكون تصرفاً بديهياً بعد ليلتها الحميمية.

تفوّه بصعوبة بما خشيت لأشهر سماعه: «أغاثا، أجد صعوبة في ما أودّ قوله».

صاحت أغاثا: «حسناً، لا تقله، أرجوك لا تقله»، ومدّت ذراعيها المثيرتين للشفقة واحتضنت بيتر، ومسّدت فراءه كي تهدّئ من روعها.

قال أرتشي: «أريد أن أقول لك شيئاً، أنا واثق من أنك تعرفينه، أنا أحب نان أوديا وسأتزوجها».

استعادت أغاثا ذكريات الليلة الماضية، لعلها لم تنقضِ بالنسبة إليها، فهي لم تستحمَّ بخلاف أرتشي، ففاحت رائحته منها، وفاقت عبير عطر الخزامى، وقالت: «لا، أنا لا أصدق ذلك، لا يمكن أن يكون ذلك حقيقياً. أنت تحبني، فأنا زوجتك».

قال أرتشي: «الطلاق»، كان من الأسهل إليه بلوغ غايته بكلمة واحدة من دون تدبيج أو إطالة، بدا عديم المشاعر، ولم يبدُ قلقاً حيال انهيارها، فاكتفى بكلمة واحدة؛ الطلاق.

جلست أغاثا بصمت، وسرّعت من الوتيرة التي تمسّد فيها فرو الكلب، وقد تجمدت ملامحها. تشجّع أرتشي، واعترف أنه في علاقة مستمرة منذ سنتين مع نان أوديا.

قلت له رغم معرفتي أنه يكره التوبيخ: ما كان يجدر بك قول ذلك.

اعترف قائلاً: أنت محقة، ولكنني لم أتوقع أن تبقى صامتةً أبداً، بدا وكأنها لم تسمعني.

التفت سريعاً إلى التفاصيل، وطلب من أغاثا أن تقدم طلب طلاق بتهمة الزنا، فقد كانت الدعوى الرئيسية التي سمحت بها المحاكم حينها، وتابع قائلاً: «لقد تحدثت إلى برونسكيل...».

صاحت أغاثا: «برونسكيل؟»، كان السيد برونكسيل محامي أرتشي الفاسد ذا الشارب الطويل، وقد انتابتها موجة غضب جديدة إزاء معرفته حول هذا الهجوم الذي كان يترصدها.

قال أرتشي: «أجل، وقال لا ضرورة لذكر الطرف الثالث في العلاقة. يهمني أن تبقى نان خارج الموضوع».

فجأةً، توقفت أغاثا عن مداعبة بيتر وسألته: «أهذا ما يهمك؟».

كان يفترض به أن يدرك الخطأ الذي اقترفه، ولكنه تابع كلامه الجارح قائلاً: «أخشى أن يُذكَر طلاقنا في الصحف، فأنتِ كاتبة مشهورة».

وقفت أغاثا، فسقط بيتر أرضاً، ونبح موبخاً إياها، فقد اعتادت الحرص عليه، ولكن بدا أنها لم تنتبه إلى ما حدث حينها.

لقد أخبرني أرتشي أنه ظل جالساً، وقال: «لا فائدةً ترجى من محاولة الحديث بشكل منطقي مع امرأة عندما يكون تفكيرها مشوشاً».

لقد وقع في حب امرأة أخرى، وقد أعلن عن خطيئته التي ستغير حياتهما ببساطة كما لو أنّه يخبرها كم الساعة، وكان يفترض بها أن تتلقى الخبر بهدوء ووقار. لقد كسر القواعد بسبب انفعاله، ويريدها أن تتعامل مع الأمر بمنطق، وتقوم بما يجب لحماية سمعة غريمتها؛ لقد فاق الأمر قدرتها على التحمل، فأطبقت يديها بشدة، وصرخت معبّرة عن غضبها.

قال أرتشي: «من فضلك يا أغاثا، اخفضي صوتك، سيسمعك الخدم وابنتنا».

أجابت أغاثا: «ابنتنا؟ ابنتنا؟ لا تتحدث عن ابنتنا»؛ اضطرت أغاثا أن تنحني كي تنهال بقبضتيها على صدره، ولكنها لم تؤلمه، وأخبرني أنه بذل جهداً كي لا يضحك.

قلت له: «أنت قاسٍ جداً»، ولكنني قلت ذلك برفق، وكأن القسوة لا تزعجني أبداً.

لقد استيقظت المسكينة من أجمل أحلامها إلى أسوأ كوابيسها، وكانت عاجزةً عن فعل أو قول أي شيء من شأنه تحريك عواطف زوجها.

أخيراً، نهض وأمسك معصميها كي يوقفها عن ضربه وقال: «هذا يكفي، سأذهب الآن. سأتجه بعد العمل إلى منزل آل أوين حيث سأمضي عطلة نهاية الأسبوع. في الأسبوع القادم، نستطيع ترتيب بقية الأمور».

قالت أغاثا: «أفترض أنها ستكون هناك أيضاً».

نفى ذلك، ليتجنّب رد فعل أعنف، وقد أصبح الكذب طبيعته الثانية نظراً إلى تورطه معي في البداية.

فقالت له: «أعلم أنها ستكون هناك، فأنت ذاهب إل حفلة منزلية، وعطلة نهاية أسبوع من أجل الأزواج، وأنت الوحيد الذي ستكون من دون زوجة، لأنك ستكون برفقة تلك العاهرة الصغيرة».

ترتكب الزوجات هذا الخطأ الشائع عند مشاهدة أزواجهن يضيعون من أيديهن، ولم تكن إهانتي ستمهّد طريق عودتها إلى قلبه؛ فالرجل المفتون هو أكثر المخلوقات صلابةً.

قطّب حاجبيه، وأحكم قبضتيه على معصميها قائلاً: «لا تتحدثي عن نان بهذه الطريقة».

قالت: «بدلاً من أن تقول لي ما يجب ألا أقوله، قل لنفسك إنه ما كان يجدر بك خيانة زوجتك، وما كان يجدر بك هجري وأنا بأمسّ الحاجة إليك، سأقول ما أريده عن نان ولن تستطيع منعي».

قال: «هذّئي من روعك يا أغاثا».

ركلت ساقه، ولكنه لم يتأثر إذ كانت تنتعل خفاً؛ لا أدري كم بلغ مقدار جنونها غير الفعّال؛ لقد حاولت أن تفلت معصميها من قبضتيه بكل ما أوتيت من قوة، حتى إنها سقطت أرضاً عندما أفلتها. لاحظ تشكل الكدمات على معصميها وهي تفركهما واحداً تلو الآخر، ولكنه لم يندم على ما أقدم عليه، فقد عزم على الفراق، ولن يثنيه شيء عن ذلك.

في الليلة الماضية، استسلمَ لغريزته، ولكنه اليوم عازم على تحقيق ما خطط له، فخرج بسرعة من المكتب إلى الرواق، وحمل حقيبته، وتوجه إلى سيارته، أو سيارة الديلاج المستعملة التي أهدته إياها أغاثا من المال الذي حصلت عليه من عقدها الجديد. لقد كانت سيارةً كبيرةً وتفاخر بها، وكأنه اشتراها بماله وجهده، إذ امتلكت مقبساً يدخل فيه المفتاح من أجل تشغيل المحرك من دون الحاجة إلى ذراع التدوير، استقلَّ السيارة، وشغّل المحرك، وانطلق. صعب عليّ أن أتخيل مقدار غضب أغاثا وهي تشاهده يبتعد بالسيارة الفارهة التي أهدته إياها.

ركضت عبر الردهة وصرخت: «أرتشي، أرتشي».

شكّلت السيارة سحابة من الغبار خلفها حجبتها عن أغاثا، في حين ركّز أرتشي على الطريق ولم يكلّف نفسه عناء إلقاء نظرة خاطفة عبر مرآة الرؤية الخلفية، أو يغير من جلسته. لقد خسرته وأصبح بعيداً عن متناول يديها، هذا ما ذكرته هونوريا في وقت لاحق عندما وصفت حالة أغاثا؛ لقد توجب عليها إيقاظ تيدي وتحضيرها من أجل التوجه إلى المدرسة، ولكنها سمعت بعد استيقاظها أصواتاً من مكتب السيد كريستي؛ كانت مشاجرةً سيئة بين زوجين، ولذلك ذهبت إلى غرفة نوم تيدي، فوجدتها جالسةً في إحدى الزوايا تلعب بالدمى. تيدي طفلةً في السابعة من عمرها وهي من النوع الذي ينهض من السرير وحده ويلهو من دون أن يزعج أحداً.

قالت هونوريا: «صباح الخير يا تيدي».

أجابت تيدي: «صباح الخير»، وأبعدت شعرها الأسود عن عينيها؛ لقد اعتادت رؤيتها صباحاً، واعتادت غياب والديها اللذين سبق لهما أن سافرا لعام حول العالم وتركاها وهي لم تكن قد بلغت عامها الخامس. بدورها ترعرعت أغاثا على يدي خادمة محبوبة تدعى نورسي، وقد وجدت من خلال تجربتها أن هذه الطريقةَ مناسبة تماماً من أجل تربية طفل.

مدت هونوريا يدها وقالت: «هيا بنا يا تيدي كي نعدّ فطورك، ونجهّزك من أجل التوجه إلى المدرسة».

نهضت الصغيرة، وأمسكت يد هونوريا، ووصلتا إلى أعلى الدرج في وقت هروب أرتشي من مسرحية أغاثا التي تجري في مكتبه. لقد أغلق الباب خلفه، وبقي مغلقاً لبرهة قبل أن تندفع منه أغاثا على عجلة، فأوحت ملامحها أنها ضحية اعتداء، فتقدمت هونوريا خطوةً عندما اندفعت أغاثا من الباب إلى الخارج، فأمسكت تيدي الخائفة طرف رداء هونوريا التي احتضنتها في الوقت الذي كانت فيه أغاثا تصرخ: «أرتشي، أرتشي».

انتظرت هونوريا في الداخل متظاهرةً بأدب أن الأمور طبيعية؛ لقد سمعت صوت ابتعاد السيارة، ولكن أغاثا لم تعد، لذلك نزلت وتيدي إلى المطبخ، وعادت إلى البهو. امتلك ستايلز نوافذ كبيرةً من الأمام والخلف، فرأت هونوريا عبر الزجاج الأمامي أغاثا تقف بملابس نومها وهي تنتعل خفاً، وقد طيّرت النسمات شعرها، وتناثر الغبار حولها في ضوء الصباح الخافت. كانت تلك المرة الأولى التي ترى فيها شخصاً يقف ساكناً وتشعّ الفوضى منه في الوقت نفسه.

خرجت هونوريا وقالت: «أغاثا»، كانت المرأتان مقربتين بما يكفي لتجاوز شكليات الموظفة والسيدة؛ وضعت يدها على كتف سيدتها وسألتها: «هل أنت بخير؟»، فبقيت أغاثا ساكنةً، وكأنها صماء، تنظر مصدومةً إلى الطريق

حيث اختفت السيارة، ثم كررت هونوريا سؤالها في ظل صمت سيدتها، وقد شعرت أنه من الخطأ تركها وحيدةً والعودة إلى المنزل، لقد بدا الأمر غريباً، إذ ارتدى أرتشي ملابسه واستعد من أجل يومه، بينما وقفت أغاثا جامدةً كالتمثال وهي ترتدي ملابس النوم وقد بدت مثل مريض أمامه طريق طويل قبل أن يبلغ الشفاء.

بعد فترة قصيرة نسبياً، أفاقت أغاثا من سكونها، واستجمعت قواها، وتوجهت إلى مكتب أرتشي حيث جلست كي تكتب رسالةً إلى زوجها، لعلها كانت إقراراً بالذنب، أو إعلاناً للحرب؛ سيبقى ذلك خفياً عن الجميع عدا أرتشي الذي قرأها مرةً ثم أحرقها.

أتساءل الآن إن كان لديها خطة، فهي روائية في نهاية المطاف، وستدرس جيداً كل سطر من النص الذي كتبته فضلاً عن كل احتمالات حركتها التالية. أتخيلها وراء المكتب، وجلّ ما أراه امرأة شاردة تكاد تفقد ذاكرتها. أرى تصميماً لن تعرف مقداره ما لم يسبق لك أن شعرت به، ذاك التصميم النابع من يأس والمتحول إلى غاية، وقد وصلني خبر اختفائها بعد فترة قصيرة، ووجدت الأمر طبيعياً، لقد فهمتها، إذ سبق لي أن اختفيت.



هنا ترقد الأخت ماري

لعلك تجد صعوبةً في التعاطف مع مُخرّبة منازل مثلي، ولكنني لا أطلب تعاطفك، بل أريدك أن تراني في يوم من أيام الشتاء في إيرلندا أركب عربة نقل حليب وأنا في التاسعة عشرة من عمري.

أمسك رجل حزين – كبير في السن وفقاً إلى معاييري حينها – لجام حصانين أشعثين يجران العربة وقد تفوّقت برودة الجو ورطوبته على معطفي. لو أوصلني فينبار بدلاً من والده، لاستطعت الجلوس قربه والتماس دفء أكثر، ولكنه لن يقلني أبداً إلى حيث سنذهب. كان السيد ماهوني لطيفاً بعض الشيء، إذ أفلت اللجام من إحدى يديه بضع مرات، وربت على كتفي، فلعله شعر بتحسن إزاء ذلك، ولكن الأمر سواء بالنسبة إليّ. أصدرت قوارير الحليب الفارغة أصوات قعقعة خلال سير العربة على طريق ترابية محفّرة، ولعل الحليب كان سيتجمد مع وصولنا إلى وجهتنا إن كانت هذه القوارير مليئة؛ كان الطريق طويلاً من باليكوتون إلى ساندي كورنر.

قلت: «لن أبقى هناك طويلاً، سيأتي فينبار من أجلي عندما يتعافى»، وحاولت تقليد لهجة والدي الإيرلندية وكأن شيئاً في العالم سيساعدني كي أكسب محبة السيد ماهوني الذي أجابني: «إن تعافى». نظرت عينا السيد ماهوني القاتمتين إلى كل مكان حوله سواي، وتساءلت حينها إن كان المستقبل سيخبّئ له الأسوأ، ويتوفى ابنه الوحيد أم يتعافى ويأتي من أجل اصطحابي برفقة العار الذي جلبته. يعتقد السيد ماهوني أن أفضل النتائج تكمن في تعافي ابنه، وأن ينسى أنه سبق له أن تعرف إليّ، ولكن جلّ ما أراده الآن هو وضعي

بعيداً في أمان كي يستطيع العودة إلى منزله، ويرى ابنه حياً مرةً أخرى.

قلت له بإصرار: «سيتعافى»، لقد آمنت أن المستحيل سيتحقق؛ لقد لطخ رذاذ دموي من سعال فينبار الفستان الذي كنت أرتديه تحت المعطف. قال السيد ماهوني: «تبدين مثل فتاة إيرلندية، هذه فكرة جيدة. إن الإنكليزيين مكروهون هنا في هذه الأيام».

أومأت، ولكنني أدركت معنى كلماته لاحقاً، إذ كان ينادي سين فين عالياً، والتي بدت لا شيء نسبةً إليّ، وعجزت حينها عن فهم معنى الاختصار أي أر أيه[1]. لقد وجدت إيرلندا التي أريدها في المحيط، وطيور الشاطئ، والخراف، والتلال الخضراء وفينبار، في أمور لا علاقة لها بحكومتي أو حكومته.

قال السيد ماهوني: «أنت فتاة محظوظة. كانت ستؤول الأمور بك إلى الإصلاحية في وقت سابق، أما الآن فتعتني الراهبات بالأمهات والأطفال».

اعتقد أنني سأكون أفضل حالاً في الإصلاحية، وقد منعت العاطفة السيد ماهوني من إرسالي إلى مكان يجمع المجرمين، ولذلك سمح لي أن أقيم مع عائلته. لقد أنفقت آخر فلس في جيبي كي أصل إلى بابه، وأفترض أنني رافقته طواعيةً، ولكن لا تبدو هذه الكلمة مناسبةً عندما تجد أمامك وجهةً وحيدةً فقط.

أخيراً، وصلنا إلى الدير في ساندي كورنر، فقفز السيد ماهوني من العربة، ومد يده السميكة الخشنة كي يساعدني على النزول. كان المبنى جميلاً ومبنياً من الطوب الأحمر، وقد بدا وكأنه يصلح ليكون قلعة أو جامعة، وهما مكانان لم أتخيل دخولهما قط. انتصب تمثال ملاك مجنح على العشب في الخارج، وقد ثبتت يداه على جانبيه بدلاً من رفعهما من أجل الصلاة. يفترض وجود نافذةٍ أعلى باب الدير قرب زاوية القبة، ولكن انتصب مكانها تمثال آخر

(1) يعني الجيش الجمهوري الإيرلندي.

مصنوع من الجص على هيئة راهبةٍ ترتدي رداءً أزرق وأبيض، وقد وضعت راحتي يديها مفتوحتين إلى الأمام على جانبي وجهها، وكأنها توفر ملاذاً من أجل جميع الداخلين إلى الدير.

اعتاد والدي أن يقول مبرراً عدم ذهابه إلى القداس: «إن أيام الأحد من أجل الاستراحة»؛ لم يكن والداي مؤمنين؛ كانت أمي بروتستانتية، ولكنني اعتدت مرافقة عمي جاك وزوجته روزي إلى الكنيسة.

تمتمت قائلة: «لا بد أنها مريم العذراء».

أطلق السيد ماهوني ضحكةً مكتومةً ساخراً من جهلي بأمور هذا العالم. لقد جئت إلى إيرلندا على أمل أن أعيش في منزله المتواضع ذي الأرضية غير المبلطة. لقد غارت عينا السيد ماهوني في دائرتين عميقتين، وعلى الرغم من ذلك أستطيع القول إن عينيه كانتا شبيهتين بعيني فينبار.

حدقت إليه محاولةً أن أحثه على النظر إليّ وتغيير رأيه، وتخيلت أنه قد يقود العربة إلى نهاية الطريق ثم يعود كي يأخذني قبل أن أفرغ حقيبتي، ولكنه أخبرني أن الأخوات سيعتنين بي جيداً، ربما صدّق ذلك، ووعدني أن يطمئنني عن حال فينبار؛ كان صوته لطيفاً، وقد تخلله شيء من الندم.

دفع حقيبتي من مؤخرة العربة؛ في الواقع كانت حقيبة أمي، لقد سرقتها قبل أن أغادر؛ كانت ستعطيني إياها لو طلبتها منها، بل ستتوسل إليّ كي أبقى أو تهرب معي، وكانت ستسألني: كيف أمكنك التفكير بخلاف ذلك؟ كنت سأفعل أي شيء وأقاتل أي أحد بمن فيهم والدك كي أتجنب خسارة ابنة أخرى، ولكنّ الأوان فات على ذلك.

إن علمت حينها ما ستؤول إليه الأمور، كنت لأسير على قدميّ بين التلال وأبتعد عن الدير، وأسبح عبر بحر إيرلندا المتجمد كي أعود إلى إنكلترا.

أعطتني الراهبات في الدير فستاناً بنياً باهت اللون بشعاً سيناسبني مهما كبر حجم بطني، وخفاً غير ملائم، وأخذت راهبة شابة حسنة الوجه حقيبتي،

وارتسمت ابتسامة لطيفة على محياها وقالت: «أعدك أننا سنحتفظ بها من أجلك»، ولكنني لم أرَ الحقيبة مجدداً. أجلستني راهبة مسنة، وقصت شعري حتى أصبح بالكاد يغطي أذنيّ. لقد اعتدت أن أتركه طويلاً، وخشيت من الطريقة التي سينظر بها فينبار إليّ عندما سيأتي كي يأخذني. تجاهلت نصيحة السيد ماهوني، واستعملت لهجةً إيرلندية، ثم توقفت عن الكلام عندما شرحت لي الراهبات قواعد منزلي الجديد، فلم أنبس ببنت شفة قبل مضي أسبوع.

تعجز الفتاة الشابة عن معرفة ما تخبّئه لها الحياة، وماذا ستكون أو كيف ستنطلق، وستشعر عندما تكبر أن المصاعب تشغل لحظاتٍ زمنيةً معينةً، ثم ستزول مع مرور الوقت، بخلاف حالها عندما تكون صغيرة، حين تبدو لحظة واحدة وكأنها ستستغرق كامل حياتها، وأن ما تشعر به لن يفارقها أبداً؛ بعد سنوات، عشت حياةَ مَنْ هم أكبر سناً مني، وسافرت حول العالم. في ذلك الشتاء، كنت مجرد طفلة ولم أكن أعرف سوى مكانين: لندن ومقاطعة كورك؛ لم أعرفهما بالكامل بل عرفت أماكن قليلة فيهما، كما أدركت حينها أنني صغيرة من دون أن أفهم أن ذلك الشباب ليس إلا حالةً عابرة. علمت أن الحرب انتهت، ولكنني بقيت عاجزة عن تصديق ذلك؛ فقد بدت مكاناً أكثر منها حدثاً، إذ ثبّتت قدميها في إنكلترا التي فاق الدمار فيها نظيره في الأماكن المجاورة، وقد استحالت حانة والدي المفضلة في لندن أنقاضاً، وتناثرت براميل الجعة في الشوارع بفعل القنابل التي سقطت عليها؛ لقد كرر والدي طيلة حياته مقولة إن العالم فقد براءته في الحرب العالمية.

بعد قص شعري وأخذ ملابسي، كانت أولى مهامي في الدير هي رعاية مقبرة الراهبات برفقة فتاتين كانتا في مرحلة متقدمة من حملهما. خرجت كي أكنس الأرضية، وأقلّب التراب، وأنظف شواهد القبور من الأشنة، وقد أشعرني الهواء البارد بالحرية، ولكنني رأيت القضبان الحديدية حول المكان

وعلى مدّ النظر. ارتفع جدار حجري إلى اليمين، وتعالت أصوات رقيقة فوقه، تبيّن أنها تعود إلى أطفال صغار اصطُحبوا إلى الخارج من أجل استنشاق الهواء قبل العشاء، كما استطعت رؤية الطريق المؤدي إلى الدير من خلف القضبان من دون أن ألتمس أي علامة تدل على عودة السيد ماهوني كي يصطحبني بعد أن بدّل رأيه. تجنبت الفتيات الأخريات التحدث إليّ، كما مُنِعنا من الكلام أو حتى معرفة أسماء بعضنا البعض.

كانت شواهد قبور الراهبات على شكل صلبان سميكة حُفِرت بعض الكلمات أعلى كل واحد منها؛ بدا الأمر وكأن امرأة واحدةً هي الميتة ولكنها احتاجت بطريقة ما إلى خمسين قبراً. مسحت الحجارة بواسطة الخرقة البالية، ومرّرت أصابعي على الكلمات الرمادية المحفورة، وفي تلك اللحظة، أدركت أن العالم مجرّدٌ من البراءة منذ الأزل.

ولكنني كنت بريئة.

سنعود بالزمن قليلاً إلى فترة ما قبل الحرب؛ انظر إليّ حينها وأنا في الثالثة عشرة من عمري، فتاة نحيلة ورشيقة مثل صرصار الليل، وكانت تلك المرة الأولى التي يرسلني والداي فيها إلى مزرعة العم جاك وزوجته روزي كي أمضي الصيف معهما.

قال والدي وهو يضع الخطة: «تحب نان أن تركض، فهي ليست من اللواتي يفضلن حياة المدينة، أليس كذلك؟»، كان يعمل كاتباً في شركة بورفيرون للتأمين ضد الحرائق، وقد وصف نفسه أحياناً أنه ليس من النوع الذي يفضل حياة المدينة، وقد آلمه أن يمضي ساعات طويلة خلف المكتب مقابل أجر زهيد. راودني شك دائم أن والدي سيتأسف لأنه غادر إيرلندا إن لم يتأسف على حالنا، فقد كانت زوجته إنكليزيةً وبالتالي أفراد عائلته، ولكنني بالطبع لم أكن مثلهم.

لقد جذبت أمور الفتيات كالملابس والشعر والطهو أختيّ ميغس – الأكبر مني – ولويزا – الأصغر مني – أو تظاهرتا على الأقل أن هذه الأمور تهمهما. أما أختي كولين – الكبرى – فقد شدتها الكتب والمدرسة. لقد أحببتُ الكتب أيضاً، ولكنني أحببت أيضاً لعب كرة القدم مع فتيان الحي، وقد اعتاد والدي في بعض الأيام أن يعود إلى المنزل مساءً، ويجدني برفقتهم في ساحة فارغة وأنا متسخة وأتصبب عرقاً.

كان يتبجح قائلاً: «لو كانت صبياً، لأصبحت بطلةً».

اشتكت والدتي قائلة: «لقد أصبحت كبيرةً جداً على هذه الأمور».

أشفق والدي وأجابها: «ربي فتياتك الثلاث الأخريات كما يحلو لك، أما هذه، فهي فتاتي الإيرلندية».

ترعرع والدي في مزرعة خارج قرية صيد أسماك تدعى باليكوتون، وقد ذهب في زيارة إلى هناك مرةً أو مرتين منذ ولادتي، وذلك عندما دفع شقيقه تكاليف السفر، وقد عجزنا عن تأمين المال الكافي كي نسافر جميعاً إلى هناك.

لقد اتقدت الحماسة في داخلي إزاء فكرة ذهابي إلى هناك، ناهيك عن قضاء صيف كامل وحدي. كنت أعلم أنه منزل متواضع، ولكنه ضمّ غرفاً أكثر من شقتنا في لندن التي احتوت غرفتَي نوم فقط، إحداهما من أجل والديّ والأخرى من أجلنا نحن الفتيات الأربع. لقد أبلى العم جاك حسناً في المزرعة، فبعد أن ورثت زوجته روزي مبلغاً صغيراً من المال بعد وفاة والدها، أضافا أرضيات من الخشب الصلب، ووضعا رفوفاً من أجل الكتب في غرفة المعيشة، وحافظا على العشب قرب المنزل قصيراً من أجل لعب التنس؛ قال والدي ساخراً عندما أخبرنا عن المنزل: «التنس؛ إنه موضوع يفوق قدرته».

كان المشهد الذي تصورته في ذهني أكثر حيويةً وخضاراً، إذ تصوّرت تلالاً متموجةً، وجدراناً حجريةً واطئة، وأميالاً متواصلة من أجلي كي ألعب كرة القدم على المروج برفقة ابن عمي سيموس. شبكت يدي معاً، وجثوت

على ركبتيّ إلى جوار والدتي، وناشدتها أن توافق على ذاهبي، وكنت أمزح نسبياً حول الحماسة.

ضحكت أمي وقالت: «سأشتاق إليك، هذا كل ما في الأمر».

قفزت واحتضنتها؛ لقد امتلكت وجهاً محبوباً منمشاً وعينين خضراوين نجلاوين؛ يؤسفني أحياناً فقدان لهجة إيست أند، لأن ذلك يعني فقدان صوتها.

أخبرتها: «سأفتقدك أيضاً».

نبهني والدي قائلاً: «ستكون أكثر من مجرد عطلة، إذ سيدفع جاك تكاليف سفرك، ولذلك ستنجزين أعمالاً منزليةً كثيرةً كي تردي جميله».

ستكون معظم الأعمال المنزلية في الهواء الطلق برفقة الأحصنة والخراف، وسيسعدني ذلك؛ لقد كنت ممتنةً لعمي إزاء توظيفه فتاةً من أجل القيام بهذه المهام.

وصلنا إلى الشاب الإيرلندي فينبار ماهوني، والذي كان ابن أحد صيادي الأسماك؛ لقد صادف فينبار قبل عامين من لقائنا مزارعاً عجوزاً في رصيف القرية، وقد أوشك أن يلقي جرواً صغيراً ضعيفاً من فصيلة بوردر كولي في مياه البحر المتجمدة.

رفع فينبار دلواً من سمك الإسقمري وقال: «انظر إليّ، سأقايضك».

سيعجز أي أحد عن شرح إلحاح فينبار على إتمام الصفقة، إذ كان هادئاً جداً ومبتسماً، وكأن السهولة تطغى على كل شيء في هذا العالم، ويشمل ذلك الحياة والموت، فحمل الجرو وسلّم الدلو إلى الرجل، مدركاً وجوب سداد ثمن السمك إلى والده الذي وبخه قائلاً: «لقد أوشك الرجل على رمي الجرو، هل اعتقدت أنه توقع حصوله على ثمن مقابل ذلك؟».

أطلق فينبار على الكلب اسم ألبي؛ في البدء، أطعمه الحليب من الزجاجة ثم درّبه. لقد أسعد العم جاك تعيين فينبار كي يأتي إلى المزرعة على دراجته

الهوائية في أيام عطلته من العمل على القارب، فيساعد في رعي الأغنام بين المراعي، وقال جاك إن ألبي أفضل كلب رعي في مقاطعة كورك.

قالت زوجة عمي روزي: «يعود الفضل في ذلك إلى الصبي، إذ يملك طريقةً خاصةً في التعامل مع المخلوقات، أليس كذلك؟ يستطيع تحويل الماعز إلى راعٍ ممتاز؛ ستعجز عن إيجاد مدرب يعطيك النتيجة نفسها مع ذلك الكلب».

كان كلب عمي جيداً، ولكنه لا يقارن بألبي، وقد اعتقدت أن ذلك الكلب – الصغير، والنحيل، والرشيق – كان أجمل شيء رأيته، وأن فينبار – ذا الشعر الأسود الحريري اللامع المائل إلى الزرقة تحت شمس الصيف – ثاني أجمل شيء. قالت زوجة عمي روزي إنه امتلك طريقةً خاصةً في التعامل مع المخلوقات، ولكن، ما أنا في نهاية المطاف؟ يكبرني فينبار ببضع سنوات، وقد اعتاد أن يتظاهر برفع قبعته غير الموجودة عندما يمر أمامي. لقد كرهت الناس الذين يبتسمون على الدوام وكأنهم يعتقدون أن كل شيء مضحك، ولكن ابتسامة فينبار مختلفة، إذ عبّرت عن السعادة ولم تكن من أجل التسلية، وكأنه أحب العالم وأسعده وجوده فيه.

ذات مساء، قلت لزوجة عمي روزي ونحن نغسل الملابس: «تبدو السعادة الأبدية أمراً رائعاً».

أدركتْ مباشرةً ما أقصده، وأجابتني بحنان شديد: «كان فينبار هكذا منذ نعومة أظفاره؛ لقد أثبت التفاؤل أن الفقراء والأغنياء سواسية. أجد شخصياً أن بعض الناس يولدون سعداء، وهم الأوفر حظاً. إن كنت متفائلةً في صميمك، فستستطيعين مواجهة مصاعب الحياة بيسر وسهولة».

ذات مساء، وصل فينبار إلى المزرعة على دراجته الهوائية، بينما كنت ألعب التنس مع سيموس بعد العشاء؛ لقد تعلمت كيفية اللعب في أسبوعي الأول، وربحت في كل المباريات. قال العم جاك وهو يهز رأسه بإعجاب

شديد: «أجهل من أين تحصلان على الطاقة بعد يوم كامل من العمل».

سأل سيموس فينبار: «أين ألبي؟»، لقد كان سيموس في العاشرة من عمره، وقد أبهره الكلب مثلي.

أجاب فينبار: «لقد تركته في المنزل، توقعت أنكما تلعبان التنس، وكان ألبي سيطارد الكرة ويفسد اللعبة».

استلقى كلب عمي، بروتوس، تحت الشرفة متعباً بعد يوم من قيادة القطعان، ولم يرغب باللعب.

قال سيموس مناولاً فينبار المضرب، وقد تدلت خصلات شعره الصهباء الملتفة بعد محاولاته الفاشلة في هزيمتي: «هل يمكنك أن تلعب مع نان؟ هل تستطيع أن تربح مباراةً من أجلي؟».

جعلت الكرة تتراقص على مضربي مدركة أنني كنت أتباهى، ولكنني عجزت عن منع نفسي من ذلك. ابتسم فينبار كعادته، وقد استحالت عيناه الزرقاوان رماديتين في ضوء شمس المغيب الخافت، فسألته: «هل أنت مستعد؟»، وأرسلت الكرة فوق الشبكة قبل أن يستطيع الإجابة. في البداية، تبادلنا الكرة كنوع من التسلية، ثم اشتدت المنافسة؛ ربحت مباراتين قبل أن نجد ألبي قادماً عبر التلال راكضاً ناحية فينبار مباشرةً، ثم غيّر مساره وقفز خاطفاً الكرة.

وضعنا مضربينا أرضاً وطاردناه؛ كنا نمتلك كرات إضافية، ولكن بدت المطاردة هي الشيء الطبيعي الذي يجب فعله، فتعالت الضحكات في الأرجاء، وخرج العم جاك وزوجته روزي إلى الشرفة كي يشاركانا الضحك. أخيراً، توقف فينبار وصاح: «توقف يا ألبي»، فتوقف الكلب مباشرةً؛ كان جلياً امتلاك فينبار السيطرة على ألبي طوال الوقت؛ فتوجه إليه في خطى ثابتة، وأخذ الكرة ورفعها إلى الأعلى وقال: «تمني أمنيةً يا نان».

قلت: «أتمنى البقاء في إيرلندا إلى الأبد».

رمى فينبار الكرة بعيداً، وانطلق ألبي سريعاً خلفها، وقفز عالياً جداً والتقطها.

التفت فينبار إليّ وقال: «ستتحقق أمنيتك»؛ كان سحره كافياً كي يجعلها كذلك.

بعد بضعة أيام، قصد فينبار المنزل عندما انتهى من مساعدة العم جاك، وكنت قد أنهيت بدوري تنظيف الإسطبل من الروث، واستلقيت على التل وسط مجموعة من نباتات البرسيم أقرأ كتاب غرفة ذات إطلالة وقد فاحت مني رائحة السماد، واستلقى بروتوس إلى جواري واضعاً رأسه على معدتي.

وصل فينبار برفقة ألبي الذي رفع أذنيه، وقال: «سيحتاج عمك إلى كلب جديد قريباً؛ تستطيعين معرفة تقدم الكلاب في السن عندما تبدأ بالتعب في نهاية اليوم».

حجبت الشمس عن عيني كي أستطيع رؤيته وقلت: «ألا يتعب ألبي في بعض الأوقات؟».

قال فينبار واثقاً جداً من نفسه، وقد شككت أنه يدعي ذلك: «أبداً».

أجبته متظاهرةً بذلك أيضاً: «في الحقيقة، سيبقى بروتوس فتياً»، وربت على رأس الكلب الصغير الأصفر المسمر، وسمعت قبّرة تزقزق في مكان ما. توجد طيور في لندن طبعاً، ولكن عجزت عن رؤية أي منها، وقد تعلمت منذ وصولي إلى إيرلندا أن السماء تملك عالمها الخاص فوقنا، وتعج بحياتها الغنّاء الخاصة.

قال فينبار، وفي يده زهرة برسيم ذات أربع وريقات: «لقد أحضرت شيئاً من أجلك».

مددت يدي كي آخذها من دون أن أجلس، ولكن إحدى وريقاتها الأربع تطايرت مع الهواء مباشرةً، لقد كان يمسكها بين أصابعه.

ضحكت وقلت مبتهجةً: «حظ سيئ».

جلس فينبار إلى جواري؛ لقد تقبّل دوماً الآراء التي لا تتفق وآراءه، وتقبل فوزي في جميع مباريات التنس؛ لقد تقبل كل شيء.

قال: «آمل أن رائحتي لا تشبه رائحة الأسماك».

فكّرت أن أكذب عليه، ولكن أعرضت عن ذلك وقلت: «تفوح مني رائحة روث الأغنام والأحصنة، فرائحتانا سواء».

عقد أصابعه معاً ووضع يديه خلف رأسه كالوسادة وقال: «أنت تحبين القراءة، أليس كذلك؟».

أجبته: «نعم».

نظر فينبار إلى السماء وليس إلى كتابي وقال: «أستطيع قراءته عندما تنتهين منه، ونستطيع بعدها مناقشته».

سألته: «هل تحب القراءة؟».

أجابني: «لا، ولكن أستطيع محاولة ذلك».

قلت له: «تدور أحداث هذا الكتاب في معظمها حول فتاة».

أجابني: «لا أمانع القراءة عن الفتيات».

التفتُّ ونظرتُ إليه، فأمال رأسه ناحيتي، وقد انتصبت رموشه السوداء الطويلة حول عينيه ذاتي اللون الأزرق المتدرج. سيصل العم جاك قريباً إلى التل، ولن يرغب في رؤيتنا مستلقيَين بجوار بعضنا رغم وجود مسافة قدمين تفصل بيننا.

قلت: «أعتقد أنني أريد أن أصبح كاتبةً»، كانت تلك المرة الأولى التي أُفكّر فيها في شيء كهذا، لقد أحببت القراءة، ولكن لم أحاول كتابة القصص أو القصائد.

قال فينبار: «ستصبحين كاتبةً رائعةً، وستحققين نجاحاً باهراً في أي شيء».

وضع عشبةً طويلةً بين أسنانه، ووضع إحدى ساقيه فوق الأخرى، ونظر

إلى السماء، بينما أخذ ألبي يشد طرف بنطاله من الأسفل، غير راضٍ عن يوم كامل من الجري، أو لأنه يصرّ على العودة إلى المنزل من أجل وجبة العشاء.

نادتني زوجة عمي من المنزل: «نان أوديا، من فضلك انهضي، واغتسلي من أجل العشاء».

أدركت من حدة صوتها أنها تقصدني وفينبار، فقد كنا مستلقيَين بجانب بعضنا، ولم أفكر في الاغتسال. نهضنا سريعاً، وكان شعرانا أشعثين، وخدودنا وردية إثر يوم من العمل تحت أشعة الشمس.

سـألته زوجة عمي: «هل تود البقاء وتناول العشـاء معنا يا فينبار؟»، لقد سامحته، وكأن أحداً يستطيع ألّا يسامحه.

أجابها: «سيسعدني ذلك يا سيدة أوديا».

تسابق كلبانا إلى المنزل، وفعلنا ذلك أيضاً؛ لقد سبقني فينبار، وقفز على الشرفة بكلتا قدميه، ورفع ذراعيه عالياً مشيراً إلى انتصاره.

إن حبّ الأشخاص شبيه بحب الأماكن، فكلاهما يتسمان بالإلحاح والدراماتيكية، وفور وصولي إلى لندن، بدأت التوسل من أجل العودة إلى إيرلندا. لقد انتمت أخواتي إلى أمي وإنكلترا، ولكن إيرلندا هي موطني؛ فأنا أملك ذاكرةً فطريةً – ذاكرة الأسلاف أو الذاكرة الفطرية أو الذاكرة الوراثية، ويشير هذا المصطلح في علم النفس إلى دمج الذكريات في الجينوم البشري على مر الزمن – عن تلك التلال الخضراء، إذ انغرس ذلك المكان في عظامي، ولذلك آلمتني عند ابتعادي عنه، وعندما فكّرت في فينبار حينها، وجدته مثل أي جزء إضافي من المشهد.

قالت أمي: «سأسمح لك بالعودة إلى إيرلندا، إن وعدتني ألا تبقي هناك، لا أريد أن تعيش فتياتي بعيداً عن المنزل، ولا حتى أنت يا كولين».

قالت كلماتها الأخيرة بحب، ولكن كولين تجنبت الإجابة، وجلست إلى

طاولة المطبخ، وركّزت عينيها الخضراوين على صفحات من كتاب تيتانيك الذي كتبه فيلسون يونغ، وقد انسدل شعرها الأشقر الكثيف على الطاولة وغطى وجهها. أنا وأختاي الباقيتان امتلكنا شعوراً وعيوناً بنيةً مثل والدنا. ضحكت أمي وهزّت رأسها قائلة: «قد ينهار السقف بجوارها من دون أن تلاحظ ذلك».

وضعت لويزا، الأكثر عمليةً بيننا، يدها على كتف كولين فما كان من الأخيرة إلّا أن استقامت في جلستها، وفتحت عينيها، وكأنها استيقظت للتو من النوم.

قالت لويزا وهي تربت على صفحات الكتاب: «لقد ذهبت مسبقاً إلى مكان بعيد عن المنزل»؛ أوه، دعوني أتوقف هنا لبرهة؛ كانت أمي مؤمنةً حينها أن فتياتها الأربع، سيحوّلن منزلها بسهولة من منزل مليء بالفتيات إلى منزل مليء بالأحفاد.

دخل والدي مقاطعاً الجو المرح كما اعتاد أن يفعل أحياناً، وجلب يومه المتعب معه وأخبر كولين: «ينتظرك الشاب جونز في الخارج».

وضعت كولين كتابها، ورفعت شعرها الكثيف كي تعقده أعلى رأسها. بعد سنوات قرأت قصيدةً كتبها ويليام بوتلر ييتس، وقد أغاظتني سطورها: «وحده الله يستطيع أن يحبك لما أنت عليه، وليس من أجل شعرك الذهبي». لقد رسمت كلماته أختي في ذاكرتي، وكيف وقع في حبها مباشرةً شبان لا يعرفون عنها شيئاً. عملت والدتي بضعة أيام من الأسبوع في متجر بوتونز أند بيتس الذي يبيع لوازم الخياطة والتطريز، وفي إحدى ورديات العمل، نابت كولين عن أمي، ولكن صاحب المتجر منعها من العمل هناك مجدداً، لأن شباناً كثيرين دخلوا المتجر من أجلها وليس من أجل الشراء. يشبه شعر كولين صفارات الإنذار التي يملأ صوتها شوارع المدينة وتلفت الانتباه؛ لقد كرهت تلك القصيدة.

اعتادت كولين أن تقصّ علينا قصة كل ليلة عندما نخلد إلى أسرّتنا في غرفتنا المشتركة، إما من الكتاب الذي كانت تقرأه، أو تختلق واحدةً من خيالها، وفي بعض الأحيان، كنا نستيقظ نحن الأربع ونحن نعاني من انحناء في ظهورنا، أو آلام في معداتنا من شدة الضحك في الليلة السابقة. كنت أحب كولين، ولكنني لم أكن أحب شعرها أبداً، ولا شعر ميغس ولويزا، وأمي.

قالت كولين: «يمكنه أن ينتظر كما يشاء، فلم أقل إنني سأراه».

قال أبي وهو يخلع معطفه: «لا بد أنك تفعلين شيئاً ما يغري أولئك الشبان».

بسرعة ضحكت كولين تعبيراً عن الغضب. لقد استوقفنا ديريك جونز وشابان آخران بالأمس عندما كنت أتوجه وكولين إلى مكتبة وايتكابل، وفي النهاية قالت لهم كولين بحدة وحزم: «أنتم تفسدون نزهتنا»، فسلكوا طريقاً آخر، وأخذوا يلتفتون إلى الخلف ويرمقوننا بنظرات شبقة.

كانت كولين تعتمر قبعة من الصوف وقد شدتها حتى غطت أذنيها؛ لقد أحبت الغوص في الكتب، ولكنها كانت مباشرةً وواقعيةً عندما تعود إلى العالم الحقيقي.

قالت لي: «أنا محظوظة بهؤلاء المعجبين، أليس كذلك يا نان؟».

قالت أمي لأبي: «هذا يكفي، جل ما تفعله هو العيش معهم في العالم نفسه، هل تريد أن تحلق شعرها؟ دعها وشأنها».

حملت كولين كتابها، وتوجهت إلى إحدى الغرف، أما نحن فتابعنا إعداد العشاء. ربتت أمي على ظهري، إذ كنت الأقرب إليها، وقد ساعدها لمس إحدانا على الهدوء. لقد كانت تفكر في ما سبق لها أن عرفته؛ جُلّ ما يتطلبه الأمر أحياناً هو العيش معهم في العالم نفسه.

في الصيف التالي، كان فينبار يأتي كل ليلة إلى المزرعة تقريباً ليلعب التنس، ولقد درّب ألبي على الجلوس ساكناً مهما حصل. اعتقد أن ألبي كان سيستهلك طاقةً أقل إن جرى عشرة أميال مقارنة بالطاقة التي يستهلكها من أجل كبح غريزته والبقاء ساكناً أمام كرة التنس التي تتحرك أمام عينيه. لقد نجح في ذلك، ولم يقفز ما لم يأمره فينبار أن يفعل ذلك.

عندما كان فينبار يقول: «استعد، أمسك الكرة»، كان ألبي يقفز ليلتقطها في الهواء.

في الخريف، عدت إلى منزلنا في لندن، وبينما كنا مجتمعين على العشاء، أخبرتهم عن الحيل التي يستطيع ألبي القيام بها.

قلت: «يطلب فينبار منه أن يتجنب السير في اتجاه معين، ثم في اتجاه آخر، ويخبره أن يقف ساكناً حتى يطلب منه أن يتحرك مجدداً».

قال والدي مستذكراً شبابه مع الكلاب: «الأمر طبيعي لدى هذا النوع من الكلاب».

قلت: «ما زال هناك المزيد؛ يستطيع ألبي تنفيذ كل الخدع الاعتيادية؛ فهو يجلس على قوائمه الأربع أو قائمتيه الخلفيتين، ويغطي رأسه. يقول العم جاك إنه أفضل كلب مَراعٍ رآه في حياته، لقد درّبه فينبار أيضاً أن يقفز على ظهر الحصان ويجلس على قائمتيه الخلفيتين»؛ ما يعني أنه أفضل كلب سيراه والدي في حياته.

قالت ميغس: «تجعلين الأمر يبدو وكأن فينبار هو الطرف الأذكى، أنا أرجح ذكاء الكلب».

كنت أعلم أن فينبار يمتلك موهبةً تمكنه من فعل ذلك مع كل الكلاب الأخرى، ولكنني أجبتها: «كلاهما ذكيان».

قالت ميغس: «ربما سأذهب معك في الصيف القادم».

قال والدي: «نافسي أختك على هذا الفتى الذكي ماهوني».

كانت لدينا نظرة نتبادلها عندما يقول والدي شيئاً سخيفاً، فنحن لن نتنافس على فتى.

قالت والدتي عبارتها المعتادة كي تنهي المحادثة؛ كانت تتحدث إليّ ولكنها تنظر إلى كولين: «تجنبي الزواج من ذلك الفتى في باليكوتون. أريد رؤية أحفادي أكثر من مرة في السنة».

اعترضت كولين قائلةً: «لماذا تستهلين النظر إليّ أولاً؟ سأكون آخر من يغادر المنزل يا أمي»، ثم وقفت وجمعت الأطباق، وطبعت قبلة على خد والدتي.

في تلك الليلة، قالت كولين عندما دخلنا غرفتنا: «برأيك، إن رافقتك الصيف القادم، فهل تعتقدين أنني سأحب الريف؟».

تشاركت وكولين السرير نفسه قرب النافذة، وحصلت لويزا وميغس على السرير الآخر بجوار الحائط.

وكعادتي شرعت أمدح إيرلندا: «أوه، ستحبين الريف هناك».

ولكن كولين أطبقت يدها على فمي وقالت: «أجل، أعلم أنها الجنة المطلقة، ولكن الجنة أُعِدَّت من أجل أناس من دون غيرهم».

أجبتها: «لعل ذلك ينطبق على الجنة، ولكن إيرلندا ترحب بالجميع».

في الصيف التالي، بلغت الخامسة عشرة من عمري، وتحسنت أحوال مزرعة العم جاك، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يتيح له تحمل نفقات سفر اثنتين منا.

قالت أمي عندما تلقى والدي رسالة العم جاك: «ما رأيك أن تذهب كولين هذه المرة؟»، كانت تعقد طوقها بشكل جميل كي تبدو جميلةً وهي في طريقها إلى عملها في متجر بوتونز أند بيتس.

أجابت كولين سريعاً قبل أن يستحيل وجهي شاحباً إثر الخسارة: «أوه،

لن أسلب إيرلندا من نان أبداً».

نقـر أبـي نقـرة لطيفة على ذقن كولين وقـال: «هذا رائع، لأنني أريدها أن تبقـى هنـا تحـت ناظريّ»، ولكنني أدركت من عض كولين شـفتيها أن والدي يعني ما قاله نوعاً ما.

حدث التبادل سريعاً، إذ أدركته فقط خلال الحديث عن المعروف الذي أُدينُـه إلـى أختي، وسـافرت وحدي إلـى إيرلندا، وفكّرت في ضرورة امتلاكي حصـةً مـن الشـكوك والتوقعـات خلال تلـك المرحلة من حياتـي، كما نفعل فـي كل مراحـل حياتنـا، حتى في طفولتنا، ولكن ما أتذكره هو جهلي الجميل بشـأن ما يخبئه المسـتقبل، كالحرب التي تلوح في الأفق، وما سـتتركه من أثر فـي القـادم مـن أيامنا. يتجـاوز مفهوم الواقع تلك الصحيفة التي يقرأها عمي، فيكفهـرّ وجهـه مـن القلـق، كي يشـمل الطريقة التي يحمل فيهـا الهواء رائحة المحيط إليّ، والملاءات البيضاء النظيفة التي نشرناها على حبل الغسيل حتى تجففهـا الشـمس، فتفـوح منهـا رائحـة مياه البحر المالحـة عندما نضعها على أسـرّتنا، وتمـلأ أحلامنـا بالأمواج، والصخور، وحيوانـات الفقمة. لقد تجلى الواقـع فـي ذلك الفتى أسـود الشـعر أزرق العينين وكلبـه وهما يعبران التلال الخضراء من أجل رؤيتي.

عندمـا حـل الصبـاح، أيقظني نداء زوجة عمي روزي، فنزلت إلى الطابق السفلي وأنا أربط مئزري كي أساعدها في إعداد طبق بوكستي[1].

قالـت لـي: «ينتظـرك فينبـار ماهوني في الخارج كـي تذهبي معه في نزهة على الأحصنة».

سألتها: «هل أستطيع الذهاب؟».

أجابتنـي: «بالطبـع تسـتطيعين، لدى جاك بعض المهـام في المدينة، فلن

(1) طبق إيرلندي تقليدي، يشبه فطائر البطاطا.

تعملي معه اليوم. يمكنك أن تمتطي أنجيلا، وأخبري فينبار أن يمتطي حصان جاك، ولكن عودي إلى المنزل في الوقت المناسب كي تساعديني في إعداد العشاء، واصطحبي سيموس معك».

لقد كرهت أمي فكرة انتقالي للعيش في إيرلندا يوماً ما بقدر ما أحبت سلفتها روزي تلك.

قطعنا نصف ميل على الطريق إلى الشاطئ وكان ألبي يهرول إلى جوارنا، فأوقف فينبار حصانه، وأخرج قطعة توبينس[1] من جيبه ورماها إلى سيموس، كانت رميةً موفقةً، ولكن سيموس فشل في إمساك القطعة النقدية، فاضطر للترجل عن الحصان كي يحضرها.

قال فينبار: «أنت فتىً جيد، اذهب بمفردك وسنوافيك بعد بضع ساعات».

كان سيموس في الثانية عشرة من عمره، ولكنه أدرك وظيفته كمرافق لي، فرمى القطعة النقدية إلى فينبار وقال قبل أن يمتطي الحصان: «أعتقد أنني سأبقى معكما».

قهقه فينبار فانطلق حصانه يجري نحو شاطئ باليويللينغ. أدركت أن فينبار يريدني أن أتبعه، ولذلك حاولنا تجنب ابن عمي الذي كان قوي البنية وكشف الخطة؛ لقد امتطى الأحصنة منذ نعومة أظفاره، وكان فارساً أفضل من فينبار الذي لا يملك حصانه الخاص، وأفضل مني؛ أنا التي تعلمت امتطاء الحصان قبل سنتين فقط، ولذلك تابعنا نحن الثلاثة الطريق معاً كما تصورت زوجة عمي روزي، وابتعدت طيور زمار الرمل والزقزاق عن طريقنا، وحلّقت إلى السماء، وأفسحت الغيوم الطريق أمام أشعة الشمس الذهبية؛ لقد استطعت خيانة والدتي مباشرةً، وأخذ نفسي وأطفالي المستقبليين بعيداً عن لندن عبر البحر من أجل العيش على هذه الشواطئ إلى الأبد.

قال فينبار في الوقت الذي سار فيه حصاني بجوار حصانه: «لقد انتهى

---

(1) قطعة نقدية قديمة تساوي 1\120 من الجنيه الإسترليني.

المد، ونستطيع عبور الأحواض المائية التي تركها من شاطئ إلى آخر».

مشت الأحصنة بحوافرها على الحصى الصغيرة وفي برك المياه المالحة، واندفع ألبي عبر الأمواج والأحواض المائية الأعمق وكأنه دلفين، ثم ترجلنا عن حصانينا، وأطلق فينبار بعض الصافرات المختلفة التي كان يتدرب عليها كأوامر، وبقي سيموس على حصانه، وقد حافظ على مسافة بيننا، ولكنه لم يبعد ناظريه عنا.

حاول فينبار تعليمي كيف أُصفّر، ووضع يده حول ذقني ودفع شفتي إلى الداخل.

حاولت إطلاق الصافرة الحادة نفسها التي تدفع ألبي أن يجري إلى الأمام، ثم إلى الوراء في شكل دائرة واسعة، ولكنني فشلت في ذلك.

قال فينبار: «حاولي استخدام أصابعك»، ثم وضع سبابتيه في فمه، وأطلق صافرةً قويةً جعلتني أقفز، فركض ألبي إلى الأمام، وتوقف بالقرب من أقدامنا. أخرج فينبار كرةً مطاطيةً من جيبه ورفع ذراعه كي يرميها وقال: «تمني أمنيةً».

أجبته: «أتمنى أن يستمر هذا اليوم إلى الأبد».

رمى فينبار الكرة في السماء، فانطلق ألبي وقفز ليمسك بها.

قال فينبار: «ستتحقق أمنيتك».

هرول ألبي عائداً إلينا، وألقى الكرة عند أقدامنا، ثم انحنيت كي أحتضنه وقلت: «شكراً لك يا ألبي، أنت وسيم، بل مثالي».

انحنى فينبار صوبي، ودفع شعري خلف أذني وقال: «وأنت جميلة».

صاح سيموس: «هذا ليس صحيحاً».

قال فينبار عندما أعدنا الأحصنة إلى الحظيرة: «شكراً على انضمامك إليّ. توجد أعمال دوماً كي ننجزها، ولكنني أود أن نخرج في نزهة أخرى قبل نهاية الصيف».

أجبته: «آمل ذلك أيضاً».

حل شـهر آب، وجلب الحرب معه، فجاء فينبار إلى مزرعتنا؛ أصبحت أدعوها هكذا، وليس مزرعة جاك، وروزي، وسـيموس فقط، بل مزرعتي أنا أيضاً.

رأيـت فينبـار من نافذة المطبخ يمشـي على التـل برفقة ألبي الذي هرول قرب قدميه، وكانت خطواتهما متوافقة، هادفةً وسعيدةً في الوقت نفسه. التحق فينبار بالجيش البريطاني بعد مباركة والديه، وليس بسـبب التجنيد الإلزامي، لأن ذلك ما عنته الوطنية بالنسبة إلى فئة محددة من الناس.

لن يكون البريطانيون عبيداً أبداً، أبداً، أبداً.

تعالوا ولبوا نداء الواجب

أراد العم جاك الالتحاق أيضاً إن احتاجوا إلى مزيد من الجنود، ولم نعلم حاجتهم بعد، فاقتصر التجنيد حتى ذلك الحين على الشـبان اليافعين. رآتني زوجـة عمـي روزي أنظـر عبـر النافذة فقالت: «اخرجي»، وقد تجنبت إرسـال سيموس معي حينها، إذ أدركت سبب قدوم فينبار؛ فنحن نمنح الجنود إعفاءً خاصاً، حتى لو خصّ الأمر الفتيات.

كل ذاك محض وهم، فجل ما فعلته الحرب هو تدمير صيفي. قال فينبار بصوت كئيب من دون أن يفارقه المرح: «أنا آسـف لأنني مغادر، فلم أتخيل أن تسير الأمور على هذا النحو».

ترقرق الدمع في عيني؛ لقد أحرجني ذلك في البداية، ولكن فينبار أمسك يدي.

سألته: «هل أنت خائف؟».

تجمد العالـم حولنا، ولكنه حافظ على هدوئه وأجابني: «بالطبع، مع أنني لا أعرف سـبب خوفي، فأنا لا أسـتطيع تخيل ما الذي سـيحدث، ولكن هل تعلمين ما أستطيع تخيله؟ بعد كل شيء، ستستمر الحرب فترةً قصيرةً، وتنتهي في غضون ستة أشهر كحد أقصى، وستنتقلين كي تقيمي في إيرلندا، وسنبني

مزرعةً خاصةً من أجلك، وسأدرب الكلاب، وستؤلفين الكتب».

ارتسمت ابتسامة على وجهي كان من شأنها أن تقسمني نصفين. لقد تجنب ذكر كلمة الزواج، فقد كنت صغيرةً جداً على ذلك، ولكن لا يمكن تفسير ما قاله إلّا على هذا النحو، أليس كذلك؟ أستطيع الزواج من فينبار، ومن إيرلندا؛ لقد أصبحت أعرف مستقبلي، ولم تعد تفصلني عنه سوى حرب صغيرة فقط.

سألني فينبار: «هل ستصلّين من أجلي؟».

ما إن ترك والدي إيرلندا حتى ترك دينه خلفه، فلم يسبق أن صلّيت في حياتي، ولا حتى عندما ذهبت إلى الكنيسة مع روزي وجاك، ولكنني وعدته أنني سأصلي من أجله.

سألني فينبار شيئاً يطلبه الجنود عادةً: «هل أستطيع الحصول على صورتك؟».

لقد امتلك والداي صورةً واحدةً فقط تجمعني وأخواتي الثلاث، لقد وضعناها في إطار عندما التقطت لنا قبل ثلاث سنوات.

أجبته: «لا أملك واحدةً هنا، ولكن سأحصل على صورة وأرسلها إليك، أعدك».

احتضنني فينبار طويلاً من دون أن يتحرك أو يتمايل، وبقي ساكناً، محكماً ذراعيه، ومثبتاً ذراعينا معاً، فتمنيت لو أننا نستطيع البقاء على هذا الحال إلى الأبد من دون أن يخطو الزمن خطوةً إلى الأمام أو حتى نتحرك من مكاننا قليلاً. لامست شفتا فينبار عنقي، وشعرت أن زوجة عمي روزي تراقبنا من النافذة، ولكن لم أكترث حتى عندما تشجع أخيراً وقبّلني طويلاً حتى ضربت روزي على النافذة بقوة وبشكل كافٍ كي نسمع ونبتعد عن بعضنا.

أمسكني فينبار من كتفي وقال: «أنت فتاتي، أليس ذلك صحيحاً يا نان؟».

أجبته: «أجل، هذا صحيح».

أخرج خاتم كلادا[1] من جيبه، وألبسني إياه في يدي اليمنى، لقد حصل عليّ. كان تاج الخاتم نحوي، وحمل زمردةً صغيرةً بحجم كسرة من الخبز. أشعر بالسوء إزاء اعترافي هذا، ولكن تغلغلت السعادة في جسدي حينها، فكم فتاةً انتابها الشعور نفسه في ذلك اليوم بعد أن اعترف شاب بحبه إياها ومنحها خاتماً قبل ذهابه إلى الحرب؟ لم يعلم أي منا معنى ذلك حينها.

(1) خاتم إيرلندي تقليدي يستخدم كرمز للصداقة أو الحب أو الزواج، ويكون غالباً على شكل يدين تمسكان قلباً يعلوه.

الاختفاء

آخر يوم شوهدت فيه

الجمعة، 3 كانون الأول، 1926

في بعض الأحيان، تكون الحياة شديدة الاضطراب وفق مقياس كبير غير مفهوم كهذا، وجلّ ما نستطيع فعله هو مواجهة اليوم السيئ الذي نصادفه، فبعد رحيل أرتشي، حاولت أغاثا أن تتمالك نفسها، فوضعت يديها على مفاتيح آلتها الكاتبة قليلاً، ثم استسلمت مباشرةً؛ ستفشل في كتابة أي شيء جيّد قبل تسوية الأمور مع أرتشي، وترتيب هذه الفوضى، وستجد حلاً اليوم، ثم تستأنف الكتابة غداً.

في الأيام الأخيرة، انتشرت شائعات كثيرة بشأن أغاثا، ولكن الانتحار كان خارج حساباتها تماماً، حيث إنه ليس من طبيعتها، ولقد أهانتها الفكرة، إذ أغضبها سماع أخبار حول انتحار أناس آخرين، ووصفتهم بأنهم جاحدون وجبناء، فلطالما كان الأمل رفيقها في درب الحياة.

كان بإمكانها أن تستقل سيارتها المحبوبة من نوع موريس كولي، وتلحق بزوجها إلى مكتبه في لندن، وتمسك بتلابيب سترته، وهي تصر على ضرورة إيجاد حل للأمور، أو توقظ الحب في نفسه كي تعود إليه. لعله سيتذكر أنها جزء منه، ويمتنع عن المغادرة في نهاية الأسبوع مع عشيقته، وينهي الأمور معها، ويعود إلى منزله حيث ينتمي.

سيحدث كل ذلك أمام العامة، ولكن طبيعتها منعتها من التعبير عن

مشاعرها على الملأ، إذ ترعرعت كي تبقى مشغولةً، ولذلك ارتدت معطف الفرو، ورافقت هونوريا وتيدي إلى المدرسة. أعطت تيدي الإطار والعصا وقالت لها: «تستطيعين تدويره على الطريق»، فأطاعت تيدي الأمر حتى نهاية مدخل المنزل، وألقت الإطار على العشب كي تتابع طريقها، وتبعها بيتر الذي كان كلباً أنيساً جداً، حيث لم يستخدموا الطوق والحبل معه أبداً، فأخذت أغاثا الإطار، ودوّرته بنفسها على الطريق الترابي.

أخبرت أغاثا هونوريا: «لم تؤمن والدتي بجدوى تعليم الفتاة، حيث اعتقدت أنه من الأفضل ترك عقلي يتطور طبيعياً».

لقد علمت هونوريا ذلك، ولكنها أنصتت باهتمام، وكأنها تسمع هذا الأمر للمرة الأولى. يحب الشخص اليائس زيارة الماضي، وقد تضمّن ماضي أغاثا محبوبتها نورسي، ومعلماتها هنا وهناك. لقد ارتادت مدارس لائقة في توركواي خلال أشهر معينة، وأخرى خارجها عندما أصبحت أكبر، إضافةً إلى مدرسة إكمال تربية الفتيات، إذ لا تستطيع فتاة إلّا أن تلتحق بها. أومأت هونوريا، وكأن أغاثا امتلكت القرار حول ذهابها إلى مدرسة إكمال تربية الفتيات من عدمه.

تابعت أغاثا: «ولكنني قضيت معظم أوقاتي أركض في توركواي في جميع أراضي أشفيلد».

حدقت أغاثا إلى تيدي، تلك الفتاة الجميلة ذات الشعر البني الذي ينمو ويصبح لونه أغمق يوماً بعد يوم، وألقت نظرةً على الماضي، وتذكرت كيف اعتادت أن تدوّر الإطار في حدائق المنزل، بجوار أشجار البلوط العاتمة، ومتجاوزةً أشجار الدردار، وحول شجرة الزان الكبيرة، كما كوّنت صداقات مع أصدقاء وهميين من أجل مرافقتها. هل تفكر تيدي بالأمور نفسها؟ هل تستمتع وسط قصصها اللامتناهية ورفاقها الوهميين؟ أم أن العالم المادي يثير اهتمامها أكثر، ويغنيها أصدقاؤها الحقيقيون عن أولئك الوهميين؟

قالت أغاثا: «أوه يا هونوريا». هدأ الإطار من روعها، ولكنه أبطأ سيرهما. كان في حجم طفل، وتوجّب عليها أن تنحني كي تدفعه، فركضت تيدي على الطريق أمامهما، ولكن بعيداً عن مسامعهما، استسلمت أغاثا، وألقت الإطار جانباً كي تأخذه في طريق العودة إلى المنزل.

سئمت هونوريا من اعتقاد أغاثا أن اللعبة قائمة، في حين أن الطرف الآخر فاز بها، فقالت: «يجب أن تواجهي الأمر يا أغاثا. أعلم أنّه صعب، ولكن يجب عليك ذلك؛ لقد رحل إلى الأبد».

أجابت أغاثا: «في الحقيقة، لا أستطيع أن أصدق ذلك».

تجنبت أغاثا الحديث عن الأمور الحميمية التي تخصها وزوجها، وأبقت أحداث الليلة السابقة سراً عن هونوريا، وأطلعتها بدلاً من ذلك على قائمة من صديقاتها اللواتي خانهن أزواجهن، ولكنهن تجاوزن الأمر وعدن إليهم. كما ذكرت مجدداً انتظارها انتهاء عقدها مع بودلي هيد حتى تستقر مع ويليام كولينز. لقد أفلحت هذه الاستراتيجية في سيرتها المهنية وقد تنجح الآن في زواجها؛ يحتاج المرء إلى خطة وصبر فقط من أجل تجاوز هذه الأمور.

استمعت هونوريا إليها، ولكنها لاحظت كم هي بائسة من الطريقة التي كانت تفرك فيها يديها؛ ففي بعض الأحيان يتحتم علينا ذكر الحقائق القاسية.

أصرت هونوريا قائلةً: «لن يتجاوز العقيد كريستي الأمر، آسفة على قول ذلك، ولكن لا فائدة من تلوين زهرة الزنبق؛ لقد رأيت الأمر في وجهه. لماذا ترغبين في البقاء متزوجةً من رجل يفضل تلك الفتاة؟ من الأفضل أن تواجهي الحقيقة، لقد خسرته إلى الأبد».

رددت أغاثا: «لقد خسرته»؛ وقد لفح الهواء البارد خديها؛ لقد حذّرتها والدتها في الصيف الماضي – الذي تبيّن أنه الأخير معها – ألا تقضي كثيراً من الوقت في توركواي بعيداً عن زوجها قائلة: «ستخسر المرأة زوجها إن قضت وقتاً طويلاً بعيدةً عنه، وخاصةً إن كان مثل أرتشي».

لقد كان أرتشي متورطاً كثيراً معي حينها، وفي بعض الأحيان كانت أغاثا تعرف ذلك، ومع ذلك حاولت إنكار الأمر، فقد رفضت أن ترى إمكانية خسارة والدتها وزوجها في غضون فترة قصيرة، ولذلك شدت على يد والدتها متجاهلةً حشرجة الموت في صوتها وقالت: «لا يوجد رجل في العالم أكثر وفاءً من أرتشي، إنه وفيٌّ جداً، يمكنك أن تراهني بحياتك على ذلك».

لعل والدتها راهنت على حياتها من أجل ذلك، وخسرت الرهان.

ابتعدت تيدي كثيراً عنهما، لقد كانت عجولةً وجريئةً دوماً، وتستطيع الوصول إلى لندن بسهولة عبر القطار من سونينغدل الواقعة في باركشير على حدود سوري. كانت هناك مسافة مناسبة ابتعدت فيها المنازل عن بعضها من أجل الخصوصية، وكانت ذات حدائق جميلةً، ولم تكن الطرق معبّدة، إذ يتطاير التراب منها عند مرور مركبة أو دراجة أو سيارة عليها، ولم تحب السيدتان التجوال، وأسعدهما ترك تيدي تتسكع أمامهما؛ كانتا مطمئنتين حتى بعد أن وصلت تيدي إلى قمة التل واختفت بعدها.

عادت في مرمى بصرهما مجدداً بعيداً على الطريق، وتبينتا وجود رجل يجثو على ركبتيه ويتحدث إليها.

سألت أغاثا: «هل تعرفينه؟»، وقد أدركت أنه الشخص نفسه الذي تصادفانه باستمرار كجزء من حياتهما اليومية.

أجابت هونوريا: «لا أعتقد ذلك».

رفعت السيدتان أيديهما كي تحجبا الشمس عن عيونهما. تثير تيدي إعجاب الغرباء دوماً، إذ توقفت امرأة ذات مرة على الشاطئ في توركواي ورفعتها واحتضنتها.

رأت أغاثا الرجل يربت على مؤخر عنق بيتر، وقد أوحت طريقته في فعل ذلك بكلتا يديه أنه يستعمل يده اليمنى. نهض الرجل؛ كان طويل القامة – أطول من أرتشي– وشاباً، ورفع يده إلى مستوى جبهته وألقى التحية عندما

رأى السيدتين، ودخل بين الأشجار بدلاً من متابعة سيره إلى الأمام أو نحوهما.

قالت أغاثا: «هذا غريب».

نظرت إلى مكان وقوف الرجل، وكأنه سراب تستطيع خلقه مجدداً عن طريق النظر إلى الشمس.

صاحت هونوريا: «ابقي مكانك يا تيدي، هل تسمعينني؟».

اختفى الرجل عن الأنظار مع وصول السيدتين، وقد انتظرت تيدي وهي تقفز في مكانها من قدم إلى أخرى وقالت: «سأبرد إن بقيت ساكنةً». أمسكت بيدها شيئاً صغيراً رفعته كي تراه أغاثا، لقد كان قطعةً خشبيةً منحوتة حديثاً، إذ فاحت رائحة نشارة الخشب منها.

قالت أغاثا وقد عقدت حاجبيها في تركيز: «إنها جميلة، هل هذا كلب؟».

أجابت تيدي: «أجل، لقد أعطاني إياها السيد سوني».

سألتها أغاثا: «هل كنت تتحدثين إلى السيد سوني؟».

أجابت: «أجل، وقال إنني أستطيع تسمية هذا الكلب الخشبي سوني إن أردت».

أمسكت أغاثا يد تيدي وقالت: «حسناً، يجب عليك ذلك».

قالت تيدي: «أخبرني أن جميع الكلاب في أمريكا تدعى سوني».

سألتها أغاثا: «في الحقيقة، هذا مستبعد، أليس كذلك؟ هل كان الرجل أمريكياً؟».

قالت تيدي: «لا أعرف».

قالت هونوريا: «يُفضَّل أن نتابع طريقنا إن أردنا الوصول إلى المدرسة في الوقت المناسب».

قالت أغاثا: «أعتقد أنني سأذهب إلى المنزل، وأرى ما أستطيع فعله».

سألتها هونوريا: «هل تعدينني أنك لن تذهبي إلى أي مكان؟»؛ كانت تقصد الذهاب خلف أرتشي.

أجابت أغاثا: «أعدك».

وقفت أغاثا في مكانها بينما تابعت هونوريا وتيدي طريقهما، وراقبتهما حتى غابتا عن ناظريها، كانت تيدي تقفز في مرح وهي تمسك الكلب الخشبي يدوي الصنع في يدها عالياً، ووجدت أغاثا نفسها ترزح تحت وزر مشكلة كبيرة، وندم؛ وجب أن تأخذ الكلب الخشبي معها وتضعه في جيبها كي لا يضيع.

تخيلت أغاثا أن أرتشي قد يعود إلى المنزل، فلعله سيتذكر خلال اليوم أحداث الليلة الماضية – والسنوات الثلاث السابقة – فيعود إلى رشده، وإلى كونه الرجل الذي ألح كثيراً في طلب يدها من أجل الزواج. سيظهر من الباب مع حلول وقت العشاء حاملاً حقيبته في يده، إذ ستكون عديمة الفائدة بعد أن يقرر العودة والبقاء في المنزل.

قد تتساءلون عن إمكانية تصديقكم ما أرويه عن الأمور التي حدثت في غيابي حتى، ولكن كلماتي موثوقة أكثر من أي شيء تسمعونه عن الحادثة. فكّروا قليلاً، ألا تعلمون أموراً عن أحداث تخصكم من دون أن تشهدوها؟ ألا تجدون أنفسكم تقصونها أحياناً؟ يوجد الكثير كي نتذكره من دون أن نراه أو نعيشه مسبقاً، إذ يقتصر الأمر على جمع الأمور التي نعرفها، والأخبار التي نسمعها، والأحداث التي نتخيلها، كما يجمع المحقق الإجابات كي يحل لغز الجريمة.

كالمفتش فرانك تشيلتون على سبيل المثال، الذي سيبرز دوره في القصة لاحقاً؛ لقد تواصلنا معاً باستمرار عن طريق البريد، وتبادلنا المعلومات حول ما نتذكره عن هذا الوقت، وأكمل كل منا الجزء المفقود لدى الآخر، وما أخبرني إياه أرتشي وأغاثا، وما أعرفه عنهما.

ذكر في أحد تقاريره – الذي اتضح أنه يعود إلى ليلة اختفاء أغاثا – أن

أغاثـا ذهبـت كـي تزور بيغ والدة أرتشـي التي وبختهـا على لهجتها الإيرلندية الغليظـة، ولكـن أعتقـد أنها كانت آخر شـخص تود أغاثا رؤيته. لقد عارضت بيغ أغاثا دوماً، ولـم تدعمها أبداً؛ انحدرت بيغ، مثل والدي، من كونتي كورك، وقد امتلكت حلاً وحيداً من أجل المشاكل جميعها: «يجب أن تتجاوزها». ما الفائدة من زيارة أحد سيخبر أغاثا شيئاً تعرفه مسبقاً؟ لم يكن أمامها من حل سـوى تجـاوز وفـاة والدتهـا وهجر زوجها لها. لقـد ترعرعت أغاثا على تقبل الأمور، وإبقاء رأسـها مرفوعاً من دون إثارة جلبة أبداً، ولكن حدث العكس في تلك الليلة، إذ تأخر الوقت، ولم يعد أرتشي.

أقفلت أغاثا الباب على نفسها في مكتب أرتشي، وهي تشعر أنها ممزقة بسـبب المعركـة بيـن مـا تريـد حدوثـه – دخول أرتشـي من البـاب – وبين ما يتجلى حقيقةً على أرض الواقع؛ أرتشي في مكان آخر، يحتضنني بين ذراعيه بدلاً منها.

لا، لا، لا، لا.

مـن لـم يسـمع تلـك الكلمـة التي تغلغلت عبر الجسـد، وتمـردت على الأحداث، وتجلت ضد أعز أمانينا وأكثرها يأساً؟ لقد أبدت شخصيات أغاثا فـي رواياتهـا ردّ فعـل عادياً بشـكل مثير للإعجاب على اختـلاف الأحداث. لعل أحدها سـيقول بعد اكتشـاف مقتل أعز شـخص عليه: «لقد كانت تجربةً سـيئةً»؛ يندر التعامل مع الوفاة برفق وفقاً لتجربتي، حتى بالنسـبة إلى أولئك الذين يتباهون بشأن رباطة جأشهم، فهم سيشرعون في النحيب عند خسارتهم لشخص يحبونه جداً من دون أمل في عودته.

توقفت أغاثا وسـط ألمها كي تكتب قائمةً بشـأن الأمور التي تعجز عن التخلـي عنهـا، وقـد ضمـت القائمـة سـيارتها الرائعة التي اشـترتها مـن مالها الخـاص، وآلتهـا الكاتبة التي سـاعدتها على تحقيـق حلمها، وطفلتها وكلبها. ماذا لو خسـرت أرتشـي؟ هل سـتكون نان بذلك قد خلّصت أغاثا من مشـكلة

كبيرة نظراً إلى كمية الألم التي سببها أرتشي؟

أعادها السؤال الأخير إلى الـ «لا»، فذلك لا يحتمل ولن ينفع؛ لقد كان أرتشي زوجها وملكيتها الخاصة، ولن تتخلى عنه أبداً.

بعد سنوات، ستكتب: «إن الشخص الوحيد الذي سيؤلمك كثيراً في حياتك هو زوجك».

عادت أغاثا إلى النحيب مجدداً. لقد أقامت هونوريا، والطباخ، وكبير الخدم، وأنا، ومضيفة غرفة الاستقبال الجديدة تحت سقف ستايلز برفقة آل كريستي، ولم يتحدث أحدهم عن سماع أي نحيب قبلاً، ولكنني أعلم حدوث ذلك، إذ لا بد أن أغاثا كبتت نحيبها سواء أكان ذلك بواسطة كمها أو بوسادة إحدى الكراسي.

لقد تجاوز الأمر كونه ضربةً سيئةً وأصبح مدمراً، فانتفخ وجه أغاثا الجميل، واستحالت عيناها الزرقاوان شقين ضيقين. لعقها بيتر على كامل وجهها محاولاً مواساتها ولكنها دفعته بعيداً، ثم ضمته بقوة إلى صدرها، وانهمرت دموعها على فروه الناعم. لقد مزقت شهقاتها المكتومة حنجرتها. لا، لا، لا؛ يجب ألّا تكون تلك حياتها، ويجب ألّا تسير الأمور على هذا النحو.

حاولت استجماع التصميم الذي ستطالب به والدها، ولكن لا سبيل إلى ذلك قبل عودة أرتشي. لفّ الظلام الأرجاء خارج النوافذ، واستسلمت أغاثا إلى انهيار تام، وبدت مجروحة.

في تلك الاثناء، كنت وأرتشي نمضي عطلة نهاية الأسبوع في أمان برفقة نويل وأورسولا أوين في منزلهما الريفي في غودالمينغ، فقد دعانا آل أوين بعد عشاء جميل إلى قاعة الاستقبال من أجل احتساء البراندي، وأخبرني أرتشي على انفراد بعد وصولنا أنه أنهى زواجه.

قلـت لـه: «يُفضّـل أن يبقى الأمر سـراً لبعض الوقت، كما يجب أن نبتعد عن بعضنا بعد هذه العطلة كي يتسـنى لك ترتيب التفاصيل، دع الأمور تهدأ الآن». لو لم ينفصل أرتشـي عن أغاثا كما وعدني، كنت سـأدّعي ذهابي في رحلة من أجل زيارة أختي ميغس كي لا يتساءل عن سبب اختفائي.

قال أرتشي: «لقد أخبرتك أنني سأجن من دونك، أليس كذلك؟»، وقبّلني قبلةً ماكرةً مفعمة بطعم النصر، ولكنني استطعت معرفة أنه وافق على حجتي، سأحصل على الأسبوع القادم على الأقل من أجل نفسي.

كان نويل أوين رجلاً أحمر البشرة، وقد ورث ثروةً كبيرةً من أحد أقربائه، وقد بدا أنه يفضّل الخروج واصطياد الحمام، كما تحدث بصوت مرتفع دوماً، إذ بـدا مقارنـةً معنـا وكأنـه يحاول رفعه أعلى من صوت بنادق الأطفال. ادعى وأورسولا حبهما أغاثا، من دون أن يؤثر ذلك على نيتهما قبولي كلاعب رابع في الغولف، أو في الحفلات المنزلية.

جلسـت برفقـة أورسـولا علـى أريكة أرجوانية، وتحدثنـا عن مقال قرأته مؤخراً حول مصطلح جديد في علم النفس يدعى الحلم الصافي.

قالت أورسـولا: «تقوم الفكرة على إمكانية تحكم الحالم في الأحداث، وفكّـرت فـي جماليـة وجود العيـش الصافي أيضاً؛ سـيكون رائعاً التحكم في الأمور التي تحدث في الحياة بدلاً منها في الأحلام»، ثم ضحكتْ، وشاركتها الضحك، ولكن ذلك أعادني إلى فصول الصيف التي قضيتها في إيرلندا، لقد آلمتنـي ذكراهـا دومـاً، حيث بـدا العالم حينها كالعيش الصافي، إذ استطعت استدعاء فتىً كي يعبر التل من أجل رؤيتي في لمح البصر.

ملأ نويل كأسي بالبراندي، ثم أمسك يدي وقال لأرتشي بصوته الخشن: «هـل تعجـز عـن شـراء مجوهرات أفضل من هذه يا سـيد كريسـتي؟». أردت سـحب يـدي، ولكننـي ابتسـمت بدلاً من ذلك، وتركتـه يتفحّص الخاتم. لقد أرادت الشركة المصنعة أن يبدو الخاتم قليل الثمن وغير مميز، مثل شيء قد

يرتديه الأطفال، ويجعل البشرة تحته خضراء قليلاً.

أجبته: «إنه حساس».

لم يفلت نويل يدي، وبدت ابتسامة أورسولا شاحبةً؛ لقد كانت نحيلةً جداً وتضع نظارة، وتبينت اعتماداً على ما عرفته أن زوجها أحبها كما أحب أرتشي.

قال أرتشي: «ستحصل نان على شيء أفضل قريباً».

نهض بسرعة حاملاً كأسه، وأسند مرفقه إلى رف الموقد؛ كان يحمل ذلك الشيء الأفضل في حقيبته، وقد خطط من أجل تقديمه لي قبل انتهاء عطلة نهاية الأسبوع. ابتسم إليّ وشفتاه على طرف كأسه، ولم يقلق إزاء قصص الحب السابقة، أو يسألني عن خاتم كلادا الذي أضعه في إصبعي وتاجُه يشير بعيداً عني.

بعد فترة وجيزة، وقفت وأرتشي في ردهة الطابق العلوي بين غرفتينا؛ لقد بدا هادئاً إزاءَ حالِ زوجته، وقبّلني قبلةً ملتهبة متوقعةً قبل العودة إلى غرفته الخاصة، إذ لن يرغب أن يرى خدم آل أوين سريره مرتباً في الصباح.

في اليوم السابق، اشتريت إضافةً إلى كتاب الدب ويني نسخةً من رواية جديدة اسمها غاتسبي العظيم والتي كتبها المؤلف الأمريكي فرانسيس سكوت فيتزجيرالد. قرأت فصلاً منها في انتظار عودة أرتشي. سبق لي أن قلت إنني لم أفكر كثيراً في روايات أغاثا، ولكنني قرأتها على الأقل، عكس أرتشي، وتصورت نفسي ذات مبادئ سامية. لقد كان إدوارد مورغان فروستر وجون غالسورثي من كتّابي المفضلين، رغم أنني بدأت أحب الكتاب الأمريكيين أمثال هيمنغواي وفيتزجيرالد، وبينما كنت أقرأ أدركت أنه كتب شيئاً رائعاً حقاً.

دخل أرتشي خلسةً إلى الغرفة، وكأن أصحاب المنزل يجهلون ما سنفعله، فوضعت الكتاب إلى جانبي كي أفعل ما يحبه أرتشي، فخلعت ملابسي وهو مستلقٍ على السرير يشاهدني مرتدياً بذلته ومنتعلاً حذاءه.

قال بصوت أجش: «اسدلي شعرك».

فعلـت مـا طلبـه، وتسـاءلت إن كانت الأمور ستسـتمر على هذا النحو – الأوامر، والمباعدة بين الساقين، ودفعاته وهو يرتدي سرواله المفكوك – عندما نتـزوج. إن كـره جـزء منـي إياه – أو احتقاره حتى – يحرض الأداء الذي يحبه أكثر. لامسـت يداه الناعمتان جانبي بينما أغمضت عيني، متناسـيةً العواقب، والزوجة المنكوبة، وحتى دوافعي الخاصة، كي أستمتع في أداء المهمة التي أوكلت إليّ حينها.

الاختفاء

آخر يوم شوهدت فيه

الجمعة، 3 كانون الأول، 1926

عانت السيدة أنابيل أوليفر ذات السبعين عاماً من مشاكل نسائية؛ كانت مقيمةً في منزلها الجديد في أسكوت قريباً من سونينغديل؛ لقد بدأ الأمر منذ بضعة أيام، وقد اعتادت والدتها أن تسمي ما تعاني منه حرارة المثانة، وهو ليس بأمر يود المرء التحدث عنه حتى مع الطبيب، فقد كان الأطباء في نهاية المطاف رجالاً، لذا، فضّلت أن تهتم بالأمر شخصياً، فقد كان الإكثار من شرب الماء هو الدواء، إذ أفلح الأمر في الماضي، وقد خلا المنزل الذي ورثته عن أخيها بعد وفاته من هاتف، إذ لم يؤمن في الحاجة إلى هذا الجهاز، ولا هي كذلك.

استيقظت باكرا على أصوات غير مألوفة؛ كان صوت اليعسوب، بل العشرات منه حول المنزل الذي كان كبيراً لكي يقطن به شخص واحد، ففتحت السيدة أوليفر عينيها، وشعرت أن وجهها ساخن نسبياً، ولكن انتابها شعور بوجوب أن تكون في مكان ما: حفلة، فنهضت من السرير، وارتدت ملابسها مستاءةً منها، فقد كانت ياقتها عالية ولونها داكناً، وقد بدت وكأنها تعود إلى سيدة مسنة.

خرجت من المنزل متوقعةً وجود عربة في انتظارها، ولكنها رأت عند المدخل سيارة بنتلي سوداء بدلاً منها، كانت فارغةً ومهجورةً؛ جيد جداً؛

لقد فضّلت الخيول على المحركات، ولكنها اعتادت أن تفعل ذلك بنفسها، إذ ليس من اللائق تماماً أن تصل سيدة شابة إلى الحفلة وحيدةً، ولكن قد ينتاب القلق المضيفين إن لم تصل أبداً، ولذلك رفعت كميها، وشغلت محرك السيارة بعد أن جلست خلف المقود وانطلقت في ظلمة الليل.

لقد نسيت الآنسة أوليفر في تلك اللحظة أن السيارة، كالمنزل، تعود إلى شقيقها، ولكنها تذكرت كيفية القيادة تماماً، وبذلك قادت السيارة مبتعدة عن المنزل حيث جابت الطرقات المظلمة على غير هدى.

يا إلهي، لقد كان الطقس حاراً، فمسحت جبينها بظاهر يدها؛ لقد كان تحسس الحرارة عن طريق ملامسة الجلد للجلد ممتعاً، ودليلاً على أنّها حيّة، وأنّها تتجه إلى مكان مثير، حيث ينتظرها الكثير من الأحبة. انحرفت السيارة إلى اليسار قليلاً لأنها كانت تمسك المقود بيد واحدة ضعيفة، فسارت إحدى العجلات على الحصى والعشب، لذا أمسكت المقود بيديها، وأدارته إلى اليمين معيدةً السيارة إلى الطريق الذي حدقت إليه عبر الزجاج الأمامي.

شعرت بألم شديد وحارق، فأعادها إلى الواقع لبرهة من الزمن، وتمايلت السيارة على الطريق، وحين داست على المكابح، اصطدم رأسها بالزجاج الأمامي.

إنّها تشعر بنوع جديد من الألم الآن، وتدفق الدم إلى عينيها، ففتحت الباب وخرجت من السيارة؛ كان البرد قارساً، وذهنها صافياً، وهي وحيدة تماماً على طريق ريفي يكتنفه ظلام الليل. في تلك اللحظة، أدركت الآنسة أوليفر أنها ليست شابةً يافعةً في طريقها إلى حفلة، بل هي امرأةٌ عجوزٌ مرتبكةٌ ابتعدت أميالاً في السيارة عن منزلها، ثم انحرفت عن الطريق. بدت السيارة المتوقفة في حالة جيدة، لم تتطلب دفعةً حتى، فتمنت لو أنّها تستطيع إعادة تشغيل المحرك، والعودة إلى المنزل والاستلقاء في حضن سريرها المريح.

وضعت الآنسة أوليفر يديها على صدرها بشكل متصالب وقالت: «ما الذي كنت أفكر فيه؟ كدت أموت».

أوه، كان الطقس حاراً. تشوش تفكيرها مجدداً، فخلعت معطفها الصوفي ورمت به على مقعد السائق وقالت: «يجب أن أصل إلى الحفلة، سيقلق المضيفون عليّ إن تأخرت».

سارت على قدميها في ظلام الليل، وتركت السيارة على جانب الطريق، واتجهت ناحية العشب والأشجار وليس إلى المنزل، فخدشت أعشاب القراص معصميها، لكنها لم تكفّ عن التقدم رغم سيرها في ماء موحل بارد جداً ما جعلها تشعر بأن شيئاً يعض كاحليك.

خاطبت لا أحد: «سأستلقي قليلاً»، وارتمت على الأرض، وشعرت بالبرد إلى حدّ ما، وعدم الراحة، وتساءلت أين اختفى معطفها.

الاختفاء

اليوم الأول

السبت، 4 كانون الأول، 1926

طرقت الخادمة باب غرفة أرتشي بعد ساعات من شروق الشمس، وكنت مستلقيةً في السرير وسط الغرفة أقرأ رواية غاتسبي العظيم، وقد اعتقدت وأنا أقرأ صفحات هذه الرواية أنها من النوع الذي سأكتبه لو كنت مؤلفةً، وليس قصص المحققين.

استطعت سماع صوت الخادمة رغم سماكة الجدران وهي تقول: «أحدهم يريد التحدث إليك عبر الهاتف أيها العقيد كريستي. تقول السيدة إن الأمر مستعجل».

أشار اندفاع الهواء عقب ذلك إلى استخدام أرتشي قوةً كبيرةً ليفتح الباب، وسمعت بعدها خطواته الواثقة وهو يسير خلف الخادمة إلى الردهة، واستطعت أن أخمن ما الذي كان يفكر فيه.

لا شك في أنه ظن مثلي أن أغاثا هي المتصلة التي تعيش عذاباً لا يطاق وتتوق من أجل عودته إلى المنزل عاجلاً، فارتجفت تحت الملاءة، لقد كنت سعيدةً لأنني لست من سيستمع إلى بكائها وشكواها.

أغلقت الرواية، ونهضت كي أرتدي ملابسي. تجنبت أغاثا القدوم إلى منزل آل أوين على الأقل؛ يعجز المرء عن توقع خطوات شخص مفجوع حقاً، وخاصةً إن كان امرأةً. وضع آل أوين الهاتف في غرفة المعيشة، فنزلت

إلى الطابق السفلي، وصادفت أرتشي في طريقه وهو يرتدي الروب، وقد بدا عابساً.

همست: «هل كانت أغاثا؟».

أجابني وهو يشد الحزام حول خصره الأنيق: «إنها هونوريا؛ تدعي أن أغاثا مفقودة».

قلت له: «يا إلهي، آمل أنها بخير».

أجاب أرتشي: «أنا متأكد من أنها مجرد مسرحية كي أعود إلى ستايلز؛ يخجلني ما تقوم به هونوريا، فهي مجبرة على التمثيل».

وضعت يدي على مرفقه وقلت: «ولكن ألا يجدر بك أن تتحقق من الأمر؟ وتتأكد من أن كل شيء على ما يرام؟ يجب أن تُفكّر في تيدي».

بدا أنني أغضبته بسبب زلتي هذه، إذ شعر وكأنني زوجة أوبخه ولست عشيقته، فاقتربت منه، ووضعت يدي على صدره قائلة: «تساهل معها، لقد تأذت كثيراً».

رقت ملامحه، وأومأ إليّ؛ لقد شعرت بالذل نيابةً عنها، إذ توجب أن أطلب من زوجها أن يكون لطيفاً معها. هرول صعوداً إلى الطابق العلوي، وذهبت كي أنضم إلى آل أوين من أجل تناول طعام الفطور في غرفة الطعام. عندما دخل أرتشي مرتدياً ملابسه وممسكاً ساعة جيبه كنت قد أنهيت المربى والخبز المحمص، فنظرت إليه وهو يسكب فنجاناً من القهوة وقد نفد صبري، إذ يجب عليه أن يسرع كي يتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

رن جرس باب المنزل، فدخلت الخادمة، وقد ارتسمت علامات الحيرة على محياها وقالت: «آسفة جداً على المقاطعة، ولكن هناك شرطي عند الباب».

نهض نويل وقال: «سأرى ما الأمر».

قالت الخادمة: «إنه يسأل عن العقيد كريستي».

أجاب نويل واثقاً وكأنه يسيطر على الشرطة، وليس العكس: «حسناً، أعتقد أنه من الأفضل أن تدخليه إلى هنا».

قال أرتشي: «أنا في طريقي إلى الخارج، سأذهب وأرى ما يريده».

أومأ إليّ، وفهمت أنّه يجدر بي البقاء مكاني، وتوجّه الرجلان إلى الردهة، ثم تبعتهما أورسولا، فقررت أن أحذو حذوها، وعندما وصلت، وجدت أرتشي شاحب الوجه. كان نويل يوبخ رجل الشرطة قائلاً: «هذا غير معقول يا توماس، تستطيع طبعاً أن تثق في ترتيب الرجل أموره بنفسه».

قال الشرطي: «هناك سيدة مفقودة، وقد طلب مني أن أعيد العقيد كريستي إلى سونينغديل»؛ كان شاباً – وكانت هناك بقع من ذقنه لم ينبت فيها الشعر بعد – وقد تجلى في صوته المرتعش الجهد المبذول من أجل مواجهة نويل أوين.

قال نويل: «أنا متأكد من وجود خطأ ما».

تمالك أرتشي نفسه، واستعادت وجنتاه لونهما وقال: «تسعدني العودة إلى المنزل وتبيان حقيقة الأمر، إذ يبدو أن هذا هو المطلوب، ولكن هل أستطيع قيادة سيارتي على الأقل كي لا أضطر لإرسال أحد من أجل استعادتها...؟».

أجاب الشرطي وقد آلمه قول ذلك، فهو لم يكن يتطلع للركوب مع أرتشي: «أنا آسف يا سيدي، ولكن لديّ أوامر».

قلت: «سأقود سيارتك إلى ستايلز».

التفت الجميع إليّ، ورفع الشرطي حاجبيه، ورأيت في عينيه أنه يبحث في الأرجاء عن زوج لا ينتمي إلى امرأة كي يذهب معي.

لقد علّمني أرتشي القيادة على الطرق الريفية في بيركشاير وسوري، ولكن، ستكون هذه المرة الأولى التي أقود فيها وحدي، وقد سيطرت فكرة حوادث السير الفردية على رأسي؛ لم أكن حينها قلقة على أغاثا، بل تعاطفت

مع دافعها للهرب، واعتقدت أن العالم يحمي أناساً مثلها بطريقة أو أخرى. قدت السيارة بأقل سرعة تتيح لي أن أبقي شرطي غودالمينغ اليافع في مرمى بصري وهو يقود إلى المنزل، لا شك في أنه مرتاح لأن أرتشي كان يجلس إلى جانبه ولا يقود سيارته.

وصلت إلى ستايلز، ووجدت سيارة الشرطة المحلية مركونةً أمام المنزل، ولذلك أرجعت سيارة أرتشي إلى الخلف، ودخلت من مدخل الخدم – حينها، نادراً ما كانت تُقفل الأبواب في أي مكان خارج لندن، فقد عم الأمان بعد انتهاء الحرب – مشيت إلى الردهة الأمامية حيث رأيت خادمة غرفة الاستقبال الجديدة، أنّا، وقد وضعت أذنها على باب غرفة المعيشة كي تسترق السمع، حيث يجب أن يكون أرتشي في الداخل مع رجال الشرطة. كان الكتاب الذي اشتريته من أجل تيدي على الطاولة ولا يزال مغلفاً، فأخذته ووضعته تحت إبطي، فالتفتت أنّا إليّ؛ كانت فتاةً ممتلئة الجسد، وجميلةً، وامتلكت بعض النمش، وسرعان ما احمرّت خجلاً سريعاً. ادعى أرتشي أنها غازلته، لقد كرهت هذا النوع من الفتيات اللواتي يقتنصن الأزواج – أو حتى الرجال العازبين – لا لشيء إلا لتحسين ظروفهن، فرمقتها بنظرة صارمة بينما تراجعت عن الباب، واحمرت خجلاً بعد أن قبضتُ عليها وهي تسترق السمع.

قالت أنّا: «أوه، آنسة أوديا، لم أعلم أنك ستأتين، هل تريدينني أن أحضر لك شيئاً؟»؛ لقد دخل منزل ستايلز وخرج منه أشخاص كثر حينها، وكنت أحدهم.

أجبتها: «لا، شكراً لك. لقد جلبت هديةً من أجل تيدي. هل هي هنا؟».

أجابتني: «أعتقد أنها في غرفتها في الطابق العلوي، هل تودين أن آخذها إليها؟».

أجبتها موحيةً أنني لن أتحدث عن استراقها السمع طالما أنها ستدعني أصعد إلى غرفة تيدي: «هل يمكنني أن آخذها بنفسي؟ تبدين مشغولةً».

أشارت إلى الدرج وقالت: «أجل، لا بأس بذلك».

ألقيت نظرةً سريعةً على غرفة أرتشي وأغاثا، فوجدت فستانها على الأرض، بعدها توجهت إلى غرفة تيدي؛ كان الباب مفتوحاً قليلاً، ورأيت تيدي متربعةً في جلستها وهي تلعب بدمى الجنود والكلب الخشبي الصغير، وما إن رأتني حتى نهضت بسرعة، وركضت إلى باب غرفتها واحتضنتني.

قالت: «آنسة أوديا»، لقد حيتني بالطريقة الوحيدة التي يعرفها الأطفال.

عانقتها بدوري، وسعدت لأن هونوريا لم تكن بجوارها. لقد كانت تيدي صغيرةً الحجم نسبةً إلى عمرها، إذ امتلكت عظاماً رقيقةً. رفعت رأسها ونظرت إليّ، وقد بدت شاحبة، وأوحت العلامات البنفسجية تحت عينيها أنها لم تنم جيداً.

أمسكت ذقنها بين إبهامي وسبابتي كما فعلت أغاثا معي في ذلك اليوم وقلت: «انظري إلى نفسك يا صغيرتي الجميلة، هل كل شيء على ما يرام؟».

أجابتني: «كل شيء بخير»، وأوضحت لي من خلال تنهيدة، أنها تدرك الفوضى التي تحيط بها، ولكنها ترفض التصريح بذلك.

قلت: «لقد أحضرت لك هدية».

خطت خطوةً إلى الخلف كي تستطيع إزالة ورق تغليف الهدية بني اللون، وعندما أزالته ألقت به على الأرض. عندما كنت في سنها كنت أبحث عن مكان مناسب كي أفتح الهدايا، ولكن كان ذلك نمط حياة تيدي، ليس أرستقراطياً، ولكن ثرياً بما يكفي من أجل رمي الملابس والقمامة جانباً كي ينظفها شخص آخر. سأشجعها عندما أصبح زوجة أبيها على أن تطوي ملابسها وترتّبها بنفسها، وألّا ترمي ورق التغليف على الأرض، ولكنني لست مخولةً لذلك بعد.

ابتسمت تيدي وتورّد خداها وقالت: «أوه، إنه دب صغير مرح».

جلست أرضاً على السجادة الدائرية، وأسندت ظهري إلى الحائط، بينما

جلست تيدي في حضني ودغدغ شعرها ذقني، فأسندتُ خدي أعلى رأسها وشرعت أقرأ. كان الكتاب لطيفاً، ومؤثراً بشكل غير متوقع، لقد تاه كريستوفر روبن كي يعثر على غابة المئة فدان.

حذَّرت تيدي قائلة: «ولكن إياك أن تفعلي مثله؛ سيفتقدك والداك كثيراً».

أجابت تيدي وهي تتثاءب بشدة: «لن أفعل، شكراً على الكتاب يا آنسة أوديا، لقد أحببته فعلاً».

قرأت تيدي عليَّ صفحةً منه، ثم تابعت القراءة قبل أن تتباطأ أنفاسها، ومال رأسها الصغير إلى الأمام، وتمنيت أن تساعد نعومة صوتي وعذوبة القصة على منحها النوم الذي احتاجته بشدة، فأغمضت عيني تدريجياً وأسندت رأسي إلى رأسها وخلدت بدوري إلى النوم.

أيقظني صوت هونوريا الغاضب الذي صمم كي يوقظني دون الطفلة، قالت: «كيف تجرؤين؟»، وهرول بيتر إلى الغرفة وهو يلوّح بذيله؛ كانت تلك المرة الأولى التي أخاف فيها؛ لقد اصطحبت أغاثا الكلب إلى كل مكان تقريباً.

تحركت تيدي بتثاقل عندما حملتها هونوريا ووضعتها في سريرها، وأشارت إليَّ غاضبةً، فقبّلت جبهة تيدي، ثم تبعت هونوريا إلى الرواق في اللحظة التي وصل فيها أرتشي إلى أعلى الدرج.

قال أرتشي: «يا إلهي، لا يجدر بك يا نان أن تُقحمي نفسك في كل هذا»، لقد أخبرني ذلك سابقاً عن الطلاق، ولكن يبدو أن أصبحت فكرة مشبوهة مع وجود الشرطة.

سألته: «ما الذي أقحم نفسي فيه؟ أين أغاثا؟ هل هي بخير؟».

أجابت هونوريا: «طبعاً، إنها ليست بخير، ويعود الفضل لك في ذلك يا نان أوديا، لا تدعّي عكس ذلك».

قال أرتشي: «هذا يكفي يا هونوريا».

رفضت هونوريا التراجع، وعقدت ذراعيها بعصبية، فأمسكني أرتشي

من مرفقي، واصطحبني إلى مكتبه في الطابق السفلي وأغلق بابه؛ لقد كانت الغرفة باردةً، إذ أطفأ أحدهم النار.

قال أرتشي: «لقد قادت أغاثا السيارة البارحة ليلاً، وهي مختفية منذ ذلك الحين»، كان يتحدّث إليّ متجنّباً النظر إلى وجهي وهو يخبرني بقية القصة؛ لقد عثر على سيارتها الموريس كولي في ساعات الصباح الباكر على طرف محجر قرب نيولاندس كورنر وقد انحرفت عن الطريق، وبقيت أضواؤها تعمل حتى نفدت بطاريتها. كان غطاء محرك السيارة على الأعشاب، ووُجِد معطف من الفرو على مقعدها الخلفي إضافةً إلى حقيبة موضبة، ورخصة قيادة؛ أشار ذلك إلى احتمال أن أغاثا تاهت في ليلة باردة من دون معطفها.

وضع أرتشي يديه على طاولة المكتب حيث اعتادت أغاثا أن تكتب عندما يكون في العمل وقال: «قالت هونوريا إنّ آلتها الكاتبة مفقودة»، فشعرت أنّ يديه تحاولان تلمس اللحظات الأخيرة التي قضتها أغاثا وهي تكتب، وكأن رواياتها تحمل دليلاً عن مكان وجودها.

تشكلت قطرة من العرق على جبين أرتشي رغم برودة الجو، فمسحها بمنديله، وأعاده إلى جيبه، وأخرج بدلاً منه رسالةً مطويةً؛ وقف يحدق لحظةً، ثم مزقها وألقى بها في النار.

سألته: «ما كانت تلك؟ هل هي من أغاثا؟».

أجابني: «إنها خطة لعينة من أجل معاقبتي وإياك، ونشر اسمك في الصحف».

قلت له: «هذا ليس من شيمها».

قال أرتشي: «هذا هو بيت القصيد، أليس كذلك؟ لم تعد على طبيعتها؛ لقد أفقدها هذا الأمر اللعين صوابها».

لقد كنت أنا الأمر اللعين، فعجزت عن التفكير في شيء أقوله، إذ من المؤكد أن الوقت غير ملائم للابتسامات التي أرادها أرتشي دوماً. عقد يديه

وكأن لديه مهمةً كي ينجزها بعد التخلص من بعض الأمور. رأيت في زاوية الغرفة حلقةً ذهبيةً تلمع، كان خاتم زواج أغاثا، فأشرت إليه، عندها انحنى أرتشي بخجل كي يلتقطه ووضعه في جيبه وقال: «يفترض بك مغادرة المكان بأسرع ما يمكن».

وقفت محتارةً إزاء ما أفعل، لقد كانت هذه الحادثة مثاليةً من ناحية، إذ شكّلت عذراً إضافياً كي أغيب عن الأنظار بضعة أيام، ولكن من ناحية أخرى أثار تردد أرتشي قلقي؛ لن يفلح ذلك أبداً.

أمسكني أرتشي وجذبني إليه قائلاً: «هل تسمعينني يا نان؟ يجب أن تغادري، إن وجودك خطأ».

وضعت رأسي على صدره، وسمعت دقات قلبه المتسارعة؛ لقد شكّلت سمعة المرأة السيئة رعباً في تلك الأيام؛ ولكنني علمت أن اضطراب قلبه ليس بسببي.

احتضنني بقوة، وفي الوقت الذي لامست فيه شفتاه شعري همس: «أين أنت يا أغاثا؟».

لفح البرد الشديد وجهي خلال الدقائق العشر التي مشيت خلالها متوجهة إلى محطة سونينغيديل، وقد افتقدت معطف الفرو عكس أغاثا، وتساءلت كيف تدبرت أمورها في ذلك الوقت في أي مكان ذهبت إليه بعد التخلي عن معطفها الدافئ في سيارتها. ماذا لو ذهبت إلى نيولاندس كورنر وأخذت المعطف؟ لقد أضحكتني الفكرة وأحزنتني في الوقت نفسه، فشددت معطفي الصوفي حول جسدي.

ستعثر الشرطة على أغاثا في نهاية اليوم إن حالفهم الحظ، وقد أنهوا في تلك اللحظة تماماً البحث في الأدغال حول سونينغيديل، ولكنهم لم يجدوها،

وهـذا يعنـي أن هنـاك احتمـالاً كبيراً أنها بخير؛ لا يفترض بي أن أقلق بشـأنها. لقـد شـعرت بالألـم فـي قبضتـي من البـرد، فنفخت في يـديّ، وفاحت منهما رائحـة صابـون تيدي، وتسـاءلت ماذا سـيخبرونها عن مـكان أغاثا. إن أصاب أغاثا مكروه - دائم - فسأصبح أم الطفلة الصغيرة إلى الأبد، وذلك في حال لم يُصدم أرتشي وتابع مخططنا من دون إلقاء اللوم عليّ في ما أصاب زوجته، إذ يميل نوع من الرجال إلى لوم المرأة، ولكن أستطيع تولي الأمر إن سارت الأمور عكس الخطة، سـأصطحب تيدي إلى المدرسـة صباحاً، وأتسـلل إلى مكتب أرتشي عندما يكون في العمل كي أكتب القصص، كما سيتوجّب على هونوريا تغيير أسلوب تعاملها معي إن أرادت البقاء في ستايلز، أليس كذلك؟

طردت تلك الأفكار من رأسي، وقد تمنيت أن يعثروا على أغاثا سالمةً من دون أن يصيبها مكروه، ولكن عجزت عن المساعدة في أي شيء، واحتجت إلى ترتيب شؤوني الخاصة، والتركيز على الأسبوع القادم حين سأتناسى عائلة كريستي قليلاً قبل أن أنضم إليها إلى الأبد.

الاختفاء

اليوم الأول

السبت، 4 كانون الأول، 1926

تعلمون على اختلاف الأماكن والأزمنة التي تقرأون فيها هذه الصفحات أن أغاثا لم تختفِ إلى الأبد، أو توفتها المنية في شهر كانون الأول من العام 1926؛ لقد بقيت على قيد الحياة، وتقدمت في السن، وألّفت روايات وقصصاً كثيرة، ونشرت كتاباً كل عام على الأقل، وكما اعتاد ناشرها الذي يعول على أرباح أشهر كانون الأول أن يقول: «إن هدية عيد الميلاد هي كريستي»، كما تجاوزت أرتشي وزواجها المهشم كي تصبح الكاتبة ذات المؤلفات الأكثر مبيعاً في التاريخ، وتجد حباً أفضل يناسبها، كما ستفعل أي امرأة ناجحة بعد نسيان الماضي ووضوح السبيل الأفضل من أجل المستقبل.

لقد فاق المستقبل كل التوقعات التي قد تبادرت إلى الأذهان عندما أحضر رجال الشرطة سيارتها؛ كان خزان الوقود ممتلئاً، والمحرك يعمل بشكل جيد، وقد خلت من أي علامة على وجود مشاكل تفسر ما حدث مباشرةً. وقفت مجموعة من ستة رجال شرطة تقريباً على حافة سايلنت بول التي تبعد قليلاً عن مكان وجود السيارة، لقد انتشلت جثث كثيرة على مر السنين من هذه المياه التي تغذيها الينابيع.

قال أحد رجال الشرطة: «يجب أن نغطس إن لم نجدها بحلول صباح الغد».

أطلع رجال الشـرطة المتواجدون في سـتايلز أرتشـي على ملخص حول المعلومات القليلة التي حصلوا عليها، وخططهم القادمة. تخيل أرتشـي رمي الشباك في سايلنت بول، وسحبها إلى الشاطئ، ووجود جثة زوجته بين حبالها، فغطى وجهه مذعوراً حقاً حتى اللحظة التي توقفت فيها الشـرطة عن الشـك في أنه اقترف جرماً.

تلت تيدي صلاة النوم في غرفتها كالمعتاد، لقد طال غياب أغاثا، وهدأ أرتشي. حل الظلام في الخارج، وتابع رجال الشرطة البحث في شتى أرجاء الريف برفقة بعض المتطوعين من البلدة، وتلألأت المسطحات المائية بشكل مشؤوم. في ذلك الوقت، وضع كل شخص في بيركشير وسوري نظريةً حول مكان أغاثا، والأحداث التي وقعت من دون أن يصيب أحدهم طرف الحقيقة.

لم أمتلك هاتفاً في شقتي، ولكن هناك هاتفاً عمومياً عند ناصية الشارع، كنت أتجه إليه مساءً وأضغط زر أي – A وأضع قطعةً نقديةً، وأنتظر أن يجيب أرتشي.

تحدثت بصوت منخفض كي لا يسمع المارون ما أقول: «كيف حالك؟ هل هناك أخبار جديدة؟».

أجابني: «لا، لقد أمسكت الشرطة بزمام الأمور يا نان»؛ أشك في قدرتي على تمييز صوته لو كنت شخصاً آخر، فليس الارتعاش أو الارتياب من صفاته.

قلت له: «حسناً، هذا أمر جيد أليس كذلك؟ إنهم يبذلون قصارى جهدهم من أجل العثور عليها».

قـال أرتشـي: «يبذلـون جهدهم بشـكل مخيـف، فهم يحاولـون إيجادها بأسرع ما يمكن؛ ستشعر بالعار بعد اكتشاف الجلبة التي سببتها».

أومأت وأنا أتخيل جرح كرامتها، فمن الأصحّ أن تتجنب العودة كي تمنع

حدوث شيء كهذا، وقد تبينت من صوت أرتشي أن الأمر أرعبه، فهو سيرتاح أكثر لو تتجاهل الشرطة القضية بأكملها وتعتبرها مجرد هراء.

قلت له: «اعتقد أنني وجدت مقالاً كُتِبَ عنك في الصحيفة عندما قرأتها».

سألني: «أحقاً؟».

أجبته: «أجل، أنا متأكدة أنه عنك. الزاني، لقد دفعتها شخصيتها الرئيسية إلى حافة الهاوية».

أخذت نفساً نصفه حقيقي والآخر على شكل ضحكة؛ لعل أغاثا جنت حقاً، ولكن تبدو فكرة أنها تنتظر اللحظة المناسبة كي تقتلني منطقيةً جداً.

جعلت صوتي ناعماً وقلت: «أعتقد أنه يتوجب عليّ توخي الحذر».

ولكن التفت أرتشي إلى مخاوف أخرى وقال: «أوه، ما كان يجدر بي أن أكون قاسياً معها إلى هذا الحدّ، أليس كذلك؟ كنتِ محقةً، كان يفترض بي أن أنتظر».

لقد أقلقني سماع مدى اضطرابه، إذ تغلغل حزن حقيقي في صوته، فأجبته: «هذا غير صحيح، لن يكون هناك وقت مناسب أبداً من أجل أمر كهذا. ستعود أغاثا إلى المنزل في نهاية الأمر عندما تدرك الجلبة التي أحدثتها، كل ما في الأمر أنها مستاءة».

لكن لا يبدو أن الابتهاج هو ما أراده أرتشي، وفي ذلك الحين استطعت سماع شخص يدخل إلى الغرفة فأخبرني أن عليه أن ينهي المكالمة، ولكن سألته بسرعة عما أخبر به تيدي عن مكان أغاثا.

أجابني: «أخبرتها أن أغاثا ذهبت إلى أنشفيلد كي تتفقد حاجيات والدتها».

سألته: «أتعتقد أنّها هناك».

أجاب أرتشي: «لقد بحث رجال الشرطة هناك، ولم يجدوا لها أثراً».

عجزتُ عن إيجاد ردّ مناسب.

قسا صوت أرتشي عندما قال: «اسمعيني، يفضل أن نتجنب التواصل حتى

ينتهي هذا الأمر. أريد إبعاد اسمك عن المشكلة تماماً».

أجبته: «حسناً».

أنهى أرتشي المكالمة من دون أن يودعني.

وضعت سماعة الهاتف مكانها، وخرجت من مقصورة الهاتف. اتشحت السماء بسواد الليل، وتلاشت آخر جدائل الشمس قبل أن أراها، فتسارعت أنفاسي التي لاحظت أثرها في الهواء البارد، وأدركت بعد أن قطعت نصف الطريق إلى المنزل سيراً أنني أبحث في ملامح كل امرأة أصادفها عن أغاثا.

أشعر أنّها ستعود سالمةً، إذ إنّها أكثر عمليةً مني، فضلاً عن كونها امرأةً راشدةً استعد العالم كله أن يحتضنها عندما تقع. لعلها مضطربة الآن، ولكنني أعلم أنها لن تنتحر أبداً، أو تحتمل الإزعاجات، كما فعلت أنا. تابعت طريقي، ولكنني لم أعد إلى المنزل. كانت يداي من دون قفازين، وبدأت أسناني تصطك من شدة البرد؛ ستتخيل جميع المآسي المروعة تهوي على شخص مفقود؛ ازداد عدد الناس الذين تخيلوا أغاثا تشق طريقها عبر الأدغال، وتركض في الغابة، وتسقط في البحيرة الباردة المتجمدة.

هززت رأسي؛ لقد أمسكت أغاثا ذقني في يدها، ووبختني قائلةً: «أنت لا تحبينه»، وكما أحب المحقق بوريوت أن يقول: «يجب أن يحترم المرء علم النفس».

لقد كانت أغاثا امرأةً إنكليزيةً عاقلة، وعمليةً، وهادئةً، وأحبت تصنيف الناس في رواياتها؛ تفعل المرأة هذا الشيء، والأمريكي ذاك الشيء، والإيطاليون هكذا؛ لعل تلك العموميات منحتها الراحة، إذ إنّها تطابقت مع صنفها تماماً. كانت امرأةً إنكليزيةً راقيةً ورزينةً، ولقد دفعتها إلى التخلي عن شخصيتها الطبيعية، وفي المقابل، برعت في اختلاق القصص فقط. تفوح رائحة المكيدة من فعلتها هذه التي عبّرت فيها عن منزلة أرتشي في نفسها – لقد أحبته جداً – لكن يفسح القلق المجال أمام شعور كهذا، أليس كذلك؟

تغلب البرد عليّ فعدت إلى المنزل؛ كانت شقتي مثل الثكنة العسكرية، إذ خلت من الزينة، والصور، والتذكارات، وكان لون لحافي مثل لون الجدران بين الأبيض والعاجي، وقد وافق صاحب المنزل على تأجيري إياه شرط عدم إحضار الرجال إليه، ووجب أن تراقب جارتي الأرملة العجوز، السيدة كيترينغ، سوء تصرفاتي، ولكنها أحبتني، وكتمت سر المرات التي زارني أرتشي فيها. ستعتقدون أنه لاحظ من الوقوف على عتبة المنزل: أنه ليس منزلاً، بل مجرد محطة يريدها شخص لا يملك الوقت كي يجمل يومه، بل يخطط من أجل المستقبل فقط.

حزمت حقائبي من أجل رحلتي إلى هاروغيت من دون أن تغيب أغاثا عن تفكيري، فطويت زوجاً من الملابس الداخلية وقلت في نفسي: لقد ذهبت إلى فندق فاخر كي تداوي جروحها دون أن تكترث إلى قلق الآخرين، ولكن لا يفسر ذلك سيارتها المهجورة، ولذلك فكّرت أنها ربما تركت السيارة كي نقلق عليها، وسيكون ذلك في صالحنا، ثم ذهبت إلى الفندق كي تسخر منا أو تنتظر أن يعثر أرتشي عليها، فيوقد قلقه جذوة الحب مجدداً. ولكن، ما هي احتمالات إقدامها على شيء كهذا من دون مساعدة أحد؟ إن هونوريا أبرز المرشحين كي تكون شريكتها في الجريمة، ولكن قلقها لم يكن أقل من قلقنا.

أخبرني أرتشي مرةً: «إن أغاثا من النوع العاطفي، فلا تسمحي لظاهرها أن يخدعك»، وكأن هنالك نوعاً آخر ليس عاطفياً من البشر؛ أحضر لي شخصاً كهذا، وسيكون شخصاً خطيراً. كيف تستطيع تجنب العاطفة عندما تسلك الحياة دروباً غير متوقعة؟ لقد كتبت أغاثا خلال الحرب نصائح إلى زوجها الجديد من أجل سلامته، كانت مثل تعويذات تناثر بينها حبر القلم على الورقة. لقد كانت أغاثا تحت الخطر في سونينغديل وليس أرتشي، الذي كان عاطفياً هو الآخر، ومنع من الانضمام إلى فرق البحث. أخذ يذرع المنزل جيئةً

وذهاباً وأوشك على تسلق الجدران؛ لقد ندم على تسرّعه وإحراقه رسالتها. ما هي الدلائل التي أخفتها أغاثا في كلماتها والتي ربما كانت ستجدي نفعاً في عملية البحث؟

كم سيكون مريحاً وجود دليل على أنها حيةً وتطبع جملها سريعاً على الصفحات واحدةً تلو الأخرى؟ خلعت خاتم كلادا من إصبعي، ثم وضعته مجدداً، وجعلت جهة التاج صوبي، آخر مرة رأيت فيها فينبار منذ سنوات طويلة عندما جاء كي يجدني في لندن بعد أن خسرنا طفلتنا، واحتضني بين ذراعيه، وانهمرت دموعه، وبللت شعري.

سألني عندما أخبرته أنني أنجبت طفلتنا: «هل كانت جميلةً؟».

أمسكت وشاحه وأجبته، وقد تجاوزت مسبقاً مرحلة البكاء: «أجل، أجمل من أن تستطيع تخيلها».

أضحت ذكرى جمال طفلتنا جرحاً لا دواء له. لم يرتكب فينبار أي خطأ، ومع ذلك أبعدته عني؛ غادر بريطانيا العظمى إلى أستراليا بعد تورط إيرلندا في حربها من أجل الاستقلال، حيث لن يطلب أحد قتاله من أجل أي بلد، ويستطيع تدريب الكلاب على الرعي. طلب مني مرافقته، ولكنني رفضت، وكتبت في شهر أيلول الماضي إلى آخر عنوان أعرفه عنه كي أخبره عن أرتشي، والزواج الذي اعتقدت أنه وشيك، والأسباب التي دفعتني إلى سرقة زوج امرأة أخرى؛ كنت مدينةً له بذلك، ولكن لم يصلني أي رد؛ لعله كره الكلمات التي كتبتها المرأة التي لم يتصور أن أكونها يوماً، أو أنه انتقل إلى مكان آخر مجدداً، مثل أمريكا، أو عاد إلى إيرلندا، سأعجز عن الوصول إليه في النهاية.

كان الوقت باكراً كي تتجاوز أغاثا أي شيء؛ حزمت أكثر ملابسي دفئاً وأحذيتي وقبعاتي وقفازاتيَ كي أستطيع الخروج في نزهةً خلال وجودي في الريف، فربما سأركض إن وجدت طريقاً مهجوراً. حاولت تصور أغاثا

تشاركني الجري، غير مرئيتين أمام العالم الخارجي، ومتساويتين أخيراً.

طويت تنورتي وفكرت أنها اتجهت إلى غودالمينغ حيث تستطيع مواجهتي وأرتشي، وتثير جلبةً أمام آل أوين. لقد قادت سيارتها وفق مبدأ العاصفة والاندفاع[1] غير المبرر خارج الطريق، وغادرتها وتجولت في ليلة شديدة البرودة. سأسمع هذه الأخبار مباشرةً في الصباح الباكر: لقد عثروا على جثتها متجمدةً في الأدغال، أو ضمن الشباك التي استعملوها في سايلنت بول.

طويت سترةً من الصوف المحبوك والتي أهداني إياها أرتشي – كانت أنعم كشمير امتلكته – وفكرت أيضاً، أن تيدي تلعب الآن في الطابق العلوي من ستايلز، وربما تقرأ كتاب الدب ويني دون علمها أن أغاثا قد اختفت.

هل تفكرين في ذلك الشاب الإيرلندي؟

لا يمضي يوم دون أن أفكر فيه.

لففت حذاء في وشاح؛ أشك في أن أغاثا قد صعدت على متن سفينة إلى أمريكا وجلست مرتاحةً في مقصورة الدرجة الأولى متجهةً إلى عالم ومستقبل جديدين ينتظرانها، وقد وفرت شخصياً الدافع الذي احتاجته كي تهرب. ذلك ما حدث، ولذلك أغلقت حقيبتي، وقررت أن أنسى أمر زوجة عشيقي، وأمر فينبار أيضاً. ستشكل بداية حياتي مع أرتشي نقطة انطلاق الأحداث التالية أياً كانت، ولا شيء قبل ذلك. أمتلك أسبوعاً لي وخططت أن أمتع نفسي بشكل كامل.

---

(1) حركة أدبية ازدهرت في القرن الثامن عشر، وتقوم على العاطفة المتقدة، وتعظيم الطبيعة، وثورة الفرد على المجتمع.

هنا ترقد الأخت ماري

أعتقد أنّه لولا وفاة كولين كنت سأبقى في إيرلندا؛ تلقيت برقية علمت من خلالها وقت وفاتها تماماً. كنت أسير مع بروتوس خارج الحظيرة، وشعري مسدل، وأضرب كفيّ ببعضهما كي أزيل صابون السرج عنهما. تخافت ضوء النهار في ظل الضباب الذي جلب معه الغسق، وفجأة شعرت بالقشعريرة وكأنني قد غرقت في مياه مثلجة. اعتادت والدتي أن تقول عند حدوث ذلك: «لقد مشى أحدهم على قبري».

تلاشت الحواجز بيني وبين المنزل عندما تلقيت البرقية بعد بضعة أيام.

بكيت في أحضان زوجة عمي روزي قائلةً: «لم يخبروني كيف حدث ذلك؛ إنها في التاسعة عشرة من عمرها فقط، لماذا تجنبوا إخباري السبب؟»، حينها كنت أحمل في يدي تلك الرسالة الغريبة قليلة الأسطر؛ لقد وفروا بضعة قروش بذلك؛ وفكّرت في نفسي طبعاً: لو ذهبت إلى إيرلندا بدلاً مني، لكانت في أمان.

ربتت روزي على ظهري كي تُهدّئ من روعي، والتفتت بجدية إلى العم جاك، إذ يجب أن يكون الأمر خطيراً كي يموت شخص يافع ولا يُذكر سبب موته في البرقية.

قالت زوجة عمي روزي: «يجب أن تبقي هنا معنا إذ ستكونين في أمان أكثر من لندن، فنحن لا نستطيع فعل شيء كي نصلح هذا الأمر».

ربما عدم ذكر سبب موت كولين جعلني أتلهف للعودة إلى إنكلترا، فمثل هذا الخبر جعلني لا أتمالك نفسي في طرح الأسئلة، لم أستطع إلا أن أُسافر. وقفت على متن القارب الذي انطلق من دبلن ممسكة الدرابزين

رافضةً الابتسام إلى الجنود، فهمست امرأة عجوز لي: «تعالي يا فتاة، يجب أن تمنحي الجنود ذكريات جميلةً كي يأخذوها معهم».

لم أستطع أن أفكّر في شيء، إلّا العودة إلى المنزل ورؤية كولين؛ علمت أن ذلك غير منطقي، ولكنني صممت على رؤية أختي، وقد تخيلت في الوقت نفسه مشهداً تسافر فيه كولين على متن قارب إلى إيرلندا، وتمر بجوار قاربي المتوجه إلى إنكلترا، حيث نسافر في اتجاهين متعاكسين ضمن البحر الإيرلندي المتقلب من دون أن نلوّح لبعضنا.

وصلت إلى المنزل، ووجدت والدتي في السرير، فجلست وعانقتني من دون أن تنبس ببنت شفة.

سألت أبي: «ماذا حدث؟».

أمسكني من كتفيّ بقوة، حتى شعرتُ بأصابعه تحفر فيهما، لقد جعله ذلك غريباً عني، وقال: «لقد ارتكبت كولين خطيئةً».

لم أسمع قط شيئاً سخيفاً كهذا، فسألت متفاجئةً: «كولين؟! خطيئة؟!».

أجاب أبي: «لن أسمح أن تفعل فتياتي ذلك، لن أسمح لأيٍّ منهن أن تفعل ذلك، هل تسمعينني يا نان؟»، ثم أفلتني. بدا وجهه مختلفاً، وكأن شخصاً آخر استحوذ عليه، وسيبقى كذلك إلى الأبد، فتسلل الخوف إلى نفسي فور سماعي قصة كولين والتي ستتكرر معي.

جاءت ميغس، وأمسكتني من مرفقي، لقد امتلكت عينين داكنتين وملامح ثاقبة مثلي، فضلاً عن طول القامة نفسه – كانت كولين الأطول قامة بيننا – فخرجت وميغس نتمشى في ضباب لندن الصيفي من حي إيست أند إلى جسر واترلو.

قالت ميغس: «إن المشي يداوي الحزن».

كانت تلك عبارة والدتي والتي اعتادت كولين عند سماعها أن ترفع عينيها عن الكتاب وتقول: «سولفيتور أمبو لاندو»؛ إنها الترجمة اللاتينية لعبارة المشي هو الحل، ثم تكسر ضحكة والدتي صمتها وتعابيرها الجامدة وتقول: «فتاتي الذكية»، ولكنها تجنبت المشي بعد مواجهة أكبر أحزان حياتها؛ لقد عجزت عن الحركة؛ وقد حاولت لويز حثها أيضاً، ولكنها رفضت المغادرة. لقد فشل العالم في إيجاد ترياق يداوي وفاة كولين.

تناغمت خطواتي مع خطوات ميغس التي أخبرتني: «منعنا والدي من إقامة جنازة».

سألتها: «لماذا؟».

علمت القصة كاملةً مع وصولنا إلى الجسر؛ لقد كانت كولين حاملاً من شاب ذهب من أجل الحرب وتبعته رسائل كولين ولكن من دون رد.

تراءت في مخيلتي صور الشبان الذين رفضتهم كولين، إذ لم يجذبها أحدهم قط، فسألت: «من كان؟».

أجابت ميغس: «أخبرها أنه طالب في الفلسفة، التقته في المكتبة. لعله كان وغداً، أو قتل في الحرب، أياً يكن، فقد طرد والدي كولين من المنزل بعد أن اكتشف أمر الطفل». شحب وجه ميغس، وغاب البريق عن عينيها الداكنتين وهي تخبرني مكرهةً عن الشيء الذي نستطيع نحن الفتيات فعله فيجردنا من حب والدنا. لا أتذكر رؤية والدي يبتسم مجدداً بعد وفاة كولين، أو ربما تجنبت النظر إليه؛ لقد جرت قسوته على ابنته قسوة فتياته جميعهن عليه، إضافةً إلى زوجته.

وقفت بجوار أختي الوحيدة التي تكبرني وذراعانا متشابكتان تحت أشعة الشمس الباهتة على جسر واترلو، فقالت ميغس: «لقد كان حباً فقط؛ هذا ما قالته كولين، وعارضها والدي مدعياً أنه خطيئة وعار، ولكنها أصرت على موقفها».

فكّرت في نفسي: كيف أمكنه ذلك؟ وليس، كيف أمكن لكولين فعل ذلك؟ أنا أعلم ما هو الحب الآن، ويسهل تخيّل الذهاب في طريق كولين نفسه. أما طريق أبي؟ فأغمضت عينيّ، وحاولت تصور ذاك الشاب الذكي بما يكفي كي يبهر أختي الذكية الجميلة، والقاسي بشكل كافٍ كي يهجرها في الوقت نفسه؛ فقررت أنه قُتل من دون أدنى شك.

صبت ميغس جام غضبها على والدنا وقالت: «أعتقد أنه اكتفى بنا من دون كولين»، بدا صوتها فارغاً ومستسلماً؛ فكم منا ستقع ضحية والدها قبل أن يجد خسارة إحدانا كبيرةً؟

أفلتت وميغس بعضنا، وانحنينا إلى الأمام، وحدقنا إلى المياه؛ لقد مشت كولين في هذا المكان على طريق الضفة الجنوبية، وعلمت أنها سلكته بعد خروجها، ولكن ذلك لن يفيد في شيء. مشيت وميغس على الطريق نفسه من دون أختنا التي رحلت إلى الأبد. عندما أنظر إلى الماضي الآن، أجد فتاتين شابتين بنيّتي الشعر، تجهلان تفاصيل الحياة، وقد أحطت بهما الآلات الحربية في كل مكان حاشدةً نفسها من كل أصقاع الكوكب كي تجتاح عالمهما، ولكن غاب ذلك عن بصيرتنا حينها، إذ لم يتصور أحد نشوب حرب على الأراضي الإنكليزية كما حدث لاحقاً مع قيام الحرب العالمية الثانية.

في ذلك اليوم الصيفي مشينا عبر ضباب المدينة من دون أن أرى شيئاً أمامي غير الصور التي تخيلتها، وقد أتعبنا المشي بقدر ما أتعبتنا خسارتنا، واتكأنا على بعضنا بعضاً، وتمنيت إن استطعت للبكاء سبيلاً، ولكن أثقلتني نبرة صوت ميغس المنخفضة الفارغة. أردت أن أرمي الزهور كي تطفو على سطح الماء من المكان نفسه التي ألقت كولين نفسها منه إلى نهر التايمز.

بعد سنوات، سأشاهد فيلماً بعنوان بريغادون، وسيذكرني كيف حملت باليكوتون في رأسي خلال الحرب: محميةً، ومثاليةً، ولا يمكن المساس بها، بعيدةً عن ويلات الزمن والمستقبل بين الغيوم، تنتظر عودتي.

خلت شوارع لندن من شبانها، وأخيراً، نهضت أمي من سريرها وأخذتني من أجل أن التقط صورة لي؛ لقد فاجأني دخولها إلى المطبخ، وقد ارتدت ملابسها استعداداً للذهاب.

قالت أمي: «ارتدي أجمل فساتينك، سنذهب كي نلتقط لك صورة في فوريست هيل، ونرسلها إلى جنديك الإيرلندي».

لفت شعري حول إصبعها، وأعطتني بعض الفازلين من أجل شفتي ورموشي. آلم ضوء النهار عيني أمي في الحافلة، فهي لم تغادر المنزل منذ فترة طويلة.

قلت: «أوه، أمي».

أمسكت يدي وقالت: «لا تقلقي، سنعتني بك يا ابنتي العزيزة نان؛ لا تبكي، فهو لن يحب رؤية الدموع في صورتك».

أعتقد أن فينبار سيقبل رؤية دموعي، إذ لم يسبق لي أن سمعته يرفض أي شيء، ولكنني ابتسمت أمام آلة التصوير، وكأنني أؤدي واجبي، جالسةً على كرسي المصور، مخلصةً في سعادتي، إذ تخيلت أنني أنظر إلى وجه فينبار المشرق. بعد أيام، عدت وحدي كي أحضر الصورة؛ لقد كانت جميلةً وأجمل مني في الواقع، فقلقت إزاء خيبة أمل فينبار عندما سيراني مجدداً حيث أظهرَت أسناني البيضاء المنتظمة سعادتي عندما ابتسمت. كتبت رسالةً مرفقةً مع الصورة، وحاولت تصغير الخط وتكديس الكلمات معاً، إذ كان الورق شحيحاً في الحرب، وأردت إخبار فينبار حقيقة كل شيء. لم أتوقف عن مراسلته طيلة أربع سنواتٍ، وكأنني أؤدي واجبي تجاهه. كتبت عن حادثة كولين، وكيف أتجنب النظر إلى وجه والدي دوماً، وقد بادلنا المثل. كتبت

أبسط الأمور عن مدرستي وأصدقائي، وكيف جلب منطاد زيبلن – نسبةً إلى أحد مصمميه – الذي يرمي القنابل الحرب إلينا في لندن، وأن ميغس أرادت العمل ممرضة ولكن والدي رفض ذلك، ووافقته أمي هذه المرة. أعترف أن فينبار كان في خطر أكبر، ولكن أرعبتني الهجمات الجوية: «لا شيء أقسى من الهجمات من السماء»، تلك كانت الكلمات التي رسمها قلمي برفق على الورق. تخيلت صورة فينبار ذاتها التي أتذكرها من وقت السلم؛ ابتسم بسهولة كما اعتاد أن يفعل دوماً. أجاب على رسائلي، قائلاً إنه يأمل في الحصول على إجازة كافية، وإنه يدخر بعض المال كي يأتي إلى لندن. لقد وضع صورتي في جيب كمه خلال المعركة وإلى جوار سريره ليلاً، وتصوّرت أنّ حوافها اهترأت وتآكلت. كان يلمس خدي قبل النوم، ويتمنى لي ليلةً سعيدةً، فتمنيت لو امتلكت صورة له. لقد خذل رجلان أختي؛ طالب الفلسفة ثم أبي؛ ولكنني أعرف أن فينبار لن يخذلني، إذ سيجلس في الخنادق واضعاً صورة في جيب كمه، ويفكر في ذلك اليوم على شاطئ باليولينغ، ويلمس شفتيه عندما يتذكر قبلة الوداع.

كتب فينبار: «أنا أحبك يا نان. انتظريني»؛ وكأنني أستطيع فعل شيء سوى انتظاره؛ لقد مثلت تلك الأحرف احتفالاً على الصفحة، إذ لم يسبق له أن تلفظ بهذه الكلمات.

مضت أعوام الحرب الأربعة، وكذلك واحدة من الأخوات الأربع؛ كتبت قصيدةً عن كولين والتي ربحت خمسة شلنات عليها في إحدى المسابقات، وقد نُشِرَت في الصحيفة، ولكن والدي رفض قراءتها.

في صباح أحد الأيام، وبعد ذهاب والدنا إلى العمل، دعتني والدتي وأخواتي إلى غرفة النوم.

قالت: «انظرن هنا»، وفتحت دُرجها السفلي، وأخرجت منه علبة شاي قصديرية، ثم فتحت الغطاء، وأرتنا أين كانت تضع الأموال التي جنتها في متجر بوتونز أند بيتس حيث عملت هناك يوماً أو يومين في الأسبوع، وأعلم أن أمي استغرقت وقتاً طويلاً كي تجمع هذا المبلغ. قالت أمي، وكان صوتها صارماً أكثر من أي وقت مضى: «سنمنع تكرار ما حل بكولين، هل تسمعنني؟ إن وقعت إحداكن في ورطة، فلتأتِ إليّ، وسنأخذ هذه الأموال، ونهرب إلى أمريكا أو أستراليا ونقول إننا أرامل حرب، ونحكي عندما نعود أنكن تزوجتن هناك، وأن أزواجكن توفوا؛ فليذهب والدكن إلى الجحيم. عدنني جميعكن الآن، لا أطيق خسارة ابنة أخرى منكن»، وأخبرتنا أنها ستضع خاتم زواج أمها في العلبة مع العملات الورقية والمعدنية.

وعدناها نحن الثلاث، وأعطيتها الشلنات الخمسة التي ربحتها على قصيدتي كي تضعها في المخبأ مع سائر النقود.

سيطر القلق عليّ عندما وصلت أخبار هجوم المئة يوم، وخاصةً عندما توقفت رسائل فينبار دون سابق تحذير، فحاولت أمي تهدئتي وقالت: «لعل خدمة البريد متوقفة على جبهة القتال. دعينا نهدأ حتى نسمع أخباراً منه».

كثيرة هي الأسباب التي تحملني على القلق؛ وصلت الأخبار السيئة إلى الفتيات والأمهات والآباء واحداً تلو الآخر؛ كنت قد بلغت التاسعة عشرة من عمري حينها، ولكن اعتقد أن قلبي كان أكثر شباباً من ذلك. اهتز العالم حولنا، وتقلبت حال والدتي بين الأم الحيوية الحنونة، والأم الشاحبة الساكنة التي تحدق عبر النافذة.

سألتها: «ماذا تنتظرين يا أميَ؟».

أجابتني: «لا شيء»، وانهمكت في فعل شيء ما، ولكنني علمت أنها

تنتظر قدوم كولين إلى المنزل وهي تمسك يد طفل صغير؛ سيجهل المنطق والحب بعضهما دوماً.

* * *

في يوم الهدنة، احتشد الناس في شوارع لندن كما لم يسبق لهم أن احتشدوا، وذهبت للاحتفال برفقة ميغس، ولويز، وصديقتنا إميلي هاستينغ، وقد عم الضجيج والفرح المكان، حيث عجزنا عن الوقوف إلى جوار بعضنا بسبب الازدحام وحركة الناس.

حاولت وإخوتي وإميلي إمساك أيدي بعضنا كي نشق طريقنا معاً في الشوارع، ولكننا فشلنا في ذلك. كان يفترض بنا أن نخاف ونحن مطوقات بهذا الحشد الهائل من الناس، ولكن السعادة طغت على أنفسنا. لا تستطيع تخيل الفرح والحماسة اللذين خيما حينها، سترفعك مئات الأيدي عندما تسقط، ويتمنى لك الجميع الصحة والعافية عندما تعطس. تعثرت ميغس على الرصيف، فسحبها جندي من ذراعها، ثم رفع قبعته قليلاً من أجلها، وعاد كي يمرح مع رفاقه، أما أنا فبحثت في أوجه الناس عن فينبار، ربما أجده، فربما أكون محظوظة بأن يحضر عندما أستدعيه، كما كنت محظوظة عندما أحبني.

مشت أغاثا كريستي في مكان ما بين الجموع، فأخذت السيدة المتزوجة الوحيدة دروساً قصيرةً كي تشغل نفسها في ظل غياب زوجها في ظلمات الحرب كل ذلك الوقت. أعلنت الهدنة، وسط دوام المدرسة، فانطلق الجميع إلى الخارج كي يحتفلوا، وقد أثار الحشد العظيم دهشتهم مثلنا.

رقصت النساء الإنكليزيات في الطرقات، وفجأةً وجدت نفسي قرب أغاثا مرتين أو ثلاث مرات خلال ذلك اليوم الصاخب، كما فاجأني افتراقي عن ميغس، لقد أفلتُ أصابعها بطريقة ما؛ كان ذلك مضحكاً وليس مخيفاً.

سنلتقي في نهاية الأمر؛ وصلت إلى ساحة ترافالغار، حيث وقفت شاحنة حي نورثامبرلاند والتي كان الجنود محتشدين فيها، وقد عجزت عن قراءة

الإعلانـات المكتوبـة عليهـا. توقفـت الشـاحنة تماماً غير قـادرة على الحراك بسبب الحشد، فقفز جندي عن غطاء محركها فجأةً ووقف أمامي، وقد غطت قبعة الجيش المدببة خاصته شعره الأسود القصير.

كانت حركةً سـريعةً حماسـيةً؛ فمنذ ثوانٍ كان العالم يدور حول الحشـد وليس الأفراد، فقد كان الحشد هائلاً وبالكاد استطعت تمييز نفسي، أما الآن، فهناك شخصان في لندن كلها رغم وجود خمسين شخصاً تقريباً بينهما. وقفتُ وفينبار مقابل بعضنا، وبرق الفرح في أعيننا؛ أوه، وكأنني استدعيته؛ تمني أمنيةً يا نان. يمنح ذلك النوع من الأماني معنىً إلى حياتنا على هذه الأرض، وقد صدر وهج أزرق عن شعره الأسود وسط أجواء لندن الرمادية، كما اعتاد أن يكون في جزيرته الزمردية الخاصة.

حمـل فـي يـده زجاجة شـامبانيا، وصرخ: «هل هذه أنـت؟ هل أنا ثمل؟ هل أحلم؟».

صرخت بأعلى صوتي: «هذه أنا».

أمر فينبار الحشد قائلاً: «ابتعدوا عن طريقي، تلك هي فتاتي، أنا أراها».

هـل يقـوى البحـر الأحمـر على رفض موسـى؟ هل يسـتطيع الحشـد رفض طلب هذا الجندي الوسيم أزرق العينين، الذي عاد إلى الوطن سالماً منتصراً؟

شـق فينبـار طريقـه مرتديـاً بذلته كاكيـة اللون ومنتعلاً جزمته العسـكرية، واحتضنني بين ذراعيه؛ حملني على كتفيه عندما ضاق الحشـد علينا مجدداً، فرأيـت الجماهيـر وقـد مـلأت لندن، وكأن محيطاً من البشـر قـد غمر المدينة وتدفقت مياهه في شـوارعها المفتوحة، وقد أشـرقت وجوه الجميع، وخلت السماء فوقنا من الخطر.

صرخت قائلةً: «لم تخبرنَي أنك قادم إلى لندن».

أنزلني عن كتفيه واحتضنني بين ذراعيه وقال: «لقد اكتشفت ذلك البارحة

فقط. لم يسعفنا الوقت لكتابة الرسائل، ولكنني أدركت أنني سأجدك. إنها معجزة، أليس كذلك؟ كما اعتادت أن تكون». تغير صوت فينبار، وأصبح أعمق، وأكثر خشونةً، وكأن شيئاً أصابه في حنجرته، وشعرت أن باليكوتون قد تنكرت في زي لندن، وجل ما وجب على فينبار فعله هو سؤال صيادي الأسماك عن مكان نان أوديا، وعزيت سبب خشونة صوته حينها إلى صراخه، ولكن تبيّن أنه حالة دائمة نتيجة غاز الخردل السام.

قبلني بشغف، وهتف الجميع حولنا يحتفلون بانتهاء الحرب واجتماعنا معاً، نان وفينبار، كما وجب أن نكون ما لم يفرقنا العالم. كان النصر حليفنا، وأصلح حال العالم، ولذلك نستطيع العودة إلى أنفسنا القديمة السعيدة.

اخترقنا الجمع ونحن نمسك بأيدي بعضنا، وخشيت أن نفترق كما حدث مع ميغس، وقد عجزت عن رؤية الاتجاه الذي نسير فيه أو المتاجر التي نتجاوزها. سحبني فينبار إلى مدخل فندق كبير، فشعرت وكأننا نسقط إلى فقاعة من الفراغ الهادئ، إذ خلا الفندق من نزلائه، وحتى من موظفيه، ولم يقف أحد خلف مكتب الاستقبال، فقد تخلى الجميع عن مواقعهم من أجل الاحتفال في الشوارع. كان البهو شاسعاً جداً ومترفاً أكثر مما أمكنني أن أتخيل يوماً، رأيت أعمدةً حجريةً، وانتصبت أشجار نخيل في أحواض إلى جوارها، والتي بلغت سعفها السقف. اخترقت برودة الأرضية الرخامية حذاءينا. سيتردد صدى صوتنا في المكان لو همسنا حتى، فتجنبنا ذلك، وأسرعنا إلى السلم الكبير الواسع من دون أن يفلت فينبار يدي، وحاول فتح باب كل غرفة نصادفها حتى انفتح أحدها، فدخلنا، وأغلقنا الباب بقوة خلفنا؛ فقاعة داخل فقاعة؛ كانت تلك موهبةً لدى فينبار لم أكتشفها بعد ولكنني سأفعل: إيجاد أماكن من أجل الاختباء وسط أي نوع من الإثارة أو الفوضى.

امتلكنـا حينهـا وقتـاً قصيـراً جـداً مـن أجل الـكلام وذلك خـلال ارتداء ملابسـنا، فاقتـرح فينبـار أن نتـزوج قبل العودة إلـى إيرلندا، ولكنني أعجز عن ذلـك مـن دون مباركـة والدتي، ووعدني أن يرسـل المـال لي من أجل ذهابي إلـى إيرلنـدا. فـي اليوم التالي، التقيته في محطة القطار كي أمنحه قبلة الوداع، واتفقنا أن نتزوج في غضون بضعة أشهر، وإن منعتني والدتي، فسأقبلها وأعتذر منها كثيراً قبل وداعها؛ لقد انتهت الحرب ولا داعي للاستعجال، وقد امتلكنا وقت العالم كله.

لكـن فـي البدايـة، كم اثنين في هذا العالم قابلا بعضهما في تلك اللحظة نفسها؟ فقط نحن. لقد امتلك جيل كامل لحظات كي يستعيد شبابه الضائع، وهذا ما فعلناه في غرفة الفندق التي استولينا عليها، حيث لم نحظَ بوقت من أجل الكلام، باستثناء ما قاله فينبار: «يجب أن أعود إلى فوجي قبل الغروب»، ولذلك تأملنا بعضنا طويلاً ننهل من تفاصيل وجهينا، ووحدتنا، وما نشعر به بسـبب تواجدنـا معـاً. أعطاني فينبار زجاجة الشـامبانيا، فأخـذت جرعةً كبيرةً أحرقـت فقاعاتهـا الدافئـة أنفـي؛ كانـت تلك المـرة الأولى التي أحتسـي فيها الشامبانيا.

ساعدنا بعضنا على النهوض، ثم هوينا إلى سرير واسع لم يسبق أن رأينا مثلـه، ولكننـا وجدنـا الرفاهيـة فقـط في كوننا دون رقابـة أو قيود، ومع بعضنا أخيراً بعد كل ذلك الوقت.

هل اتخذت حينها عبرةً من قصة أختي كولين؟ لا؛ إذ لا يمكن المقارنة بيـن رجلهـا المختفـي وفينبـار الذي يقـف أمامي، وعلمت أنه لـن يهملني أو يتخلى عني أو يخلف وعده ويكذب عليّ.

وكنت محقةً في ذلك.

الاختفاء

اليوم الثاني

الأحد، 5 كانون الأول، 1926

عممت مذكرة عن شخص مفقود على جميع مراكز الشرطة في إنكلترا:

فقدت السيدة أغاثا ماري كريستي من منزلها ستايلز في سونينغيديل، في باركشير. تبلغ من العمر 36 عاماً، وطولها 5 أقدام و6 بوصات؛ ذات شعر أصهب يتخلله بعض الشيب؛ بيضاء البشرة، ومتوسطة البنية؛ ارتدت تنورةً قطنيةً، وسترةً خضراء، ورداءً لونه بين الرمادي والرمادي الداكن، إضافةً إلى قبعة مخملية صغيرة، وخاتم من البلاتين يحمل لؤلؤةً واحدةً؛ دون خاتم زواج؛ وحملت حقيبة يد سوداء ومحفظةً تضم بين 5 إلى 10 جنيهات. غادرت المنزل في سيارتها عند الساعة 9:45 مساءً.

قالت مساء يوم الجمعة إنها ستذهب في سيارتها.

انطلق المحقق فرانك تشيلتون من بريكسهام إلى هاروغيت في مقصورة من الدرجة الثالثة التي يُسمح فيها التدخين، وقد أسعدته تلك الرحلة. لقد أخطأ عندما عاد إلى كوخ والدته الساحلي خلال أشهر الشتاء الباردة التي يتغلغل نسيمها البحري في العظام، ويوقظ برد ليالي الخنادق القديمة من سباته الدائم في جسدك.

أخبره سام ليبينكوت: «يريدون أن يفتش رجال الشرطة الريف كله؛ لقد احتجت مزيداً من الرجال منذ مغادرتك ورحيل جيم كي يقضي شهر عسله».

بعد نصف ساعة من استلام برقية ليبينكوت، قاد تشيلتون دراجته الهوائية إلى منزل كوك كي يستعمل هاتفهم؛ قال ليبينكوت: «لقد فُتشت أصقاع إنكلترا كلها، وكأن ملكتها مفقودة؛ لقد سئمت تقاعدك. تستطيع توزيع صورة السيدة في الأرجاء وتقود دراجةً في الريف. لن تحصل على وظيفة أسهل من البحث عن شخص موجود في مكان آخر حتماً». تقطع صوته عبر الهاتف، فكان يزدري الأمر بطريقة مرحة، وشعر المأمور العجوز بالسعادة لأنه وجد مبرراً كي يستدعي صديقه القديم إلى باركشير سريعاً.

أجاب تشيلتون: «أو أكثر إحباطاً منها»، ولكنه قرر مسبقاً أن يشارك في هذا البحث عديم الجدوى غالباً، إذ يبقى العمل أفضل من العطالة. لقد ترك منصبه في شرطة ليدز منذ ثلاثة أسابيع كي يقضي وقتاً أكثر مع والدته، وما زال يبحث عن وظيفة أخرى، وقد افتقرت بذلته القديمة إلى هيئة بذلات المحققين. لقد كانت أغاثا كاتبة مشهورة جعلت كل رجال الشرطة في إنكلترا يخرجون بحثاً عنها في شتى أنحاء البلاد، ولكن تشيلتون لم يكن يعرفها. أرسلت مراكز الشرطة الرئيسية في باركشير رجالاً كي يفتشوا مدينتي هيدرسفيلد وليدز ولكنهم استثنوا هاروغيت وريبلي؛ فلم يعد لديهم رجال، باستثناء تشيلتون.

قال ليبينكوت: «سنضعك في بيليفورت؛ يملك قريبي وزوجته المكان كما تعلم، وسيسعدهما منحك غرفةً مجانية».

تعرف تشيلتون طبعاً إلى ابن عم ليبينكوت، سيمون ليش، الذي تزوج من فتاة من أنتيغوا، إيزابيل ليش، والتي كانت لطيفةً وتجمع في شخصيتها مزيجاً نادراً من الذكاء والأخلاق الحميدة، ولكن زواجها صدم العائلة، وهدد فندق سيمون، إذ تمثلت إحدى المشكلات في تكليف امرأة سوداء بشؤون مكتب الاستقبال، والمشكلة الأخرى في زواجها من مالك الفندق، وآخرها وجود شخص إضافي يبحث عن السيدة كريستي. لقد احتاج ابن عم ليبينكوت إلى

نزلاء كُثر حيث لا تجر الغرف الفارغة سوى الفراغ. كان أبناء العم مثل الإخوة، وشكّلت تلك فرصةً مناسبةً من أجل مساعدة الفندق وتشيلتون. لم يتوقع أحد العثور على السيدة المفقودة في باركشير، ولكن تشيلتون سيبحث في الأرجاء على أية حال، إذ كان من النوع الدؤوب حتى إن كُلِّفَ بمهمة مستحيلة.

غمرت السعادة ليبينكوت إزاء تقديمه شيئاً كهذا إذ قال لتشيلتون: «قد تضطر إلى العمل في عطلة نهاية الأسبوع، وأنا أشك في حصولك على عرض أفضل خلال وقت قريب».

خلال الحرب، خدم تشيلتون وليبينكوت في الفوج نفسه وقاتلا معاً حتى النهاية. خرج ليبينكوت سليماً بشكل كافٍ كي يؤدي عمله الحالي – ستجد الحرب طريقةً دوماً كي تغير قلوب الرجال – ويحب عائلته، ويسمع صوت إغلاق الباب من دون أن يقفز من مكانه.

راقب تشيلتون أشجار الدردار والحواجز الشجرية خارج نافذة القطار المتجه شمالاً، لقد خلا المكان تقريباً من الناس الذين التزموا بيوتهم إثر هبوب الرياح القوية، وقد عادلت حظوظه في العثور على أغاثا قرب السكك الحديدية، نظيرتها في إيجادها في أي مكان آخر.

كانت ذراع تشيلتون اليسرى ضعيفةً إثر تعرض كتفه إلى الشظايا، واهتزت يده السليمة عندما أشعل سيجارة. قد تعتقد أن عمل المحقق يفوق قدرة رجل ترتجف ذراعه الوحيدة السليمة إثر ذكريات الحرب، وقد تكون محقاً، ولذلك لعل دعوة ليبينكوت إياه من التقاعد مجرد هدية وداع، وليس محاولة لحل الجريمة.

قال ليبينكوت بعد الاتفاق على الأمور كلها: «خذ حماماً خلال المهمة، لعله يفيدك»، وقد أثبت ذلك شكوك تشيلتون.

اشتهرت هاروغيت بحماماتها الحارة الطبيعية، والتي استبعدها تشيلتون من قائمة اهتماماته تماماً عندما سكن قريباً من هنا.

تصاعد الدخان من أنفاس تشيلتون كي يرافق دخان المسافرين الآخرين.

لقد أجاد المهمات عديمة الفائدة، وقد كان ذلك أفضل من تجوال رجل أربعيني عجوز على الشاطئ قرب منزل والدته. لقد خسر تشيلتون أخويه؛ فمات الأصغر، مالكوم، في غاليبولي، أما مايكل، فمات في معركة أراس، حيث قاتل تشيلتون إلى جواره، ومنذ ذلك اليوم، التزم تشيلتون الحفاظ على حياته من أجل والدته رغم أن رائحة الجثث الكريهة في الخنادق لم تفارقه يوماً رافضة تركه وشأنه.

أصبح تشيلتون حراً وصافي الذهن بعد مغادرته لوالدته، ما جعله يلاحق قضية السيدة كريستي والتي بدا أنها انتحرت؛ سيجدونها في قاع إحدى البحيرات؛ فقد توقع أن يجدوا جثتها قريباً من منزلها فور وصوله إلى الفندق، فيقضي ليلةً واحدةً هناك ويعود أدراجه إلى المنزل.

\الانتحار؛ لقد كره تشيلتون هذه الكلمة، ويصعب على امرأة أن تنتحر إن كانت لديها طفلة، ولكنه أدرك من المعلومات التي أطلعه عليها ليبينكوت – والتي يعلمها رجال الشرطة الذين يبحثون جميعاً – أن آل كريستي من سلالة امتلكت عدداً كافياً من الناس كي يعتنوا بالطفلة حتى إنها قد لا تلاحظ غياب والدتها.

لقد كانت والدة تشيلتون تضع أبناءها في السرير بنفسها، وتعد لهم وجبات الطعام، وتداوي جراحهم؛ أطلق القطار صافرة التوقف؛ لقد مرّ تشيلتون ببعض الفترات السعيدة المتباعدة في حياته، والتي تمثلت في أشياء يفتقدها عند مغادرتها، ولقد أحب صوت صافرة القطار. لقد كان القطار يرمز إليه بالعطلة، وفرصةً كي يجمع أفكاره أو يتجرد منها تماماً، ومكاناً يدعك الآخرون وشأنك ويعجزون عن إيجادك فيه، ولعل ذلك ما فعلته أغاثا كريستي، وهذا ما كان سيفعله إن أراد الابتعاد عن العالم، أن يذهب في رحلةً على متنه حول إنكلترا ولا ينزل في أي محطة؛ ففي القطار كل الاحتياجات

متوافرة من المقصورات الخاصة إلى مقصورات الطعام والملجأ من المطر فضلاً عن وجود مسند من أجل إراحة الرأس. سيذهب في رحلة إلى مكان مجهول لو أراد الهرب والاختفاء؛ يشبه ذلك ما يقوم به الآن؛ البحث عن شخص في مكان لن تجده فيه أبداً.

بعد فترة قصيرة، غلب النعاس تشيلتون، فتدلى رأسه إلى الخلف، وفغر فمه بعض الشيء، وبقيت نار السيجارة متقدةً في يده. أُجبرت امرأة في الممر – مسنة كفايةً كي تكون أمه – على الدخول إلى مقصورة المدخنين، وذلك بعد أن نفدت المقاعد في مقصورات غير المدخنين.

نظرت إلى الرجل النائم بلطف؛ لقد امتلك طابعه الخاص، كما يفعل كثيرون هذه الأيام. ستجده رجلاً وسيماً إن قرأت بين سطور ملامحه، فقد امتلك لحيةً كثيفةً شعثاء، ويدين عريضتين جميلتين. اتجهت عبر الممر إليه، وأخذت السيجارة من بين أصابعه، وأطفأتها في منفضة السجائر.

واصل مئة شرطي البحث في سوري وباركشير بين الشجيرات والأدغال في ظل البرد القارص، وعبروا القرى سيراً على الأقدام وهم يوزعون المناشير. عرضت نسخة من تقرير الشخص المفقود على أرتشي كي يؤكد وصف أغاثا الذي فطر قلبه؛ متوسطة البنية، وبيضاء البشرة. لقد رآها خلال شبابهما في قاعات الرقص ترتدي ثوبها الحريري ويزينها النمش الشاحب، وكانت ترقص وتبتسم. ذات مرة، وفي إحدى الحفلات المنزلية، أخذ المضيفون ضيوفهم في جولة على صهوات الأحصنة، وقد ارتدت أغاثا حينها فستانها الوردي ببساطة وليس زي الفروسية، وتطايرت خصلات شعرها المستعارة مع الرياح؛ في ذلك الوقت كانت كل النساء يضعن الشعر المستعار، وقد بدا جميلاً عليها قبل أن ينفصل عن شعرها وتستحيل شنيعةً. نزلت أغاثا عن سرجها كي تجمع شعرها، في حين تشبث أرتشي باللجام جيداً؛ كانت مشاركته في هذه الجولة

مـن بـاب الواجـب وليـس المتعة. توفي والده – الـذي كان قاضياً في الخدمة المدنيـة الهنديـة – إثـر سـقوطه عـن الحصان، حيث أصيب رأسـه، وتحولت الإصابة إلى إنتان. ستدرك من مراقبة أغاثا حينها أن امتطاء الحصان لن يتسبب بوفاتها أبداً، فهي بالنسبة إليها رياضة ممتعة. يا له من مشهد ظهرت فيه أغاثا وهـي تمسـك طـرف فسـتانها وتلتقط شـعرها المسـتعار وهـي تضحك طيلة الوقت، في نهاية المطاف التقطت شـعرها المسـتعار قبل أن تمتطي حصانها مجدداً؛ إنه أمر مبهج ورياضة جميلة. قال أرتشـي في نفسـه: أعجز عن تخيل نان في الموقف نفسه – أن يتطاير شعرها المستعار – مع الضحكات المرحة ذاتهـا. هـل تعرف نان أساسـاً كيفية امتطاء الحصـان؟ يعود ذلك إلى اختلاف البيئة التي تربت فيها. في ذلك الوقت، شق تخيل أي شيء على أرتشي، ففكّر فـي زوجتـه، ومـا أحبـه فيها، لقد أحب نحافتها وأناقتها. هل هذا ما بدت عليه حقـاً؟ لقـد نسـي أن يلاحظ ذلك لسـبب مـا، ولكنه أدركه عندمـا التقيا للمرة الأولى خلال حفلة في تشودليغ. قاد دراجةً نارية بعد أسبوع من ذلك الحفل الراقـص إلـى توركـواي كـي يراها وهـو يعلم أنّها مخطوبة من شـخص آخر، ولكن بالكاد أعاقه ذلك، إذ سـيحصل أرتشـي دوماً على الشـيء الذي خطط الحصول عليه. ربطت أغاثا سريعاً بين هذه السمات مستخدمةً عيني الكاتب. لـم تثـر اهتمامهـا علاقات الحب، وخاصةً في الروايات البوليسـية إذ اعتبرتها عامل إلهاء، ولكنها أضافتها إلى رواياتها لأنها شائعة.

لقد شـعر أرتشـي بتشـتت الذهن، إذ قلب اختفاؤها الأمر عليه، فقد بدا الأمر وكأن الماديات قد تلاشت فور رحيلها وانفجرت الذكريات والمشاعر؛ لقـد شـتته عجـزه عـن رؤيتها، وكأن ذلك سـيحل المشـكلة، وأوحت نظرات مفوض آمر الشـرطة، تومبسـون، وتابعيه إلى أرتشـي أن الدماء لطخت يديه، فأحصـى أرتشـي عـدد الأشـخاص الذين يعرفـون أمر علاقته مـع نان، مقابل من يشـكون في ذلك. يسـتطيع ائتمان آل أوين على أسـراره، ولكن هونوريا

ربمـا أخبـرت الطباخـة المتزوجـة مـن كبير الخدم، وربما لا يـزال الأمر خفياً عن الخادمة الجديدة، على عكس بقية الطاقم الذي تستجوب الشرطة أفراده واحداً تلو الآخر.

أخبر أرتشي مفوض آمر الشرطة قبل أن يطرح أي سؤال: «لقد كان انهياراً عصبياً... أقصد أنها عانت من توتر شديد»، وكأن إعادة صياغة عبارته سيردم الحفرة التي حفرها لنفسه.

ضاقت عينا تومبسـون، وقد أثار اندفاع أرتشـي الشـك في نفسه، إذ فشل الأخيـر فـي ضبط أعصابه. امتلك تومبسـون صدراً بـارزاً كالذي يحصل عليه الرياضيون بعد سنوات من التدريب، وشارباً أشيب مميزاً، وملامح عنيفة ثابتة. بدا أنه يقول في نفسه: إياك أن تكذب عليّ وإلا سأمزقك إرباً.

سأله تومبسون: «هل استشارت طبيباً؟».

أجاب أرتشـي: «طبعاً لا، لم يؤمن أي منا في هذه الأمور. يكمن علاج ذهن المرء في استنشاق الهواء النقي وثباته أمام الصعاب».

أومأ تومبسـون مؤيداً تلك الفكرة، وليس أرتشي.

راقبـت هونوريـا النقـاش عاقـدةً ذراعيها، وكأنها تحاول إبقاء كل شـيء تعرفـه فـي صدرهـا. لقـد كتبـت أغاثـا رسـالتين، إحداهما إلى أرتشـي والتي تلاشت قبل أن يقرأها أحد غيره، والأخرى إلى هونوريا وقالت فيها: «سأذهب خارج توركواي من أجل عطلة نهاية الأسبوع»، فسلمت هونوريا الرسالة إلى الشرطة، ولكنها لم تذكر الجلبة التي وقعت صباح الجمعة، أو خيانة أرتشي. لقد أحبت أغاثا كثيراً، ولكن سـيجعل اختفاء سـيدتها معاشـها في يد أرتشـي الذي كان وغداً، ولكن ليس قاتلاً بالتأكيد؛ على الأرجح؟ أرادت هونوريا أن تستمر في العمل في ستايلز، ورعاية تيدي حتى في حال اختفاء سيدة المنزل إلى الأبد، ولكن ألا تشير الرسالتان إلى أن أغاثا خططت من أجل ما يحدث، هل هي غادرت إلى مكان ما ولم تختفِ؟

سيتجنب الجميع البحث وإن بشكل خاطف في توركواي كي يتأكدوا من وجود أغاثا هناك – لم تكن هناك – لولا العثور على سيارتها مهجورةً، وهي دليل سيئ على وقوع شيء سيئ جداً، ويؤكد فشل أغاثا في الوصول إلى وجهتها أياً كانت.

عندما هربتُ إلى إيرلندا من دون أن أترك رسالة لوالديّ؛ وجدت والدتي أن النقود قد اختفت من علبة الشاي القصديرية خاصتها، ولم تكن تريد أن تعرف أكثر مما عرفت من اختفاء النقود، فتخيلتها تضم العلبة إلى صدرها في حسرة على الجزء الذي حذفته من خطتها، وهو أن آخذها معي.

بعد اختفائي، لم يخرج مئة رجل شرطة كي يبحثوا عني في أنحاء إنكلترا، فقد كانوا في إجازة من عملهم في الجيش، وأخذوا وقتهم قبل أداء واجباتهم، فضلاً عن أنني لم أكن كاتبةً، أو زوجةً، بل مجرد فتاة من عائلة فقيرة لحق بها العار، ذاك النوع من الناس الذين يفقدون كل يوم؛ احتاج العالم مزيداً من رجال الشرطة كي ينطلقوا بحثاً عنا.

على عكس أغاثا كريستي: انطلق في أثرها آلاف بين رجال شرطة ومحليين وكلاب وحتى طائرات يمشطون كل بوصة من كل غابة حتى بعد حلول الظلام حاملين المصابيح؛ بحثوا مراراً وتكراراً وتركز القسم الأكبر منهم في سوري وباركشير على وجه التحديد، ولكن المفتشين انتشروا في شتى أنحاء البلاد، لقد جعلتها قوة عذابها المطلقة أهم إنسان على وجه الأرض.

الاختفاء

اليوم الثالث

الاثنين، 6 كانون الأول، 1926

برقية خاصة إلى نيويورك تايمز

اختفت السيدة أغاثا كريستي من منزلها في إنكلترا في ظل ظروف غامضة.

لندن، 5 كانون الأول

لقد اختفت السيدة أغاثا كلاريسا كريستي، الكاتبة الروائية، وابنة الراحل فريدريك ميلر وزوجة العقيد أرتشيبالد كريستي من منزلها في سونينغديل في باركشير في ظل ظروف غامضة، وقد بحث عنها عبثاً مئات رجال الشرطة خلال عطلة نهاية الأسبوع.

في وقت متأخر من مساء الجمعة، حزمت أغاثا ملابسها في حقيبة صغيرة، وخرجت وحيدةً في سيارة ذات مقعدين تاركةً ملاحظةً من أجل سكرتيرتها مشيرةً فيها إلى أنها لن تعود تلك الليلة.

ووجدت سيارة الكاتبة الروائية عند الساعة الثامنة من صباح الأمس مهجورةً قرب غايدفورد عند حافة أحد المحاجر، وقد تجاوزت عجلتاها الأماميتان الحافة بالفعل، واتضح أن السيارة كانت في طريقها إلى الهاوية لولا وجود بعض الشجيرات الكثيفة التي أوقفتها. عثر في السيارة على بعض الملابس وحقيبة صغيرة تحتوي بعض الأوراق، وقد أرسلت السلطات كل

رجال الشرطة المتاحين من أجل إجراء بحث مرهق غطى أميالاً من دون إيجاد أغاثا أو إيجاد دليل يقود إليها.

صرّح العقيد كريستي أنّ زوجته تعاني من انهيار عصبي، وأشارت صديقة أغاثا إلى أنّها كانت سعيدة في حياتها الزوجية وقد كرّست نفسها من أجل طفلتها الوحيدة.

ملأ رجال الشرطة الستايلز طوال عطلة نهاية الأسبوع، وتلاهم المراسلون. استسلمت خادمة قاعة الاستقبال الجديدة، أنّا، أمام وابل الأسئلة المتواصلة، وأخبرت رجلَ شرطة وسيماً عن الخلاف الذي دار بين الزوجين كريستي صباح اليوم الذي اختفت فيه أغاثا.

قالت وهي تبكي: «لم تعد على سجيتها منذ ذلك الحين، وما الذي استطاعت فعله؟ لقد كان قاسياً في كلامه معها».

ربت الشرطي على كتفها محاولاً تهدئتها، فاقتربت أنّا منه محتضنة إياه فقال: «اهدأي، إن الرجال مثل الكلاب، أليس كذلك؟».

رفعت وجهها الجميل التي غطته الدموع وقالت: «تبدو لطيفاً».

أجابها: «أعتقد ذلك»، وكأنه قرر أن يكون لطيفاً في تلك اللحظة.

بعد استراحة لطيفة، اصطحب الشرطي أنّا – لقد تزوجا في شهر شباط التالي – إلى مركز الشرطة الرئيسي في باركشير من أجل إيفاد المعلومات الجديدة إلى مفوض آمر الشرطة تومبسون الذي أغضبه وصول هذه المعلومة بعد عطلة نهاية أسبوع كاملة من البحث المكثف؛ لقد كان الأمر سيئاً أن تظهر هذه المعلومة الآن وتتداولها وسائل الإعلام.

سأل الشرطي الشاب: «هلِ تعتقد أن العقيد قد قتل السيدة العجوز؟».

تنهد تومبسون بحسرة؛ يعتقد الشبان أن كل شخص يكبرهم دقيقةً من

العمر يغدو عجوزاً، أليس كذلك؟ يجهل هذا الشاب أن سن السادسة والثلاثين ستدركه في لمح البصر. امتلك تومبسون ابنةً في مثل سن ابنة أغاثا، وقد ولدت في العام والشهر نفسهما، وقد كره فكرة أن يصيبها مكروه.

أجابه تومبسون: «لا نستطيع الجزم، أليس كذلك؟».

همست أنّا محاولةً إضفاء الإثارة على الموقف: «ولكن يا سيدي...».

قال تومبسون: «إن أردت قول شيء فارفعي صوتك كي أسمعك»، لم يقصد أن يكون رده عنيفاً، ولكنه كره الأشخاص الذين يتحدثون همساً.

تابعت أنّا قائلة: «أعتقد أن هناك سيدة أخرى متورطة في الأمر».

سمع تومبسون كلماتها تماماً رغم أن صوتها بقي على حاله، واكفهر وجهه، إذ كان سيعصر رقبة زوج ابنته المستقبلي لو تجرأ على فعل شيء كهذا معها، فوقف على قدميه وقال: «أفضل العودة إلى الستايلز كي أتحدث إلى العقيد كريستي».

قالت أنّا: «أوه، لقد غادر إلى لندن كي يطلب تدخل سكوتلاند يارد».

صرخ تومبسون: «سكوتلاند يارد؟»، وكأنهم جهة خاصةً يوكلها الأثرياء؛ سيسوء الأمر أكثر إن عجزت شرطة باركشير عن التعامل مع القضية بمفردها، سبق لتومبسون أن رأى في تومبسون رجلاً متعجرفاً، وأصبح الآن يراه وغداً متعجرفاً، ولا شيء يثير الشك حول رجل مثل وجود زانية في الوسط، وقد ازداد خوف تومبسون على حياة أغاثا كريستي.

لم يعلم أرتشي أن أمره قد كشف، فجل ما علمه أن شرطة سوري وباركشير عديمة الفائدة إذ فشلوا في العثور على أي خيط يقود إلى أغاثا حتى لو كان خصلةً من شعرها. لقد أسعده من جهة عدم معرفتهم شيئاً عن خيانته، وأثبت وجود خلل في كفاءة تحقيقاتهم، لذلك طلب أرتشي

من محاميه أن يرتب موعداً مع سكوتلاند يارد، التي تبين أنها مجرد طريق مسدود آخر.

هزّ المحقق الشاب النحيل رأسه – الذي أوحى جسده النحيل أن مجرد تناول الطعام سيرهقه – وقال: «أنا آسف أيها العقيد. إن طلبت الشرطة المحلية مساعدتنا، فسنكون على أهبة الاستعداد، أما إلى ذلك الحين...»، ورفع يديه في الهواء مشيراً إلى عجزه عن فعل أي شيء؛ لعله تقلد هذه الوظيفة منذ وقت قصير، ولكن الخلافات الزوجية وغياب الزوجة خارج صلاحياته.

كره أرتشي الانصياع إلى عواطفه، ولكنه فعل ذلك، فرفع يده إلى جبينه كي يخفي عينيه، ثم خفضها سريعاً خوفاً من أن يعتقد المحقق أنه يبكي. فكّر أرتشي في ليلته الأخيرة مع زوجته على نحو معاكس؛ لماذا تبع شهواته؟ ألم تكن أغاثا ستأخذ الأمور بشكل أفضل لو غادر وحده دون تلك الجلبة؟ ماذا لو لم ينجذب إلى نان في المقام الأول عندما رآها عن بعد في ملعب الغولف؟ بعد ظهر اليوم نفسه، وجدها تحتسي الجين والمشروبات الغازية في الفناء، فاتجه صوبها، وكأنه امتلك كل الحق في فعل ذلك، مدّت يدها كي تصافحه وقد أزعج ضوء الشمس عينيها، بدت رزينةً وذكيةً، وارتسمت ابتسامة على شفتيها، وكأنها علمت كل شيء سيحدث وقالت: كيف حالك أيها العقيد كريستي. كان صوتها منخفضاً ومتناغماً بشكل جميل، لقد فاجأه أنها سكرتيرة ستان.

لقد كانت غلطةً شنيعةً؛ لقد استعملت نان سلوكياتها المكتسبة من أجل التقرب إلى ابنة رئيسها في العمل وبذلك انضمت إلى النادي الرياضي. كان يفترض به أن يترك ضيفة ستان وشأنها، ولا يهتم بها شخصياً. لقد كانت بخلاف أغاثا التي لم تكتسب أي سلوكيات أخلاقية بل ولدت معها، من دون الحاجة إلى اكتسابها، إذ انحدرت من عالم أرتشي نفسه، فكانا متوافقين. بدت نان وسط هذه المشكلة العائلية الطارئة شخصاً غريباً أجنبياً مزعجاً في أسوأ

الحالات، ومن دون صلة في أفضلها.

أزعج ضوء النهار في المدينة عيني أرتشي، وقد وقف على الرصيف حائراً في حين تسارع الناس حوله. التقت عيناه بعيني امرأة تسير على الرصيف المقابل من الشارع، كانت طويلة القامة نسبياً وبدت خطواتها متميزة، لكنه أدرك أنها ليست زوجته، ولكنها كانت تشبهها في كل شيء، فوجد نفسه يعبر الشارع متوجهاً إليها. ارتدت المرأة معطفاً أسود من الفرو؛ لقد امتلكت أغاثا واحداً مثله طبعاً؛ وتجاوزت شارعين قبل أن تنعطف، فسلك أرتشي الطريق نفسه، ولكنه لم يرها، لقد اختفت وكأنها تلاشت.

هذا غير منطقي، فلعلها دخلت إلى أحد المباني. عاد أرتشي إلى سيارته بعد أن فقد أثرها، ثم توجه إلى شقتي حيث ركن سيارته في الشارع وحدق إلى نافذة غرفتي التي خلت من الحياة، ربما لأنني كنت في العمل، وأي عمل وسط هذه الفوضى، وأي رفاهية في الادعاء أنني أعمل كالمعتاد؟ ربما كان يفترض به أن يتوجه إلى مكتبه مباشرةً، لعل الأمور سارت على نحو طبيعي لو تصرف وكأنها كذلك. ستعود أغاثا، وتدخل من دون أن تطرق الباب كما فعلت الأسبوع الماضي، ستكون أنيقةً، ومرحةً، وستبذل قصارى جهدها من أجله. ستجده وحيداً هذه المرة، وسيحتضنها بين ذراعيه، ويمنحها قبلةً ملائمةً ويقول: سأود طبعاً أن أتناول الغداء مع زوجتي الحسناء.

كيف فاتته خطة أغاثا؟ وهل اكتشفها ولم يهتم؟ لقد كان متحفظاً وغيوراً جداً على أغاثا في السابق، إذ عجز حتى عن احتمال سماعها تتحدث إلى النادل، وأخبرها أنه لا يريد إنجاب فتىً لأنه لا يرغب في رؤيتها تحب رجلاً آخر؛ لم يردها أن تحب ذكراً سواه.

ترجل من السيارة، ووضع يديه في جيبيه، وحدّق إلى النافذة ينتظر إشارةً على وجود أحد كي يصعد ويطرق الباب مدركاً أنني إن فتحته – رغم حقيقة مشاعره ورغبته في إيجاد زوجته وتغيير أسلوبه الطائش معها – فسيحتضنني

بين ذراعيه، ويزيل تلك الفوضى الهائلة عن كاهليه ولو قليلاً. لقد استحق ذلك، لن يغير شيء ما فعله أرتشي حتى عودة أغاثا إلى المنزل، ولو أدرك أن تلك الليلة في منزل آل أوين ستكون آخر مرة يضاجعني فيها، حسناً، كان سيستمتع فيها أكثر، كما فعل مع أغاثا.

مرت امرأة ترتدي معطفاً شتوياً بالياً مسرعةً أمام أرتشي، وعبست في وجهه، وكأنها قرأت أفكاره، فأشاح نظره عنها ناحية نافذتي مترقباً حركة الظلال في المنزل.

خيّم الهدوء وراء النافذة؛ فهل علم أرتشي أنني لا أحبه؟ لا، فهو لم يكن من الرجال الذين يدركون أموراً كهذه.

التفت عائداً إلى سيارته، لقد أثقلته فكرة وفاة أغاثا في مكان ما، أو أن يصيبها مكروه وهي وحدها. أحاول تصور سعادته عندما منحته أغاثا قلبها، لقد مضى وقت طويل منذ أن شعر أن الحظ حليفه بدلاً من الإيمان في أحقية امتلاكه العالم من دون أن يقول حتى كلمة شكراً.

تلك الليلة، فعل أرتشي في ستايلز شيئاً لم يفعله منذ ولادة تيدي ذات السنوات السبع، لقد وضعها في سريرها.

سألته تيدي: «ما الخطب يا والدي؟»، لقد أزعجها جلوسه على سريرها بدلاً من أن يسعدها. كان يرتدي قميصه، وقد بدا الندم في عينيه، وجلس بيتر ساكناً إلى جوارها؛ لقد طمأنها وجود الكلب دوماً، إذ أطبقت يدها حينها على فرائه الخشن.

مسّد أرتشي جبهتها، وأجابها: «كل شيء بخير يا عزيزتي. أريد فقط أن أتمنى ليلةً سعيدةً من أجل طفلتي الصغيرة. هل أخطأت في ذلك؟».

قالت تيدي: «لا»، ووضعت ذقنها أعلى أغطيتها وحدقت إلى الظلام، وتمنت في نفسها أن يذهب ويأخذ غرابته معه. يكره الطفل أن يشعر أنه مسؤول عن حالة البالغ العاطفية، وكانت تيدي ستطلب منه قراءة صفحات

من الدب ويني لو كان مرتاحاً ولم تكن رائحة الويسكي تفوح من أنفاسه، لقد قرأت هونوريا لها الكتاب كاملاً، ولكن تيدي أرادت أن يقرأه أحد لها مجدداً، وقد أرهقتها كثيراً محاولاتها الفردية في قراءته.

سألت تيدي: «هل ستعود والدتي؟».

أجابها بحدة شديدة: «طبعاً ستعود؛ تعود الأمهات دوماً، أليس كذلك؟».

قالت تيدي: «أقصد الليلة».

قال أرتشي: «لا، لا، أنا آسف، لا أعتقد أنها ستعود الليلة». لا سبيل من أجل إخفاء أن البحث عن والدتها المفقودة هو سبب كل تلك الجلبة التي تحيط بها سوى عن طريق نفي الحقيقة، وهي ستعجز عن الحفاظ على أي خدعة طويلاً عندما يخرج شعب إنكلترا كاملاً من أجل البحث.

قبّل جبينها وقال: «حسناً، نامي جيداً يا تيدي».

أغمضت تيدي عينيها، متظاهرةً أن القبلة أرسلتها إلى نوم عميق مباشرةً.

لقد بدأ يومي ذاك بعيداً عن كل هذا الصخب، فوصلت في الليلة السابقة إلى فندق بيليفورت الهادئ، لقد كان المكان المثالي من أجل شخص يحتاج أن يتوارى عن الأنظار فترةً من الزمن، فرحبّت موظفة مكتب الاستقبال بقدومي بحرارة، وأدركت من لهجتها وهيئتها أنها من الهند الغربية.

قالت الموظفة، وقد كان وقع صوتها الكاريبي جميلاً: «أدعى السيدة ليش. تأكدي فقط من إعلامي إن احتجت إلى أي شيء».

ناولتني قلم حبر من أجل التوقيع على السجل، فتمهلت قليلاً، وتذكرت أنني حجزت تحت اسم السيدة أوديا. لن يكون ملائماً أن تقيم امرأة شابة عزباء وحيدةً في فندق، ووجدت نفسي أكتب اسماً إضافياً: «السيدة جينيفييف أوديا». شعرت كأن شيئاً أحرق حلقي؛ لقد أطلقت اسم جينيفييف على ابنتي

المتوفاة؛ ربما وجب أن أكتب جينيفيف ماهوني، كي أراه مكتوباً وإن لمرة واحدة فقط.

قلت: «شكراً لك يا سيدة ليش. هل يمكن أن أتناول العشاء في غرفتي؟».

أجابت: «أجل تستطيعين طبعاً. سأرسل عشاءً لذيذاً من أجلك».

تراجعت امرأة عن صعود الدرج واندفعت إلى مكتب الاستقبال؛ كانت ترتدي رداء الفندق الخاص؛ وقالت: «عشاء في الغرفة؟ هذا مثالي تماماً، نريد ذلك أيضاً من فضلك».

أجابت السيدة ليش: «بالطبع يا سيدة مارستون».

التفتت السيدة مارستون صوبي؛ كانت في سن أغاثا – أو تكبرها بعام أو عامين – وذات وجه بيضاوي مبتهج، وخدين ورديين؛ وقالت: «أقضي أنا والسيد مارستون شهر عسلنا هنا، ونحتاج إلى البقاء نشيطين كما تعلمين»، كانت تنظر إلى وجهي مباشرةً، ولكنني أشك في أنها تبيّنت ملامحي.

تبادلتُ والسيدة ليش نظرةً سريعةً تشاركنا فيها نفورنا من التفكير أكثر في ذلك الأمر.

حل الصباح سريعاً، وعلمت أنني لا أستطيع المكوث في غرفتي إلى الأبد، ولذلك اتجهت إلى الطابق السفلي من أجل تناول وجبة الفطور. كان فندق بيليفورت مريحاً ويمكن وصفه بأقل من ممتاز؛ إذ لن يلائم مشهداً من إحدى روايات أغاثا، على عكس إدوارد مورغان فورستر الذي كان سيحبه؛ كانت الكراسي مريحةً عند الجلوس عليها، ولكن أذرعها مهترئة. اتجهت إلى غرفة الطعام، وجلست إلى مائدة، وطلبت من النادلة المسنة إحضار المزيد من الكريما.

سألتني فتاة أمريكية: «هل تمانعين انضمامي إليك؟».

نظرت إليها؛ لقد كانت في مثل سني تقريباً، وشعرها أشقر، وأوحت ملامحها بالعزم والذكاء. توافرت مقاعد إضافية على طاولات شاغرة، ولكن

أومأت موافقةً بدلاً من الإشارة إلى ذلك، فجلست قبالتي، وابتسمت.

قالت الفتاة، وقد رفعت صوتها أكثر من اللازم كما يفعل الأمريكيون عادةً: «أدعى ليزي كلارك، وقد جئت إلى هنا مع زوجي، لا يزال ذلك الكسول نائماً، لقد أفقدته المياه الحارة صوابه تماماً»، وضحكت، وعلا صوتها كثيراً مرةً أخرى.

نظرت إلى الطاولات المجاورة كي أرى إن ضايقت أحدهم، ولكنها أدركت من ذلك أنني أطلب منها أن تعرفني إلى زملائنا الضيوف، فأشارت إلى امرأة ساحرة الجمال، ذات شعر أشقر جداً إلى حد البياض، وقد أشار شبابها إلى أنها قضت طفولتها خلال الحرب. قالت ليزي: «تدعى السيدة ريس».

جلست السيدة ريس وحيدةً تحدق بكآبة خارج النافذة.

قلت: «إنها جميلة جداً، يجب أن تكون برفقة أحدهم هنا، أليس كذلك؟»، جاء وقع كلماتي لطيفاً كفايةً كي تأخذها ليز كإطراء عليها، وأجابتني: «أجل، لقد جاءت إلى هنا برفقة زوجها، إنهما يقضيان شهر العسل».

قلت: «لقد التقيت امرأةً أخرى تمضي شهر عسلها هنا أيضاً».

قالت ليز: «أجل، لقد التقيت بها أيضاً؛ كانت أسعد من تلك، إذ يبدو أنها وزوجها يتشاجران فقط. يمكن القول إن الأزواج كبار السن يبتهجون في شهر عسلهم، على عكس اليافعين. إن افتقار شهر العسل إلى الفرح أمر مؤسف، أليس كذلك؟».

نظرت مجدداً إلى العروس الشابة التي ارتعشت شفتها السفلى.

ابتسمت وقلت: «تحبين مراقبة الناس، أليس كذلك؟».

اعترفت ليز قائلة: «إنها هوايتي المفضلة»، وأطلقت ضحكةً تعبّر عن انتقاصها من نفسها، وهذا ما جعلني أحبها.

صادف وقتها دخول الزوجين الكبيرين في السن اللذين يقضيان شهر عسلهما، وأقصد السيد والسيدة مارستون، فجلسا إلى طاولة بعيدة في طرف

غرفة الطعام، وشرعت أراقب بعض الناس شخصياً. امتلكت السيدة مارستون شعراً أسود تخللته بعض الخصلات الرمادية، وظهراً عريضاً. حدقتُ مباشرةً إلى زوجها، السيد مارستون، من أعلى كتفها، والذي كان ممتلئ الخدين، وأحمر الوجه، ولم يبدُ أنه رآني، فلم يكن ينظر إلّا إلى زوجته. هذا لطيف.

بعد انتهائنا من تناول الطعام، سألتني ليزي: «أخبريني. هل ستذهبين إلى الحمامات؟ هل تودين أن نتنزه قليلاً قبل ذلك؟ يمكننا أن نخرج في هذا الطقس البارد وبذلك سيغدو حمام الماء الساخن أفضل كثيراً».

وقفت ليزي مباشرةً، فدفعت كرسيي إلى الخلف، ووقفت بدوري، غادرنا غرفة الطعام معاً، وتوجهنا إلى غرفتينا كي نرتدي ملابس تقينا البرد قبل الخروج في مغامرة على الطريق قارس البرودة، كانت فكرةً جيدةً أن نخرج في البرد قبل الاستحمام في فندق بيليفورت، ولكن سيصيبنا الزكام رغم معطفينا وقبعتينا وقفازاتنا.

سألتها في طريقنا؛ إن كانت صريحةً معي، فسأستطيع مبادلتها الصراحة: «كيف يبدو زوجك؟».

لفّت ذراعها حول ذراعي عندما ابتعدنا عن أنظار رفاقنا النزلاء وكأننا صديقتان قديمتان وقالت: «إنه لطيف. أنا أنصح الزواج من رجل أمريكي، فهم أكثر عاطفةً ويجيدون التعبير عن مشاعرهم على عكس البريطانيين».

قلت لها: «لطف منك أن تتحدثي عن زوجك هكذا على عكس معظم النساء اللواتي يشتكين من أزواجهن ويبخّسنهم حقهم، ثم يفاجأهن برحيلهم مع نساء أخريات».

ضحكت ليزي، وتوقفت كي تشعل سيجارةً، ووضعت يدها ذات القفاز حول لهب عود الثقاب كي لا ينطفئ، ثم قالت: «إن أصابت الزوجة في شكواها حول زوجها، فستشتكي تلك التي هرب معها من الأمور نفسها تماماً. أليس صحيحاً؟».

عدّلت وضعية قبعتي، إذ عانيت الأمرّين كي أبدو محترمةً ومتماسكةً مثل سيدة متزوجة لائقة تقضي عطلتها؛ لقد كنت هادئةً، وأروّح عن نفسي ببساطة من دون الهروب من شيء.

أشاحت ليزي نظرها عني إلى نهاية الطريق حيث رأت رجلاً شاباً يمشي ناحيتنا؛ كان طويل القامة رشيق الخطوات، وقد بدا متجهاً إلينا مباشرةً وكانت تفصلنا عنه مئة قدم، بدا وكأنه ينقل خبراً طارئاً.

تمتمت ليزي: «يبدو أنه ليس بخير».

ركّزت على الرجل من دون الالتفات إليها، إذ كان انطباعي عكس انطباع ليزي تماماً، بدا أنه ينظر إليّ مباشرةً. إن الشيء الوحيد الذي يتطلب مني سيطرةً مفاجئةً وسرعة بديهة هو محاولة إبقاء صوتي حيادياً، فقلت: «تكمن المفاجأة في أنني أعرفه. هل تمانعين أن تمنحينا بعض الوقت؟».

ارتجفت ليزي قليلاً وقالت: «لا، على الإطلاق، فأنا مستعدة تقريباً من أجل المياه الساخنة. سأراك في الحمامات، أليس كذلك؟».

بدأت أمشي ناحية الرجل وأجبتها: «أجل ربما».

قالت ليزي: «تذكري ألا تثقي في الغرباء سريعاً».

قلت من دون أن ألتفت إليها: «شكراً، شكراً على التذكير».

مشيت سريعاً إلى الرجل كما اعتدت عندما كنت صغيرةً، إذ يشبه ذلك الركض إلى أفضل لحظات الماضي. أخيراً، أرادت السماء أن تمنحني هديةً في الوقت الذي أصبحت فيه غير جديرة بها.

ارتدى سترةً من صوف أران، وفوقها معطفاً يشبه معطف البحارة، وترك أزراره مفتوحةً رغم البرد. غطى شعره الأسود جبينه وقد انطفأت السعادة في عينيه اللتين لا يزال لونهما الأزرق المتدرج الألطف على الإطلاق. كان كعب حذائي قصيراً ويناسب المشي لا الجري كما فعلت حينها، ولكن انفتح معطفي ومنعني من الإسراع إليه. أعلم أنه سيحملني إن هويت إلى ذراعيه

ويديرني في الهواء، ولكن أوقفني شيء ما قبل خطوات منه، ونظرت إليه كي أتأكد أنه حقيقة، إذ شعرت أن ذلك أهم من احتضانه.

قلت: «فينبار، يا إلهي، هذا أنت».

أمسك يدي، ووضع راحتها على شفتيه، وقبّلها ثلاث مرات وقال: «مرحباً يا نان، لقد اشتقت إليك».

استمر البحث الحثيث في باركشير وسوري عن امرأة متوفاة، وشمل سايلنت بول، والأدغال، والخنادق، ونبحت الكلاب وهي تشتم الأرض؛ يعني إيجاد جثة أغاثا قرب المنزل أنها انتحرت أو قتلها شخص آخر.

حققت السلطات الإنكليزية في مناطق أخرى وبحثت عنها، فربما كانت تختبئ في مكان ما. أخذ رجال الشرطة يعرضون صور أغاثا على نزلاء الفنادق ومالكيها من لاند إيند إلى كولدستريم. هل رأيتم هذه السيدة؟كان تشيلتون أحد الكثيرين الذين خرجوا في هذه المهمة، إذ كلّف أن يبحث عنها، فوضع خطته من أجل ذلك. تصرف عند وصوله في اليوم السابق وكأنه نزيل عادي، وتناول العشاء في غرفة الطعام مع النزلاء الآخرين قليلي العدد، واصطحبته السيدة ليش إلى طاولة، وأجلسته مقابل فتاة شابة جميلة ذات شعر أسود كثيف، وأخبرته أن اسمها الآنسة كورنيليا أرمسترونغ.

قال تشيلتون للفتاة مباشرةً قبل أن يستطيع منع نفسه: «أنت لست وحدك هنا طبعاً، أليس كذلك؟».

ابتسمت الآنسة أرمسترونغ، وكأنها وجدت في ارتباكه أطراءً وقالت: «لماذا طبعاً؟ ألا تعلم أننا في العام 1926؟ لقد ذهب الشبان في سني إلى الحرب، وأنا متأكدة من قدرتي على الاستمتاع في الفندق».

ابتسم تشيلتون، وربتت زَوجة صاحب الفندق على الطاولة وكأن بداية الحديث المثيرة قد أسعدته.

قالت السيدة ليش مترددةً قبل أن ترسم على محياها ابتسامة مصطنعةً: «تأكد من إخبار أصدقائك أي الفنادق في هاروغيت هو الأفضل».

قضى تشيلتون أمسيةً مقبولةً علمته فيها الآنسة أرمسترونغ المزيد عن حق الاقتراع. في صباح يوم الاثنين، رافق تشيلتون السيد ليش مباشرةً إلى مركز شرطة ليدز الرئيسي في المدينة، الذي كان على حاله منذ أن غادره، وقد اعتاد ليبينكوت إبقاء بابه مفتوحاً دوماً، فاصطحب تشيلتون إلى مكتبه وقال له: «لقد وُفِّقتَ في اختيار وقت تقاعدك، إذ وقعت جريمة القرن في الميعاد نفسه».

ضحك الاثنان وقد اتفقا على عدم وجود جريمة أساساً، بل مجرد سيدة مشهورة فقدت في ظل هدوء الأحداث في العالم، فخلقت مسرحيةً سخيفةً في الشتاء. لقد تكدست الأوراق لدى ليبينكوت الذي أعطى تشيلتون بعض نشرات الشرطة وصورة أغاثا التي حصل عليها من ناشرها، والتي أصبحت مئات الأيدي تحملها في شتى أنحاء إنكلترا.

نظر تشيلتون إلى صورة أغاثا – بدت فيها حزينةً وجميلةً – وندم على ضحكه وقال: «سيتملكها الإحراج الشديد إزاء هذه الجلبة إن كانت على قيد الحياة». أدرك تشيلتون أن لديها أسبابها الخاصة، ولا شك في أن الانتحار عمل قاس، ولكن ضرورة الرحيل تفوق في بعض الأحيان جميع مبررات البقاء.

كشف ليبينكوت نظريته الساخرة والأقل مأساوية في الوقت نفسه قائلاً: «تريد أغاثا أن تبيع مزيداً من الكتب، سيتعرف إلى اسمها بعض القراء مع حلول يوم الجمعة، وإن بقيت في مخبئها أكثر من ذلك، فسيغدو اسمها على كل لسان حول العالم».

سأل تشيلتون: «أتعتقد أنها حيلة دعائية؟».

أجاب ليبينكوت: «أجل، حيلة من نوع ما، ولكنني أعلم أنك تأخذ الأمر على محمل الجد، ولذلك أردت عودتك، إذ يجب أن نتعامل مع الأمر على

أنه حقيقي، إذ يجهل الجميع مكان هذه المرأة ويمكن أن تكون في أي مكان».

وافقه تشيلتون، وأدى تحيةً عسكريةً على سبيل المزاح، ولكنها أدخلتهما في لحظة كئيبة، إذ شهدا الكثير معاً عندما كانت هذه التحية عادةً يوميةً.

قال ليبينكوت: «ولكن، اسمع يا تشيلتون، أستطيع توفير غرفة مجانية من أجلك بفضل ابن عمي، وسأمنحك سيارة شرطة كي تستخدمها في البحث. لقد تقاعدت مبكراً جداً، فعجزنا عن منحك مناوبةً فاخرة أو شيئاً من هذا القبيل. اعتبر نفسك في عطلة جزئياً؛ ابحث عن أغاثا كريستي، واذهب إلى حمامات المياه في الوقت نفسه، واستمتع في الفندق، وتناول طعاماً جيداً، واحصل على تدليك مريح أرجوك».

عجز تشيلتون عن تخيل نفسه وهو يخضع للتدليك وقال: «هل تعلم أنني قضيت سبع سنوات في باركشير ولم أفكر في الذهاب إلى الحمامات». علم تشيلتون تماماً أن الأمر سيان بالنسبة إلى ليبينكوت، ولعله تمنى النجاح من أجل فندق ابن عمه، ولكن لا يحتمل أنه سيزوره مجدداً.

أجاب ليبينكوت: «حسناً إذاً؛ لقد حان وقت العمل».

فقدت إحساس برودة النهار عندما انجلت السماء وبدت زرقاء صافية؛ لقد رأيت فينبار ولا شيء آخر؛ أمسك مرفقي بلطف وأمالني قليلاً كي يرى إن غادرت ليزي كلارك المكان.

قلت له: «اطمئن»، ولكن بدا أنه لم يسمعني، وأخذني خارج الطريق عبر الأدغال إلى منطقة من شجيرات البتولا. لعل هذا النوع من الجولات سيكون مفيداً إن أعادنا الزمن إلى شبابنا في إيرلندا حيث سيختبر قدرتي على اللعب.

سألته: «ماذا تفعل يا فينبار؟».

هدأ صوته الأجش الذي خلّفته الحرب من روعي: «أود سؤالك الشيء نفسه».

سألته مجدداً: «أنا في عطلة، كيف وجدتني؟».

أجابني: «انسي أمر ذلك، ما يهم حقاً هو ما سيحدث لاحقاً بيننا؛ سنترك مؤامرتك تلك وراءنا، ونذهب إلى وطننا في باليكوتون».

تشتت أفكاري فور رؤيته، ولكنها أصبحت أكثر وضوحاً الآن، فسحبت ذراعي من قبضته، وقلت له: «لم تكن باليكوتون موطني، ولن تكون أبداً».

قال فينبار: «كانت وستصبح كذلك. لقد توفي والدي يا نان، كما ادخرت بعض المال من أجل شراء منزل صغير حيث أستطيع تربية الكلاب؛ نستطيع الذهاب إلى المنزل معاً».

أدركت من طريقة كلامه أن والدته توفيت هي الأخرى، ربما قبل زمن طويل، وتصورت المنزل الذي قصده، والطريق إلى ساندي كورنر. علمت أنني يجب أن أعزيه بسبب وفاة والديه، ولكنني لست آسفةً عليهما، ولن أكون أبداً.

قال فينبار: «اسمعيني يا نان، لا تستطيعين الخوض في هذا الأمر، إنه خطأ ولا يمكنك متابعته. أنت تنتمين إليّ، وليس إلى رجل متزوج».

أدركت أنه تلقى رسالتي، وكان هذا ردّه؛ لقد أخطأت في الكتابة إليه، لقد كانت لحظة ضعف.

أجبته وتمنيت أن يبدو صوتي حزيناً أكثر منه موبخاً: «لقد فات الأوان، تأخرت كثيراً».

طوق خصري بذراعه بثبات ورفق، وسحبني إلى مكان أبعد في الغابة، وأوشكت قبعتي أن تسقط، ولكنه شدها على رأسي كي تغطي أذني الحمراوين بسبب الغضب والبرد.

أرادني أن أبقى دافئة؛ لقد فتحنا الأبواب بعد احتفالات الهدنة في لندن

أمام شغف تراكم سنوات طويلةً، ولكنه توقف حينها قليلاً كي يعدل وضعية الوسادة تحت رأسي.

كانت تلك ثالث مرة أراه فيها، أولها في باليكوتون عندما عاني من الهذيان بسبب الإنفلونزا، وثانيها بعد عام من مغادرتي إيرلندا إلى الأبد، وقد جاء أخيراً من أجل لقائي في لندن وإقناعي بالذهاب معه إلى أستراليا، ولكنني رفضت ذلك.

بدا أنه فينبار القديم نفسه الذي مارس الحب معي في يوم احتفال الهدنة، أم أنه مجرد وهم سعيد عابر أردت تصديقه. لقد تغيرنا كثيراً في الوقت الذي عاد فيه من أجلي، إذ حطمتني الخسارة، وهو كذلك. خسر عشرين رطلاً من وزنه، واختفت هالة السعادة التي كانت ترافقه دوماً، كما دمّر غاز الخردل صوته، وأخذ بذلك الشاب الذي أتذكره. (كتبت أغاثا بعد سنوات: يفشل المرء أحياناً في المحافظة على هدوئه عند ذكر كلمة حرب).

أجبته حينها: «لا، لا أستطيع الرحيل معك، أو الذهاب إلى أي مكان».

الآن، في هاروغيت وبعد ست سنوات، أدركت أنني وفينبار نستطيع مواجهة بعضنا بهدوء رغم رحيل أنفسنا القديمة، وقد أمكنني النظر إليه دون أن يتملكني الذنب، فهو لم يرتكب خطأً.

جمع يديّ معاً في يده وقال: «علينا الابتعاد، نستطيع أن نبدأ حياةً جديدةً معاً».

أجبته: «أوه يا فينبار، فأنا لا أسعى إلى هذا على الإطلاق».

ابتعدت عنه، ووجدت أمامي شجيرات كثيرةً كي أجتازها قبل الوصول إلى الطريق، أمطرت السماء بغزارة، فأحكمت إطباق ذراعي على نفسي وتنفست بعمق، إذ اتبعت استراتيجية الشهيق، والزفير كي أتجاوز الأيام التالية.

كان فينبار خلفي مباشرةً، وقد وضع يده على كتفي، ولكنني تجاهلتها،

كي تصبح تلك ذكرى آخر مرة رأيته فيها، وتتقد الكآبة في داخلي. هناك أمور كثيرة أخذتها بعين الاعتبار، فضلاً عن تغيراته. بعد أيام قليلة، أخبرني المحقق تشيلتون شيئاً عن الحرب، وكيف بدا أن مستقبل العالم قد حُدِّد مسبقاً. بعدها حل الكساد الكبير الذي لا يُنسى، كان وجه فينبار خالياً من التجاعيد تماماً، ولا يزال طويل القامة ورشيقاً، ولكنه افتقد إشراقة إطلالته، وكذلك صفاء صوته الذي حلت الخشونة محله، واستولى الكساد الكبير على عرش سعادته. لعلني كنت سأحبه أكثر لو لم يبدُ مثل سفينة خسرت مرساتها؛ لقد وجدت فيه تباريح الحزن التي أصابتني.

جذبني إليه مجدداً، وقبلني ثلاث قبلات ثم تركني، وأولاني ظهره، ومشى ببطء إلى نهاية الطريق كما جاء. لعله اعتقد أنني سأتبعه، لكنني لم أفعل، بل وقفت أراقبه يرحل، وقد علم ذلك، فرفع إحدى ذراعيه، وقال من دون أن ينظر إلى الخلف: «سترينني قريباً جداً يا نان، قريباً جداً».

بعد مضي أكثر من ساعة على رؤية فينبار، ذهبت برفقة ليزي كلارك إلى الحمامات، وتبادر إلى ذهني السؤال المنطقي الذي تجنب فينبار الإجابة عنه: كيف وجدني في هاروغيت؟

سألتني ليزي بعد أن جلست إلى جوارها في الماء الساخن: «هل أنت على ما يرام؟».

أومأت، وكانت تلك إشارةً فحواها سأخبرك لاحقاً أكثر مما تعني أجل. ارتديت ثوب استحمام يصل إلى ركبتي والذي أرتديه عادةً عند الذهاب إلى الشاطئ مع سروال قصير مماثل تحته، وقد تبينت أن ملابس ليزي أكثر جرأةً رغم أنها غطست في المياه حتى ذقنها، وعاد ذلك إلى أسباب أقلها أن لون ملابسها أحمر كالطماطم الناضجة. اعتمرت النساء جميعهن قلنسوات، أو

غطيـن رؤوسـهن تمامـاً كنـوع من وحدة الزي بغض النظـر عن اختلاف أزياء استحمامنا.

استقر البخار حولي، وفجأة شعرت بأن رأسي خفيف، فلعلني استطعت استحضار فينبار في ذلك الوقت كما في الحلم اليقظة، أو أنني تخيلت وجوده هناك، وأوشكت سؤال ليزي عن ذلك؛ هل صادفنا رجلاً أسود الشعر يتوجّه إلينا؟ وهل تركتني وحدي معه؟ وهل قلت إنه لا يبدو بخير؟ هل ستتحسـن الأمور في حال إزالة عودتي إلى ذراعي فينبار من التاريخ، أم ستسوء أكثر؟

تقع حمامات بيليفورت الطبيعية تحت الفندق، ووجب على أقصرنا أن تحني رأسها حتى يغطي الماء عنقها، فمنحها ذلك هيئة الكهوف البخارية.

يستطيع المـرء استخدام الحمامـات من دون الإقامة فـي الفندق مقابل رسـوم رمزيـة، ولكـن صـادف في ذلـك اليوم أن يكون معظـم الحاضرين من نزلاء الفندق، حيث جلست قبالتنا السيدة مارستون التي كانت أكبر العرائس الجدد سـناً، وقد غمرت نفسـها حتى ذقنها. راقبتني وليزي بمرح عبر البخار، وحدقنا إليها مباشرةً، ولكنها ليست من النوع الذي يلاحظ ملامح الآخرين، إذ كانت نظراتها سطحيةً. اعتقدت أنها ستعجز عن ذكر واحدة من صفاتنا إن سـألها أحد عنا سـواء أكان عن لون شـعرنا أو عيوننا، بل سـتجيب عن جنسنا وعمرنا التقريبي فقط، إذ اعتبرتنا مجرد جمهور يستمع إلى كلامها.

قالـت السـيدة مارسـتون، وقـد بـدا صوتها حنوناً حقاً: «كيـف حالكما يا عزيزتيّ؟».

أجابت ليزي ذات اللهجة الأمريكية المباشرة: «نحن بخير».

سارعت إلى الكلام قبل أن تفضح ليزي اسمي، إذ تبينت أن ذاكرة السيدة مارستون ضعيفة في هذه الأمور.

قلت: «لقد التقينا الليلة الماضية، وقد أخبروني أن أهنئك على زواجك، هل أنت عروس جديدة؟».

ضحكت السيدة وتلألأت عيناها البنيتان الواسعتان وقالت: «هذا صحيح. لقد مضت ستة أيام على زواجي ولا يزال العد مستمراً؛ صدقيني إنها نعمة».

قالت ليزي: «لا بد أنك سعيدة جداً. أخبرينا، أين التقيت زوجك؟».

أجابت السيدة مارستون: «أوه، نحن نعرف بعضنا منذ فترة طويلة، ولكن حظنا كان سيئاً إن جاز التعبير، ومررنا بالكثير من الأحداث المريرة والمثيرة. صدقاني يا عزيزتيّ، يغدو كل شيء أفضل عندما يكون الحظ الجيد حليفكما».

أجابت ليزي وهي تحدق إلى السيدة مارستون: «أخشى أنني أختلف معك في ذلك؛ لقد عانيت وزوجي الأمرين أيضاً، ولكن أمكنني تجنب ذلك تماماً».

قالت السيدة مارستون متجنبةً الخوض في نقاش: «حسناً، أنتِ تعلمين إذاً».

فكرت في أغاثا ومقدار الألم والمعاناة اللذين تشعر فيهما، وتمنيت أن تلازمها السعادة يوماً أكثر من أي وقت بعد المصيبة التي أنزلتها عليها. لقد رفضت وضع وفاة أغاثا في الحسبان، إذ كنا مقربتين من بعضنا، وسينتابني إحساس غريب في عظامي إن أصابها مكروه، كما حدث عند وفاة كولين.

غمرت السيدة مارستون نفسها أكثر في المياه حتى تجاوزت ذقنها، وتلألأت عيناها كدليل على سعادتها، ثم قرّبت رأسها من المياه أكثر وقالت: «لقد أفزعتني معرفة أن مالكة الفندق سوداء. لا أعرف إن كنا سنحجز في هذا الفندق لو علمنا ذلك مسبقاً».

قالت ليزي حازمةً: «هل تقصدين السيدة ليش؟ لقد كانت لطيفةً جداً معي»، ووضعت بذلك حداً للنقاش.

حاولت السيدة مارستون تغيير الموضوع حفاظاً على سمعتها أو لأنها عجزت عن الاعتراض فسألت ليزي: «هل لديك أطفال؟».

أجابت ليزي: «لقد أنجبت طفلاً، ولكنه توفي بعد وقت قصير من ولادته».

قالت السيدة مارستون وقد طغا حنان الأم على صوتها: «يا إلهي، ولكنك في ريعان شبابك، ستنجبين طفلاً ثانياً، وثالثاً، ورابعاً، أليس كذلك؟».

أجابت ليزي، وقد اكفهر وجهها: «آمل ذلك، ولا يعني ذلك أنني سأنسى الأول أبداً».

أجابت السيدة مارستون: «بالطبع لا، آمل في الحقيقة أن الوقت ما زال مناسباً كي أنجب طفلاً، إذ حدثت أشياء غريبة حالت دون حصولي على طفل، هذا كل ما أريده إلى جانب السيد مارستون طبعاً».

وقفت وأخذت رداء الفندق كي أرتديه فوق ثوب الاستحمام وقلت: «أشعر بشيء من الدوار، ربما سأراكما كي نحتسي الشاي».

تجاهلت السيدة مارستون وجودي تماماً وأخبرت ليزي: «هل تعود كآبة صديقتك إلى عجزها عن الزواج؟».

أحكمت شد حزام رداء الفندق وقلت: «من قال إنني لم أجد زوجاً؟»، وبدا الانزعاج واضحاً في صوتي.

قالت السيدة مارستون، وأوحت طريقة كلامها أنها اعتادت أن تكون مشرفةً: «أقصد الآن يا عزيزتي؛ ابتسمي، لقد كنت أمازحك فقط».

قهقهت بسعادة، فتردد صدى قهقهتها في أنحاء الكهف البخاري كي تثبت ذلك. لقد كانت أقل الأصوات التي أستطيع تخيلها سعادةً.



هنا ترقد الأخت ماري

انتظـرت الفتيـات حـول العالـم أن يسـمعن أخباراً من جنود لـن يرَوْنَهم مجـدداً، ولكـن الحـظ حالفنـي ومنحني رجلاً يفي بوعـوده. أرفق فينبار ورقة جنيه واحد مع رسالته الأولى التي كتب فيها:

اعتقدت أنني تجردت من المشاعر حتى رأيتك تقفين هناك في الساحة. ليست الهدنة فقط ما أبعدتني، ربما كان يفترض بنا أن ننتظر حتى ليلة زفافنا، وهذا صحيح، ولكن أعلم في داخلي أن تلك اللحظة كانت الأكثر مثالية، كما أن ليلة زفافنا قادمة لا محالة. إياك والشك في ذلك يا نان.

وصلت رسالته الثانية خاليةً من النقود وكانت قليلة الكلمات:

أنا أحبك، وأخشى أن الإنفلونزا أصابتني.

شعرت أنني لست بخير أيضاً.

وصلت رسالة إلى أبي من العم جاك في إيرلندا، أخبرنا فيها أنه نجا من الحـرب وبقـي سـالماً في المعركة، ولكن أصابتـه الإنفلونزا وانتقلت العدوى إلى زوجته وطفله. تعافت زوجته روزي على عكس العم جاك أو سيموس، وشـاء الله أن يتوفى ابن عمي الوسـيم رغم صغر سـنه، ما أعفاه من القتال في الحرب. بدا أن الحرب ستستمر في إلقاء مخلفاتها علينا، فبكيت على خسارة عائلتي الثانية، وبقاء مزرعتي المحبوبة فارغةً، فهدأت أمي من روعي عاجزةً عن منع نفسها من تحسس جبهتي.

أصـاب المـرض إيميلي هاسـتينغ، فمنعـت ولويز وميغس مـن زيارتها. قالـت أمـي علـى مائدة العشـاء وهي تمسـح دموعها: «هل تعلمـون أن أندرو

بينينغتون قد توفي البارحة؟ لقد نفد أولئك الشبان اليافعون جميعهم من براثن الحرب كي تفترسهم الإنفلونزا مباشرةً».

لقد تغلغل مرض خفي بين الجمع الكبير اللطيف الذي جمعني مع فينبار، واستقالت والدتي من عملها في متجر بوتونز أند بيتس وأصرت أن أفعل الشيء نفسه.

في أحد الأيام، حاولت مغادرة المنزل، ولكن سمعت صوت والدي وهو يقول: «لا، لن تذهبي، إن الخروج في هذه الظروف خطير».

أجبته: «تعتقد ميغس أنّه سبق لنا أن أصبنا في الربيع الماضي»، حيث ارتفعت حرارتنا قليلاً حينها وتعافينا سريعاً.

صرخ والدي: «يختلف الاعتقاد عن معرفة ذلك تماماً، وأحتاج المعرفة قبل أن تخرجي إلى الخطر».

في السنوات الماضية، اتقد بعض الحنان بيننا، ولكن في تلك اللحظة ظهر على وجهه أثر فقدان ابنته الكبرى وأخيه، لذلك احتضنته بشدة، وفكّرت في رسالة فينبار، هل سيكتب أحد من باليكوتون إليّ إن توفي؟ لم نمتلك هاتفاً، ولم تمتلكه أسرة ماهوني أيضاً، إذ لم يكن هناك كهرباء في باليكوتون.

في تلك الليلة قالت لي أمي: «تبدين شاحبةً يا نان، لذا، يفضل أن ترتاحي، وسأجلب لك الطعام»، وتفقدت حرارتي مجدداً، إذ عجزت عن إبقاء يديها في منأى عن وجوهنا.

جلست وحيدةً في غرفتي، ووضعت كلتا يدي على بطني؛ لم أكن أحمل فيروس الإنفلونزا، بل شيئاً آخر؛ لقد حل خوف أمي من الإنفلونزا مؤقتاً محل خوفها من الحمل، إذ جهلت تماماً أنها تلمس حفيدها في كل مرة تلمسني أو تحضنني فيها.

كانت كولين في مثل سني تقريباً عندما ألقت بنفسها في نهر التايمز، ولكنني سأحول دون أن تتكرر هذه الفاجعة أمام عيني أمي، فأخفيت أمر

الحمل عن ميغس ولويز أيضاً كي لا تخافا بشأن مصيري، كما لن أتيح فرصةً لوالدي كي يصرخ عليّ، بل سأقطع البحر الإيرلندي وحدي، وأتزوج من فينبار حتى وإنْ كان على فراش الموت، إذ يفضل أن أكون أرملة جندي بدلاً من الفتاة التي خدعها؛ سيختفي الفرق بين البطلة والمنبوذة بعد أداء مراسم الزواج ومباركة القس أو الكاهن، فأنا أحتاج إلى السفر من جزيرتي إلى جزيرة فينبار.

في تلك الأيام، اعتادت والدتي الخروج إلى محل البقالة فقط، فانتظرتها حتى خرجت من الباب، ودخلت إلى غرفتها، وأخرجت علبة الشاي القصديرية التي أرتنا إياها، وقد خبأت فيها بين النقود ورقة الجنيه التي أرسلها فينبار إليّ. أخرجت خاتم جدتي، ووضعته في إصبعي، ثم تراجعت وأعدته إلى العلبة، إذ لست في حاجة كي أتظاهر أنني متزوجة، سيحدث ذلك على أرض الواقع لاحقاً؛ في تلك اللحظة، كنت امتلكت المال الكافي كي أصل إلى باليكوتون.

دفعت آخر نقودي إلى صياد السمك الذي أقلني في عربته التي يجرها بغل من محطة القطار إلى كوخ عائلة ماهوني الطيني في القرية. رنت أجراس صواري السفن في الميناء، وانقضّت النوارس المغردة على فرائسها من الأسماك. علمت أن ألبي ممنوع من المبيت في المنزل بل تحته، وقد خاب أملي عندما لم يقفز من أجل تحيتي، لعل ذلك يعني أن فينبار تعافى ويعمل في الرعي الآن مقابل أجر جيد.

فتحت السيدة ماهوني الباب، وقد سبق لي أن رأيتها ذات أحد خلال خدمات الكنيسة، وارتسمت الابتسامة على محياها حينها. كانت امرأةً صغيرة البنية، وذات كتفين بارزتين جداً، إذ استطعت رؤية شكل حرف في – V حول كل منهما رغم ارتدائها رداءً.

تنحت قليلاً كي أستطيع الدخول، ولكنها أخبرتني مباشرةً قبل أن أذكرها من أكون: «لا تستطيعين رؤيته، سيُشكّل ذلك خطراً عليك»، وأشعلت بعدها

الموقد كي تعد فنجاناً من الشاي. أردت أن أسحب كرسيي قريباً من النار، ولكن لم أشأ أن يهينها ذلك، إذ كان الجو بارداً في المنزل. أبهجني منظر القوارب من النافذة، ولكن شعرت أنها تنظر إليّ وكأنني آخر شيء قد يتمناه فينبار، ولاحظت السيدة ماهوني نظراتي، فنهضت وأغلقت الستائر.

قلت لها: «أنا ابنة أخ جاك أوديا».

أجابتني: «أعلم من تكونين».

أدركت أنها أرادت قول شيء عن سيموس وجاك ربما كي تواسيني، أو تلومهما على مرض ابنها، لقد ذهب فينبار بالتأكيد إلى هناك قبل أن يقتلهما المرض. وضعت فنجان الشاي أمامي من دون أن تقدم الحليب أو السكر.

تفحصت المطبخ الصغير ذا البابين؛ يؤدي أحدهما إلى الخارج حيث دخلت، والآخر إلى باقي المنزل، وقد أحكم إغلاقه.

سألتها: «هل فينبار هنا؟ هل هو بخير؟».

أجابتني: «إنه هنا وليس بخير ولا يريدك أن تزعجيه»، ثم جلست كي تحتسي من فنجان شايها، وأدركت من تجنبها النظر إليّ لأكثر من ثوانٍ معدودة أنها تبذل جهداً من أجل التهرب من لطفها. هل كانت تعلم بأمري؟ أم أعزي برودتها إلى قلقها على ابنها الوحيد؟

سألتها مجدداً: «هل أصابته الإنفلونزا؟».

أجابتني: «أجل، ويجب أن ترحلي عن هذا المنزل مباشرةً كي تتجنبي العدوى، لقد كنت أرعاه يومياً وربما أصابتني، بل متأكدة من ذلك».

تابعت كلامي: «لو استطعت فقط أن أرى فينبار...».

قالت السيدة ماهوني: «لا تستطيعين».

قلت: «سأقف عند مدخل الغرفة».

أجابتني: «هل أنت صماء؟ لقد قلت لا».

قلت لها: «أدعى نان، وأعلم أن فينبار يريد رؤيتي».

أشاحت السيدة ماهوني نظرها بعيداً ناحية النافذة المغلقة؛ لقد كان شعرها أسود مثل شعر فينبار، وقد تخللته خصلات رمادية، كما سيحدث مع فينبار ذات يوم. اعتقدت أن خديها أحمرين بسبب البرد، ولكن رأيت عن قرب بعض الأوعية الدموية المتقطعة على وجنتيها؛ لقد كانت جميلةً في السابق، ولكن الهموم تركت أثرها عليها، وقد أخبرني فينبار سابقاً أنها تمنت أن يكون لديها مئة طفل، وها أنا ذا قد جلبت معي واحداً إضافياً.

سألتها: «أين ألبي؟».

أجابتني: «لقد قايضناه مقابل المؤن خلال الحرب».

هل علم فينبار بذلك، أم وصل إلى المنزل ووجد أن ألبي قد اختفى؟ تصورته يُصفِّر حول المنزل حتى استجمع والده قواه وأخبره ما حدث؛ كان فينبار سيعمل في مزارع إضافية قرب باليكوتون من أجل توفير المال كي أعود إلى منزلي أولاً، ويشتري كلبه مجدداً.

أخرجت من حقيبتي واحدةً من رسائل فينبار، وأمسكتها أمامها وقلت: «انظري، يريد فينبار أن يتزوج مني. لقد أرسل مالاً من أجل أن آتي إلى هنا كي نستطيع الزواج. لقد وعدني»، وأشرت إلى كلماته في الرسالة.

حدقت والدته إليّ ساكنةً، فهززت الرسالة أمام عينيها، ولكن سينتابك شعور رهيب عندما تتبين أن القوة في يديك عديمة الفائدة.

قالت السيدة ماهوني: «ألا تعلمين أن هذا مجرد شيء يقوله الرجال كي يجعلوا النساء يفعلن ما يريدونه؟ يجب أن ترفضي الرجل قبل ذلك كي يتزوجك، لا بعده».

تساءلت كيف علمت بما حدث؟ لعل الحاجي فضح أمري، إذ كنت نحيلةً أكثر من أي وقت مضى، ومع ذلك بقي النقاش عقيماً، فقلت ببساطة: «لقد كتب رسالته بعد ما حَدث»، ثم وضعت رأسي على الطاولة، إذ كنت مرهقةً، وشعرت فجأة بالجوع الشديد.

قالت السيدة ماهوني: «إياك أن تبكي».

في الحقيقة، غاب أمر البكاء عن ذهني حتى ذكرتني به والدة فينبار، إذ احتجت أن أملأ المنزل الصغير ببعض الصرخات العالية من داخلي؛ لقد أحرجني ذلك في البداية، ولكنني فكّرت أن فينبار قد يأتي إلى المطبخ من المكان الذي يقبع فيه حين سماع صوتي، وسيخبر والدته بالحقيقة، ويصر على الزواج مني في اليوم نفسه، ولكنه لم يظهر أو يرق قلب والدته عليّ رغم صراخي. بكيت حتى غلبني النعاس، وخلدت إلى النوم ورأسي على ذراعي.

* * *

سمعت صوت السيدة ماهوني تطلب من زوجها: «اسمح لي أن أقدم لها بعض الطعام»، لقد كانت تستعد أن تكشف لطفها عندما اعتقدت أنني لا أسمعها.

فتحت عينيّ فرأيت والدي فينبار يقفان أمام الباب الذي يؤدي إلى بقية المنزل وكأنهما يحرسانه مني. أشك أن فينبار قد ورث روحه المرحة من أبويه هذين، وإن كان الأمر كذلك، فيبدو أنهما فقداها، ومع ذلك فقد ربياه وترعرع في ظلهما في هذا المنزل ذي الأرضية الترابية. أردت أن أقول أحبكما، وشكراً لكما، ولكن منعت نفسي عن ذلك، إذ لن يرغبا في سماع ذلك مني.

قالت والدة فينبار: «دعني أعطِها كأساً من الحليب وبعض الخبز، هناك بقايا طعام من ليلة أمس، فلا بد أن الفتاة المسكينة تتضور جوعاً الآن».

رفعت رأسي، وتحسست التجاعيد في وجهي، فوجدت أن عينيّ قد تورمتا من البكاء والنوم، وقد أدركت بعد سماع عبارة الفتاة المسكينة أن عطف السيدة ماهوني ليس إلا إشارةً سيئةً، إذ أصبح مصيري بين يدي شخص آخر، وليست بحاجة أن تقسو عليّ في حضور السلطة الجديدة.

جلس السيد ماهوني على الكرسي بجواري مرتدياً معطفاً واقياً من

المطـر، وقـد فاحـت منـه رائحة الأسـماك والملح، بينما أصـرت زوجته على إعداد طبق طعام من أجلي.

قلـت: «اسـمحا لـي أن أراه لحظـةً، هـذا كل ما أطلبه»؛ سـتتضح الأمور أمـام الجميـع حينهـا، إذ سـتكون المرة الأولى التي يريانـنا فيها معاً، ولعلهما سيفهمانني.

وضـع السـيد ماهونـي يده على ذراعـي؛ كان نحيلاً كزوجته وأطول منها وذا وجه أحمر ممتلئ، وقد طبعته سنواته في البحر بالخشونة.

سألني: «اسمعيني يا نان، إنه اسمك أليس كذلك؟».

تجنبـت الإجابـة، إذ وجـب أن يعرف حينها أن اسـمي هو نان، وقد علم ذلك طبعاً.

تابع كلامه: «أعلم أنك تريدين رؤية فينبار، ولكن لا سبيل إلى ذلك الآن، فهو بالكاد يستطيع أن يرفع رأسه عن الوسادة».

أجبته: «لا أمانع ذلك».

نظرا إليّ، وكأنني فتاة ذهبت إلى منزل كل جنديّ عاد سالماً من الحرب كي أحتجز في داخلي روح ابنه الخالدة.

قال السيد ماهوني: «أنت لا تفهمين، قد لا يستيقظ الفتى المسكين، ولا يرى نور صباح اليوم التالي».

قلت: «من فضلك».

تبادلا النظرات.

قالـت السـيدة ماهونـي: «هـل تعدين بأنـك لن تلمسـيه؟ إذ لا نحتاج أن تصيبك العدوى، لديك شيء أهم من نفسك يجب أن تفكري فيه».

لعل السيدة ماهوني خشيت على سلامتي وسلامة طفلي في نهاية الأمر؛ فمن المستحيل أن أكون قرب فينبار ولا ألمسه، ولكنني أومأت بالموافقة.

انفتح الباب قليلاً كي يكشف عن غرفة مظلمة خيّم اليأس عليها، وأُسدِلت ستائرها، وتسللت منها رائحة الفطر والعفن اللاذعة إلى أنفي، فرفع فينبار المستلقي على السرير تحت الأغطية رأسه بصعوبة.

دخلت واقتربت من سريره، ثم جثوت كي أرى وجهه وهمست: «هذه أنا يا فينبار، لقد جئت كي أراك».

مددت يدي كي أبعد شعره عن رأسه المحموم، ولكن والدته أمسكتني قبل أن أستطيع ذلك إذ كانت ورائي مباشرةً، فتبعثرت نظرات فينبار في الأرجاء من دون أن ترنوَ إليّ، وشعرت بالحرارة المنبعثة من جسده رغم أنني لم ألمسه؛ كانت تشبه حرارة الموقد تقريباً. فاحت منه رائحة عفنة سيئة، وكأنه لوث نفسه، وعندما تحرك سقطت خرقة رطبة على الأرضية الترابية، والتي ربما استعملها من أجل تبريد جبهته، وقد لطختها الدماء، لقد استحال لون شفتيه أزرق داكناً غريباً، ولم تتحركا أو تنطقا اسمي. لم يرني فينبار، وحاولت جاهدةً أن أفلت من والدته كي ألمسه، ولكنها أحكمت قبضتها أكثر، وقد فاجأتني قوتها.

همست: «سأعتني به من أجلكما إن سمحتما لي أن أبقى».

قال السيد ماهوني: «وما الفائدة من ذلك؟»، ووضع ذراعه حول كتفي، ورمى ثقله عليّ فاستدرت وأخرجني بطلف من الغرفة.

* * *

تناولت العشاء معهما في المطبخ، ووضعا لوحاً خشبياً من أجلي قرب الموقد، وبعد أن تأكّدت من نومهما تسللت إلى غرفة فينبار واستلقيت إلى جواره، ثم همست: «كلاب وكتب؛ سنستعيد ألبي، وسأعيش أنا وأنت وطفلنا بين الكلاب والكتب»؛ لقد خنقتني هذه الكلمات اليائسة.

تحرك فينبار، فاعتقدت أنه سيجيبني، ولكنه سعل بدلاً من ذلك سعالاً قوياً جافاً من دون أن يصحو، فتجمدت في مكاني خوفاً من دخول والدته بعد

سماع سعال ابنها، ولكنها لم تفعل، فرقد فينبار ساكناً، وبقيت إلى جواره يقظةً طوال الليل كي أستطيع العودة إلى لوحي الخشبي قبل الفجر؛ فتاة مطيعة.

سألت قبل أن نغادر: «هل أستطيع توديعه؟».

أجابتني والدته: «يجب أن تفكري في الأفضل من أجل الطفل يا عزيزتي».

أومأت من دون أن أدرك أن الأفضل من أجل الطفل يختلف كلياً عن الأفضل من أجلي.

الاختفاء

اليوم الثالث

الاثنين، 6 كانون الأول، 1926

في تلك الليلة، ما إن رأيت المحقق فرانك تشيلتون في فندق بيليفورت حتى أدركت أنه يبحث عن أغاثا، ربما يعزى السبب إلى بصيرتي أو إعادة ترتيب الذاكرة، ولكنه حدث ولم أكن أعرف اسمه حينها. وقف أمام مكتب الاستقبال، وتحدث إلى زوجة مالك الفندق السيدة إيزابيل ليش؛ لقد اتقدت حواسي بعد أن احتضنني فينبار؛ حاولت الالتفات والعودة إلى غرفتي كي أتجنب لقاء تشيلتون، ولكنه رآني، وإن تراجعت فسأثير شكوكه، ولذلك أبقيت عيني منخفضتين، وحاولت تجاوزه إلى غرفة الطعام.

قال تشيلتون: «اعذريني يا آنستي».

أجبته: «السيدة أوديا»، وابتسمت ابتسامةً جافة، إذ شعرت أن شفتيّ تمددت على نحو غير طبيعي.

لقد ذهبت إلى فندق آخر بعد الخروج من الحمامات كي أصفّي ذهني، واشتريت شالاً جديداً من متجر الهدايا هناك، وكذلك بعض الأوراق وقلم حبر، ربما سأكتب قصةً أو قصيدةً خلال مكوثي هنا. سحبت الشال قريباً مني، فتدلت منه الورقة التي كُتب عليها السعر، حينها مدّ تشيلتون يده إليها وقال: «هذا ثمنك إذاً».

كنت أكره هذا النوع من الدعابات، ولكن شيئاً في وجهه طمأنني؛ بدا

محرجاً من إطلاق تلك الدعابة السخيفة، ومتواضعاً ولطيفاً. لقد كان وجود محقق في الفندق حظاً سيئاً، ولكن وجود تشيلتون على وجه التحديد كان حظاً جيداً.

ناولتني السيدة ليش مقصاً وقالت: «تفضلي، لقد جاء المحقق تشيلتون إلى هنا بحثاً عن امرأة مفقودة من باركشير».

قلت: «يا إلهي، فقدت في باركشير، وتبحث عنها في يوركشاير؟».

أجابني موضحاً: «تسعى إنكلترا كلها وراء هذه المرأة، وقد أُرسِل المحققون ورجال الشرطة في كل الأرياف».

أربكتني هذه الأخبار، فابتسمت كي أخفي ذلك وقلت: «يا إلهي، لا بد أنها شخصية مهمة جداً».

أخذ تشيلتون المقص بدلاً عني، وأزال الورقة من أجلي وأبقاها في يده، فلاحظت أن جلد أصابعه متقشر وقد لطخها التبغ، وملابسه مجعدة. وضع يده اليمنى في جيبه، وأخرج صورةً ووضع يده اليسرى على جانبه وقال: «أود أن أطرح عليك سؤالاً يا سيدة أوديا، هل سبق لك أن رأيتِ هذه السيدة؟».

سألته: «هل أستطيع أن ألقي نظرةً أقرب؟».

أومأ وناولني الصورة، فحدقت أغاثا إليَّ؛ كان شعرها منزاحاً عن وجهها، ورأسها مائلاً، ووضعت اللآلئ وارتدت سترة بذلة. تذكرت والدتي التي انتشلت نفسها من الحزن على كولين كي تساعدني في الحصول على صورة صغيرة من أجل إرسالها إلى فينبار في الجبهة، حينها ارتديت أفضل فساتيني من دون أن أضع أي مجوهرات، وبقيتُ أقل جمالاً منها في هذه الصورة.

أجبته: «إنها جميلة، ولكنِ لم يسبق لي أن رأيتها في يوركشاير؛ آمل أن تكون سالمةً»، وأعدت إليه الصورة، وتمنيت أن يتذكر كلماتي حرفياً في حال ذكر أي ارتباط بيننا لاحقاً.

قال تشيلتون، وبدا أنه توقع هذه الإجابة: «آه، حسناً، شكراً على أي حال».

دخلت إلى غرفة الطعام، ووجدت السيدة ريس – العروس الشقراء الجميلة – جالسةً برفقة زوجها العبوس قرب النافذة، وقد غرقا في تعاستهما الصامتة إلى درجة أنهما لم يلاحظا أنني كنت أنظر إليهما.

لوّحت صديقتي الجديدة ليزي كلارك إليّ من حيث تجلس، ونهض زوجها كي يحضر كرسياً من أجلي، لقد كان رجلاً طويل القامة نحيلاً وذا عينين داكنتين وتعابير وجه جميلة جادة، وبرز النمط الأمريكي في أناقته البالية.

قدّم نفسه إليّ قائلاً: «أهلاً، أنا دوني كلارك».

أجبته: «مرحباً يا سيد كلارك».

قال لي: «ناديني دوني من فضلك؛ أود شكرك على تسلية ليزي هذا الصباح، فمن الممتع التعرف إلى صديق جديد سريعاً خلال العطلة».

أوشكت أن أفتح منديل المائدة عندما سمعت صوت ضحكة بهيجة مميزةً فور دخول السيدة مارستون وزوجها القاعة، وقد بدت مختلفةً قليلاً عن آخر مرة التقيناها في الحمامات، إذ جعّدت شعرها، وارتدت سترةً أنيقةً ووضعت لآلئ مقلدة.

وقفت السيدة مارستون قرب طاولتنا وقالت: «انظروا مَن هنا، السيدتان الشابتان الودودتان».

رافقها زوجها السيد مارستون الذي يكبرها عقوداً من الزمن، إذ كان رجلاً قوياً أحمر الوجه في الستينيات من عمره. وضع يده على ظهر كرسي دوني، وبدا من ابتسامته أنه من الرجال الذين يحبون مرافقة النساء الشابات، فالتفت إلى الطاولة مجدداً، على عكس ليزي التي حدقت إليه مباشرةً وقالت: «كيف حالك يا سيد مارستونَ، آمل أن الحياة الزوجية قد أعجبتك؟».

أجابها: «أجل بالتأكيد. هل أنت مستعدة من أجل تناول الطعام يا سيدة

مارستون»، كانت لهجته إيرلندية ثقيلةً، وتغيرت تعابير وجهه فجأةً، وأصبح متلهفاً كي يعود إلى طاولته، وطوّق خصر زوجته من الخلف بذراعه القوية والتي أسعدها وقع اسم الزواج خاصتها، وأرشدها سريعاً إلى طاولة فارغة.

التفت إلى ليزي وسألتها: «هل أنت بخير يا ليزي؟».

فأومأت بالإيجاب.

جاءت النادلة كي تُسجل طلبنا الذي وجب أن نختاره من قائمة ضمت فطيرة السمك، ولحم البقر المشوي، ويخنة الدجاج، واتفقنا على تناول لحم البقر المشوي. كانت نوافذ القاعة كبيرةً وطويلة، ووجدت نفسي أحدق عبر إحداها في انتظار رؤية فينبار واقفاً يراقبني من الطرف الآخر، ولكن مضى وقت طويل على الغروب؛ إذ سأعجز عن رؤيته حتى وإنَ كان هناك، فتساءلت: أين يقضي ليلته؟ هل سيتناول وجبةً ساخنةً، أم لا شيء أبداً؟ كانت قد مضت سنوات على المرة الأخيرة التي احتضنني فيها، أما الآن فلم تمضِ سوى ساعات.

نظرت إلى الزوجين مارستون فوجدتهما يفتحان منديلي المائدة، وقد بدت السيدة مارستون سعيدةً كالعادة، على عكس السيد مارستون الذي عجزت عن قراءة ملامحه.

قالت ليزي: «لا ترهقي نفسك مع هذين، فهناك اثنان أفضل كي تراقبيهما»، وأشارت بذقنها إلى الثنائي الشاب؛ بدا السيد ريس منزعجاً ومغروراً، أما السيدة ريس فكانت تبذل قصارى جهدها لكبح دموعها.

فجأة صرخت السيدة ريس، وكأن ليزي أحست أن شيئاً سيحدث، لقد سمع كل من في القاعة صوتها فأجبرهم على السكوت، ثم وقفت برشاقة، ورمت منديلها على الأرض وقالت: «أنا لا أكترث حول كلفة الزواج، أو كلام الآخرين، فأنا لا أستطيع الاستمرار هكذا ببساطة».

همس زوجها بصوت أكثر هدوءاً من صوت زوجته، وقد سمعه الجميع رغم ذلك: «انظري إليّ، وتوقفي عن إحداث جلبة».

استدارت العروس الشابة كي تخرج من القاعة، ولكن زوجها أمسك بمعصمها، فركلت قدمه بقوة جعلته يفلتها قبل أن أحاول حتى القلق إزاء الضرر الذي ستسببه قبضته إلى عظامها الرقيقة النحيلة.

سألته: «ماذا ستفعل؟ هل ستضربني أمام كل هؤلاء الناس؟».

وقف عدد من الناس معظمهم من الرجال – بمن فيهم دوني والمحقق تشيلتون – واقتربوا من طاولة الزوجين ريس كي يتدخلوا بينهما إن لزم الأمر، ونهضت ليزي أيضاً، واقتربت من الجمع كي تحصل على رؤية أفضل.

لقد أذهلتني شجاعتها، ولكنني بقيت في مكاني، وحجب المهتمون الرؤية عني.

انفتح باب قاعة الطعام، ودخل منه مالك الفندق السيد ليش وقال: «هذا يكفي».

أعلن السيد ريس أمام الجميع: «هذا أمر خاص ولا شأن لأحد فيه».

أجاب السيد ليش محاولاً إبقاء صوته لطيفاً وصارماً في الوقت نفسه: «إذاً، يُفضّل أن تسوي خلافاتك بعيداً عن أنظار الناس... اسمحا لي أن أقدم زجاجة شمبانيا لكما، أنتما حديثا الزواج، وهذا وقت الاحتفال لا الخلاف»، لقد كان وقوع المشاكل آخر ما يحتاج إليه السيد ليش في فندقه الذي يعاني.

نظرت إلى السيدة مارستون التي ظلت جالسة على كرسيها بعيداً عن زوجها كي تراقب الأحداث بتركيز، ولعلها اعتقدت أنها تستحق زجاجةً من الشمبانيا أيضاً على اعتبارها حديثة الزواج، ونهض السيد مارستون؛ ليس من أجل طلب المساواة، بل وضع يديه على حنجرته، وبصق بعنف محاولاً أن يشهق من دون أن يستطيع ذلك.

التفتت زوجته إليه وصاحت: «عزيزي، يا إلهي، ساعدوه أرجوكم، ليساعده أحدكم».

سقط السيد مارستون على الأرض قابضاً على حنجرته، وقد جحظت عيناه، وأخذ يدفع قدميه، وكأنه سمكة انتشلت من الماء حديثاً، عندها اتجه الجميع تقريباً سواء أكان النزلاء أو طاقم الفندق إلى موقع الكارثة.

كانت السيدة ريس أولى الواصلين وأمرت البقية: «تراجعوا، أنا ممرضة»، وقد بدت شخصاً مختلفاً عن تلك التي تشاجرت مع زوجها منذ قليل، فأرخت ربطة عنق السيد مارستون وياقة قميصه، ثم قاست نبضه وهي تسحب رأسه إلى حضنها. أحسست شيئاً غريباً في تقريب تلك الشابة الجميلة وجهه العريض الأحمر الذي يشبه وجه الضفدع كثيراً من جسدها.

في تلك الأثناء، عادت ليزي إلى مقعدها؛ وجلسنا نراقب الأحداث من مكاننا. ارتشفت ليزي رشفةً من النبيذ وقالت: «ستفسد كثرتهم الأمر».

أجبتها: «أعتقد أن الأوان قد فات»، إذ سكن جسد السيد مارستون، وحدقت عيناه إلى السقف من دون حراك.

لقد كان الطبيب المناوب في يوم إجازته، ولكن تبيّن أن أحد النزلاء طبيب أيضاً ويقيم في الغرفة رقم 403، فذهب أحدهم كي يستدعيه. جلست السيدة مارستون المسكينة القرفصاء بجوار زوجها، وقد صدمها ما حدث، كان ذلك جل ما استطاعت فعله. وصل الطبيب مرتدياً نصف ملابسه وقد كان شاباً نسبياً، ولكن الشعر الأبيض الذي ظهر قبل أوانه منحه أناقةً وحزماً رغم هيئته غير اللائقة.

قال الطبيب بعد فحص سريع: «لا فائدة»، التفت إلينا، وكانت تعابير وجهه هادئةً، ثم أسدل جفني السيد مارستون على عينيه.

أطلقت السيدة مارستون صرخةً فظيعةً، واضعة يدها على حنجرتها كما سبق لزوجها أن فعل، واعتقدت أن المنية ستوافيها هي الأخرى.

اقترب السيد تشيلتون وقال: «تعالي إلى هنا»، واحتضنها، واستحالت صرخاتها نحيباً، ثم اصطحبها عبر القاعة إلى طاولة أخرى، وأجلسها حيث يكون جسد زوجها الراحل خلف ظهرها.

قال الطبيب: «ستساعدها جرعة من البراندي، غطوا جثة الراحل ريثما يصل محقق الوفيات. يفضل أن أذهب وأخطر السلطات».

قالت السيدة مارستون منتحبة: «أنت لا تعلم الوقت الذي انتظرناه، والصعاب التي تخطيناها والأمور التي تخلينا عنها. أوه، يا عزيزي المسكين! أيعقل حدوث الأمر بهذه البساطة؟ هذا غير معقول. أين سأذهب؟ وماذا سأفعل؟».

نهضت عن كرسيها، وأسرعت عائدةً إلى زوجها، وألقت نفسها عليه، وشرعت تبكي، فانفتحت عينا جثة زوجها من قوة صدمة جسدها عليه، وشهقت في لحظة أمل بائسة، وعاودت البكاء عندما أدركت أنه ما زال ميتاً؛ لقد خسرته مرتين متتاليتين.

قلت لليزي ودوني: «أعتقد أنني سآخذ هذا الطبق إلى غرفتي، فلم أتناول إلا القليل من الطعام».

قالت ليزي: «حسناً، سنتحدث لاحقاً، هل ستكونين بخير؟».

أجبتها: «أجل، وأنت؟».

أومأت ليزي، وتلألأت الدموع في عينيها، لقد شهدت أمراً مروعاً.

تجاوزت الساعة الكبيرة في قاعة الاستقبال، ورأيت السيد والسيدة ريس قرب الدرج في سلام ووئام؛ بدا أن المأساة السابقة قد أزعجتهما. كان رأسها منخفضاً، وقد أمسك السيد ريس بذراعها؛ لم تبدُ قبضةً عنيفةً؛ ثم لامسا جبهتيهما. لعله كان يعتذر إليها، أو يُهدّئ من روعها. وقفت لحظةً، وتابعت طريقي عندما لم يلاحظاني.

في غرفتي سرير ذو مظلة مع طاولة كتابة صغيرة وصل ارتفاعها إلى

النافذة، فجلست إليها من أجل تناول العشاء، وحدقت مجدداً إلى الظلام في الخارج كما اعتدت أن أفعل في الرابعة عشرة من عمري في إيرلندا خلال انتظار فينبار مدركةً أنه سيأتي في أي لحظة من أجل لعب التنس على المرج الأخضر.

لم يفسد الموت الذي شهدته شهيتي على الطعام أو الحب، فتناولت طبقي كاملاً، إذ تعلمت خلال الحرب عدم تبذير الطعام. شكّل النوم أمراً منفصلاً، إذ كان السرير مريحاً، كما هدأت الأصوات من الطابق السفلي أخيراً. استلقيت محاولةً تصفية ذهني، لكنني عجزت عن إغماض عيني المحدقتين إلى المظلة، ولكن لا بد أنني خلدت إلى النوم في نهاية الأمر، إذ استيقظت على صوت صراخ فور دخول الضوء متجاوزاً الستائر التي نسيت إسدالها.

الاختفاء

اليوم الرابع

الثلاثاء 7 كانون الأول، 1926

ارتديت ردائي، وحدقت إلى الردهة كما فعلت جميع النساء تقريباً، واستطعت سماع صوت الطبيب من غرفة قريبة إليّ، وتبيّن أنه يحاول تهدئة السيدة ليش. انفتح باب الغرفة المقابلة مصدراً صوتاً قوياً، وخرجت منه الآنسة كورنيليا أرمسترونغ الشابة التي تسافر وحيدةً وقالت بثقة وبصوت مرتفع سمعه الجميع: «إنها غرفة السيدة مارستون».

تبلغ الآنسة أرمسترونغ التاسعة عشرة من العمر على الأكثر، وامتلكت جسداً مثالياً وبشرةً بيضاء ناعمة، وانسدل شعرها الأسود الكثيف الذي اشتق منه لون عينيها على ظهرها، وقد اتبعت خلال كلامها أسلوباً في التباهي، فتتحدى بذلك المستمعين أن يعارضوها.

قلت: «يا إلهي».

قالت الآنسة أرمسترونغ: «سأذهب كي أرى ما يحدث»، وانطلقت عبر الرواق من دون رادع ناحية غرفة السيدة مارستون، وقد نسيت إحكام شد حزام ردائها، فأظهرت قسماً أكبر من اللازم من ياقتها المفتوحة. عادت بعد حين وقد شحب وجهها، وارتجف صوتها وهي تخبرني: «لقد توفيت السيدة مارستون؛ لقد رأيت الطبيب يضع الملاءة على وجهها».

ازداد عدد النزلاء في الردهة حينها بمن فيهم عانس عجوز نحيلة وضعت

يدها المنمشة على فمها وقالت: «هذا مروع».

قالت الآنسة أرمسترونغ أمام الجمع الذي ملأت الدموع عيون أفراده الفاحصة: «لقد كان طالعهما سيئاً حتى قبل زواجهما».

أردت أن أقول إنني شاكرة عدم حاجتي إلى سماع عبارة – حظ سيئ – في حياتي مجدداً، وكنت لأموت منذ سنوات طويلة لو أن القلب المفطور يقتل صاحبه، ولكن أغلقت باب غرفتي من دون أن أنبس ببنت شفة؛ لا يمكن تطبيق العادات الحسنة نظراً إلى الوضع.

كان تشيلتون في الطابق السفلي يحاول الاتصال بليبينكوت، لقد سمع الصرخة دون أن يبدي اهتماماً إذ خمدت تلقائياً، فاعتقد أن إحدى النساء قد صادفت عنكبوتاً.

سأل تشيلتون ليبينكوت مشيراً إلى وفاة السيد مارستون: «هل سترسل أحداً من أجل التحقيق؟».

أجاب ليبينكوت: «لا أملك أحداً كي أرسله، ولذلك أحضرتك في المقام الأول، كما أنني أعتقد أن الأمر لا يعدو عن كونه سكتة قلبية».

أرجّح هذا الأمر أيضاً، فمن سينوي إيذاء الرجل الإيرلندي العجوز؟

وصلت السيدة ليش إلى الطابق السفلي فور إنهاء تشيلتون المكالمة، وقد بدت شديدة الاضطراب.

سأل تشيلتون: «ما الأمر يا سيدة ليش؟».

رفعت يديها عاجزةً عن الإجابة من شدة البكاء، وأسرعت إلى المطبخ حيث يشرف زوجها على ترتيبات الفطور. بعد لحظات، نزل الطبيب أيضاً إلى الطابق السفلي، وحال ملابسه مثل الليلة السابقة، وقد تصببت جبهته عرقاً رغم الشتاء.

ناوله تشيلتون منديلاً، وتحدثا عن الليلة السابقة وهما يدخنان، وانتظرا

وصول محقق الوفيات كي يأخذ جثة السيد مارستون المسكين، وناقشا فرضيات حدوث ذلك.

مسح الطبيب جبهته وقال: «تباً، لقد وجب أن أكون في إجازة».

سأل تشيلتون: «ماذا حدث الآن؟».

أجاب الطبيب: «لقد توفيت السيدة مارستون أيضاً، أي شهر عسل كانا يقضيانه؟».

قال تشيلتون: «لقد كان من دون جدوى، لعله شهر عسل نهائي، وسيجتمعان معاً في الحياة الأخرى»؛ لقد أذهل الأمر تشيلتون لبرهة، ولكن انتابه شعور أن آل مارستون سيحبان الفكرة، إذ بدا أنهما متدينان متعجرفان، وكأنه يجب دفع ثمن السعادة في هذه الحياة أو ما يليها. عجز تشيلتون عن الحديث إليهما قبل أن يغشى على الرجل العجوز الذي وجد تشيلتون أنه لم يذهب إلى الحرب رغم تطوع رجال أكبر منه من أجل أداء واجبهم.

قد يكمن المزاح في أكثر الظروف ألماً، لذلك فكّر تشيلتون أن يقول شيئاً مثل من تعتقد أنه قتلهما؟ لقد زادت وفاة الزوجة من الشبهات حول وفاة زوجها طبعاً.

سأل تشيلتون: «ما هو سبب الوفاة؟».

أجاب الطبيب: «من الفحص الأول، تبيّن غياب أي علامة أو شيء مزعج، كما أنها صغيرة على أن يصيبها قصور قلبي، ولذلك أعتقد أن صدمةً أصابتها».

سأل تشيلتون: «هل تناولت أي شيء؟».

قال الطبيب محتداً: «لقد أعطيتها دواءً منوماً فقط، واستعماله آمن تماماً».

أجاب تشيلتون: «هذا صحيح، اللعنة».

قال الطبيب: «أعتقد أنني سأنهي عطلتي باكراً، إذ اتضح أنها ليست مريحةً أبداً».

أومأ تشيلتون مودعاً الطبيب، وشعر بالذنب إزاء كرهه آل مارستون من

النظرة الأولى. وجب عليه الآن أن يصب اهتمامه على مهمته الأساسية، وهي البحث عن أغاثا كريستي، فسيجوب الفنادق ويراقب الطرقات، وينفّذ واجبه بحذر.

* * *

بعد تلك الحادثة البائسة، فوّتّ الفطور، وارتديت أكثر ملابسي بعثاً للدفء. ألقت السيدة ليش التحية عليّ عندما مررت أمام مكتب الاستقبال، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيها وقالت: «ستخرجين في نزهة أليس كذلك؟ سينعشك الهواء البارد بعد الحادثتين المريعتين اللتين أصابتا آل مارستون، إذ توفي زوجها إثر أزمة قلبية ثم وافتها المنية بسبب قلبها المفطور».

سألتها: «هل هذا ما قاله محقق الوفيات؟».

قالت: «وماذا سيكون السبب غير ذلك؟ أنا حزينة جداً، ولكن قد تحدث هذه الأمور في أي مكان من دون تدخلنا».

صادفت بعض النزلاء الذين غادروا الفندق، إذ لا تبدو الحمامات وسيلة علاج في ظل حالتي وفاة مفاجئتين، كان ذلك آخر ما احتاجه فندق آل ليش.

فكّرت خلال نزهتي على الطريق الترابي في حديثي عن الحلم الواعي مع أورسولا أوين في غودالمينغ ليلة اختفاء أغاثا، وعن جمالية كون العيش الواعي انعكاساً لطيفاً عنه. امتلكت هذه القدرة تماماً عندما كنت صغيرةً، إذ استطعت استحضار فينبار مباشرةً، واستعدت هذه القوة اليوم في هاروغيت للمرة الأولى منذ احتفال الهدنة، من دون شيء آخر قيد التطوير. كنت واثقةً أن روحَي آل مارستون قد رحلتا إلى الأبد، وعلمت أنني إن مشيت برفقة ليزي في اتجاه البارحة نفسه، فسيظهر فينبار.

انعطفت عند الزاوية ورأيته، هناك كما توقعت وتصورته: يضع يديه في جيبيه، وهواء زفيره يتكاثف أمامه، وخداه حمراوان. فتح ذراعيه عندما رآني، فمشيت مباشرة إليهما من دون أن أجري هذه المرة.

سألته: «هل أنت بخير؟ هل تتناول الطعام وتحصل على نوم كاف؟».

همس فينبار في أذني ويده ثابتة على ظهري: «أجل، وأنت؟».

ابتعدت عنه وأجبته: «أجل، فأنا أقيم في فندق حيث الرفاهية، والطعام، والسقف فوقي، بالإضافةً إلى نار المدفأة. أين تقيم أنت؟».

أجابني: «حيث يوجد سقف ومدفأة، لا داعي أن تقلقي علينا يا نان».

سألته: «عليكم؟».

لقد اقشعر بدني. تجلت أمامي أروع الرؤى وأبعدها عن الواقع أيضاً: رأيت فينبار جالساً قرب نار المدفأة يحمل طفلتنا في حضنه.

قاد تشيلتون السيارة التي منحه إياها ليبينكوت على الطرق الوعرة، وتباطأ عندما مر بالقرب من ثنائي يافع تقريباً، وبدا أن سن الرجل يخوله أن يذهب إلى الحرب، وأوحى شكّله أنه قد خاضها، وقد استطاع تشيلتون تمييز ذلك من مسافة بعيدة. شعر أحياناً أنه ما زال يعيش في أنفاق أراس تحت السقوف المهتزة والجذور والأنقاض المتساقطة، وفي ظل رهاب الأماكن المغلقة، ومعرفة المرء أن اتباعه لحدسه وفراره سيضعانه في مرمى نيران الأعداء، فيجد نفسه ميتاً في لمح البصر، وقد أردته رصاصات البنادق الآلية. تمنى تشيلتون لو أدرك حينها ما ستؤول إليه الأمور بعد ذلك الوقت.

لا بد أن ذلك الشاب اليافع يريد البقاء على قيد الحياة نظراً إلى طريقة إمساكه الفتاة من مرفقيها، فدفعته هذه الحماسة كي يبطئ من سيره كي يتأكد من حقيقة ذلك العناق. حدق أحدهما في وجه الآخر من دون أن يلاحظا السيارة أو نظرات تشيلتون. كانت الفتاة صغيرةً وذات شعر أسود، واحتلت العاطفة وجهها مشيرةً إلى كونها بريطانيةً أو ربما فرنسيةً، ولكنها في أمان بين ذراعي رفيقها على الأقل أياً كانت جنسيتها؛ لقد كانت عواطفها قصةً أخرى.

تابع تشيلتون طريقه، ورسم ملامح الفتاة في ذاكرته، لقد سبق له أن

التقاهـا، إذ كانـت تقيـم فـي فنـدق بيليفـورت؛ وقد عرض عليهـا صورة أغاثا كريسـتي، وتفحصتهـا بدقـة كـي تسـاعده، ولذلك ليس غريباً أنـه تعرف إليها مباشرةً، وقد أسرتها تلك اللحظة تماماً؛ في نهاية الأمر، كانت سيدة إنكليزيةً صالحةً. أخبرته أن اسمها السيدة أوديا، ولكن كان تشيلتون واثقاً من أن ذلك الشاب ليس زوجها، أو نزيلاً في الفندق؛ أية حيوات سريةً يعيشها الناس.

استمر تشيلتون على الطريق الصحيح رغم أحلام اليقظة التي راودته حتى وصل إلى طريق ريفي، فركن السيارة إلى جانب الطريق كي يخرج الخريطة التي أعطاه إياها السيد ليش، ثم أوقف عمل محرك السيارة، ولاحظ مباشـرةً وجـود منـزل مغلـق مـن أجل الشـتاء، إذ وضعت ألواح خشـبية على النوافذ، ولكـن الدخـان تصاعـد مـن المدخنـة علـى وتيرة ثابتـة. ترجل من السـيارة، واشتم رائحة الحطب وأغطية التربة العضوية[1] في الهواء. اقترب من المنزل ورأى سـيارةً مركونةً إلى جواره، وأشـار ركنها إلى الخلف، وأغصان شـجرة الـدردار المنخفضـة الموضوعـة، وليسـت النامية، في طريقها إلى أن شـخصاً أراد إخفاءها. كانت السـيارة سـوداء وكبيرةً، لم يعرف تشـيلتون نوعها إذ إن خبرته قليلة في مجال السيارات. غطى الغبار المتجمد سطح المنزل، ولم يجد تشيلتون أية آثار أقدام، فوضع أذنه على الباب الخشبي السميك – كان منزلاً ريفياً متواضعاً، ولكنه جيد البناء ومتين وواسع، وذو جلمون جميل[2]، وسمع مـن الداخـل أصواتاً اسـتغرقته فترةً مـن الزمن كي يدرك أنها تعود إلى مفاتيح آلة كاتبة؛ إنه صوت نشـيط جميل؛ كلاكتي كلاك كلاك كلاك. طرق تشـيلتون الباب بواسـطة مطرقة نحاسـية ثقيلة، وأسـف على انقطاع صوت الآلة الكاتبة الذي حل محله صوت خطوات سريعة، فتراجع عندما انفتح الباب، وظهرت منه امرأة أطول منه، وذات شـعر أحمر وعينين اتقدت الحياة فيهما، وتبدّلت

---

(1) مواد توضع على سطح التربة من أجل حمايتها وجماليتها ومنع نمو الأعشاب الضارة.

(2) يشير الجلمون إلى قمة المثلث، ويستخدم في الهندسة المعمارية من أجل الإشارة إلى سقف المنزل.

ملامحهـا عنـد رؤيتـه مباشـرةً من الأمل إلى الرعب إلى قنـاع المجاملة الذي يضعه الناس كي يحموا أنفسـهم من الحقيقة. ارتدت المرأة ملابس رجالية؛ بنطـالاً، وسـترةً صوفيـةً سـميكةً فـوق قميص ذي ياقة، بالإضافـةً إلى وضعها بعض اللآلئ التي تصعب رؤيتها.

سألت المرأة بنبرة ناعمة أنيقة: « كيف حالك؟». انسدل شعرها المتموج قليـلاً علـى كتفيهـا، ودفعتـه لاإرادياً خلف أذنيها، ومـدّت يدها وكأنها تدعوه إلى احتساء الشاي.

صافحها تشيلتون، ورآها أجمل من الصورة التي تركها على مقعد سيارته الأمامي، وأكثر وسامةً وشباباً، وامتلكت تلك التبدلات في تعابير وجهها حتى لـو حاولـت البقـاء سـاكنةً، والتي تعجز أي آلة تصوير عـن التقاطها. كان لون عينيهـا أزرق متداخـلاً مـع الأخضـر وليس أسـود، ولكنها المرأة نفسـها دون أدنى شك.

قال تشيلتون: «يا إلهي، لقد كنا نبحث عنك يا سيدة أغاثا كريستي».

القسم الثاني

«هناك أشياء أهم من إيجاد القاتل»

بوارو هيركيول.



الاختفاء

اليوم الأول

السبت، 4 كانون الأول، 1926

فـي تلـك الليلـة، قادت أغاثا سـيارتها بعيداً عن سـتايلز، ولـم تكترث أن يراها أحد مجدداً، وقد انتابها إحسـاس أن المنزل منحوس فور دخولها إليه، إذ ابتاعـاه بنـاءً علـى رغبة أرتشـي كي يكون قريبـاً من نادي الغولف؛ فليذهب أرتشي والغولف إلى الجحيم؛ واتضح عدم جدوى النقاش معه، ولعل ذلك نجح معي.

لقـد غـادرت أغاثـا المنـزل لفتـرة قصيرة عنـد السـاعة 9:45 كما أوردت التقارير، وقادت سيارتها من أجل تصفية ذهنها، ثم التفَت عائدةً إلى المنزل، ودخلته بينما غط الجميع في نوم عميق. بدا المنزل مظلماً وهادئاً وفارغاً، وقد تبعثر سوء الطالع في أرجائه كسحابات الدخان، وقد عجز جلدها الرقيق عن احتواء موجة الأسى والأرق؛ أرادت أن تمزق نفسها كي تهرب، وتنفجر لكي يلطخ بؤسها وأشلاؤها الجدران. خلعت خاتم زواجها ورمته بكل ما أوتيت من قوة باتجاه الحائط، فارتطم باللوحة، وسقط أرضاً، ودار بضع مرات قبل أن يستقر في مكانه، وتركته كي يُكنس مع الغبار في اليوم التالي.

لقد شـق الأمر عليها، كان احتسـاء زجاجة من شـيء ما سيسـاعدها لو اعتـادت شـرب الكحـول، ولكنها ليسـت كذلك، بل أخـذت آلتها الكاتبة مع بعض الأشياء كي تغيب بضعة أيام، وفكّرت في الذهاب إلى أشفيلد كي تروّح

عن نفسها، ولكنها غيّرت رأيها بعد أن وضعت أغراضها في السيارة وجلست خلف المقود، إذ لن تستسلم دون قتال أمام دمار حياتها على يدي تلك العاهرة الصغيرة المتوحشة، وقد أمكنها العدول عن الانسلال إلى منزل طفولتها كي تهدأ والذهاب مباشرةً إلى منزل آل أوين في غودالمينغ وافتعال مشكلة كبيرة. إذاً حسناً، لو تجاوز الوقت منتصف الليل حينها، وأوقظت كل شخص في المنزل، فهل سيجدي ذلك نفعاً إن فشل في إعادة حب أرتشي إليها؟ وقد طلبت الرحمة منه من دون أن يمنحها شيئاً منها؛ لعل الأمر سيختلف مع عشيقته.

ندمت أغاثا على أسلوبها الهادئ في التعامل معي على الرصيف خارج مطعم سيمبسون، وتخيلت أنها أمسكتني من كتفي وحركتني بقوة، وأمرتني أن أبتعد عن زوجها، ربما كانت ستجثو على ركبتيها، ربما كانت ستتوسلني في حال رفضت ذلك؛ لقد صبت كل عذابها الآن مرئياً كان أم مسموعاً. كانت والدتها ستقول كلمة معاناة باللغة الفرنسية، إذ أحبت استخدامها خلال الحديث عن العاطفة في الحالات النادرة التي حدث فيها ذلك، وسترفض أغاثا تفسيري الهادئ، أو طلب الشفقة مني، إذ تعتبرني عاهرةً وليس وحشاً.

صعبت الرؤية عبر الزجاج الأمامي بسبب الظلام وعينيها المنتفختين إثر البكاء وإلا كانت رأته مسبقاً؛ لقد انطلق الرجل إلى نهاية الطريق محاولاً إيقافها، ولوّح ذراعيه إلى أعلى وأسفل، وأوشكت أن تدهسه قبل أن تنحرف في اللحظة الأخيرة عنه، وأدركت حينها أنها كانت ستسقط في المحجر لولا ضغطت على المكابح.

لم ترغب في الموت أبداً؛ ينتابك هذا النوع من الأحاسيس في لحظة نجاتك من حادث أوشك أن يقتلك، كما أنها اكتسبت معلومات جيدةً حول السموم من عملها في المستوصف وبحثها خلال كتابة رواياتها، فكانت تستطيع الانتحار إن أرادت.

طرق الرجل الذي تجنبت دهسه على نافذة مقعد السائق، وحدق إليها بهدوء مخيف، وكأن ما حدث طبيعي تماماً، لعله سيقتلها الآن، ولكنها أنزلت زجاج النافذة على أي حال. غطى شعره الأسود عينيه، وتكاثفت أنفاسه أمامه في الهواء البارد، وتبينت أغاثا من شعره الأسود ومعطفه أنه الرجل نفسه الذي أعطى تيدي الكلب الخشبي المنحوت.

سألها بلهجة إيرلندية وصوت أجش وقد تلألأ الحنان في عينيه الزرقاوين: «هل أنت بخير؟».

أجابت أغاثا: «أعتقد ذلك».

قال: «أعتذر لأنني أخفتك».

قالت أغاثا: «أخفتني؟ لقد أخرجتني عن الطريق».

فتح باب السيارة من أجلها، فتذكرت أنّه يفترض بها أن تخاف من هذا الرجل، وتمايلت السيارة بها إذ تدلت عجلتاها الأماميتان فوق المحجر، وقد صدمتها فجاعة المأساة التي تجنبتها مجدداً، لقد كانت تتوق للبقاء على قيد الحياة.

قال الشاب: «لقد جئت إليك كي نتحدث عن نان أوديا».

آه، تلك الوقحة. تجلت كلماته أمام أغاثا وكأنها كابوس وطلبت من نفسها أن تستيقظ مراراً وتكراراً، وأغمضت عينيها، وصممت أن تفتحهما وتجد نفسها في المنزل برفقة زوجها رغم أن الهواء البارد أثبت أنها في الخارج على الطريق وسط ظلام الليل وقد صادفت غريباً ينتظر مناقشة أكثر الأمور رعباً في حياتها.

قال الشاب: «أعتقد أننا نستطيع مساعدة بعضنا يا سيدة كريستي». كان شاباً وسيماً حسن الوجه وكأن هالة اللطف تحيط به، رغم أنه يفتقر إلى روح الدعابة، فستصفه أمها أنه ودود مستخدمةً اللغة الفرنسية. رفعت يديها ووضعتهما على وجهها.

أنـزل الشـاب الإيرلنـدي يديهـا عن وجهها بلطف، ولمـس خدها تحت عينها تماماً حيث ذرفت دمعةً وقال: «حسناً، سنؤجل البكاء إلى وقت لاحق، اتفقنا؟ الطقس بارد هنا، ويجب أن نذهب إلى وجهتنا».

أجابـت أغاثـا: «لا أدري إن كانـت سـيارتي سـتعمل»، وكأن ذلك سـبب كـي تتجنـب الذهـاب معـه من دون أن تضع في حسـبانها رحيلها برفقة رجل غريب، أو القلق حول سـلامة قواها العقلية إزاء عدم محاولتها قيادة السـيارة إلى الخلف مباشرةً والابتعاد عن المكان بأسرع ما يمكن.

قال الشاب: «سنتركها هنا كما أنها ستثير القلق عليك أليس كذلك؟ لقد حالفنا الحظ إذ إننا سـالمان وقد حل الظلام منذ سـاعات، كما أنني وجدت سيارةً مهجورةً مؤخراً».

سألته أغاثا: «هل سرقتها؟».

أجاب الشـاب: «لقد اسـتعرتها إذ بدا أن أحداً لا يسـتخدمها، إنها على العشب بجوار الطريق قريباً من هنا».

قالت أغاثا وقد بدا صوتها مرتاباً وحاداً: «حسناً، هل ستستعملها مجدداً؟».

أجاب: «أجل، إن استطعت ذلك».

لامس الأسـى في صوته قلب أغاثا الرقيق، وأرادت أن تكون متسـامحةً فجأةً وقالت: «أنت محظوظ حقاً».

تردد صدى ضحكته الحزينة التي لم تكن كذلك قبل قليل وأجابها بصوته الأجش: «أعتقد أنه حظ الإيرلنديين، ولكنني أشك في صحة هذه المقولة».

اتضحـت الأمـور تدريجيـاً، لقد كان حبيب نـان الإيرلندي؛ لقد حفظت أغاثـا سـراً التفاصيـل التـي روتهـا الفتاة عن ماضيها في ذلـك اليوم في مطعم سيمبسـون، فضاقـت عيناهـا محتـارةً في خطوتها التاليـة، إذ كان وجود رجل آخر يحب نان أوديا آخر ما تحتاج إليه، ولكنها ترجلت من السيارة، وأمسكت يده. أومأ الشاب الإيرلندي وكأنه فخور إزاء اتخاذها القرار الصائب وقناعتها

حول وضع نفسها في رعايته؛ فلعل خطة غودالمينغ ستفشل، على عكس خطة هذا الشاب.

قال: «أحضري ما تحتاجين إليه، وسأقود السيارة الأخرى إلى هنا».

أنستها صدمتها أخذ حقيبتها، ولكنها نقلت أكثر أشيائها أهميةً كحقيبة الاستحمام وآلتها الكاتبة إلى سيارة البنتلي الواسعة، وتوقفت قليلاً قبل الصعود إليها، وحدقت إلى سيارتها التي أحبتها كثيراً، إذ كانت فخورةً لأنها استطاعت شراءها من مالها الذي جنته من الكتابة. لعل أحدهم يجلس الآن قرب النار، ويعجز عن النوم، وهو يبحر في صفحات روايتها الأخيرة مقتل روجر أكريود.

قاد الرجل الإيرلندي السيارة، وقد أحبت أغاثا ذلك، إذ يفترض بالرجل أن يقود السيارة وتجلس المرأة إلى جواره عندما يتشاركان السيارة نفسها. كان الطريق أمامهما خالياً وقد أضاءته النجوم المتناثرة حول القمر الذي استحال هلالاً تلك الليلة، واندفعت رياح خفيفة عبر النوافذ وهزتها قليلاً؛ لقد أهمل هذه السيارة صاحبها على عكس سيارتها.

تندر الأوقات التي أفاقت فيها أغاثا على ظلمة العالم حولها، وقد اختلف حضور الرجل الجالس إلى جوارها عن حضور زوجها تماماً، وقد أدركت نسبياً الدمار الذي أصاب حياتها. في تلك اللحظة، أدركت تماماً أن الأمر يناسب شخصيتها إذ قالت في نفسها:

إنها مغامرةٌ شيقة، وأحست بذلك أيضاً.

هنا ترقد الأخت ماري

بعـد سنوات مـن إقامتي في الدير وفنـدق بيليفورت أنجبت طفلةً أخرى أسـميتها روزي على اسـم زوجة عمي؛ لقد أردت إنجاب مزيد من الأطفال، ولكن أرتشي وجد أن طفلةً من كل من زوجتيه تكفي، إذ أراد الحصول على حصتـه الكاملـة مـن الاهتمـام. التزمـت أن أكون الزوجة التي أرادها أرتشـي، ووجدت التوفيق سهلاً بين قضاء النهار في حب ابنتي والليل في حب زوجي، وتهاوى حلم الكتابة لديّ على عكس أغاثا، ولكنني أحببت كوني أماً وأحببت ابنتي روزي، ولكنها ما كانت هي، ولا حتى مئات وآلاف الأطفال، لتعوضني عن خسارة طفلتي الأولى.

اعتبر السيد ماهوني الدير جمعية خيرية حيث قال لي: «ستعتني الأخوات بـك»، ولكننـي وجدتـه على نحو بغيض أقرب إلـى إصلاحية الأحداث التي حالفني الحظ في تجنبها. في وقت لاحق، قرأت التاريخ ووجدت أن أولى المؤسسات الخاصة من أجل الأمهات العازبات تأسست في مقاطعة دبلن في بيليتستون بين عامي 1900 و1906، وسار دير ساندي كورنر على نهجها في غضون فترة قصيرة. لقد منحونا ما أطلقوا عليه اسم الجنة الآمنة مقابل العمل من دون أجر حتى ننجب أطفالنا، وأمكننا أن نعمل بعدها لسـنتين إضافيتين أو ثلاثـاً. فـي البـدء، يوضع أطفالنا في الحضانة ثم ينقلون إلى خلف الجدار الإسمنتي، ويبقون هناك حتى يتبناهم أحدهم، أو يكبروا، أو يُرسلوا إلى دار الأيتـام. كان يفتـرض بنـا أيضـاً أن ننجبهـم في مستشـفى المقاطعة في مدينة

كورك قبل أسبوعين من موعد الولادة، ولكن سالت المياه من رحم إحدى الحوامل خلال استعمال المنجل من أجل قطع أعشاب المرج الأخضر في الربيع، وأنجبت طفلها على فراش في غرفة الغسيل من دون وجود طبيب أو ممرضة، بل بحضور بعض الفتيات الأخريات فقط. نقلتها الراهبات وطفلها في شاحنة المزرعة إلى المستشفى، وعادت بعد عشرة أيام إلى العمل في المرج الأخضر واقتلاع الأقحوان والأعشاب الضارة واستخدمت المنجل حين احتاجت.

عملت بعض الفتيات في مزرعة الدير حيث اهتممن بطيور البط، وحلبن الأبقار، وزرعن البطاطا تحت مراقبة لصيقة من الراهبات، ولكنني بقيت داخل الجدران ربما لأن الراهبات رأين في عينيّ رغبة في الهرب، ولذلك أوكلوا إليّ مهمة رعاية مقبرتهن، وغسل الملابس وتنظيف الأرضية وأنا جاثية على يدي وقدمي. اعتدت أن أرتمي على سريري كل ليلة، وقد خارت قواي، فقد أرهقني نمو طفل في داخلي، والقلق، وابتعادي عن المنزل، والاستيقاظ يومياً من الساعة الخامسة من أجل المصلين والقداس، والعمل حتى السادسة والنصف مساءً، ولعل القسم الأكبر من الإرهاق أصابني نتيجة حب فينبار، وانتظاره كي يتعافى ويستعيد وعيه ويأتي كي يأخذني. انتشرت شائعة بين الفتيات عن قدوم عشيق إحدى الفتيات، ودفعه المال إلى رئيسة الدير كي تطلق سراحها، وزوجهما الأب جوزيف في الكنيسة الأبرشية، فعلّقت بعض الفتيات اللواتي حملن من شبان أحبوهن، وأنا منهنّ، أملهنّ الوحيد على هذه القصة. رفضت وضع وفاة فينبار في الحسبان، لقد منعنا من إرسال الرسائل أو تلقيها، ولكن والديه أخبراه طبعاً عن مكاني، وسيأتي من أجلي، وبدأت أتمنى قدومه في اللحظة التي أنجبت فيها طفلتنا.

عملت برفقة بيس، وفيونا، وسوزانا على غلاية الغسيل التي ملأها الصابون والبخار في القبو ذي الأرضية المرصوفة التي ضمت نمطاً من

المربعات الرمادية الكبيرة مع أخرى زرقاء ووردية أصغر منها، وقد أحيت هذه الألوان دوماً ذكرى قاسيةً عن الأطفال الذين سيسلبن من معظمنا. واظبت على تحريك الملاءات والمناديل مستخدمةً عصا خشبية طويلة، وحافظت الحرارة على تعرق جبهتي المستمر. فجأةً، أحسست بحركة طفلي في داخلي: لقد تحرك لا ريب في ذلك، فتجمدت وكأنني وقعت في الحب. يتحرك الأطفال في أرحام أمهاتهن دوماً، ولكن هذه هي المرة الأولى التي يتحرك فيها طفل في رحمي؛ تشقلب، ثم وضع أصابع قدميه على بطني كي تبرز على شكل فقاعات أمام عيني، فأجفلت وتوقفت عن العمل، ووضعت يدي على بطني.

توقفت بيس عن التحريك أيضاً، وابتسمت قائلةً: «يبدو الأمر ساحراً أليس كذلك؟».

وجب أن نمتنع عن الحديث أو معرفة أسماء بعضنا، ولكننا فعلنا العكس طبعاً، إذ ستنشأ الصداقات بين الفتيات عندما يجتمعن كما يتبع الليل النهار. أصررت أن تتذكر بيس وفيونا عنوان عائلتي في لندن، وبذلك نستطيع كتابة الرسائل إلى بعضنا في حال نجونا من حالتنا تلك.

فركت المنطقة التي شعرت بالحركة فيها وسألت بيس: «هل كان ذلك حقيقياً؟».

أجابت بيس: «أجل إنّه كذلك. هل اعتقدت أنك ستخوضين هذه الصعاب من أجل وهم؟»، لقد تجاوزتني بيس في عمر الحمل كثيراً، ولكنها نحيلة جداً حيث تعجز عن ملاحظة حملها تحت المئزر عديم الشكل.

ضحكتُ، وأجفلت من صوتي مباشرةً، إذ مضى وقت طويل على المرة الأخيرة التي أطلقت فيها أو أية فتاة أخرى حولي صوتاً مثله.

قالت سوزانا محتدةً: «ألا تستطيعين البقاء هادئةً؟»؛ لقد كرهت سوزانا مخالفة القواعد، وقد كانت الكبرى في الدير؛ فهي في الثلاثينيات من عمرها

تقريباً؛ وقد وصلت إلى هنا أول مرة وتبنت أسرة طفلها ذا الستة أشهر، ثم أرسلت كي تعمل خادمة بعد سنة أخرى لدى أسرة محلية، كي تعود حاملاً مجدداً إلى الدير بعد خمس سنوات.

جاءت الأخت ماري كلير كي تتفقدنا – كانت ألطف الراهبات وأصغرهن، كما كانت متسامحةً كفايةً كي تعفو عنا لأننا كنا نتحدث – وخيّمت دندنتها على الغرفة، إذ اعتادت أن تردد أغنيةً غيليةً [1] رافقتنا كالضباب حيث تذهب. تجنبت ماري كلير حمل مشحذ مربوط إلى بذلتها على عكس بعض الراهبات الأخريات، فضلاً عن كونها إنكليزيةً وليست إيرلندية؛ لقد بعث صوتها الطمأنينة في نفسي، وفي أولى أيامي في الدير، سألتها عن كيفية مجيئها إلى إيرلندا. أخبرتني وقد بدا صوتها حالماً: «كان أبي إيرلندياً، وأرسلني إلى هنا عندما كنت طفلةً من أجل العمل لدى أقربائنا، ولكن الأمور سارت عكس توقعاتي».

خفق قلبي عندما أخبرتني بذلك، وكانت تلك المرة الوحيدة التي اختفى فيها المرح عن محياها.

اعتبرت الأخت ماري كلير منذ ذلك اليوم واحدةً من الفتيات هنا أكثر مما اعتبرتها راهبةً، لقد كنت متأكدةً أن الظروف الصعبة قادتها إلى هذه الدير. وقفت مكاني عندما دخلت إلى غرفة الغسيل ويدي على بطني خارج المغسلة دون أن أسرع في العودة إلى العمل.

اقتربت الأخت ماري كلير وطوقتني بإحدى ذراعيها، ووضعت يدها الأخرى على بطني وسألتني: «هل تحرك الطفل؟».

أجبتها: «أجل».

أخرجت منديلها، ومسحت جبهتي وقالت: «أحسنت صنعاً أيتها الأم»، كانت تكبرني بعشر سنوات تقريباً، وامتلكت وجهاً صافياً خالياً من التجاعيد

---

(1) لغة في إيرلندا.

تحييه ابتسامتها. هي الوحيدة التي كانت تنادينا بالأمهات بدلاً من لقب الفتيات الذي دعتنا به بقية الراهبات.

عدت إلى العمل مباشرةً، وتحرّك طفلي مجدداً، عندها شعرت فجأة أنني لست وحيدةً، إذ أصبح فرد من عائلتي إلى جواري، وهو أقرب شخص إليّ من بين الجميع في العالم. التفتت بيس إلى الغسيل أيضاً، ولكنني رأيت ابتسامةً صغيرةً ترتسم على شفتيها. كنا نحن الاثنتان برفقة بعضنا وسط الحب الذي نكنه لطفلينا.

أطلت راهبة أخرى تدعى الأخت ماري ديكلان برأسها داخل الغرفة وقالت: «إن الأب جوزيف يطلبك يا بيس». حملت الأخت ماري ديكلان مشحذاً مربوطاً إلى ثوبها على عكس زميلاتها الأصغر سناً، ونادراً ما ترددت في استعماله سواء أكانت الفتاة صغيرةً أم حاملاً. نظرنا إلى الأرض، واختفت ابتسامة بيس، واستخدمت مئزرها كي تجفف يديها، وأطاعت الأمر وتبعت الراهبة، ورافقتهما الأخت ماري كلير.

شاهدتها فيونا تغادر وقالت: «عزيزتي المسكينة، ولكن الأب يعلم ما الأفضل من أجلنا، أليس كذلك؟».

عجزت عن إدراك كيفية معرفة فيونا سبب استدعاء بيس من قبل الأب؛ لقد نشأت فيونا في ميتم، وأرسلت عندما كانت في الثالثة عشرة من عمرها كي تعمل لدى أقارب بعيدين عنها، وأحضرها قسهم الأبرشي إلى هنا بعد بضعة أشهر، ولم أسمع أن فيونا تحدثت مسبقاً عن الشاب المسؤول. ملأت الدير فتيات استقبلن الرجال بعد العودة سالمين من الحرب كي يسلب الزكام حياتهم لاحقاً، أو يشاركوا في حرب استقلال إيرلندا، أو يتابعوا حياتهم دون أن يلتفتوا إلى الماضي.

ولكن حصل بعضنا – أعتقد مثل فيونا وسوزانا – على شبان أحببنهن من دون أن يخيبوا آمالنا، ولكن تعرضوا إلى شيء أسوأ من ذلك. أكمل ابن فيونا

عامه الأول الآن، ونقل من الحضانة إلى القسم الآخر من الدير. بعثت الوحمة الحمراء على جبهته الطمأنينة في نفس فيونا، إذ اعتقدت أنها ستمنع العائلات من تبنيه، وبدا أنها عاجزة تماماً عن التفكير في المستقبل خارج حياتهما هنا.

لقد وضعت ثقتها الكاملة في الراهبات والقس، وتمتمت دوماً إلى نفسها: إنهم يعرفون الأمر الأفضل. قالت الآن وهي تحرك ما في الغلاية مثل ساحرة شابة متفائلة ولطيفة: «ستكون بيس بخير، إذ سيأتي عشيقها كي يأخذها وسيتزوجان. أنا أعلم ذلك يا نان، أعلم ذلك وحسب».

أكدت على ذلك، رغم أنني تجنبت جدالها أو سؤالها عن سبب توقعها هذا، وتلاشت سعادتي حول حركة طفلي.

أخبرت فيونا سوزانا: «إن عشيق بيس أمريكي، وقد التقته خلال عملها في مستشفى ميداني عندما كانت تُمرض الجنود الجرحى»، كانت فيونا صهباء وامتلكت نمشاً؛ احمرت بشرتها البيضاء وتعرقت من البخار.

أطبقت سوزانا على أسنانها وقالت: «وجب أن تمنعها والدتها من الاقتراب من الجنود، وأتمنى لو تتوقفان عن الكلام».

قالت فيونا متجاهلةً طلب سوزانا: «أعتقد أن عشيقها سيأتي من أجلها، أنا أدعو من أجل ذلك. يبدو من كلامها أنّه رجل صالح... ما رأيكما أن نتوقف قليلاً ونصلي من أجل بيس؟ لن تغضب الأخوات إن وجدننا نصلي. دعونا ندعُ من أجل بيس وطفلها ليعيشا حياةً سعيدةً إلى الأبد»، وأفلتت فيونا عصاها.

قالت سوزانا من دون أن تبرح مكانها: «ستغضب الأخوات إزاء أي شيء، إن عجزت عن إدراك ذلك الآن، فستفشلين في معرفة أي شيء آخر».

كانت سوزانا محقة، ولكنني وفيونا أمسكنا أيدينا ووضعنا جبهتينا مقابل بعضهما. صلّيت ولكن ليسَ على قدر قلقي، إذ حوّل الأب جوزيف انتباهه إليّ. حاولت أن أتظاهر بعدم معرفتي سبب دعوته بيس، ولكن أعجز عن

نسيان هول الأمر عندما أفكر في طفل بيس الذي يتحرك داخلها مثل طفلي.

خشيت أن الموت قد باغت فينبار، فهو الوحيد القادر على إنقاذي وإخراجي من هنا، ولن يعترض طريقه إليّ سوى الموت. أغمضت عيني، واتكأت على فيونا، وتخيلته يمسك كرة التنس في يده ويقول: «تمني أمنيةً».

فأجيبه: «أتمنى أن نغادر كلانا، بل نحن الثلاثة هذا المكان معاً سالمين».

فيقول فينبار: «ستتحقق أمنيتك».

دخلت الأخت ماري فرانسيس العجوز متوعدةً، وضربت فيونا على ظهرها بواسطة عكازها وقالت: «سيمحو العمل الجاد خطاياكن، وليس الصلاة»، وكأننا منعنا عن الدعاء أيضاً إلا إن شاءت الراهبات ذلك.

اعتدلت فيونا في وقفتها بدل أن تجفل، وقالت مبتسمةً بصوت عذب: «أعلم تماماً أنك على حق يا أختاه».

التفت إلى الغلاية مجدداً، وجرّت فيونا عربةً من الملاءات المبتلة كي تعلقها على حبال الغسيل على السطح، لعلها تلمح ابنها الصغير في الساحة اليوم، إذ انتابها القلق لأنه لا يزال عاجزاً عن المشي. سألتني مباشرةً عند عودتها: «ألا يجدر به أن يستطيع المشي في هذا العمر؟».

حاولت التفكير في بيس من دون التفكير في الأب جوزيف، وكأن الله قد استجاب إلى صلواتنا، أو أنني صليت في ذلك الوقت من أجل أحد سواي وطفلي.

الاختفاء

اليوم الرابع

الثلاثاء، 7 كانون الأول، 1926

أفلتت أغاثا يدها من يد تشيلتون فور ذكر اسمها، لقد أخطأت كثيراً في فتح الباب، ولكن فينبار أخبرها أن تتوارى عن الأنظار، ولم يطلب منها عدم فتح الباب، إذ لم يخطر في باله قدوم أحد إلى هناك، أو أن أغاثا ستكون ساذجةً كي تفتحه، ولكنها فعلت ذلك غريزياً كما فرضت عليها آداب التعامل مع الآخرين، إذ يفترض أن تجيب السيدة المهذبة إن طرق أحدهم الباب في غياب كبير الخدم. قالت أغاثا في نفسها: أية سلطة تملكها هذه الآداب علينا؟ وانتصبت في وقفتها، وكأن ذلك سيلغي المشكلة التي ورطتها أخلاقها الحميدة فيها.

أجابت أغاثا: «أخشى أنك مخطئ يا سيدي، لا أعرف أحداً بهذا الاسم».

قال تشيلتون: «صورتك معي في السيارة، هل أستطيع الذهاب كي أحضرها؟».

لوّحت أغاثا وكأنها تبعد دخان السجائر من أمامها وقالت: «هل قلت صورةً؟ ولكن تتشابه الأوجه كثيراً في الصور، أليس كذلك؟».

هل أرسلوا الشرطة إلى يوركشاير حقاً من أجل البحث عنها؟ ما من داعٍ لهذه الجلبة. شعرت بتقلبات شديدةً في معدتها؛ إن كانوا يبحثون عنها في مكان لا يوجد سبب أن تأتي إليه، فأين يبحثون أيضاً؟ من يعلم أنني هربت؟

ولماذا هربت؟ لقد كرهت التفكير في سماع داعميها المخلصين – وكيلُها وناشرُها الجديدان – حول هذه الفوضى المهينة.

قال الرجل بلطف: «سيدة كريستي، أدعى المحقق فرانك تشيلتون، وأمثّل قسم الشرطة في ليدز، وقد أوكلت إليّ مهمة البحث عنك، رغم إيماني أنني سأعجز عن ذلك تماماً».

لقد امتلك تشيلتون وجهاً وسيماً وأخلاقاً حسنةً، وكان لطيفاً ومتواضعاً، واعتقدت أغاثا أن خداعه أمر سهل فقالت: «أستميحك عذراً أيها المحقق تشيلتون، ولكن أعتقد أنك لم تسمعني، أنا لست أغاثا كريستي».

لاحظت أن تشيلتون ينظر خلفها حيث كانت تجلس إلى الطاولة وأمامها كدسة من المذكرات فضلاً عن آلتها الكاتبة، فأغلقت الباب خلفها كي تحجب رؤيته.

سألها تشيلتون بلطف وحزم في الوقت نفسه مذكراً إياها أنه محقق شرطة: «حسناً، ما هو اسمك؟».

أجابت أغاثا: «أعتقد أن هذا الأمر ليس من شأنك. سيصل زوجي إلى المنزل قريباً... آه، لقد جاء».

شعرت أغاثا أنها ابتسمت فور رؤية فينبار يمشي في الممر واضعاً يديه في جيبيه، وقد احمرت وجنتاه، كانت ردة فعل لاإرادية تماماً، إذ أمضيا معظم وقتيهما معاً في الأيام الأربعة الماضية، وأرادت بشدة أن يصدق تشيلتون زواجها من شخص وسيم ويافع جداً.

اقترب فينبار من درج المنزل الأمامي حاملاً حقيبة الخيش التي برز منها ما اعتقدت أغاثا أنها بعض ثمار التفاح الكندي نظراً إلى الوقت من السنة حينها، لقد أخبرته صباح اليوم فقط أنها تحب التفاح وجاء حاملاً إياه من أجلها. لقد تشوقت من أجل قضم واحدة من هذه الفاكهة المقرمشة.

سأل فينبار: «ماذا يجري؟».

أجابت أغاثا: «عزيزي، أعرفك إلى المحقق تشيلتون، لقد جاء بحثاً عن سيدة مفقودة، ويبدو أنه أخطأ بيننا، ماذا كان اسم السيدة المسكينة؟».

لـم تكـن تلـك المـرة الأولـى التـي نـادت فيها فينبـار عزيـزي، إذ كانت تراوده كوابيس، وتوقظها صرخاته فتذهب كي تهدّئ من روعه وتقول: «اهدأ يـا عزيـزي، فأنـت فـي أمان تماماً». بدأ فينبار يسـمع تحببهـا هذا خلال النهار أيضاً، والآن أمام شخص غريب.

أجاب تشيلتون: «السيدة أغاثا كريستي».

قال فينبار: «يا إلهي، هذا مؤسف. أتمنى حقاً أن تكون سالمةً وأن يحالفكم الحظ في إيجادها. هذا كل شيء إذاً؟».

لعل الأخلاق الحسنة قد حثت أغاثا أن تفتح الباب، ولكنها سهّلت أيضاً التعامل مع الغرباء الطفيليين؛ يتطلب الأمر قراءة النص فقط.

أومـأ فينبـار إلـى المحقق إيماءةً فظةً وتجاوزه، وأخرى محترمةً إلى أغاثا والتي لا يستعملها رجل أبداً مع زوجته، وأخذ يغلق الباب، لكن يد تشيلتون اعترضت طريقه.

وضع فينبار ذراعه على كتف أغاثا التي ابتسمت مجدداً. لقد اكتشفا كثيراً من الأشـياء المشـتركة بينهما في الأيام القليلة الماضية مثل حبهما للكلاب، إذ قالـت أغاثـا علـى سـبيل المثـال: «أنا أفضلها أكثر من البشـر، ماذا عنك؟»، ووافق فينبار على ذلك قبل أن يضيف عبارة: «معظم البشر». أوقظته أغاثا في الليلة الماضية من أحد كوابيسه المروعة، وفكّرت في تقبيله من أجل أن يهدأ؛ سيساعد ذلك نان أليس كذلك؟

لقد صدمها تفكيرها في تقبيل تشيلتون أيضاً رغم تهديده استمرارها في الاختباء، إذ رأت خطيبها السابق تومي في محياه، والذي تخلت عنه من أجل أرتشـي، فتجاهلت أغاثا خجلها؛ فلعل النسـاء يرغبن في تقبيل رجال آخرين بعد أن يهجرهن أزواجهنّ. تسـاءلت في نفسـها كيف سـيتفق دافعها هذا مع

تأكيدها لفينبار أن مهمتهما واحدة، وهي إقناع نان أن تفلت أرتشي من قبضتها، وقد شعرت أن الشيء الوحيد الذي سيخفف ألم أن يكون أرتشي برفقة امرأة أخرى هو كونها مع رجل آخر.

قال تشيلتون: «أستميحك عذراً، ولكنني أخشى وجوب إصراري على معرفة اسمك نظراً إلى التشابه الحاصل».

أجاب فينبار: «تدعى نان ماهوني».

تلاشت ابتسامة أغاثا، لقد كان اختيار فينبار هذا الاسم متوقعاً ومزعجاً في الوقت نفسه.

قال تشيلتون: «هل سأجد أن ملكية هذا المنزل تعود إلى آل ماهوني إن بحثت عن ذلك في سجل البلدة؟».

أجابت أغاثا: «أجل طبعاً»، وقال فينبار في الوقت نفسه: «سنغادره في الحقيقة».

تبادلا النظرات، لقد قبض عليهما، ولكن، هل يهم ذلك؟ إذ لم ترتكب أية جريمة سوى الاختباء في منزل شخص آخر، ولا يبدو هذا الخطأ جسيماً.

قال تشيلتون: «اسمعيني يا سيدة كريستي، أعلم أنك هي، ولكن سأمنحك يوماً آخر كي تعيدي النظر وتحضّري نفسك، سأعود صباحاً، ونستطيع اتخاذ قرار حول ما سنوصله إلى زوجك، إنه في غاية القلق وأنت تعلمين ذلك».

أطلقت أغاثا ضحكةً عاليةً أثارت الشك في نفسها حول هويتها الحقيقية.

قال فينبار: «طاب يومك يا حضرة المحقق»، وأغلق الباب.

ضمها فينبار قبل أن يرفعها مطمئناً إياها وقال: «لا حاجة إلى القلق».

عاد تشيلتون إلى سيارته، وقد تشتت ذهنه محاولاً أن يصف ما شهدته عيناه منذ قليل؛ إن افترضنا أن إنكلترا كومة من القش يبحث فيها مئات من رجال الشرطة، فقد كان إيجاده الإبرة أمراً استثنائياً. أمسك الصورة، وتفحّصها

مجدداً وتأكد تماماً أنها أغاثا، وما زالت على قيد الحياة وليست راقدةً في قاع أي بحيرة. إنه شيء مفرح رغم آلاف الأسئلة التي تراوده بعد فتحها الباب له، وأهمها هوية الشاب الإيرلندي الذي سبق له أن رآه في ذلك اليوم يضع يديه على سيدتين بعيدتين كل البعد عن كونهما عاهرتين.

فكّر تشيلتون في خطوته التالية: هل يذهب إليها ويصطحبها إلى سيارته تحت تهديد السلاح؟ أم يعود إلى ليدز مباشرةً ويخبر صديقه سام ليبينكوت أنه وجدها؟

اختار أن يحترم وعده وينتظر يوماً آخر كي تتمالك نفسها بعد صدمة اليوم، ومنح نفسه يوماً إضافياً في فندق بيليفورت من أجل الاسترخاء في أحواض المياه الساخنة، وتناول حلوى يوركشاير، والنوم في السرير الذي كان مريحاً ضعف أي سرير آخر امتلكه. كان سيتبع خطةً أخرى لو وجد السيدة كريستي في خطر، ولكن بدا أنها في عش حبها الجامح برفقة رجلها الإيرلندي الوسيم.

سيحفظ سر أغاثا اليوم، ولم يعلم سبب اتخاذه قراراً كهذا؛ لعله سيغير رأيه غداً، ولكن ليس اليوم.



الاختفاء

اليوم الخامس

الأربعاء، 8 كانون الأول، 1926

هناك قيد في الزواج لا يتبادر إلى ذهن المرء عموماً، وعجزت عن فهمه قبل أن أتزوج، إذ تتشكل رابطة يصعب كسرها سواء أنشأ الزواج عن واجب أو فرصة مناسبة أو كلمات سرية مهموسة وشغف لا يقاوم، أو حتى استياء قاد إلى لا شيء بعد سنوات. اعتقد أرتشي أنه نجا من وزر ضغط فقدان زوجته مجدداً، فقد اعتبر أغاثا شخصاً عادياً خلال العامين اللذين عرفته فيهما، في حين بدأ الآن يعتبرها زوجته بعد فقدانها واحتمال تعرضها إلى الخطر.

وقف مفوض رئيس الشرطة تومبسون ثابتاً وغير آبه تجاه عذاب العقيد كريستي، وقد أخبره في اليوم السابق أنه يعلم بأمر الفتاة، بعد أن وصل في الصباح الباكر إلى ستايلز.

أراد أرتشي طبعاً أن يتساءل، أية فتاة؟ ولكنه كان ذكياً بشكل كافٍ كي يدرك أن أمره قد كشف، فقال: «أعلم كيف يبدو الأمر، ولكنني أحب زوجتي ولن أؤذيها أبداً». أخطأ أرتشي في استعمال نبرة متسلّطة بدلاً من الندم، فهو يعلم أنه لم يؤذِ أغاثا جسدياً، ولكنه شعر أنه فعل ذلك بسبب نظرات مفوض رئيس الشرطة تومبسون الغاضبة، وتذكر جرحه مشاعر زوجته، فاستاء إزاء براءته وأحس بوضاعته في الوقت نفسه.

قال تومبسون من دون أن يحاول أن يخفي غضبه: «سنكتشف الأمر»؛

ستقع مأساة إن عثر على أغاثا ميتةً، وستنحصر المتعة في زج زوجها في السجن، فأمر تومبسون بتكثيف جهود البحث.

جلس أرتشي الآن إلى مكتبه وأمامه نسخة من القصة التي ألفتها أغاثا وطبعتها باستثناء عنوانها الحافة الذي حفرته بجنون في قمة الصفحة إذ أوشك قلم الحبر أن يثقبها. قرأها مجدداً، وصادف كل الوقائع فيها، حيث تهزم المرأة عدوتها وتدفعها عن الجرف كي تلقى حتفها. انطوى احترام أرتشي لزوجته على بعض الخوف، وقال في نفسه: «أنا لا أعرفها، لا أعرفها أبداً».

لعلهم يبحثون عن أغاثا في شتى أنحاء إنكلترا ، ولكن البحث المركّز كان في باركشير وسوري، فعززت المقاطعات البحث عن طريق الكلاب ورجال الشرطة إضافةً إلى الطائرات التي استخدمت للمرة الأولى في البحث عن شخص مفقود. أخذ طاقم العمل في كوورث هاوس، أكبر مقاطعة في سونينغديل، يوم إجازة من أجل توظيف معرفتهم حول المنطقة والتي فاقت معرفة أيٍّ من قوات الشرطة، كما حافظوا على سرية التحقيق من دون تكرار الشائعات التي أثارها طاقم العمل الرديء في ستايلز؛ غير مدركين وجود أنّا قيد الاستجواب، ماذا يمكن أن يتوقع المرء من خادمة من الدرجة الثانية؟ كانوا واثقين أن أغاثا كريستي استحالت جثةً هامدةً الآن، واعتمدوا كثيراً على فكرة أن أحداً غيرهم قد يجدها، وخاب أملهم تماماً عند العثور على جثة الآنسة المسكينة أنابيل أوليفر وقد تجمدت في جدول ضحل قبل أن تعلق في شبكة من نبات العليق. تعالت صيحة قوية فور رؤيتها، ولكن سرعان ما تخامدت، فقد كانت صاحبة الجثة قصيرة القامة وأكبر عمراً من أغاثا كريستي؛ توجد جثة واحدة قيمة فقط، وليست هذه التي تعود إلى شخص لم يبلّغ أحد عن فقدانه.

* * *

قاد أرتشي بيتر في سلسلته إلى نهاية الطريق، وتناهى إلى مسامعه صوت مراوح الطائرات فوقه يخترق الفضاء، وصوت الكلاب البعيدة والذي أصبح مألوفاً منذ اختفاء زوجته التي تُرفع القبعة من أجلها إن تعمدت الهروب كي تدفعه إلى الجنون.

حاول بيتر الإفلات من قيده فهو لم يكن يحب أرتشي، ولكن الأخير شده إليه مجدداً، فقد طلب منه مفوض رئيس الشرطة تومبسون أن يأخذه إلى حيث عثروا على سيارة موريس كولي، فاستطاع قيادة السيارة إلى هناك، ولكن أمل أن يساعد الهواء – الذي كان رياحاً باردةً جداً في الحقيقة وتكفي من أجل تشقق جلد المرء – على تخفيف الاضطراب الذي يشعر به. قال في نفسه: «ما الذي اقترفته؟ ما الذي اقترفته؟»، لقد مزق حياته إلى أشلاء، مؤدياً إلى هذه الفوضى والضجة المروعة المتواصلة حوله. شعر وكأن عذاب أغاثا قد تجلى في هذا البحث، وقد سبب بنفسه ذلك من أجل فتاة تجيد لعب الغولف. انتشر خبر اختفاء أغاثا في صحف العالم أجمع، وعلمت الشرطة بأمر خيانة أرتشي، ولكنهم لم يستطيعوا العثور على نان من أجل التحقيق معها – لقد كان ممتناً لأنني حفظت وعدي واختفيت عن الأنظار – ولكن كم سيطول الوقت قبل أن تُكشف حقيقة أفعاله؟ هل ستغير أغاثا رأيها في استعادته عندما تجد أن قصته ونان قد شاعت على الملأ؟ متى سيعرف العالم كل شيء؟ أم أنه دمر زواجه وحياته كاملةً من أجل شيء بدأ يعتقده فارغاً، وجنوناً، وعبثاً؟

انتظرت الشرطة قرب سيارة زوجته التي ما زالت في نيولاندس كورنر حيث أخرجوها من المحجر. نظر رجال الشرطة بصرامة إلى أرتشي، وكان معظمهم واثقين من افتعاله مسرحيةً غبيةً، وكأن ذلك محتمل أساساً، وربما فكر في ذلك، ألا يستطيعون أن يتبينوا مدى يأسه من أجل إيجاد زوجته؟

قال أرتشي: «لقد وصلنا يا بيتر». شد بيتر قيده مجدداً ناحية المنزل؛ لقد أفسدته أغاثا، وسمحت له أن يجلس على الأثاث، ويمشي من دون طوق،

وأطعمته من طبقها. انحنى أرتشي محبطاً كي يحمله، ولكن بيتر تلوى بين ذراعيه وهو ينبح. تبادل شرطيان شابان النظرات؛ هل يندهشان أم يشمئزان؟ فشل العقيد الأنيق في السيطرة على كلبه الصغير كما تفعل زوجته، ولذلك وضعه قرب السيارة قائلاً: «هيا يا بيتر»، ولكن تجنب الكلب أن يشتم أو يفعل شيئاً سوى الدوران في دوائر وهو يئن.

قال الشرطي الأكثر اعتراضاً من الشرطيين السابقين: «حسناً، أعتقد أن هذا يكفي».

أجاب أرتشي: «وأنا أيضاً»، وفك طوق بيتر الذي هرول باتجاه المنزل.

سار أرتشي وراء الكلب قبل أن يصرخ صوت تومبسون فيه، وقد كان أكثر صرامةً من المعتاد، وبدا أنه على وشك أن يخنقه: «انتظر لحظةً».

فتح أرتشي فمه كي يتحدث من دون أن يستطيع ذلك أمام تومبسون الذي قاطع أي شيء أراد أرتشي قوله كي ينقل كلماته الفاجعة هذه: «توجد تطورات جديدة، أخشى أننا عثرنا على جثة خلال البحث».

يستحيل أن تكون جثة أغاثا؛ التوَتْ ركبتا أرتشي من هول هذا الخبر، وقد خانه جسده الذي كان مخلصاً في سبيله دوماً خيانةً مهينة جداً، إذ اضطر أن يتمسك بتومبسون كي لا يسقط أرضاً.

ثنى تومبسون ركبتيه أيضاً كي يستجمع قواه من أجل إبقاء العقيد واقفاً على قدميه، وارتسمت على وجهه تعابير الدهشة والحيرة، هل ما يشهده الآن حزن أم ذنب؟

فكّر أرتشي في الجثة وزوجته، وبدا عاجزاً عن احتمال الأمر، لقد استحال العالم مكاناً وحشياً خالياً من الرحمة. لو أنه رجل آخر، كان سيفلت الشرطي ويسقط إلى الأرض باكياً.

في صباح ذلك اليوم، فتح تشيلتون باب غرفته كي يجد السيدة الأمريكية ليزي كلارك تمشي في الردهة وقد حضرت نفسها من أجل السفر، فأغلق بابه قبل أن تلاحظه ووجدها تطرق بخفة على باب إحدى الغرف محاولةً إيقاظ مَن فيها فقط دوناً عن بقية النزلاء في الغرف المجاورة، وانسلت إلى داخل الغرفة فور أن فتح الباب الذي أغلق مجدداً. خلع تشيلتون حذاءه، وخرج إلى الردهة دون أن يصدر صوتاً كي يسترق السمع.

قالت الأمريكية: «وصلت برقية إلى دوني، يجب أن نلغي عطلتنا ونعود إلى الولايات المتحدة».

أجابت امرأة أخرى: «آمل أن يكون كل شيء على ما يرام»، خمّن تشيلتون أنها فرنسية، ووجد صوتها مرتفعاً أكثر قليلاً من اللازم وانطوى على نوع من التزييف، وكأنها أدركت وجود أحد يصغي إليهما.

قالت ليزي: «أجل، كل شيء رائع».

تخيل تشيلتون السيدتين جالستين على السرير غير المرتب، وقد شبكتا أيديهما، كما لاحظ بعض المودة إلى جانب الخداع في صوت المرأة الثانية. عاد إلى غرفته، وجلس على طرف السرير كي يربط شريط حذائه الذي لاحظ أنه يتشقق. سيتوجّب عليه إخبار ليبينكوت هذا الصباح: «لقد وجدت أغاثا كريستي وهي سليمة تماماً ولم تُصَب بأيّ ضرر، إنها تسعى وراء الخصوصية فقط».

قد يتغلغل اللطف في نفس ليبينكوت، ويرسم خطةً تناسب المؤلفة، فيخبر زوجها مثلاً دون سائر الناس، ويوقف البحث، ويسمح لها بالعودة عندما تكون مستعدةً.

ولكن الصحافة ستمنعها من ذلك لأن قصتها تساوي أرباحاً طائلة. لقد حالفها الحظ لأن شرطياً عثر عليها وليس صحفياً؛ لقد وجدها تشيلتون رغم اختيارها آخر مكان قد يخطر في بال أحد أن يبحث فيه، حيث سينكشف مخبؤها عاجلاً أم آجلاً.

ارتدى تشيلتون ملابسه ونزل إلى الطابق السفلي من أجل تناول الفطور، ووجد الزوجين كلارك عند مكتب الاستقبال يسددان الفاتورة للسيدة ليش، فأخرج سيجارةً ووضعها بين شفتيه من دون أن يشعلها وألقى التحية عليهما: «كيف الحال؟».

لاحظ اضطراب السيدة كلارك لبرهة قبل أن تصبح ملامحها غامضة وتجيبه بلهجة أمريكية حادة: «صباح الخير»، التزم زوجها الصمت وهو يضع النقود في يد السيدة ليش التي قالت: «شكراً لك يا سيد كلارك، جميل منك أن تدفع ما عليك بشكل كامل، أتمنى لكما السلامة في رحلتكما».

لقد رحل أكثر من نزيل عن الفندق بعد موت شخصين، من دون أن يكون أي منهم كريماً هكذا. التفت السيد كلارك إلى تشيلتون، وأخرج عود ثقاب من جيبه، وأشعل سيجارته. قالت زوجته: «في الحقيقة، أنا متشوقة للصعود على متن السفينة، أعتقد أن أحواض الماء الساخن تلك مبالغ في تقييمها، دون إهانة طبعاً، فجل ما في الأمر أنني أفضّل الماء البارد وقضاء الوقت في البحر الواسع بدلاً من كهف بخاري ساخن»، والتفتت إلى السيدة ليش كي تعتذر منها.

أعاد الزوج الشاب علبة عيدان الثقاب إلى جيبه، ووضع يداً على كتف زوجته من الخلف موجهاً إياها ناحية الباب الأمامي، وكأنهما يؤديان رقصةً قبل الخروج.

قال تشيلتون بهدوء: «أتمنى لكما رحلةً سعيدةً»، وراقبهما وهما يرحلان، ودفع خادم الفندق عربةً حملت حقائبهما المتواضعة. قال تشيلتون للسيدة ليش: «قادهما فضولهما للمجيء إلى هنا وقضاء بضعة أيام فقط. تشعرين وكأنهما سيجوبان القارة كاملةً».

سألته السيدة ليش إن أراد استعمال الهاتف، وقد كانت حاجته ملحةً في الحقيقة، ولكنه وجد نفسه يقول: «ليس الآن، شكراً لك، ولكن أودّ سؤالك،

هل توجد منازل كثيرة مهجورة هنا في هاروغيت؟».

أجابت السيدة ليش: «ليست مهجورةً طبعاً، ولكن توجد قلة منها غير مسكونة، وهي منازل ريفية تعود إلى أشخاص يعيشون في المدينة، وهم نادراً ما يأتون إليها، ولذلك أتساءل لماذا لا يقيمون في فندق؟ أنا شخصياً لا أحب حياة المدن يا سيد تشيلتون».

أجاب تشيلتون: «وأنا أيضاً». شد سترته الصوفية إلى الأسفل والتي بدت فضفاضةً، إذ خسر بعض الوزن مؤخراً، وذكّر نفسه قائلاً: «يجب أن أتناول الطعام، وأعمل، وأتابع نمط حياتي المعتاد».

تابع طريقه إلى غرفة الطعام التي لم يكن فيها كثير من الناس، وجلست بينهم امرأة شابة وحدها، تحدق عبر النافذة في تركيز، وأمامها على الطاولة فنجان قهوة يبرد تدريجياً من دون أن تلمسه يدها، فاتجه تشيلتون إليها مباشرةً، وسحب كرسياً كي يجلس وقال: «هل أستطيع الجلوس إلى الطاولة معك؟».

وافقت على ذلك، وقالت: «وكأنني أمتلك خياراً آخر».

* * *

امتلك المحقق تشيلتون أفضليةً أمامي من النوع الذي يفضله رجال الشرطة؛ لقد علم بوجود رابط يجمعني بأغاثا كريستي من دون أن يستطيع اكتشافه، وكنت أجهل امتلاكه هذه المعلومة. لا أزال مضطربة الذهن إثر الخبر الذي نقله فينبار إليّ: تشير كلمة علينا إليه وإلى أغاثا، لقد كانت تختبئ برفقته هنا في هاروغيت، وسيزداد اضطرابي إثر اكتشافي معرفة تشيلتون بذلك.

لكن قلقي الأساسي ينبع من فينبار وليس من تشيلتون، ومن تأثير ظهوره مجدداً على مستقبلي. كيف سأستطيع العودة إلى حضن أرتشي بعد الخروج من أحضان فينبار؟ يجب أن يحترم المرء علم النفس. لقد قطعت شوطاً طويلاً من العمل على نفسي ضد العواطف كي أرسم خطةً أصبح فيها زوجة أرتشي، وقد هدد ظهور فينبار بتدمير كل شيء.

منذ ثلاث سنوات، عندما رأيت أرتشي للمرة الأولى، اعتقدت أنني سأعجز عن الاقتراب منه، ولذلك وضعت نفسي في مرمى بصره، واكتشفت الأمور التي يحبها وتقمصتها، وأنا أنظر بعيداً من دون أن تتلاقى عيوننا. تدربت كي أُنفّذ أفضل ضربات الغولف، وتعلمت رسم أكثر الابتسامات خجلاً، إذ يشبه الأمر اتباع تعليمات الوصفة تماماً كي تحصل في النهاية على كعكة جميلة.

بدا التقرب من تشيلتون سهلاً من دون الحاجة إلى ذلك النوع من الخدع، لقد انطوى تواضعه على المحبة، وابتسم خجلاً وهو يفتح منديل المائدة. لقد بدت تفاصيله جميعها باليةً بدءاً من ملابسه وصولاً إلى وجهه، وشعره الذي يحتاج إلى التسريح. طلب كوب شاي بدلاً من القهوة.

ارتجفت يده السليمة قليلاً، فثبتها وأخبرني: «إنها حالة عصبية بسبب الحرب».

قلت له: «أنا آسفة من أجلك».

كان أثر الحرب على فينبار مختلفاً عن الرعاش، إذ اختلفت طريقة تغلغلها في كل فرد، وأعجبني أن تشيلتون أعلن ضعفه هكذا بدلاً من محاولة إخفائه.

قال تشيلتون: «أجد أن صديقتك قد غادرت».

سألته: «صديقتي؟».

أجاب: «السيدة الأمريكية، الآنسة كلارك».

قلت له: «أجل لقد أخبرتني أنها ستغادر، ولكنها ليست صديقتي عملياً، فأنا لم أتعرف إليها سوى منذ بضعة أيام».

سأل تشيلتون: «أحقاً؟».

أجبته: «أجل، لم يسبق لي أن ذهبت إلى أميركا».

سألني مجدداً: «وكانت هذه رحلتها الأولى إلى إنكلترا؟».

أجبته: «لا أعتقد أننا تحدثنا حول هذا الأمر».

أقلقتني الطريقة التي ينظر فيها تشيلتون إليّ، إذ تفحصتني عيناه من دون حياء، ليس شهوةً، ولكن بحثاً عن شيء ما، كما كرهت سؤاله عن ليزي، ولكنني وجدته يتودد إليّ بذلك، فعجزت عن منع نفسي من رسم ابتسامة صغيرة على شفتي أمامه، وكأنني أحتاج أن أطمئنه.

اقتربت النادلة من طاولتنا، ولكنه أشار إليها أن تبتعد.

سألته: «كيف علمت أنني لا أريد أن أطلب شيئاً؟»، لن أطرح هذا السؤال على أرتشي أو فينبار أبداً، لأنهما لن يصرفا النادلة قبل سؤالي إن كنت جائعةً.

سألني: «هل تودين طلب شيء؟».

هززت رأسي نافيةً.

قال تشيلتون: «إن ذلك الأمر عجيب حقاً».

سألته: «هل تقصد اختفاء تلك السيدة الروائية؟».

أجاب تشيلتون: «ليس ذلك ما قصدته في الحقيقة، ولكن اختفاءها عجيب أيضاً».

قلت: «هل وجدتها؟».

أجابني: «لا، لا يزال مكانها لغزاً محيراً».

قلت: «أعتقد أن دخول امرأة عالم كتابة الروايات أمر رائع».

فاجأه تغيير موضوع الحديث فجأةً وقال: «وأنا أشاركك الرأي».

أخبرته قائلة: «لقد أردت أن أكون كاتبةً أيضاً، ولكن سارت الحياة على هذا النحو».

أومأ تشيلتون من دون أن يتفاجأ من اعترافي هذا، إذ يتجاذب النزلاء أطراف الحديث في هذه الفنادق بعيداً عن العالم الاعتيادي، ولذلك كانت صداقتي المفاجئة مع ليزي كلارك بعيدةً عن الشبهة.

قال تشيلتون: «ولكنك في مقتبل العمر، وأنا متأكد من أنك تملكين الوقت الكافي كي تكتبي مئة كتاب إن أردت ذلك».

أجبته قائلة: «بالتأكيد»، وأعدت فنجان القهوة إلى صحنه.

استأنف تشيلتون حديثه الأساسي قائلاً: «أكثر ما أثار عجبي، هو أمر آل مارستون».

وقفت، ووضعت المنديل على الطاولة، وأجبته: «أجل، هذا عجيب حقاً، أما الآن هلّا عذرتني يا سيد تشيلتون؟ لقد انتهيت من هنا، طاب يومك. وأرجو ألا تمانع قولي إنك لا تبدو إطلاقاً من الذين يقضون عطلةً في منتجع».

التفت إليّ وقال: «من قال إنني في عطلة؟»، في تلك اللحظة، بدا أنه داهية وليس متواضعاً أو بسيطاً.

أجبته قائلة: «بالطبع لا، أنت تبحث عن أغاثا كريستي، وأتمنى لك حظاً موفقاً في سعيك. طاب يومك».

غادرت غرفة الطعام وأنا أجهل وجهتي التالية، إذ أرهقتني المحادثة مع السيد تشيلتون، ما مدى صعوبة مشي المرء في هذا العالم من دون أن يُمَسّ داخله؟

في بعض الأحيان، أُفكر في الأيام التي قضيتها في هاروغيت إضافةً إلى السنوات الممتدة بين الحربين العالميتين، وفي إمكانية كونها أوقاتاً جميلة. لقد سمحنا أن نؤمن في قدرتنا على هزيمة الشر، وكأنه عجز عن النهوض مجدداً. امتلكنا كثيراً من وسائل الراحة الحديثة مثل الهواتف، والسيارات، والمصابيح الكهربائية، ولكن ليس كثيراً جداً منها، كما أنها لم تكن متاحة بسهولة في ذلك الوقت، على عكس الأوقات اللاحقة التي ضمت وفرةً من الضوضاء والأضواء والتي امتلكنا وصولاً سهلاً جداً إليها. لقد أصبح ضوء النجوم نفسها خافتاً بسبب الأضواء التي تنعكس عن الأرض، وستبقى عاجزاً عن الهروب من حياتك العادية والرحيل بعيداً من دون أن يجدك أحد؛ كما فعلت أنا.

صعدت إلى غرفتي، وجلست على سريري، وأمسكت رواية غاتسبي

العظيـم كـي أقـرأ فصولهـا الأخيرة، بحثت بين أسـطر النص مـن دون أن أقرأ شـيئاً سـوى قصتي الشـخصية. ماذا لو فعلت مثل آل كلارك ورحلت بعيداً؟ لن أعود إلى إيرلندا أبداً، ولكن ماذا لو أخبرت فينبار: «انس باليكوتون، ودعنا نذهب بعيداً إلى مكان آخر، أي مكان غير إيرلندا، أو إنكلترا»؟ يمكنني حينها ترك أغاثا وأرتشـي كريسـتي في الماضي، وأقود مسـتقبلي الشـخصي أخيراً، وأبدأ صفحةً جديدةً، وكأن شـيئاً من هذا ممكن. تناهى إلى مسـامعي صوت من النافذة التي لا أتذكر أنني فتحتها، أو لعل ذلك من وحي مخيلتي فقط إذ لـم يصـدر مـن الفنـدق بالتأكيد، وربما يكون الصـوت عائداً لأحد يدفع عربة أطفـال علـى الطريـق. كنت متأكدةً من سـماع صوت طفل يبكي، ولقد ميزت ذلك البكاء الحاد الملح الذي يسـببه الجوع والحاجة. آلمني ثدياي وكأنهما سيدران حليباً، فرميت كتابي جانباً، ونهضت، وأغلقت النافذة؛ أنا أعجز عن مغادرة إنكلترا حتى مع فينبار.

أدرك تشيلتون أن بقاء أغاثا في مخبئها لن يدوم طويلاً، إذ يجري استنفاد المـوارد الآن، فضـلاً عـن قلـق النـاس، وفكّـر أن يوصلها إلى منزلها بنفسـه، فيخفـف الإحـراج الـذي قد يصيبها، وبذلك تسـتطيع تصحيـح الأمور بهدوء أكثر، ولذلك قرر أن يذهب إليها مباشـرةً، ويعرض عليها ذلك، ثم تخيل أنه يقلها بسيارته عبر الريف، ما الذي سيتحدثان عنه خلال رحلتهما؟ وجد نفسه يفكر في الرحلة نفسها أكثر من لحظة وصوله إلى سونينغديل معها واعتباره بطلاً.

وصل إلى المنزل الذي عثر فيه على أغاثا، ووجد أن الدخان قد تلاشى من قمة المدخنة، واختفت السـيارة تاركةً وراءها آثار عجلات على الأرض، وتكدسـت الأغصـان التـي غطتهـا سـابقاً بشـكل مرتب على العشـب، فدفع

تشيلتون الباب الأمامي بلطف من دون أن يلمس المقبض، فانفتح مباشرةً من دون مقاومة؛ كانت الغرف فارغةً، وحل الرماد البارد محل النار في الموقد، وفاحت رائحة خفيفة من عطر الخزامى في إحدى غرف النوم، ووجد على خزانة الأدراج ورقةً نقديةً بارزةً من فئة الخمس جنيهات.

جلس تشيلتون على السرير، ووضع الوسادة على وجهه وشم رائحتها؛ ستختفي رائحة العطر تماماً في الوقت الذي يعود فيه سكان المنزل الشرعيون إلّا عن هذه الوسادة، إذ ستراود الشخص التالي الذي ينام عليها أحلام غير مفهومة عن حقول تلك الأزهار الأرجوانية. لعل حياة تشيلتون المهنية لم تهمه كثيراً حينها، ولكن كبرياءه وكبرياء ليبينكوت كانا على المحك، إلا إن وجد أغاثا مرةً ثانيةً، إذ يعجز أن يفصح لأي أحد عن المرة الأولى.

هنا ترقد الأخت ماري

اعتدنا النوم في مهجع الطابق الثاني من الدير، والذي ضمّ أسـرّةً ضيقةً موضوعة بجانب بعضها، وفي النهار كانت الراهبات يقفلن باب المهجع كي يمنعن أي واحدة منا من التسـلل إليه والاسـتراحة، كما أقفلنه في الليل أيضاً فور خلودنا إلى النوم، إذ كانت المفاتيح في حوزة الراهبات فقط، وحتى الآن لا أزال أحلم أن حريقاً قد شب في الدير، ونحن محتجزات في المهجع من دون أن يكون لنا مفر.

حتـى فـي أكثـر حـالات الإرهاق، عجزنـا عن الحصول علـى نوم مريح فـي ذلـك المـكان، إذ كانـت الحضانة في الطابق السـفلي تحتنـا تماماً، حيث استطعنا سـماع أطفالنـا عندمـا يسـتيقظون ويبكون. كانت تعمـل في الدير أم مشرفة مختلفة عن المشرفة التي كانت في السابق في الفترة التي أقامت فيها سـوزانا هنا، وقد اعتادت حينها الراهبات وضع ملابس الأطفال على أسـرة الأمهات حتى يحين موعد إرضاعهم في الصباح.

قالت سوزانا: «كان سماع بكاء طفلي أشدَّ عذاب أعانيه في حياتي، وقد تعمدوا جعلنا ننام حيث نستطيع سماعهم».

لقـد وجدنـا العقـاب حليفنـا أينمـا التفتنـا؛ كانت الأم المشـرفة الجديدة ألطـف وخاصـةً فـي أمـور الأطفـال، وكنت أجهـل لون بشـرتها أو عمرها أو ملامحهـا، فقـد لمحتهـا مرةً واحدة فقط في القـداس، وخلال فترة توليها أمر الأطفال وقع الاختيار على فتاتين من أجل العمل مساعدتين ليليتين، فأدركنا عند سماع بكاء أطفالنا الذي لا يُحتَمل أن أحداً إلى جوارهم يحتضنهم ويهز

أسـرتهم، وفي الصباح، كانت الأمهات حديثات الولادة يسـتيقظن والحليب يلطخ عباءاتهن، وذلك بعد أن سمعن طوال الليل بكاء أطفالهن وعجزن عن الوصول إليهم.

بالإضافة إلى الأطفال، كانت الفتيات يبكين، وليسـت المرضعات منهن فقط، بل الجديدات أيضاً خوفاً من المصير الذي ينتظرهن، وقد خيّم البؤس وقلة النوم على الأمهات الأخريات اللواتي أرسـلن أطفالهن إلى الأسـر التي تبنتهم، أو نُقلوا إلى دار الأيتام المجاورة – رغم أنهم ليسـوا أيتاماً – التي لا تبعد كثيراً عن الدير.

كانـت بيـس تنـام في السـرير المجاور لسـريري، وذات ليلة، اسـتيقظت فوجدتهـا تبكـي، فنهضـت وحدقت عبر الظلام كي أتأكد أنها بيس، ووضعت يدي مباشرةً على بطني الذي بدأ يكبر، حيث كان جنينها يركل ويضرب؛ حينها فكّرت فيه على أنّه طفل وليس طفلة، ولكنني – وفي ذاكرتي – أراها طفلتي الصغيرة التي تبتسـم وتلوح إليّ، فألوح إليها وأرسل لها القبلات عبر الهواء.

همست: «هل هذه أنت يا بيس؟».

أبعدت بطانيتي جانباً، واتجهت إليها، ووضعت يدي على كتفها، فأجفلت كالجندي القادم من الحرب، فقلت: «اهدأي يا بيس، هذه أنا نان».

وضعت يدها على فمها، وهي ترتجف محاولة تمالك نفسها.

جلسـت على طرف سـريرها وقلت: «تابعي البكاء، فلا بأس في ذلك»، وأبعدت خصلات شعرها المقصوص عن جبهتها. لقد امتلكت وجهاً جميلاً ونضـراً وجذابـاً، ولذلـك يسـهل تخيـل وقوع أحـد الجنود الشـبان في حبها؛ يفترض بها أن تكون خارج هذه الجدران ترتدي ملابس آثرة، وتسرّح شعرها الطويل ضاحكةً.

اسـتندت بيس إلى مرفقيها ونهضت قائلةً: «أعجز عن تحمل هذا الأمر، لقد اعتقدت أنه سيدعني وشأني عندما أكبر ويلتفت إلى فتاة أخرى، ولكنه لم

يفعل، لم يفعل». كانت حاملاً في شهرها الثامن على أقل تقدير، ولم تكن من النساء اللواتي يكتسبن الوزن خلال الحمل، فمن ينظر إلى جسدها باستثناء بطنها لن يستطيع معرفة أنها حامل.

أمسكت يد بيس وقبّلتها، وحاولت التفكير في شيء مفيد أو مريح وقلت: «نستطيع إخبار الأخت ماري كلير».

عجزت بيس عن إخباري أن الأخت ماري كلير كانت تعرف ذلك، وهي التي قالت لها بصوتها الرخيم: «هيا، هذا ليس شيئاً غريباً عنك»، وقد غيّرت صوتها في مرات أخرى وقالت: «إن الأب جوزيف رجل دين، ولن يقدم على فعل شيء كهذا أبداً»، وكأن بيس نسيت أي شيء قالته الأخت ماري كلير سابقاً.

تمنيت لو أخبرتني بيس عنها، ولكن منعها لطفها من ذلك، إذ أرادتني أن أعتمد على أي مصدر طمأنينة قد أجده، فقالت: «وماذا تستطيع الأخت ماري كلير أن تفعل؟ فهي لا تعدو عن كونها امرأة أخرى، حيث تعجز أي منهن على فعل أي شيء، كان يفترض بي أن أكون أكثر شجاعة لأقفز عن حافة جرف صخري قبل أن أسمح لأحد بأن يجلبني إلى هنا».

قلت لها: «لا تقولي ذلك»، وأخبرتها قليلاً عن قصة كولين.

أجابتني: «لقد كانت أختك ذكيةً».

قلت: «لا تقولي هذا من فضلك».

استلقت بيس على جنبها، ووضعت إحدى يديها تحت الوسادة، والأخرى فوقها، وتحت خدها وقالت: «أنا آسفة يا نان، يجب عليّ أن أقول ذلك. أملك خمسة إخوة في دولين إضافةً إلى أختي الصغيرة كيتي التي لا أكف عن التفكير بها، إذ جل ما تعرفه أنني قفزت عن حافة جرف صخري فعلاً، وربما تعرف شيئاً آخر أخبرها به والدي دوناً عن حقيقة وجودي هنا. قد تتعرض كيتي إلى الموقف ذاته، فهي جميلة جداً وفي الثانية عشرة من عمرها

فقط، ويؤلمني أنني لستُ إلى جانبها، فأنا أتمنى لو أستطيع أن أكتب إليها رسالةً كي أخبرها أن تتجنب إخبار والدي أو القس أو أي أحد إن وقعت في ورطة، يجب أن تعرف أنه يفترض بها أن تهرب بعيداً عندما تقع في ورطة».

قلت في نفسي: «بعيداً إلى أين؟»، إذ لم أسمع عن مكان آخر في العالم يستقبل الفتيات العازبات الحوامل.

قالت بيس بغضب: «لا يمكنني أن أتخيل الأب جوزيف يلمس كيتي، فسأقتله حينها»، وأجهشت في البكاء مجدداً. لقد كرهت خوفي من أن أكون التالية التي يهتم بها الأب جوزيف بعد أن يفقد شغفه ببيس، فمنذ عدة أيام، اختبأت عندما رأيته يمشي في الرواق برفقة الأخت ماري كلير وسمعته يقول: «إن كل الفتيات متشابهات»، وبدا وكأنه غاضب من ذلك.

أجابت الراهبة الشابة بصوتها الخافت المبتهج قائلة: «لا تستطيع قول ذلك أيها الأب، فالراهبات يختلفن عن أولئك الفتيات، أليس كذلك؟»؛ كنت سأعتقد أنها تغازله لو لم أعلم أنها تتحدث هكذا دوماً.

توقف الأب جوزيف، ووضع يده على ذراعها وقال: «طبعاً لا، أنتن أطهر الملائكة وترعين أبشع الشياطين».

سيكون القبر نفسه مأوانا نحن الشياطين وهن الملائكة: هنا ترقد الأخت ماري. شاهدت الأخت ماري فرانسيس تضرب راحات أيدي فتيات في مثل سن كيتي تقريباً؛ لقد مضت أشهر على وجودي هنا من دون أن يلمس أحد راحتي يدي أو يجلدني أبداً، إذ التزمت الهدوء، وفعلت ما طُلِب مني، إذ بدت الطاعة هي الخطة الأكثر أماناً من دون أن أعلم حينها أن الفتيات المطيعات في خطر أكبر من غيرهن.

أزاحت بيس يدها من تحت خدها فأمسكتها؛ لقد اختارها الأب جوزيف، وقد يلتفت إليّ مع زيادة حجم بطنها نظراً إلى كوننا جميعاً متشابهات. إنّ تفكيري بهذه الطريقة يعني أنني أوافق على أن تكون بيس قرباناً أمام الأب

جوزيف من أجل نجاتي. كان أسوأ جوانب هذا السجن جعْلنا مرتزقةً قساةً نقاتل ضمن جيش واحد.

أخبرت بيس: «أنا آسفة، أتمنى لو أستطيع المساعدة».

أجابتني: «لا بأس»، وتحركت على السرير، فاستلقيت إلى جوارها، والتفت إلى الجهة المقابلة، حيث اقتربنا من بعضنا على السرير الضيق بشكل كافٍ كي يضغط بطنها على ظهري، واستطعت الإحساس بركلة جريئة من طفلها، فتنفسنا بعمق، وغمرتنا السعادة لبرهة.

همست بيس: «أوه، إن هذا الطفل قوي حقاً».

قلت لها: «قد يكون ولداً، وعندما يكبر سينتقم من الأب جوزيف».

أجابتني: «سأمنعه من ذلك، إذ تقع حمايته على عاتقي، وأنا أقسم إنني سأبعده عن أي قس وعن الحرب أيضاً».

سألتها: «هل اخترت له اسماً؟». ولكن لن يدوم أي اسم ننتقيه لفترة طويلة. استطعنا رؤية الأزواج الذين يأتون من أجل تبني أطفالنا. لقد اعتادت النساء في ذلك الوقت إنجاب أطفالهن في المنازل، ونادراً ما كن يلدن في المستشفيات، كما حجزن أنفسهن خلال أشهر حملهن الأخيرة بدل التجوال والحمل بادٍ عليهن، ولذلك وجدن سرقة أطفالنا والتظاهر أنهم أبناؤهن الحقيقيون أمراً سهلاً.

قالت بيس: «إن كانت فتاةً، فسأسميها جينيفيف، وإن كان ولداً فسأسميه رونان، يعني هذا الاسم الفقمة الصغيرة. هل توجد فقمات حيث أتيت يا نان؟».

نفيت ذلك، رغم أنني رأيت فقمات على الصخور على شاطئ باليولينغ، ولكن رفضت فكرة قدومي من هناك، أو الانتماء المتبادل بيني وبين إيرلندا؛ لقد جئت من لندن، وأنا ابنة أمي وليس أبي.

قالت بيس: «سيسبح بعيداً عن اليابسة إن واجهته المتاعب هناك، ويعود إليها إن صادف المشاكل في البحر».

سألتها: «ولماذا اخترت اسم جينيفييف؟».

أجابتني: «إنه اسم القديسة شفيعة الفتيات الشابات، وبذلك تستطيع الانتباه على نفسها».

احتضنت بطني، وقد أحببت هذه الفكرة.

قالت بيس: «سأحرص على حماية هذا الطفل من الأذى».

شعرت أننا نتمنى وقوع الأحداث الجيدة بغض النظر عن مكان وجودنا، كعودة حبيبنا إلينا، وبقاء طفلينا في حضنينا ومراقبتهما وهما يكبران أمامنا. تصورت نفسي أجلس إلى طاولة المطبخ، أكتب القصص بينما يلعب طفلي برفقة ألبي قرب قدمي، بينما يعد فينبار الشاي؛ لقد عجزوا حتى الآن عن سلبنا أحلامنا.

كل الفتيات متشابهات؛ لقد رافقنا تصريح الأب جوزيف هذا حتى أوشكنا نعتقد أنه صحيح، فذات مرة، حدث تمرد حيث هربت فتاة من البوابة المفتوحة عند وصول شاحنة الحليب، فقُرعت الأجراس، واندفعت الراهبات في كل مكان يأمرن بإغلاق باب وفتح آخر، فهتفنا معرّضات أنفسنا لغضبهن، ولكن حلت الخيبة محل فرحنا عندما عادت الهاربة في مساء اليوم نفسه، وقد لطخ التراب والدموع وجهها، إذ أدركت تماماً بعد يوم من المشي عديم الجدوى أن الدير هو المكان الوحيد الذي سيأويها.

أخبرتنا الراهبات: «يجب أن تكنّ ممتنات لوجود مأوى من أجلكن، فلن يمنحكن أحد شيئاً أفضل منه».

في صباح أحد الأيام، عملت أنا وبيس على تنظيف المدخل، إذ قد اعتدنا تنظيف أرضيات نظيفة بالفعل على عكس تلك المرة، حيث هطل مطر غزير في بداية الصيف، وجرّت أقدام الفتيات اللواتي يعملن في الخارج كثيراً من

الأوساخ على البلاط. تركت بيس تعمل على ركبتيها ويديها وذهبت كي أملأ مزيداً من الماء الساخن في الدلوين، وصادفت في طريق عودتي الأخت ماري كلير تهمهم في الممر.

سألتها: «هل أستطيع طلب معروف منك يا أختاه؟».

ابتسمت وأجابتني: «يمكنك طلب أي شيء يا وردتي الإنكليزية، آمل أنك تعرفين ذلك».

قلت: «أتساءل إن أمكنك إرسال رسالة إلى فينبار ماهوني في باليكوتون، أريد إخباره عن مكاني».

ارتسمت ملامح الحزن والتردد على وجه الأخت ماري كلير.

تابعت كلامي: «لا أريد منك أن تطلبي منه القدوم من أجلي أو أي شيء آخر، كل ما أريده هو أن تكتبي له عبارة واحدة فقط: إن نان في دير ساندي كورنر، وسيأتي من أجلي عندما يعلم ذلك يا أختاه، كان سيتزوجني، فأنا أعلم أنه سيفعل».

قالت الأخت ماري كلير: «أنا متأكدةً من ذلك أيضاً»، وشدت على كتفي حيث لا شيء هناك أو في جسدي سوى العظام والطفل الذي أحمله، فهنَّ لم يقدّمنَ لنا سوى فُتات الطعام في أحسن الأحوال، حيث تألفت الوجبات من خبز في الصباح والمساء إضافةً إلى الحساء الخفيف من أجل الغداء.

قالت الراهبة: «سأكتب إلى فينبار يا نان، فأنا أؤمن أنك قد تكونين إحدى المحظوظات في نهاية الأمر».

تجاوزتني متجهةً إلى المدخل الأمامي من دون أن تعرض المساعدة في حمل أيّ دلو من الدّلوين اللذين سالت مياههما الحارة على مقدم ساقيّ وخفيّ.

جاهدت بيس في الوقوف على قدميها، وقد تلألأت قطرات المياه على جبهتها كحال المياه على الأرض وقالت: «يا أختاه، أشعر أنني متوعكة وأتعرق

كثيراً، كما أشعر ببعض التقلصات».

اتجهت الأخت ماري كلير قلقةً ناحيتها، ورفعت يدها الممتلئة كي تلمس خدها ثم جبهتها وقالت: «أنت لست محمومة».

قالت بيس: «أرجوك، أشعر أن وقت الولادة قد حان أكثر من أي وقت مضى، فأنا أعاني من آلام في بطني تشبه آلام دورتي الشهرية، لذا، يجب عليك نقلي إلى المستشفى».

أجابت الأخت ماري كلير: «أوه، هل هذا ما يجب عليّ فعله؟»، وقد كانت نبرة صوتها توحي بالمزاح والتهديد في الوقت نفسه رغم أنها ترفض تقبل الوقاحة من أمثالنا.

أعادت بيس صياغة كلامها وقالت بصوت يائس: «يجب أن أذهب إلى المستشفى».

أجابت الأخت ماري كلير: «انظري إلى نفسك، أنت نحيلة جداً، ومن يراك لا يظن أنك حامل. ما زال موعد الولادة بعيداً يا عزيزتي، ثقي بي، فأنا أعلم كيف يكون الأمر، كما أننا نعجز عن تركك تستلقين لأسابيع مثل الملكة، أليس كذلك؟».

حوّلت الراهبة نظرها من وجه بيس إلى وجهي الذي لا بد أن أمارات الدهشة ارتسمت عليه من الخوف فقالت: «اسمعيني، سأسمح لك أن تصعدي خلسةً إلى الطابق العلوي كي ترتاحي قليلاً، وسيكون ذلك سرنا الصغير، ما رأيك؟».

أحنت بيس كتفيها وقالت: «شكراً لك يا أختاه».

تناولت فرشاة التنظيف من يديها المبتلتين، ولم يسبق لي أن سمعت عن فتاة سُمِح لها أن ترتاح خلال اليوم، وقد أسعدني ما حدث من أجل بيس فضلاً عن أنه شجّعني أيضاً؛ فلعل الأخت ماري كلير ستكتب إلى فينبار.

في تلك الأثناء، رأيته يخطو عبر البوابات الأمامية متجاوزاً طاقم الحوامل

اللواتي يعملن في المرج على ركبهن متجهاً إلى الأم المشرفة مباشرةً ومطالباً إياها أن تطلق سراحي، وذهبت بيس برفقة الأخت ماري كلير؛ لقد حالفنا الحظ في وجود راهبة لطيفة جداً بين الراهبات إذ كن سيرفضن طلب بيس تماماً.

علمت بيس أن وجود راهبة إلى جوارها لن يكفي لحمايتها، وتوقف قلبها عند رؤية الأب جوزيف يخرج من المكتب الذي اعتاد استعماله عند زيارة الدير. لقد تلاشى إيمان بيس في الصلاة، ولكن يصعب التخلي عن العادات القديمة، إذ وجدت نفسها تصلي كل يوم أن يصبح بطنها عائقاً أمامه، وأن يصل محيطه إلى مئة ميل، فتصبح أكبر النساء الحوامل على وجه الأرض.

قال القس بصوت عالٍ من دون حياء: «ها أنت ذا يا بيس»؛ يمكن أن يكون اليأس مثل أي فخٍّ آخر، إذ يشبه الأمر شبكة الصيد التي ترمى في الهواء، فتنفتح وتسقط على غنيمتها، وهكذا سار الأب جوزيف في الكنيسة وممراتها متخفّياً وراء وجهه ذي الابتسامة العريضة.

قالت الأخت ماري كلير: «تشعر بيس بالتوعك يا أبتِ، وكنت أوصلها إلى الطابق العلوي كي تستلقي قليلاً».

قال الأب: «يمكنها أن تستلقي هنا».

التفتت بيس إلى الأخت ماري، وأمسكت ذراعها، فالتفتت الراهبة إلى قبضتها، ثم إلى القس الذي وقف عاقداً ذراعيه بهيئة الأب المعاتب.

قالت بيس: «أرجوكِ، سيرفض الاستماع إليّ، ولكنه قد يصغي إليك».

ضحكت الأخت ماري كلير مصممةً أن تثبت أنها أكثر الأشخاص مرحاً على وجه الأرض وقالت: «يا إلهي، هل تعتقدين أنك ذاهبة إلى منصة الإعدام بدلاً من جلسة صلاة خاصة مع أكثر الرجال احتراماً في مقاطعة كورك؟».

عجزت بيس عن النظر إلى الأب جوزيف الذي ابتسم لا شك بعد سماعه ذلك الثناء، وكأن أكثر الرجال احتراماً في أي مقاطعة كان سيُعيَّن مشرفاً على

أمثالنا. بدت بيس متأكدة أن هذا الحدث جعله أكثر توقاً كي ينفرد بها، فنظرت إلى الأخت ماري كلير كي تجد البهجة الإجبارية في وجهها مع رفض متعمد لرؤية ما يجري أمام عينيها، أو أسوأ من ذلك حتى، رفضها أن تعترف بشيء تعرفه تماماً.

قالـت بيـس: «هـل تعتقديـن حقاً يا أختـاه أنك سـتدخلين الجنة بعد كل هذا؟».

أفلتـت الراهبـة ذراعها من قبضة بيس، واكفهر وجهها، وأخيراً همسـت: «هـذا يكفـي يـا بيس، إن الأب يعلم الشـيء الأفضل مـن أجلنا جميعاً، وأنت تعلميـن ذلـك»، ثـم وضعـت يدها على أسـفل ظهر بيـس، ودفعتها إلى داخل المكتب.

أُغلق الباب، وارتسم الغضب على وجه القس، وكأن ذنب بيس، يجبره على تدنيس الفتاة المدنسة مسبقاً، فخلع ياقته ورماها بقوة على الأرض مثل شـيء يجـب القضـاء عليه والتخلص منه، ثم أشـار إلـى الأرض خلف مكتبه قائلاً: «قلت إنك تريدين الاستلقاء، فاستلقِ هناك».

قالت بيس وصوتها يرتجف: «أشعر أنني متوعكة حقاً يا أبتِ».

قال الأب: «لقد سبق لي أن سمعت ذلك، أليس كذلك؟».

أدركت بيس أن الطاعة أسرع وسيلة كي تصل إلى الطابق العلوي، وعدا ذلك سيكون عديم الفائدة، لذلك استلقت، وأغمضت عينيها.

قال الأب: «هذا لن ينفع، افتحي عينيك على وسعهما»، ففتحتهما.

اعتـادت بيـس فـي أيامهـا الأوائل في الدير أن تنتظر حتى انتهاء الأمر مع الأب جوزيف، ولكنها تعلـم الآن أنه سيستمر إلى الأبد رغم تمنيها الخلاص من أجل حماية نفسها وطفلها، إذ لن ينتهي الأمر مع همهمات القس ودفعاته الأخيـرة، أو ترتيبـه ملابسـه وهروبهـا عائـدةً إلى القاعـات، أو حتى مغادرتها المكان، حيث سـيحوم وجهه فوق رأسـها ولو عاشـت مئة عام، فيفسـد كل

اللحظات السعيدة القادمة ويتطفل على ماضيها حتى، فهي تفكر في أخوتها وهم يسلمونها إلى الأب جوزيف، وتتخيل أختها الصغيرة، كيتي ذات الاثني عشر عاماً، معه آمراً إياها أن تستلقي وتبقي عينيها مفتوحتين، فاضطرها الأمر أن تتناسى وجهها المحبوب كي تحميها من هذا الرعب، وكأنه موجود في مخيلتها فقط.

همست بيس: «أنا أكرهك»، وخرجت الكلمات من فمها قبل أن تدرك ذلك، فاستعدت كي تتلقى الضربة التي توقعتها، ولكن بدا أن كلماتها لبّت المطلوب، ووضعت نهايةً قوية أخيرةً من أجل محنة ذلك اليوم.

في تلك الأثناء، كانت الأخت ماري كلير تنتظر خارج المكتب، وابتسمت عندما خرجت بيس مرتجفة، وكأن شيئاً لم يحدث، واصطحبتها إلى السرير في الطابق العلوي.

قالت الأخت ماري بصوتها الموسيقي الذي تردد بين الجدران الحجرية: «ستحصلين على راحة أفضل الآن، فالأب جوزيف يعلم دوماً ما يفعله كي ينعش روح الفتاة، أليس كذلك؟».

استلقت بيس على سريرها في مهجعنا، وسمعت صوت الباب يقفل، وهمهمة الأخت ماري كلير المرتفعة في الدير، إضافةً إلى بكاء أحد الأطفال في الحضانة في الطابق السفلي، وتبعه صوت بكاء طفل آخر. لقد سرحت إحدى الفتاتين من الدير في الأسبوع الماضي وقد أوكلت إليهما مهمة الرعاية الليلية تاركةً الأطفال في كنف زميلتها السابقة، ولكنها تلقت كثيراً من المساعدة خلال النهار من الراهبات، فهدأت الأصوات خلال وقت قصير.

متى كانت آخر مرة بقيت فيها بيس وحيدةً في غرفة؟ أعتقد منذ فترة طويلة في الحقيقة نظراً إلى قدومي من عائلة كبيرة مثل عائلتها؛ لقد عانت من تقلصات أليمة وضاغطة ونابضة. في المرة القادمة، سترفض الانصياع إلى الأب سواء أكتفى منها أم لا، لعله يستطيع فعل أي شيء بأي فتاة منا،

ولكنه لا يرغب في إثارة جلبة أو شيوع خبر ما يقوم به، إذ أراد أن يمشي بيننا وحوله هالة الأب المعاتب القاسي، والورع المبتهج، ولكن البهجة فارقته عندما أبعدت نفسها عن يديه الثخينتين، إذ كره إجبارها على فعل ذلك. بحثت عيناها حولها أحياناً وهي مستلقية تحته عن شيء تستطيع غرسه في عنقه؛ لقد امتلكت أسنانها، فماذا لو عضت وريده الوداجي القريب والبارز وشدت بقوة كافية، فهل ستسيل دماؤه عليها، ويعجز عن إصدار أي صوت، ويسقط إلى جانبها قابضاً على عنقه؟ هل سيكفيها الوقت من أجل إيجاد شيء – مثل مثقلة ورق زجاجية عن مكتبه، أو مصباح، أو فتاحة رسائل – وتجهز عليه؟

آلمني أسفل ظهري وأنا أفرك بقايا الطين بواسطة فرشاة التنظيف جيئةً وذهاباً مفكّرةً في بيس، وقد تخيلت أن الأخت ماري كلير تعمدت ترك باب المهجع مفتوحاً، فتتسلل بيس خلسةً رغم حملها المتقدم، وتهرب بعيداً إلى إحدى البوابات المفتوحة حيث ينتظرها جنديها الأمريكي خارج الدير. لقد أبقت صفاته سراً، ولذلك لا أعرف اسمه، ولكن سيأتي مرتدياً بذلته؛ ستصل إليه ولن أراها مجدداً أبداً، وسأمنع نفسي عن افتقادها، إذ سيمثل هروبها دليلاً على إمكانية إنقاذ أي منا في أية لحظة. سأعود يوماً ما إلى منزلي في لندن، وسأتلقى رسالةً تحمل العنوان الذي أوفت بيس وعدها في حفظه جيداً، وسنتبادل الرسائل، ونتحدث عن كيفية حدوث الشيء الجيد في النهاية.

استسلمت بيس في الطابق العلوي إلى نوم عميق عجزت عن مقاومته، ولم تهرب، وتخيلت أختها الصغيرة كيتي تقف في زاوية الغرفة تناديها قائلة: «يجب أن تستيقظي يا بيس»، فجاهدت بيس من أجل فتح عينيها، وإيجاد القوة اللازمة من أجل قول هذه الكلمات: «يجب أن تهربي يا كيتي، يجب أن تهربي من هنا». سمعت صوت خطوات الأخت ماري ديكلان قادمةً من بعيد، ورأتها تدخل المهجع والغضب بادٍ في عينيها بعد أن سمعت بشأن

منح بيس وقتاً كي تستريح قليلاً. شعرت بيس أنها في قاع حوض مياه على عمق قامات[1]، وجل ما تستطيع رؤيته هو أثر باهت من الضوء والأصوات فوقها، ولم ترَ أحداً يسبح. تخيلت أن صوت الخطوات لا يعود للأخت ماري ديكلان بل يعود إلى كيتي التي تطلق ساقيها للريح مبتعدة، بقدر ما تتيح لها ساقاها الغضتان ذاتي الاثني عشر عاماً. تقبلت بيس بقاءها في أعماق المياه طالما أن كيتي في أمان، إذ كان كل شيء في الأعلى وضيعاً ووحشياً، فقالت في نفسها: «اتركيني هنا في الأسفل، ولا تجبريني أبداً على الصعود»؛ كانت تجهل أن جنديها الأمريكي قد وصل إلى باب والدها ووعده بعد أن عرف مكانها قائلاً: «سأتزوجها فور خروجها من هناك».

صاحت الأخت ماري ديكلان: «بيس»، وصفعت أحد خديها ثم الآخر خوفاً وليس غضباً تحت ناظري الأخت ماري كلير التي أمسكت صليبها؛ لقد وجدت الراهبات ضرورة تصديق أي شخص يدعوهن ملائكةً، واعتدن أن يسامحن بعضهن كل مساء خلال جلسة التسبيح، ويعترفن بذنوبهن ويتطهرن منها تمهيداً لارتكاب المزيد منها في اليوم التالي.

فات الأوان من أجل نقل بيس إلى المستشفى أو حتى إلى فراش غرفة الغسيل في الطابق السفلي، فتساعدت سوزانا والأخت ماري ديكلان قدر الإمكان على ولادة طفل بيس في المهجع. في صباح اليوم التالي، حدثت معجزتان: الأولى عندما شقت بيس طريقها إلى سطح المياه معافاةً وعلى قيد الحياة، وتمثلت الثانية في قدوم رجل إلى الدير مطالباً أن يرى الأم المشرفة. لقد كان الوقت مناسباً من أجل إخراج بيس من الدير، وليس متأخراً على إنقاذ ولدهما رونان الصغير، الذي أصبح من الأطفال القلائل الذين غادروا الدير في ساندي كورنر بين ذراعي والدته ومغطى ببطانية صفراء: كان رائعاً، وذا وجه بيضاويّ، ولكن فارقته الحياة.

(1) القامة: وحدة من أجل قياس العمق.



الاختفاء

اليوم السادس

الخميس، 9 كانون الأول، 1926

عجزت كلاب باركشير البوليسية عن الحصول على نتائج أفضل من كلب أغاثا، فاستدعى مفوض رئيس الشرطة تومبسون امرأةً من بلجيكا، شاع أنها امتلكت أفضل الكلاب في أوروبا، وتبعت كلابها رائحة أغاثا في دوائر مركزةً على المنطقة التي وقف فينبار فيها ملوحاً، وحيث تساقطت قطرات عرقها التي تخللت رائحة الخزامى على الأرض، إذ تلاشت الرائحة مباشرةً بعد صعود أغاثا إلى سيارة الآنسة أوليفر المسكينة وانطلاقها بعيداً برفقة فينبار. اشتمت الكلاب الأرض، ونبحت من دون فائدة حتى أدركت رائحة أرنب في نهاية المطاف، وقادت الباحثين إلى مطاردة عديمة الجدوى مجدداً، إذ لا تعدو الكلاب الخبيرة في نهاية المطاف عن كونها كلاباً.

تنهد أرتشي وهو يتفوه باسم أغاثا متجوّلاً في أرجاء ستايلز وحدائقه، وجد في طريقه إطار تيدي مرمياً تحت شجيرة على طرف المنزل، فدفعه قليلاً كي يتدحرج بضع أقدام ثم تأرجح وسقط جانباً على العشب، فقد تجنب الانضمام إلى فرق البحث كي يتفادى نظرات الجيران المريبة، ولأن عملية البحث تشكّل تأكيداً على وجود شيء كي يعثروا عليه، مثل جثة أخرى، وستكون جثة أغاثا هذه المرة، ولكنه رفض هذا الاحتمال؛ لا تزال أغاثا على قيد الحياة. ستأتي الأخبار السعيدة عن لسان شرطي جاء من إحدى

المقاطعات غير المتوقع وجود أغاثا فيها: لقد وجدناها سليمةً معافاةً وجاهزةً كي تعود إلى المنزل.

جاء نويل أوين لاصطحاب أرتشي، واحتسيا المشروبات حتى وقت متأخر من الليل وتناولا العشاء في غرفة المعيشة.

بدأ أرتشي يفصح عن مكنوناته قائلاً: «لقد كانت بداية هذا الأمر مع نان شيئاً جديداً ومشوقاً، إذ وجدت نوعاً من الحداثة والإثارة اللتين اعتقدت أنهما خرجتا من حياتي، ولن أكذب، لقد كانت طبيعة الأمر المحرّمة شيئاً...».

قال نويل: «لا يقاوم؟»؛ أعلم أن نويل ليس عفيفاً عن الشهوات، ولكنه أخلص إلى أورسولا دوماً، وكان صادقاً معها إلى أبعد حدّ يقدر الرجل عليه.

تنطوي تلك الجملة على السخرية: إلى أبعد حد يقدر الرجل عليه، إذ لا تعكس طريقة إحساسي وما أؤمن به في داخلي. يستطيع بعض الرجال أن يكونوا صادقين تماماً، مثل فينبار، إذ كان صادقاً دوماً معي، وسيبقى كذلك إن حصلنا على فرصة طبيعية كي نعيش معاً من دون أن ينقلب العالم رأساً على عقب، ومن دون الحروب والكنائس، وكانت ستملأ ضحكاتنا الدنيا، ويغمرنا الفرح برفقة الكلاب والكتب وأطفالنا بدءاً من أكبرهم، عزيزتنا جينيفيف التي عددتها ابنتي المفضلة دوناً عن جميع أطفالنا، ولكن سأتجنب إخبارهم ذلك.

وافق أرتشي على كلمة نويل أوين، ونطقها وكأنها نوع من السموم: «لا يقاوم. لقد بنيت أشياء في نفسي عن نان، وزواجي، ولو استطعت حينها رؤية هذه اللحظة، لهدمت كل شيء، وتصرفت على نحو مختلف، فأنا واثق من ذلك يا نويل».

تعود صداقة أرتشي ونويل إلى فترة بعيدة، وهذه المرة الأولى التي يرى فيها نويل صديقه وقد ملأته الشكوك هكذا، فنهض كي يسكب بعض الويسكي من أجله وقال: «كنت ستعجز عن توقع الطريقة التي ستتصرف وفقها أغاثا،

إذ ينفصل الرجال عن زوجاتهم كل يوم، أليس كذلك؟ ومن دون أيّ نوع من هذا الشقاء، ولكن لطالما كانت أغاثا امرأة ذكية».

ملأ أرتشي غليونه بالتبغ، وحدق خارج النافذة حيث كان كل شيء هادئاً، وكأن البرد قد جمّد الرياح، إذ بدت الأغصان ساكنةً من دون حراك، وتخيل أن أغاثا ستظهر في ظل هذا الصمت، وتمشي من نهاية الطريق إليه بهدوء وحزم، وعلم أنه سيخرج مسرعاً في تلك اللحظة من المنزل ويجري إليها، ولكن هل سيحتضنها أم سيخنقها بسبب المشقة التي كبّدته إياها؟ لقد ذكّر نفسه على غير العادة أنها خاضت صعاباً كثيرةً بسببه.

لقد رحلت أغاثا الآن وما من وسيلة لتحديد مكانها، للمرة الأولى في حياته، شعر أنه ضعيف وخائر القوى، وشعر أنها تسيطر على أفكاره كما فعل وجهها الجميل في صورتها التي حملها معه خلال الحرب، والتي ارتدت فيها ثوباً حريرياً قرنفلي اللون، وكانت نحيلةً كالقصب، وذات عينين نجلاوين ملأهما الحب. لا تعدو القصص التي كتبتها أغاثا عن كونها خروجاً عن المألوف من أجل المتعة، ولم تكن بهدف خطف الأضواء من أي شيء أو كل شيء حققه أرتشي.

شكّلت أغاثا من دون أن تدري جزءاً مفصلياً من جميع الأمور التي خاضتها برفقة أرتشي، ويتضمن ذلك علاقته مع نان، إذ فرض وجودها سرية علاقتهما، وأضفى عليها عدم شرعيتها الفاتنة، إضافةً إلى كشفها خيانته من دون أن تعلن ذلك بانتظار انتهائها، ولكنها اصطدمت بنهاية حطمتها على عكس تلك التي صبرت من أجلها، وبذلك خرجت من حياته ومن العالم، وجل ما يريده الآن هو عودتها إلى المنزل.

ضغط أرتشي رأسه على زجاج النافذة، وصاح عندما خرج نويل من الغرفة: «أوه، أي سي، سأفعل أي شيء يا زوجتي العزيزة مقابل أن تعودي إلى المنزل سالمةً معافاةً».

ولكن أرتشـي افتقر إلى أي قدرة سـحرية، إذ بقي الطريق فارغاً، وخيّم الهدوء على الغرفة، وفشل في عملية استحضارها.

فـي تلـك الأثنـاء، اكتشـف محقـق الوفيات فـي هاروغيت مادة سـيانيد البوتاسيوم خلال تشريح جثة السيد مارستون، وقد اختار تشيلتون وليبينكوت عدم فحصه الجثة مجدداً، وجلسا خلف باب مكتب ليبينكوت الموصد برفقة محقـق الوفيـات كـي يشـرح الأمـر: «هناك علامـة صغيرة علـى ورك الرجل، وأعتقد شـخصياً أن المادة قد حُقِنَت في جسـده عبر بنطاله مباشـرةً؛ لم تكن وفاته طبيعيةً».

سأل تشيلتون: «وماذا عن زوجته؟».

أجاب المحقق: «لقد تناولت جرعةً قاتلةً من الأستركنين من دون حقن».

قال ليبينكوت: «يسـهل الحصول على هذين السـمين، إذ تسـتطيع أية ربة منزل تعاني من الدبابير أو الجرذان استعمالهما».

تصور تشيلتون الزوج الراحل والذي تشير جميع الأدلة إلى كونه عادياً، وتسـاءل: مـن يـا ترى أراد قتل هذيـن الزوجين؟ ثم قال: «هذا صحيح، يجب أن يكون القاتل شخصاً وجد في غرفة الطعام حينها».

أومأ محقق الوفيات موافقاً.

قال ليبينكوت: «أعتقد أنها زوجته، إذ أقدمت على حقن زوجها بسيانيد البوتاسـيوم، ثـم انتحرت متجرعةً الأسـتركنين. هل بـدت مضطربةً على نحو معيـن قبـل وفـاة زوجها يا تشـيلتون؟»، فحـاول ليبينكوت غريزيـاً الدفاع عن مصدر رزق ابن عمه، ولكن سـيعجز أي شـيء عن إخلاء الفندق من النزلاء لسنوات من الزمن مثلما فعلت جريمتا القتل.

أجاب تشـيلتون: «بل على العكس، إذ بدت شـخصاً مرحاً يجهل معنى الاضطراب تماماً، وكانت كثيرة النسيان، ومزعجةً حقاً».

قال ليبينكوت: «مهلاً، مهلاً. تجنب جعل نفسك موضع الشك».

ضحك الثلاثة وقد نسوا أنفسهم وطبيعة نقاشهم الكئيبة.

سأل تشيلتون: «ولكن ما الذي يدفعها لقتل زوجها؟».

قال محقق الوفيات الذي قدمت إليه زوجته كل ليلة عشاءً محروقاً وقائمةً جديدةً من الشكاوى: «يبدو جلياً أنه لم يسبق لك أن تزوجت».

أجاب تشيلتون: «هل تبدأ شرارة الرغبة في القتل خلال شهر العسل؟ أعتقد أن المرأة عجزت عن إعلان حبها له لفترة أطول».

قال ليبينكوت: «تزيد اعتراضاتك الكثيرة من الشبهات حولك، فأنا شخصياً أجد الأمر واضحاً. لعلك تستطيع البحث في الأمر سراً طالما أنك هنا وتثبت نظريتي، ولكن من دون إثارة الجلبة حوله. انظر، إن أخبرت السيدة مارستون بقية السيدات شيئاً مفيداً، لكانت هذه فرصةً جيدةً كي تثبت أنك تستحق الأموال التي ننفقها على إقامتك هناك».

أومأ تشيلتون، ولكن بدلاً من يعود إلى الفندق مباشرةً كي يبدأ تحرياته، قاد سيارته في طريق فرعي أو اثنين، وتأمل المناظر التي رسمها الشتاء، وقد وفرت الأشجار التي تساقطت أوراقها رؤيةً أفضل إلى داخل الغابة التي لم يعثر فيها على دليل يقوده إلى الشاب الإيرلندي أو السيدة أوديا أو أغاثا، فاستسلم عندما أخفق بحثه، وعاد إلى الفندق، وقرر أن يحصل على جلسة تدليك بما أنه موجود في الفندق، وأن يرسل بطاقةً بريديةً إلى والدته كي يخبرها بذلك، إذ ستسعد إزاء معرفة أنه مسترخٍ وسعيد.

جلست السيدة ليش خلف مكتب الاستقبال، وبدا جلياً أنها تبذل جهداً لتتظاهر بالبهجة، تبيَن لتشيلتون أن مزيداً من النزلاء غادروا الفندق بعد وفاة السيدة مارستون؛ قد يكون أحدهم هو القاتل، ولكنه فكّر مجدداً، وانحاز إلى رأي ليبينكوت: من المؤكد أنَ سبب وفاة الزوجين يعزى لأمور عائلية.

قال تشيلتون للسيدة ليش: «أفكر بالحصول على جلسة تدليك».

ارتسمت على وجه السيدة ليش ابتسامة لطيفة، وأمسكت قلم حبر وقالت: «أنا متأكدة من معرفتك أنها غير مشمولة ضمن إقامتك المجانية».

فجأةً، كره تشيلتون فكرة وجود شخص غريب يدعك جلده العاري، فقرر الذهاب إلى الحمامات بدلاً من الحصول على جلسة التدليك، حيث جلس وحيداً هناك، ولكنه عجز عن الاسترخاء رغم العزلة والمياه المنعشة، إذ ظل يُفكر في الطرقات المتجمدة الفارغة التي قاد سيارته عبرها من دون أن يجد أثراً يرشده إلى السيارة السوداء، كما وجد أن البيوت التي يتصاعد الدخان من مداخنها يقطنها مالكوها الأصليون. لقد ذعر تشيلتون من طبيعة الخطأ الذي ارتكبه، فقد وجدها أمام عينيه، وسمح لها أن تهرب بعيداً. لقد أوكل ليبينكوت إليه مهمة إيجاد أغاثا كريستي بشكل غير رسمي، ولكن ماذا سيقول له إن علم أنه وجدها، ومع ذلك سمح لها أن تهرب؟ هل أصبح عاجزاً عن التصرف بشكل صحيح في ما تبقى له من أيام؟

بعد العشاء، حمل تشيلتون غليونه، واتجه إلى مكتبة الفندق الصغيرة كي يستطيع التركيز على قضية إثبات نظرية ليبينكوت بشأن الزوجين مارستون. تشتكي السيدات عادةً من السجائر، ولكنهن نادراً ما يشتكين من الغليون، إذ يثير فيهن ذكرى آبائهن، كما أنه يلبي رغبة لدى تشيلتون ويجعله يبدو وكأن لديه شيئاً كي يفعله؛ عاد تاريخ الكتب الموضوعة على الرفوف إلى القرن الماضي. أمعن في قراءة أغلفة الكتب الخلفية، ووقع اختياره على كتاب المنزل المنعزل، فجلس على الأريكة حيث يجب على كل شخص يدخل المكتبة أن يجلس إلى جواره أو قبالته على واحدة من الكراسي الواسعة المهترئة. لقد سبق له أن رأى السيدة أوديا تحمل كتاباً، وقريباً ستحتاج إلى قراءة كتاب جديد خلال العطلة، فإن دخلت إلى هنا، فسيتمكن من اكتشاف

ما يربطها بأغاثا كريستي، ويضرب عصفورين بحجر واحد.

بعد فترة وجيزة، دخلت امرأة ذات شعر أسود إلى المكتبة، وقد وضعت شالاً وردياً على كتفيها، فذكر تشيلتون نفسه أنها الآنسة أرمسترونغ التي سبق له أن شاركها العشاء، فابتسمت له ابتسامةً سطحيةً، واتجهت مباشرةً إلى رفوف الكتب.

أخبرها تشيلتون وهي تقرأ أغلفة الكتب الخلفية قائلاً: «توجد قلة من الكتب المعاصرة، وأخشى أنك ستعجزين عن إيجاد كتب دورثي سايرز الجديدة».

أجابته: «أوه، أنا لست من هواة روايات التحقيق، فأنا أحب قصص الحب»، ثم سحبت نسخةً يغطيها الغبار من كتاب جين إير، ومسحت غلافه، وجلست قبالة تشيلتون، كما تمنى.

أطلت السيدة ليش برأسها إلى المكتبة، وقالت: «هل حصلتما على ما تحتاجان إليه؟ هل تودان احتساء بعض الشاي؟». كان صوتها مبتهجاً وتواقاً من أجل استعادة زبائنها الذين غادروا.

قالت السيدة أرمسترونغ: «سيكون تناول كوب من الشاي أمراً لطيفاً»، وانتظرت حتى مغادرتها كي تخبر تشيلتون أنها لا تمانع رؤية السيد والسيدة ليش معاً، وأن الآخرين يبدون متصالحين مع الأمر.

أومأ تشيلتون ولم تكن لديه رغبة في إخبارها أن الكثيرين يمانعون في الواقع، وأخبرها بدلاً من ذلك: «يستطيع الناس أن يكونوا بغيضين بالتأكيد تجاه أمور لا تعنيهم، أليس كذلك؟».

أجابت الآنسة أرمسترونغ: «هذا صحيح طبعاً، ولكن السيد والسيدة ليش لن يدعا ذلك يوقفهما؛ الأمر رومانسي جداً، أليس ذلك صحيحاً؟».

عادت السيدة ليش وهي تحمل صينية الشاي، وقد طغى طابع العمل وليس الرومانسية عليها، وسكبت الشاي الساخن في كوبيهما قبل أن تغادر.

قال تشيلتون: «مؤسف ما حل بالزوجين مارستون».

أغلقت الآنسة أرمسترونغ كتابها بقوة وكأنها تنتظر أية فرصة من أجل الحديث عنهما وقالت: «أوه، أليس أمراً مروعاً وجميلاً في الوقت نفسه؟ أخبرتني السيدة مارستون أن الحظ عاكسهما دوماً، إذ أرادا أن يكونا معاً منذ زمن طويل، وعندما تحقق ذلك أخيراً...»، وتلألأت الدموع في عينيها الداكنتين.

لم يبدُ أن تشيلتون قد خسر قوة ملاحظته، إذ استطاع رؤية الأشياء وتقييمها أيضاً، مثل جمال الفتاة الجالسة أمامه، ودماثتها، وسواد عينيها الذي يمنعك من تمييز حدقتيها، لقد لاحظ أيضاً عذوبتها، وتوقها من أجل إدخال الحب إلى حياتها رغم أنها امتلكت الشجاعة كي تؤكد استقلاليتها، وقد علم أنه ليس فارس أحلامها، كما أدرك ضرورة تسلل نوع من العاطفة إليه، كما ينبغي وجود رغبة تندفع إلى الأمام كي يستطيع المرء كبحها مع تنهد حزين ربما على شيء يعجز أن يكون ما نريده، ولكن تشيلتون رأى كل شيء من دون أن يشعر بأي شيء، إذ بدا النظر إلى الآنسة أرمسترونغ مثل قراءة صحيفة من دون أي مشاعر أو عواطف شخصية.

قالت الآنسة أرمسترونغ: «هل التقيت السيدة مارستون؟ لقد كانت لطيفةً وعذبة اللسان، أليس كذلك؟ لقد أحببتها يا سيد تشيلتون، وأنا متأكدة أن قلبها المفطور سبب وفاتها»، ثم وضعت كوب الشاي على الطاولة ويديها على وجهها. لقد بذلت السيدة مارستون قصارى جهدها كي تجعل قصتها معروفةً، فهل يعقل أن ما حدث وسيلة من أجل أن يتحدث الناس عن قصتهما؟ أخرج تشيلتون منديله من جيبه، وناوله للآنسة أرمسترونغ.

وجدتهما على تلك الحال عندما دخلت إلى المكتبة، وقد صدق توقع تشيلتون حيال تصرفاتي، إذ أنهيت رواية غاتسبي، وتشوقت من أجل قراءة

شـيء آخر قد يلهيني عن الظروف المضطربة في فندق بيليفورت، ولو كنت ذكيـةً بشـكل كافٍ، كنـت سـأخرج مـن الفنـدق كما فعـل آل كلارك، ولكنني مـدّدت إقامتـي، وأخبـرت السـيدة ليش أنني سـأبقى في الغرفـة إلى أجل غير مسمى، إذ كيف سأفعل أي شيء آخر وفينبار في الجوار؟

التفتت الآنسة أرمسترونغ إليّ، وجحظت عيناها محرجةً، ولكنها رفعت ذقنها كما اعتادت، وتحدتني أن أنتقدها. لقد أوشكت على اعتقاد أنني قاطعت لحظةً رومانسيةً، ولكن تشيلتون بدا منفصلاً عنها تماماً، وأكثر اهتماماً بدخولي المفاجئ من الاهتمام بالفتاة التي تبكي أمامه، فدفعني ذلك إلى اتخاذ وضعية الدفاع عن النفس مباشرةً.

قال تشيلتون: «سيدة أوديا»، وأشار ناحية رفيقته التي سالت دموعها.

جلست إلى جوارها، ووضعت يدي على كتفها وسألتها: «هل أنت بخير يا آنسة أرمسترونغ؟».

اسـتعملت الآنسـة أرمسـترونغ المنديل المهترئ الذي يستحيل أن يكون لها كي تمسح عينيها برفق وقالت: «أنت لطيفة جداً، الأمر سخيف في الحقيقة، إذ تعرفت إليهما منذ أيام قليلة، ولكن الحديث إلى السيدة مارستون وسماع قصتهـا جعلهـا صديقتـي فعـلاً؛ لقد قـدّر أن يكونا معاً. هناك أسـطورة صينية بعنوان ياوي لاو، هل سبق لك أن سمعت بها؟ تفيد هذه الأسطورة أن الآلهة تربـط خيطـاً خفيـاً حـول إصبعنـا الصغير عند ولادتنا، والـذي يربطنا مع حبنا الحقيقي، فتعجز أي قوة عن تفريقنا».

أجبتها: «هذا لطيف»، وشعرت في داخلي أنني منافقة، إذ لست ضد هذا النوع من القصص العاطفية، وصدقت وجود ألف خيط أحمر يربطني بفينبار، ولكنني وجدت صعوبةً في تطبيق هذه الأسطورة على آل مارستون.

بكـت الآنسـة أرمسـترونغ وقالـت: «إن وفاتهمـا أمـام أعيننـا فـور التقاء خيطيهما أمر سيئ ومحزن جداً، لقد كانا على شفير السعادة».

أجبتها: «ليس على شفيرها، لعلهما لا يستحقان أكثر من الأيام السعيدة التي عاشاها معاً»، فأخذت المنديل من يدها، وأعدته إلى السيد تشيلتون، وأعطيتها منديلي الحريري الذي حمل الحرف الأول من اسمي، إذا بدا أكثر ملاءمة لبشرتها الناعمة: منديلي الذي أهداني إياه أرتشي وطلبه خصيصاً من هارودز.

فجأةً، توقفت الآنسة أرمسترونغ عن البكاء، ونظرت إليّ بقسوة وسألتني: «ماذا تقصدين بذلك؟».

أجبتها: «لقد قلت إنك بالكاد تعرفينهما، لعلهما كانا زوجين سيئين».

أطلق تشيلتون ضحكةً خفيفة ساخرة.

وبختني الآنسة أرمسترونغ قائلة: «وما أدراك؟ لقد بدت السيدة مارستون ألطف النساء على وجه الأرض».

أجبتها: «إن ملاحظة صفة في المرء تختلف عن امتلاكه إياها، ولذلك يفضل عدم رثاء الناس الذين نجهل ذنوبهم».

نظرت إليّ الآنسة أرمسترونغ وكأنني أكثر النساء بروداً وقسوةً في هذا العالم، وهذا ما قد أصبح عليه، ولكن كان يفترض بي أن أدرس كلماتي قبل أن أتفوه بها، إذ لا شيء يثير الشك أكثر من امرأة عدائية.

وقفت وتوجهت إلى رف الكتب، ومدت الآنسة أرمسترونغ يدها بالمنديل كي تعيده إليّ، ولكن أشرت إليها أن تبقيه وقلت: «احتفظي به، لديّ واحد آخر».

انهمك السيد تشيلتون والآنسة أرمسترونغ في القراءة، ولكن لاحظت أنهما يحدقان إلى الكلمات على الصفحات من دون قراءة شيء وينتظران مغادرتي كي يناقشا فورة غضبي. كان يفترض بي أن أكون حذرة، إذ جهلت حينها أن تشيلتون قد رآني برفقة فينبار، ناهيك عن معرفته بشأن اختباء أغاثا في الجوار، وقد حرص على إبقاء الأمر هكذا.

أخيراً، وقع اختياري على الرواية الأولى من سلسلة كلاودين التي كتبها ويلي[1] والتي أحدثت ضجةً عندما كنت صغيرةً؛ إنها النسخة الفرنسية وهي لغة الرواية الأصلية، وسيزيد الجهد المبذول من أجل ترجمتها متعة قراءتها، ثم ودعت السيد تشيلتون والآنسة أرمسترونغ بفظاظة.

التفتت السيدة ليش من خلف مكتب الاستقبال إليَ فور خروجي من المكتبة وقالت: «سيدة أوديا، لقد جاء ولد صغير وترك لك رسالة»، انتزعتها من بين أصابعها ربما في لهفة أكثر من اللازم، إذ انتابني القلق إزاء استخدام المرسل اسمي الأول فيها، ولكن كتب على ظهر المغلف الآنسة أوديا بخط ذكوري عريض. كان وجه السيدة ليش سيفضحها لو أنها لاحظت استخدام كلمة آنسة بدلاً من سيدة. أحسست بالدم يتدفق في عنقي، إذ تبيّن أن استخدام اسمي الأخير الحقيقي يستحق المخاطرة، وبذلك استطعت فتح المغلف وقراءة ما كتب على الورقة الخشنة بنية اللون.

عزيزتي نان، انتظريني عند الساعة العاشرة ليلاً قرب الباب الأمامي، وتأكدي أنني سآتي في حال تأخرت قليلاً، وتجنبي الابتعاد كثيراً عن الباب الأمامي، إذ إن المكان خطر على السيدات ليلاً.

صعدت إلى الطابق العلوي، وأطعت طلبه، وانتظرت حلول الليل.

في تلك الأثناء، طلب السيد تشيلتون من الآنسة أرمسترونغ رؤية منديلي، فناولَته إياه عن طيب خاطر، لأنها أرادت التخلص منه، وبدأ يتأمله، ثم قال بصوت عالٍ: «إنه منديل جميل، ولديها الحق في جلب المزيد منه».

قالت الآنسة أرمسترونغ غاضبةً: «أعجز عن إيجاد تفسير لقسوتها تلك، وأجهل رأيك يا سيد تشيلتون، ولكنني تعلمت أن أتجنب الكلام المسيء عن الموتى».

(1) لقب أطلق على الكاتب الفرنسي هنري غاوثير فيلارس.

أومأ تشيلتون بحزن، وبدا أنه يوافقها الرأي، رغم أنه قابل في هذا العالم كثيراً من الناس الذين استحقوا الذكر السيئ بعد وفاتهم، وأفصح عن ذلك أمامي، وسيخبرني لاحقاً أنه تساءل عن سبب زخرفة حرف أن – N من نمط الكتابة المتصلة على منديلي رغم ادعائي أن اسمي الأول هو جينيفيف أوديا.

لقد أرهق التدليك في فندق بيليفورت ومياهه الساخنة بالإضافة إلى الفاجعة الأخيرة النزلاء الشجعان الباقين في المنتجع أو أولئك المتصالحين مع أنفسهم، وعندما نزلت إلى الطابق السفلي، كان خالياً من النزلاء، حتى إن السيدة ليش تركت موقعها هي الأخرى. دقت الساعة معلنة عن حلول الساعة العاشرة ليلاً، وخيّم الهدوء الذي تجده في فصل الشتاء فقط على كل شيء، إذ تعجز عن سماع تغريد الطيور أو صرير الحشرات حتى. انتعلت حذائي المرتفع ذا الرباط، وارتديت معطفاً صوفياً، واعتمرت قبعةً صوفية أيضاً، إضافةً إلى وشاح وقفاز من دون أصابع. خرجت من الفندق وحرصت على فتح الباب وإغلاقه برفق من دون إصدار أي صوت؛ لقد حافظ المالكان على الفندق جيداً، إذ زُيّتت الأبواب، وأعلم أنها تبقى مفتوحةً. بين الحربين لم يشهد الريف سوى عدد قليل من الجرائم، وهذا ما يبرر بشكل منطقي التفسير الذي توصلنا إليه جميعاً بشأن ما أصاب الزوجين مارستون، ناهيك عن وجود ألف رجل في الأرجاء يفتشون عن الكاتبة الروائية المفقودة.

وقتها لم أكن أعرف عدد الرجال الكبير الذين يشاركون في عملية البحث، حيث قالت السيدة ليش إن قضاء الوقت في المنتجع يعني أخذ وقت مستقطع من المشاكل التي تدور حول العالم، ولذلك تجنبتْ وضع الصحف في الفندق إلا إن طلبها أحدهم.

تكاثفت أنفاسي أمامي، وأنعشني الهواء في الخارج، إذ ذكرني باقتراب عيد الميلاد، ففي صغرنا، اعتدتُ وأخواتي أن ننتظر في الخارج معاً محدقات

إلى السماء من أجل رصد سانتا كلوز قبل أن تستعجلنا والدتي كي نخلد إلى النوم وهي تقول: «سيتجاوز سانتا كلوز منزلنا مباشرةً إن بقيتن مستيقظات»، فندخل ونتناول الكستناء المشوية على النار، ثم نخلد إلى النوم وأصابعنا دبقة والابتسامات مرتسمة على وجوهنا. تقت إلى ذلك الوقت من العام أكثر من أي شيء في العالم، وذلك قبل قضائي فصول الصيف في إيرلندا وتعرفي إلى فينبار الذي ظهر عبر الظلال ما إن فكّرت به. جاء يضع يديه في جيبيه، فاقتربت منه، ورميت بنفسي عليه مطوّقة بذراعي عنقه، فعانقني بدوره، وقبّلني ثلاث قبلات.

همس لي بصوته الأجش: «امشي معي».

احتضنت ذراعه، ومشينا مبتعدين عن الفندق، مشينا في الظلام الذي قلما كنت تجده في مكان آخر تلك الأيام، لأن الإنارة الكهربائية تأخرت في الوصول إلى تلك المنطقة الريفية، أضف إلى ذلك أنه كان يندر تحرك السيارات على الطرق الريفية بعد حلول الظلام. سرنا لمسافةٍ قصيرةٍ قبل أن يظهر كلب وينبح في وجهنا، فركع فينبار، وجعل ذلك الكلب العملاق الذي ينحدر من سلالتي كولي وأخرى برية، يهرع إلى حضنه في غضون ثوانٍ، ففرك وبر عنقه، فحرّك الكلب ذيله مرحاً، ثم تابعنا طريقنا، وتبعنا الكلب فترةً من الزمن قبل أن يأمره فينبار قائلاً: «عد إلى المنزل»، فأنزل الكلب أذنيه حزناً وطاعةً، واستدار عائداً من حيث أتى.

سألته: «هل جلبت كلباً جديداً من أجلك؟».

أعاد هذا السؤال ذكريات ألبي إليه، فأجابني أن الرجل الذي اشترى ألبي انضم إلى جيش التحرير الإيرلندي، واستخدمه من أجل إيصال المتفجرات إلى ثكنات الشرطة الإيرلندية الملكية، وأنه عندما وصل إلى هدفه انفجر، فتناثرت أشلاؤه في الأرجاء، ثم أردف قائلاً: «هل تتذكرين عندما درّبته على البقاء ثابتاً دون حراك مهما حصل؟ لقد تسبب ذلك في وفاته. أقسم إنني

سأتجنب تدريب أي كلب جيداً على ذلك النحو».

عجزت عن تحمل الألم الذي انفجر في صدري، وحاولت يائسةً نسيان ما أخبرني به فينبار للتو، ومنذ تلك اللحظة، ظللت أحلم طيلة حياتي أن ألبي يجلس مشاهداً مباريات التنس التي نخوضها مجبراً على السكون كي تلتهمه النيران قبل أن نناديه إلى الحياة مجدداً.

قـال فينبـار: «يبـدو أن ذلـك حدث منذ فترة طويلـة، ولكن على العكس، لـم يمضِ على نهاية الحرب سـوى ثماني سـنوات، واثنتي عشـرة سـنةً على بدايتها. يعود الأمر إلى تغير العالـم كثيراً في سبل لا يجدر أن يخوضها، ولذلك يغير طريقة مرور الوقت. لقد وجدت الخنادق البارحة أو منذ سـاعة مضت، وسـتعاود الظهـور مجـدداً غـداً، أما أنت وأنا وألبـي، فقد مضت مئة عام على وقتنا معاً، وكذلك كل يوم منذ ذلك الحين».

سألته: «ماذا عن جينيفييف؟».

أجابني: «مضى عليها ألف عام وهذا الصباح فقط».

سألته مجدداً: «ولكن ليس غداً؟».

قال: «لا، ليس غداً يا نان».

عندهـا، تـلألأت الدمـوع فـي عينـي؛ تلك الدمـوع التي أرادتني الآنسـة أرمسـترونغ أن أذرفهـا. تابعنـا السـير لفتـرة طويلة كـي أدرك أنني عاجزة عن العودة إلى فندق بيليفورت في تلك الليلة؛ فمن سيلاحظ ذلك أساساً؟ المحقق تشيلتون ذو العينين الحزينتين اليقظتين والذراع الوحيدة السليمة؟ ماذا يعتقد أنه يعرف عني؟ لا شيء يهم بشكل كافٍ كي يعكر سحر المشي بجوار فينبار، فقـد أردت المشــي فقـط عندما غـادرت الدير، كنت سـأقطع إيرلندا وإنكلترا سـيراً على قدميّ، ومن لاندس إيند إلى ثورسـو، جاهلةً أين أبحث ومن دون أن أملك شيئاً في هذا العالم سوى البحث مراراً وتكراراً.

لـم يمشِ فينبار معي مسافة طويلة قبل أن نصل إلى منزل المزرعة الذي

انتصبت الأشجار إلى جانبيه واضحةً بشكل كافٍ كي أستطيع رؤيتها تنتظرنا ضمن بقعة من ضوء القمر. كان المنزل كبيراً، ولكنه لم يبدُ واسعاً، وبدا أنه يعود على الأرجح إلى أحد أثرياء لندن.

سألته: «كيف وجدت هذا المكان؟ هل يسمح لك أن تقيم فيه؟»، وأدركت فور سؤالي أنه عثر عليه كما عثر على غرفتنا خلال احتفال الهدنة؛ عن طريق سحره.

أجابني: «لقد منحني المنزل الإذن كي أقيم فيه، وهذا أكثر أهمية من إذن المالكين».

كانت أشجار البلوط منحنية بما يُشكّل مظلة مثقوبة فوقنا، لقد انحنت حزناً على أوراقها المفقودة، وشق ضوء النجوم طريقه عبر الأغصان كي يظهر البخار المنبعث من أنفاسنا.

سألني فينبار: «ما رأيك أن نركض حتى نصل إلى الباب الأمامي؟».

ضحكت، وأجاب جسدي عن سؤاله قبل أن تستطيع كلماتي الاعتراض، فانطلقت أمامه من دون إنذار، وشعرت أن عضلاتي متصلبة، ولكن الحياة عادت إليها في مواجهة الهواء البارد، ولكن فينبار تجاوزني سريعاً، وعندما ضخ قلبي الدم إلى كل خلية في جسدي شعرت بالغبطة.

وصل فينبار أولاً وفتح الباب الأمامي، فدخلنا ونحن نلهث، وتجاوزنا النار الخامدة في الردهة الأمامية.

سألته: «هل السيدة كريستي هنا؟».

أجاب فينبار: «أجل، إنها هنا».

تبعته إلى الطابق العلوي الذي يجب أن يضمّ أكبر غرفة نوم، وتبيّن لي أنها غرفته، إذ وضع وشاحه على كرسي، وبالكاد تبينت حقيبة ظهره البالية في إحدى الزوايا تحمل الحروف الأوائل من اسم والده، وفكّرت كم هي أغانا

لطيفة لتمنحه هذه الغرفة بدلاً من أن تستقر فيها. ركع فينبار كي يشعل النار، أما أنا فوقفت أراقب وجهه الذي انعكس عليه وهج النار، واعتقدت أنني سأبقى أرتجف من البرد حتى تتقد النار بشكل جيد، ولكنني شعرت بالدفء كما لم يسبق لي أن شعرت به.

نهض فينبار، وخلع معطفه ورماه في إحدى الزوايا، ثم طوقني بذراعيه، وجذبني نحوه.

قال: «أعلم أنك حزينة يا نان، وأنا كذلك، وستعجزين عن نسيانها أبداً، ولكن نستطيع إنجاب طفلة أخرى، يمكننا ذلك معاً».

بدوت مستسلمة له، وهو يزيل معطفي في الوقت الذي داعبت شفتاه عنقي، وقلت له: «لا نستطيع أن نكون معاً، يجب أن أكون معها، لا أستطيع أن أعيش في الجهة الأخرى بعيدةً عن طفلتي».

هزّ فينبار كتفي قليلاً، وكأنه يحاول إيقاظي، ثم قال وقد احتد صوته: «اسمعيني يا نان، أنا هنا، ولكنها رحلت، ولذلك لا فائدة ترجى من البحث عن شيء لن تجديه أبداً، أو أن تقبضي على شيء خسرته مسبقاً».

لم يسبق لفينبار أن رأى طفلتنا أو لمسها، ولكن ما من شك أنه يحبها، ولكنه لا يفهمني، لذلك لم أرغب بالحديث عن أمر لن نصل إلى نتيجة في نهايته. إن هذه الليلة مع فينبار هبة غير متوقعة، أردت أن أستمتع بها، أردتها أن تكون مثل فقاعة معزولة عن هذا العالم وويلاته، ولكنني في الوقت نفسه كنت لأتخلى عنها إن كانت ستعيد عقارب الساعة إلى الوراء وتجمعنا مع طفلتنا، وهذا ما كان مستحيلاً بالطبع، فقررت أن استمتع باللحظة، وأن لا أفكار بتأثيرها على المستقبل، مع أنني لم أكن قد جلبتُ إسفنجتي معي، ولم أرَ مغزى من جلبها.

قلت: «اصمت يا فينبار، اصمت فقط».

جعلته يصمت بعد قبلة قادتنا إلى السرير، وأخيراً، اجتمعنا على النحو

الـذي قُـدّر لنـا أن نكونـه دوماً في مكان وزمان رسـمتهما السـنوات السـابقة جميعها.

خلال الحرب، تعلم تشيلتون كيف يمشي بهدوء، وقد ساعده على ذلك قصر قامته وضعف بنيته. كان يحرك كاحله بدءاً من وركه، وبذلك يعجز أحد عن سماع خطوات وإن كانت طويلة، لم نعرف أنه كان يتبعنا مع أنه لم يقصد الاختبـاء عنـا، إذ كنـا غارقين في بعضنا، وعجزنا عن رؤيته حتى عندما التفت فينبار كي يطلب من الكلب العودة من حيث أتى، فقد تجمد تشيلتون مسبلاً ذراعيه إلى جانبيه، وكأنه جعل نفسه خفياً أمام ذلك الكلب أيضاً. بعدها تابعت وفينبار المشـي، ولـم يتردد تشـيلتون في اللحاق بنا؛ إننا ثنائي مسـكين، أليس كذلك؟ تبيّن تشيلتون ذلك إذ علم أن الحرب فرقتنا، وها نحن نلتقي مجدداً، ولكنه عجز عن اكتشـاف الرابط بيننا وبين أغاثا كريسـتي، ولذلك تبعنا وهو واثق من أننا سنقوده إليها، وهذا ما حصل.

فور وصلونا إلى مدخل المنزل، تأكد تشيلتون من وجهتنا، فزاد من حرصه خشية أن نكشفه، وانتظر قرب البوابة التي أغلقها الريفي فينبار خبير الأسوار، وأقفل مزلاجها خلفنا، وانتظر تشيلتون حتى أصبحنا على مسافة نعجز منها عن سـماع صرير البوابة، ففتحها، وسـار على الطريق متأملاً مثلي مظلة الأغصان العارية، وفكّر في جمالها خلال الربيع والصيف عندما تملأها البراعم.

استنشـق هـواء الليـل كي يهدّئ من روعه، إذ سـيطر القلـق عليه لاإرادياً كما اعتاد غالباً، فضلاً عن إحساسـه بوجود أحد متخفٍّ في الظلال ربما كي يراقبه. كانت يوركشـاير جيدةً، ولكن تشـيلتون نشـأ قرب البحر حيث استطاع سـماع صوت الأمواج المتكسـرة على الشـاطئ، ولا شـيء سـواها، والمشي على الصخور في تشورستون كوف ومراقبة الفقمات التي استلقت تحت أشعة الشمس هناك، وغمر رأسه في المياه المالحة حتى في أبرد الأشهر كي تصفي البرودة ذهنه.

وقـف أمـام المنـزل الجميـل القديم الذي يشـبه صندوقـاً حجرياً ضخماً تلألأت نوافذه تحت ضوء النجوم الخافت، ولمع وميض ضوء خلف إحداها؛ لا بد أن ذلك الشاب الإيرلندي يشعل النار من أجل قضاء ليلة برفقة السيدة أوديـا إن كان هـذا اسـمها الحقيقـي، وتمنى تشـيلتون انتهـاء الأمر الذي فرقنا تماماً كي نعود إلى بعضنا.

لقـد سـلبته الحـرب فتاتـه، كاثريـن، التـي صبـرت على غيابـه، وصلّت مـن أجـل عودتـه، ولكـن اتضـح أن صلواتها لم تُسـتجب، إذ عـاد إليها رجلاً يختلف عن ذلك الذي أحبته، فأخبرته وهي تبكي: أوشكت ألا أتعرف إليك يـا فرانـك، وبعـد مضـي فترة قصيرة على انفصالهـا عنه، تزوجت من ابن بائع الزهور الذي ورث العمل عن أبيه، ومنحه العمى في إحدى عينيه إعفاءً ذهبياً من الحرب، ولذلك غادر تشيلتون بريكسهام إلى ليدز منذ سنوات. في أحد الأيام، مرّ بجوار متجر الأزهار، ورأى كاثرين ترتب مزهريةً ملأتها بأزهار عود الصليب الوردية، وبدت له أنها حامل، لذلك قرر الرحيل بعيداً، وكأنه عندما يغيـب الشـيء عـن ناظريك يغيـب ألمه معه. كانت توركـواي قريبة بما يكفي من بريكسـهام، ولذلك ربما اشـترت أغاثا كريسـتي الأزهار من ذلك المتجر وحتى من كاثرين نفسـها، ولكن ذلك غير صحيح على الأرجح، لأنها توكل مهمة شراء الأزهار إلى الخدم.

أغلـق تشـيلتون البـاب خلفـه بهدوء فور تجاوزه عتبة بـاب المنزل الذي سكنه البرد، واحتوى قليلاً من الأثاث، وتلك إشارة باهتة على وجود الحياة، واعتقـد أن المنـزل قـد يكـون معروضـاً للبيع أو للإيجار، إذ خلا من أي دليل يشـير إلـى إمكانيـة عـودة مالكيه. عدّل من وضعية وشـاحه، وبـدأ البحث في المنزل الكبير، ولكن ذلك لم يُشـكّل عائقاً أمام مهمته، إذ اسـتطاع إلقاء نظرة سريعة على المطبخ في الطابق السفلي، وقبو النبيذ – الذي كانت سعته كبيرةً جداً نسبةً إلى منزل مهجور – وغرفة مدبرة المنزل، وبعدها اتجه إلى الطابق

الرئيسـي حيـث الردهـة والمكتبـة، وبحث فـي كل الغرف باسـتثناء تلك التي يقيم فيها الثنائي، واستدل عليها من وميض الضوء البارز أسفل الباب. تناهت أصوات ضعيفة إلى مسـامعه بما فيها ضحكة ناعمة أسـعدته؛ لقد شـقّ عليه تصور أحدهما يضحك نظراً إلى جديتهما.

وجـد تشـيلتون فـي العلية مسـكناً متواضعاً من أجـل الخدم، وضم صفاً مـن الأبـواب المغلقـة التـي لاحظ أسـفل أحدها حركةً وضـوءاً ضعيفاً بدا أن مصدره شمعة واحدة، فطرق ذلك الباب بهدوء مستخدماً اثنين فقط من براجم أصابعه.

قال صوت صدر من الداخل: «أجل يا عزيزي»، والذي كان مرهقاً وقلقاً قليلاً، ويشـبه صوت الأم التي تخاطب طفلها من الفراش في منتصف الليل. لقـد اعتـاد أخـوه الأصغر، وليس هو، إيقـاظ والدتهم ليلاً، والتي كانت لطيفةً دوماً حيال ذلك، وأحبت أطفالها الثلاثة كثيراً.

علـم تشيلتون أنه تحبُّب أغاثا الذي يتضمن دعوةً من أجل الدخول ليس موجهاً له، ولكنه فتح الباب رغم ذلك، ورآها جالسةً هناك على كرسي خشبي ترتـدي ملابـس نـوم رجالية، وكان شـعرها مجعـداً، ولكنها بـدت جميلةً في ظل إضاءة الغرفة الباهتة التي احتوت سـريرين منفردين أحدهما مرتب، وقد وضعت على خزانة الأدراج التي اسـتعملتها كمكتب آلتها الكاتبة وشـمعتين مضاءتين يقطر منهما الشـمع إلى حاملين فضيين متسـخين. حدقت أغاثا إلى تشيلتون، وتوقفت حاملةً قلم حبر في يدها وكأنه قاطعها خلال كتابتها.

قالـت أغاثا: «أوه، تباً»، من دون أن تفلت قلمها.

دخل تشيلتون الغرفة، وجلس على طرف السرير الفارغ كي يتجنب بعثرة أوراقها، ولـم يخلع معطفه، ورأى موقداً صغيراً يعمل على الفحم في الزاوية، وتوقـع أنه سينطفئ بحلول الصباح، وتخيلها تستيقظ مرتجفةً وأنفاسها تتكاثف أمامها. هل ستشعل النار بنفسها أم تنادي الرجل الإيرلندي؟ فهي وإن غيّرت

منزلها، إلا أنها لم تغير صفتها بكونها السيدة التي يقوم الجميع على خدمتها.

قال تشيلتون: «سيدة ماهوني»، لم يبدُ أنه يستهزئ، أسندت ظهرها إلى الكرسي كي تنظر إلى وجهه.

قالت أغاثا بنبرة الاستياء التي يتقنها أفراد الطبقة المخملية من المجتمع: «هل هكذا يُقدّم رجال شرطة يوركشاير أنفسهم؟». علم تشيلتون أنها لم تقصد ذلك وأجابها: «لقد طرقت الباب؛ أعتقد أنك تنتظرين زوجك؟».

ارتسمت ملامح الحزن على وجهها بعد سماع تلك الكلمات، وبصفته رجلاً، لم يقصد حملها على البكاء، ولكن المحقق الذي في داخله لاحظ الضعف العاطفي الذي قد يؤدي إلى تدفق المعلومات.

تابع تشيلتون قائلاً: «أكره أن أكون حامل الأخبار السيئة، ولكن أخشى أن زوجك برفقة سيدة أخرى في إحدى غرف الطابق السفلي».

في نهاية المطاف، أفلتت قلمها، ووضعته على الطاولة المجاورة، وأطلقت زفيراً مثل شخص كان تركيزه مشتتاً تماماً وقالت: «دعنا نتجنب الخداع، أنت تعلم أنه ليس زوجي».

سألها: «ولكن أليس هو من ناديته عزيزي؟ إنه ليس...».

قالت أغاثا: «إياك أن تجرؤ على قول ذلك، لست كبيرةً كفايةً كي أكون أماً لفينبار».

أجاب تشيلتون: «كنت سأقول أخاك».

قالت أغاثا: «لقد أصبح في منزلة أخي وعزيزي فعلاً، رغم أنني لا أعرف ما الذي يعنيك في الأمر».

أجابها تشيلتون: «لقد كلفتني شرطة يوركشاير بالبحث عنك يا سيدة كريستي، شأني شأن عدد كبير من رجال الشرطة»، لقد استخدم اسمها الحقيقي رغم أنها لم تؤكد هويتها بَعد.

قالت أغاثا: «عدد كبير؟ ويبحثون عني؟ في يوركشاير؟».

قال تشيلتون: «في يوركشاير وسائر أنحاء إنكلترا».

عبست أغاثا، إذ عجزت أن تشتم سوء حظها في القدوم إلى يوركشاير، وحتى لو هربت إلى ديربيشير أو كامبرلاند أو نورفولك، كانت الشرطة ستأتي وتطرق باب مخبئها.

قالت وقد أرهقها سماع تلك الأخبار: «يا إلهي، إنها جلبة كبيرة».

سألها تشيلتون: «حسناً، أنت تعترفين أنك السيدة أغاثا كريستي؟».

بدت متشككةً وقالت: «لم أعترف».

بعد ذلك، مدّت يدها، ولمست ذراعه، ثم أمسكت سترته الصوفية السميكة وسألته: «هل سبق أن وقعت في مأزق حقيقي يا سيد تشيلتون؟ عندما تتلقى طعنة من حيث لم تكن تتوقع».

لو فعلت الآنسة أوديا – بدأ يفكر فيها كآنسة من دون أن يقصد – أو أية امرأة أخرى ما فعلته أغاثا، لأصبح تشيلتون على أهبة الاستعداد، واعتبرها مناورة خبيثة، ولكنه أدرك أن ما تقوم به أغاثا ليس إغواء امرأة إلى رجل، بل استنجاداً من إنسان إلى إنسان، واستعطافاً حقيقياً ملحّاً.

«سيد تشيلتون، هل سبق لك أن تعرضت لمشكلة؟ أقصد مشكلة حقيقة من النوع الذي لا يكون مصدرها خارجياً بل داخلياً، لم تتخيل يوماً أن يسبب لك الألم».

أثار وجهها الصادق الواهن الحزن في تشيلتون، عندما يبلغ المرة السادسة والثلاثين من العمر، ينظر إلى السنوات التي مرت من عمره، ويعتبر أن الشباب ولى، وخصوصاً النساء، اللواتي يعتبرن أنهن أصبحن عجوزات. وهذا ما تبدو عليه حال أغاثا التي لم تدرك أن شبابها هو الذي أتاح لها في سن السادسة والثلاثين الجلوس لساعات على ذلك الكرسي الصلب غير المريح، والتحديق لساعات إلى صفحاتها من دون الحاجة إلى نظارة، ومن دون أن يؤلمها أسفل ظهرها. ذات يوم، ستعود بها الذكرى إلى تلك الأيام،

وستعرف أنها لم تكن عجوزاً، بل كانت شابة في أواسط العمر، ولا يزال ينتظرها عمر مديد، يخبئ لها الأفضل.

أفلتت كم السيد تشيلتون، ونظرت إليه بعينيه الحادتين نظرات فاحصةً.

لقد عاشت أغاثا حياةً مختلفةً منذ رحيلها برفقة فينبار، إذ أقامت في منزل فارغ من دون إذن أو معرفة هوية مالكه، كما يفعل الخارجون على القانون، وستتجنب هذه المرة ترك المال من دون النظر إلى الوقت الذي ستمضيه فيه. لقد اختارت غرفة الخدم نظراً إلى بساطتها وخصوصيتها، إذ جلست هناك برفقة رجل غريب من دون خوف على الإطلاق أو قلق إزاء عدم ملاءمة ذلك مع العادات العامة؛ لقد عزلت نفسها بعيداً عن العالم الذي عرفته ووصلت إلى مكان فقد فيه كل شيء أهميته، بما في ذلك حملة البحث الواسعة عنها.

سألته: «سيد تشيلتون، هل يبحث عني شخص آخر في هاروغيت؟».

سمعها وصدمته قلة حيلتها؛ لقد أظهرت شخصية أغاثا، أو ما أصبحت عليه، قسوةً جميلةً نتيجة الصدمة التي تعرضت لها.

يستحيل على أولئك العائدين من الحرب تقدير صدمة أحدهم من الوهلة الأولى، ولكن العطف تسلل إلى تشيلتون عندما رأى العبوس الذي طغا على ملامحها اللطيفة وأجابها: «لا، فأنا الوحيد المكلف بالبحث في هذه المنطقة، ربما يمكنك تقدير كم تحتاج إليه عملية البحث عنك من رجال في المناطق المجاورة، وخصوصاً أنهم يحثون عنك في البرك وغيرها».

عجز المكان الذي جلست فيه عن احتواء فيض قلقها، فوقفت وسألته: «هل أخبروا ابنتي تيدي أي شيء؟ هل هي قلقة؟».

أجاب تشيلتون: «لا أعرف، ولكنني لا أظن أنهم أخبروها شيئاً»، أضاف جملته الأخيرة من أجل تهدئتها في ظل تلك الظروف؛ رغم عجزه عن وصفها تماماً. لم يسبق أن التقى الطفلة، ولكنه يمكنه أن يتخيلها محجوبة ومحميةً من أي خبر أو معلومة قد تثير القلق في نفسها، ولعل ذلك من أجل الوالدين

أكثر منها، إذ ما هو الأمر الأكثر إزعاجاً من التعامل مع قلق شخص آخر؟

تساءل تشيلتون إن سبق لأغاثا كريستي أن أفصحت عن مشاعِرها على هذا النحو الصريح خلال حياتها.

لقد بذلت جهداً كبيراً من أجل إخفاء مشاعرها مجدداً وقالت: «دعنا نتجنب الخداع يا سيد تشيلتون»، بدت وكأنها أرادت إضفاء لهجة السلطة المعتادة في صوتها الذي بدا مرتجفاً كما ارتجفت شعلة الشمعة على مكتبها، وكان الموقد يحتاج إلى مزيد من الفحم.

قال تشيلتون: «لقد كررت هذه العبارة مرتين، ولا أظن أنك بحاجة لتكرارها، فأنا أكره الخداع، وأنا لا أريد شيئاً سوى إعادتك آمنة إلى منزلك... ألا يكفي كل ما حدث يا سيدة كريستي؟ لقد تغلغل الرعب في نفس زوجك وهو يتوق إلى رؤيتك، أنا واثق أن الأوان قد حان للانتهاء من هذا والعودة إلى المنزل».

سألت أغاثا: «هل رأيت تلك الفتاة التي جاءت مع السيد ماهوني؟ إنها عشيقة زوجي الحقيقي، العقيد كريستي، وتعتقد أنها ستتزوج منه بعد فترة قصيرة».

أوشكا هنا على سلوك الطريق الصحيح لحلّ الأحجية، وارتسمت معالم القضية تدريجياً رغم كونها غير معقولة.

أجاب تشيلتون: «يبدو أنها هناك عقبة تحول دون ذلك».

عندما أدركت ما يحصل في الأسفل، خيّمت أجواء مشحونة على سكون المنزل. أخيراً، اجتمع جسدا العاشقان الشابان– كان ذلك واضحاً تماماً– وقد أحاطت بهما هالة من العواطف، والتي انسابت من أسفل الباب، وحامت في أرجاء المنزل؛ أدرك تشيلتون أنه بالكاد فكر فيها على أنها أغاثا وليست السيدة كريستي، وفي تلك اللحظة أحاطتهما هالة من الحميمية.

(أطلقت وأغاثا اسم القصر الخالد على ذلك المنزل، ولم أعد إليه أو

إلى هاروغيت أبداً، ولكنني فكّرت في بعض الأحيان أنني إن عدت، واتبعت الإحداثيات الدقيقة، فسأجد مساحةً واسعةً يشغلها مستنقع ونبات الخلنج والعليق مكان المنزل الذي اختفى في الضباب مئة عام إضافيةً).

سألت أغاثا: «هل تعتقد أن تلك... الفتاة جميلة؟».

أوشكتْ على استخدام كلمة أخرى أقل أدباً وأكثر صدقاً، وإذ بدت في حاجة إلى كليهما. أجبتها: «ليس في مثل جمالك».

من خلال الهدوء الذي ارتسم على ملامح أغاثا، اعتقد تشيلتون أنها قد تميل إليه وتقبّله، ولكنها لم تفعل ذلك، بل قالت: «أرجوك، لا تخبر أحداً بمكاني، امنحني يوماً إضافياً أو يومين».

أدرك تشيلتون أنه يفترض به أن يعترض ويصر ويحاول إقناعها بالعودة، إذ رفض فكرة أن يتركها مختفية، ولكنه وقف وبدا موافقاً، فهو لا يتعامل مع جريمة قتل.

لماذا يوقظ النيام، باتصال مزعج؟ لقد كانت امرأةً بالغةً مرفهةً وحرةً في اتخاذ قراراتها، وبدا أنه مستمتع ولا يريد أن ينتهي هذا الأمر، إذ ستقلّ احتمالات رؤيته إياها إن أدى واجبه وأبلغ عن إيجادها.

قال تشيلتون: «أعدكِ أنني سأكتم سرّكِ مقابل ألّا تبارحي هذا المكان، وبذلك أستطيع إيجادك عند الحاجة».

أجابت أغاثا: «اتفقنا، أعدك».

مدت يدها الناعمة الدافئة كي تصافحه، ثم قالت: «آمل أن نان لا تخدع فينبار المسكين».

قال تشيلتون: «أنت طيبة القلب».

ضحكت أغاثا موافقةً وقالت: «أعتقد أن ذلك يجعلنا اثنين».

لردح من الزمن، اعتبر تشيلتون نفسه مجرداً من المشاعر، وفاجأه أنه صدّقها وقال: «هل تعلمين أنني ظننت أنك ستقبلينني عندما نظرت إليّ باهتمام شديد».

أجابت أغاثا: «منذ أن التقيت بزوجي لم أُقبّل أحداً سواه».

قال تشيلتون: «لقد كنت زوجةً صالحةً».

أومأت أغاثا بقوة، لقد ندمت أنها كانت زوجةً صالحةً؛ لقد رآها تشيلتون شابةً جداً، وعجز عن قراءة أفكارها، لقد ذكّرته بما كانت عليه فتاته كاثرين قبل الحرب، وشعر أنه يستدعي ذكريات مريرة مر عليها الزمن، ولكنه أوقف نفسه.

قال: «سيدة كريستي».

أجابته: «ناديني أغاثا»، اقتربت منه كثيراً، وقبلته قبلةً ناعمة ولكنها طويلة، فلم يجرؤ تشيلتون على رفع يده إلى خصرها أو التحرك بتاتاً خوفاً من أن تدرك ما يفعل، وتبعد شفتيها الناعمتين عن شفتيه ويديها اللتين تموضعتا بخفة على صدره؛ فتحا فميهما بشكل كافٍ كي يستنشقا أنفاس بعضهما، وكان مذاقها مثل الورود وعشب الربيع الأخضر.

أخيراً قال تشيلتون بعد أن ابتعدت عنه: «أغاثا».

قالت أغاثا: «يفضل أن تذهب الآن».

قال: «حسناً». وارتجف صوته مثل فتىً في الثانية عشرة من عمره.

سألت أغاثا: «ستفي بوعدك ولن تخبر أحداً؟».

أجاب تشيلتون: «أجل»، خرج وأغلق الباب خلفه، ونزل إلى الطابق السفلي، وخرج من الباب الأمامي؛ شعر وكأنه شبح يطفو مقدار بوصة أو أكثر في الهواء بدلاً من أن يخطو على الأرض.

الاختفاء

اليوم السابع

الجمعة، 10 كانون الأول، 1926

لقد حال حب الألغاز في نفس السير آرثر كونان دويل دون اعترافه أنه يجهل أغاثا كريستي قبل اختفائها، وقد انتشرت شائعة مفادها أن ما فعلته أغاثا ليس إلا حيلةً دعائيةً، وماذا في الأمر؟ فهي حيلة ممتازة إن صدقت الشائعات.

يحب الناس أن يتقلدوا مكانة حلّال المشاكل، وكلما ازداد عدد الذين يحاولون حلّ القضية، كلما ازداد عدد الراغبين في كونهم أبطالها.

ألغى وكيل أغاثا الجديد، دونالد فريزر، جميع مواعيده من أجل لقاء كونان دويل، مبتكر شخصية شارلوك هولمز الشهيرة، وعقد هذا الاجتماع رغم أنه عجز عن فهم كيف يمكنه أن يساعد السير آرثر في إيجاد أغاثا، ولكنه فكّر في إمكانية إقناعه بترك وكيله الحالي والعمل معه.

لم ينظر إلى أغاثا على أنها مصدر رزق فقط، إذ قلق عليها، وكان آسفاً جداً من أجل السيد كريستي، فقد هربت زوجة فريزر برفقة كاتب من موكليه في الربيع الماضي، وتوقع أن أغاثا أقدمت على فعل مماثل، لقد تصرفت الأخيرة على أنها سيدة مسالمة، وكذلك فعلت زوجته.

لم يثق في قدرة كونان دويل على اكتشاف ما عجز عنه جميع رجال الشرطة في إنكلترا، إذ كان مؤلفاً لا محققاً، وهل هناك شيء أسهل من حل أحجية أنت من صنعها؟ إذ يخلق المؤلفون القضايا، ولا يحلونها. دعت

كاتبة قصص بوليسية أخرى، دورثي سايرس، نفسها إلى سونينغيديل من أجل البحث عن الأدلة واختبار الطاقة، وكان فريزر واثقاً من أن أغاثا ما كانت ستتطفل وسط فوضى كهذه أو تطلب تدخل المشعوذين.

حافظ كونان دويل على شخصيته الوسيمة الواثقة رغم كونه في السابعة والستين من عمره - بعد أربع سنوات فقط من انضمامه إلى العالم الروحي - لقد كان من الجميل تصديق شخص راسخ الإيمان في الرسائل من العالم الآخر، أنهى فريزر الاجتماع معه فور تبينه استحالة إبعاده عن وكيله الحالي؛ لقد أحزنه مجال العمل كله، وأراد فقط عودة أغاثا مثل أي شخص آخر، وعجز عن احتمال إضاعة الوقت على فقدانها.

سأل كونان دويل: «هل لديك أي شيء منها؟ لعلها تركت بعض ممتلكاتها الشخصية وراءها، إن الملابس هي الأفضل، وقد نستفيد من ملاحظة بخط يدها»، حافظ شارب دويل على ثباته بشكل مدهش مهما تغيرت تعابير وجهه.

فتح فريزر دُرج مكتبه الذي مضت تسعة أشهر على حمله قفازاً جلدياً في انتظار عودة صاحبته، وتردد قبل أن يسلمه إلى دويل.

سأل فريزر: «وهل أستطيع سؤالك عن تفاصيل خططك؟ إذ تعلم أن الكلاب اشتمت رائحتها مسبقاً، ويوجد جيش حقيقي في باركشير يبحث عنها»، وأشار إلى تدخل دورثي سايرس في الأمر.

لوّح كونان دويل ساخراً منها، وانتزع القفاز فور ملاحظته في يد فريزر وقال: «إنها تجهل كيف تبحث... لقد تحدثت إلى هوراس ليف وأخبرني أننا نحتاج إلى بصمة روحية».

التزم فريزر الصمت مشيراً إلى أن الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة إليه.

قال دويل: «سيدي الطيب، إنه أقوى عرّافي أوروبا، وصدف أنه يقيم في لندن لحسن حظنا... هل وضعت السيدة كريستي هذا القفاز مؤخراً؟»، لقد

كان مثيراً للاهتمام أن دويل نفسه من بين جميع الناس وظّف الروحانية – الوسطاء والتكهنات – بدلاً من التفكير الاستنتاجي.

أجاب فريزر: «أوه، أجل لقد جلست السيدة كريستي على هذه الأريكة تماماً قبل يوم واحد فقط من اختفائها».

أومأ كونان دويل، ومسح على ذراعي الأريكة، وكأنه يجمع الجزيئات التي تركتها أغاثا خلفها، وأمسك القفاز وكأنه وجد أكثر الأدلة أهميةً بنفسه وقال: «سنستفيد منه، وسيحل هوراس ليف هذه المشكلة، وسنعرف مكان السيدة أغاثا كريستي بحلول صباح الغد سواء أكانت حية أو ميتة، كن واثقاً من ذلك».

لم يشعر فريزر بالذنب أبداً، فإذا امتلك السيد ليف أية قوى، فسيدرك مباشرةً أن القفاز ملك زوجة فريزر التي هربت إلى ديفونشير، وفطرت قلب زوجها الوفي.

انغلق الباب الثقيل، وحدق إليه فريزر بحزن، إذ ربما وجب أن يذهب إلى هارودز، ويشتري قفازاً جديداً ويرسله إلى السيدة فريزر في ديفونشير، لعل يديها باردتان الآن.

تفاجأ فريزر أنه وجد لقاء مبتكر شخصية شارلوك هولمز أمراً عادياً، ولم يحرك ساكناً إلا بسبب مبدأ التغير في الحياة على الأرض. ستصدر رواية أغاثا الجديدة الكبار الأربعة في الشهر القادم، ولعلها ستكون مهذبةً كفايةً كي تعود إلى زوجها حينها، أو تستحيل أكثر التخيلات رعباً على أرض الواقع، وتظهر جثتها؛ سيغدو اسمها مشهوراً في إنكلترا مع حلول الشهر القادم وربما في العالم كله سواء أرآها أحد مجدداً أم لم يفعل، إذ لن يؤثر ذلك على مبيع الكتب.

تنهد فريزر وقد أحزنه جشعه، إذ تسير الأمور دوماً عكس المتوقع، أليس كذلك؟

استندتُ على مرفقيّ، وجلست على السرير في القصر الخالد، وركزت نظري إلى فينبار، وبذلك يكون وجهه أول ما أراه مع أول خيط من ضوء النهار، وقد انطفأت قطعة الحطب التي وضعناها في النار كي تدفئنا، وجعلت الستائر العاتمة المسدلة الغرفة مظلمةً مع ظلام الصباح الشتوي المتأخر. فتح فينبار عينيه تزامناً مع دخول أشعة الشمس إلى الغرفة، ونظر إليّ، فتذكرت تلك الليلة في إيرلندا حين استلقيت إلى جواره، والتي كانت المرة الأخرى الوحيدة التي قضينا فيها الليل في السرير نفسه.

قلت له: «أبقيت عينيك مغمضتين رغم ضوء الصباح في آخر مرة استلقينا معاً».

أمسك يديّ ووضعهما على قلبه وقال: «لو فتحتهما حينها لتزوجتك وكنا معاً الآن».

فترقرقت الدموع في عينيّ وأجبته: «ولكننا معاً الآن».

قال: «ليس لوقت طويل، ونحن ناقصان».

عندما نهض، لاحظت شيئاً غفلت عنه في الليلة الماضية، لقد قص شعره الأسود الكثيف ورتبه، وحلق مؤخر عنقه، ففكّرت في شيء واحد: تسكن أغاثا كريستي هنا حقاً في هذا المنزل تماماً برفقة فينبار ماهوني، وعجزت عن تخيل الأمر.

سألته: «هل قصصت شعرك؟»، وتخيلت أغاثا تنفخ الخصلات السميكة عن مؤخر عنقه، وتمرر أصابعها بين الخصلات الحريرية السميكة كي تمسكها وتقصها وتفلتها، ثم تنفض بقاياها المتساقطة على كتفيه.

مسح فينبار رأسه وكأنه تذكر ذلك للتو وأجاب: «أجل، هل أعجبتك التسريحة؟».

قلت: «لقد أحببت عندما كان شعرك طويلاً»، ورميت رأسي مجدداً على الوسادة البالية – كان تجهيز المنزل متواضعاً وكأننا في مخيم وليس في منزل

– ونهض فينبار كي يضع مزيداً من الحطب في النار، بينما رحت أحدق إلى السقف الذي كانت عليه بعض النقوش؛ لم تتسلل الغيرة إلى نفسي عندما فكرت في أرتشي برفقة زوجته، على عكس فكرة وضع أغاثا يديها على فينبار، فشعرت بما تشعر به عندما يلمسني أرتشي ويفعل أموراً أكثر من مجرد قص شعري.

سألته: «وهل هي هنا في هذا المنزل الآن؟».

أجاب فينبار: «بالطبع، لقد سبق لي أن أخبرتك، وأين عساها تذهب؟».

قلت: «إلى منزلها في توركواي، أو إلى فندق جميل، فهي تملك كثيراً من المال كما تعلم، وتستطيع تحمل تكاليف الإقامة في فندق».

قال فينبار: «كما تتحملينها أنت؟».

التزمت الصمت، وعاد فينبار إلى السرير وقال: «تحب أغاثا زوجها يا نان، وتريد استعادته، فتخلي عنه ورافقيني، فإننا نستطيع فعل ما وجب فعله بعد الحرب مباشرةً».

قلت: «أوه، فينبار».

قال فينبار: «يمكننا العودة إلى باليكوتون».

أجبته: «ستكون مجنوناً لو اعتقدت أن قدميَ ستطآن أرض إيرلندا يوماً».

قال: «تستطيعين كره إيرلندا بسبب ما أصابك فيها، ولكنني إيرلندي، فهل تكرهينني يا نان؟».

أجبته: «أبداً، وأنت تعلم ذلك».

قال: «وتحدث هذه الأمور في أي مكان خارج إيرلندا».

قلت: «ولكن ما تعرضت إليه حدث فيها».

أغمض فينبار عينيه، فأبعدت شعره المقصوص عن جبهته، ومررت أظافري على فروة رأسه كي يعود شعره إلى هيئته الفوضوية المعتادة، وانتابني الإحساس الذي تملكني دوماً، وهو أن فينبار الشخص المفضل لدي على

وجه الأرض، والذي أنتمي إليه أكثر مما أنتمي إلى أي شيء آخر، ولكنني أحببت جينيفيف أكثر في الوقت نفسه.

همست كي أمحو قساوة كلماتي السابقة: «أنت المفضل لديّ، وستبقى كذلك».

فتح عينيه، واستطعت رؤية ذكرى إصراره القديم على التفاؤل رغم الكآبة التي سكنته، لعلني استطعت إعادته إليه، ولذلك عدنا إلى الشفاه والأيدي والعواطف الخفية.

عجزنا عن سماع صوت آلة أغاثا الكاتبة في الطابق العلوي، وقد أدركت الأخيرة أن البقاء هناك وعدم الكشف عن مكانها ضرب من الجنون، إذ وجب عليها قيادة سيارة الآنسة أوليفر وتسليم نفسها إلى أقرب مركز شرطة.

تسليم نفسها؟ لقد رفضتْ ما فكرتْ فيه غاضبةً، فهي لم ترتكب أي جريمة، لا شيء أبداً، فهي تمتلك الحق في الابتعاد، ولكنها أدركت وجوب العودة إلى المنزل مباشرةً، فهناك كثير من الأشخاص القلقين يبحثون عنها، ولكن هذا ما منعها من العودة، إذ كيف ستواجه كل أولئك الناس وتوضح لهم الأمر؟ فضلاً عن نظرها إلى وجه أرتشي ورؤيته مجرداً تماماً من الحب؟ هذا مستحيل.

تمنت أن يفي تشيلتون بوعده؛ لقد كبح نفسه في الليلة الماضية احتراماً، وكانت شفتاه أنعم من شفتي أرتشي، واختلفت رائحته عن روائح الصابون والمرطبات الفاخرة، كانت رائحته تشبه رائحة العشب والمياه المالحة؛ لقد استبدلت أغاثا عطرها في الأيام الأخيرة، وتلاشت رائحة الخزامى لتحل محلها رائحة دخان الحطب والعفن القديم.

أدركت أنها تستطيع الاعتماد على السيد تشيلتون كي يحفظ سرها رغم أنه محقق شرطة.

بقي تشيلتون مستيقظاً حتى شروق شمس الصباح من دون أن تُغمَض عيناه قليلاً أو يغير ملابسه، حيث عجز عن تذكر المرة الأخيرة التي قبّل فيها امرأةً قبل أغاثا، واعتقد أنه من السخف أن يشعر بالسعادة بسبب ذلك. لقد كان الجميع يبحثون عن تلك المرأة، ولكنه عندما وجدها قبلها، ووعدها أن يحفظ سر مخبئها؛ كان ذلك لغزاً. لقد غيره الزمن كثيراً من دون أن يجعله أذكى أبداً.

فجأة، سمع صرخة فوق رأسه جعلته يتأهب على الفور، إذ إن استيقاظ المرء على صوت الصراخ في أحد الأيام يحمله على توقع المزيد في الأيام التالية المتعبة، ولكنه تنفس الصعداء بعد مرور لحظات من الهدوء، فهو سيوجه تركيزه اليوم على قضية آل مارستون كي يستطيع تأكيد نظرية ليبينكوت وينفي وجود قاتل طليق في الجوار، إذ قد يسبب التقاعس الأذى كما يفعل الفعل المؤذي، وقد أقسم تشيلتون منذ الحرب أن يتجنب أذية العالم تماماً.

إن الحيوات التي تنتهي أمامك ليست شيئاً تتخيله في طفولتك حتى عندما تتظاهر أنك تستخدم السيوف أو تطلق النار، فهو لا يستطيع أن ينسى ذلك الشاب الألماني عندما هاجموا أحد الخنادق، إذ زحف خارج الخنادق على يديه وركبتيه، وانحنى تشيلتون كي يطعنه في قلبه، ولكن الشاب بدا متفاجئاً، وكأن أحداً أخفى عنه هذه النتائج المحتملة للحرب. تملك تشيلتون شعور سيئ، فجثا على ركبتيه كي يسقيه الماء من حافظته من دون أن يرغب الشاب في الماء أو أي شيء آخر. سأله أحد عرفاء الجيش: «ما الذي تفعله يا صديقي؟»، ورمى قنبلةً في الخنادق. أغلق تشيلتون حافظة المياه، ولاحظ أن الشاب صغير جداً إلى درجة أن خديه ما زالا حمراوين، وبشرته صافيةً مثل بشرة الفتيات، وكأنه لم يسبق له أن حلق لحيته، فتبادل الرجلان النظرات عندما علم تشيلتون لاحقاً أن أخاه الأصغر مالكون قد طعن، لقد كان صغيراً، والمفضل لدى الجميع، ولمعت عيناه إثر صدمة الخبر، إذ كان شقيقه صغيراً

كفايةً كي ينجو من الموت وسط المدافع المدوية، وفكّر في أنهم كانوا مجموعةً من الأغبياء الذين مشوا فوق الجثث، وظنوا أن الموت غافل عنهم.

قاطعت صرخة مكتومة أخرى من الطابق العلوي الصمت، وتبعها فتح باب وإغلاقه، فأسرع تشيلتون إلى الأعلى من دون أن يركض كي يتجنب أن تصدر خطواته صوتاً قد يوقظ كامل نزلاء الفندق، وفور وصوله وجد الثنائي ريس الجميل، وقد احمر وجه الزوج من الغضب ووجه الزوجة من المعاناة، كان السيد ريس يمسك معصم زوجته، فأدرك تشيلتون أن تلك القبضة المؤلمة ستترك علامةً على يدها.

قال تشيلتون: «اسمعني الآن، وأفلت يدها»، كان صوته ضعيفاً وهادئاً كما لو أنه يتحدث إلى كلب هائج بينما يخطو إلى الخلف، ولكنه لم يكن يتراجع أمام الثنائي، بل اقترب منهما.

قال السيد ريس: «هذا ليس من شأنك يا سيدي، أقترح عليك أن تعود إلى غرفتك».

أجاب تشيلتون: «يا إلهي، إنها زوجتك، ومن غير اللائق أن تعاملها بهذه الطريقة».

أفلتت السيدة ريس يدها من قبضة زوجها، ووضعتها على صدرها، وقد حاول الأخير إمساكها مجدداً قبل أن يخطو تشيلتون خطوةً إضافيةً نحوه.

قال تشيلتون بصوت ثابت: «لماذا لا أرافق السيدة ريس إلى المطبخ من أجل تحتسي كوباً من الشاي، في الوقت الذي تبقي فيه هنا ريثما تهدأ قبل أن توقظ نزلاء الفندق كلهم؟».

في تلك الأثناء، تفحّص الزوج تشيلتون، ولاحظ أنه يرتدي ملابسه كاملةً بما في ذلك معطفه، في حين كان وزوجته يرتديان ملابس النوم، وهذا ما بدا له غريباً في مثل هذه الساعة.

مسّدت السيدة ريس شعرها، ودفعت به إلى الخلف في حركة واحدة

رشيقة وقالت: «حسناً جداً، لا مشكلة في فنجان من الشاي، شكراً لك يا سيد تشيلتون».

عندما وعدها تشيلتون أن تحتسي الشاي، غاب عن باله أن موظفي الفندق لا يزالون نياماً، لذلك توجّه وإياها إلى غرفة الاستقبال قبالة الردهة الأمامية، شعر بتوتره، وفكر كيف يمكن لشخص متوتر أن يهدّئ شخصاً آخر؟ دخلت السيدة الشابة إلى الغرفة مسبلة ذراعيها، بينما مد يده إلى جيب معطفه الداخلي، كي يخرج سيجارةً ويشعلها، فقربت السيدة ريس رأسها إليه، وكأنها نسيت وجوده. وقف تشيلتون عارضاً عليها علبة سجائره، فأخذت واحدةً، عندها أعاد العلبة إلى جيبه، وأشعل السيجارة من أجلها. دائماً ما يجد نفسه في لحظات حميمية؛ لاحظ تشيلتون غياب العلامة التي خشي وجودها على معصمها الذي بدا ناعماً وسليماً، ولاحظ أيضاً أن شعرها الأشقر اللامع الحريري الذي يبلغ كتفيها كان أشعث إثر النوم. إنها واحدة من النساء اللواتي يجهلن أنهن أكثر جمالاً من دون مساحيق التجميل، مثل أغاثا كريستي، فارتسمت ابتسامة عفوية على شفتيه عندما فكّر فيها.

سحبت السيدة ريس نفساً شرهاً من سيجارتها، ونفخت سحابةً من الدخان إلى جانبها حيث بدت خبيرةً في التدخين.

قال تشيلتون: «لعله من الأفضل أن أسكب لك كأساً من البراندي، لقد رأيت أين تضع السيدة ليش زجاجةً خلف مكتب الاستقبال، ولكنني لست واثقاً من جودتها».

اتجهت السيدة ريس إلى الأريكة، وارتمت عليها قائلةً: «يبدو ذلك رائعاً، ربما سأصبح من الناس الذين يشعلون سيجارة ويحتسون الشراب قبل شروق الشمس، هل ترى ما جنيته من الزواج يا سيد تشيلتون؟».

أجابها: «أخشى أنك تزوجت من شخص همجي».

أطبقت على أسنانها، وقالت محدقةً إلى نقطة خلفه: «أخشى أنني فعلت ذلك، وأنا عالقة معه الآن، لأن عائلتي ترفض الطلاق بشكل نهائي، لأنهم لا يرغبون بإثارة فضيحة من هذا النوع».

قال تشيلتون: «هل كنت تعلمين أنه على هذه الحال قبل الزواج ؟».

سحبت السيدة ريس نفساً عميقاً آخر من سيجارتها وقالت: «كانت لديّ شكوك».

قال تشيلتون: «إذاً، هل يمكنني أن أسأل سبب إقدامك على الزواج منه؟».

أجابته: «لا، لا يمكنك يا سيد تشيلتون».

قال: «حسناً، لعلك تستطيعين مساعدتي في أمر آخر، حيث ينتابني الفضول حول ذلك اليوم في غرفة الطعام وما أصاب السيد مارستون المسكين؛ كان تصرفك بطولياً حينها».

أجابت السيدة ريس: «لا، على الإطلاق».

سأل تشيلتون: «أتساءل إن تحدثت إلى أحدهما قبل كل تلك... الأحداث المؤسفة».

أطفأت سيجارتها بانفعال في منفضة السجائر البورسلانية الموضوعة على طاولة القهوة وقالت: «في الحقيقة لم أفعل، فقد كنت منهمكة بمشاكلي... أشكرك على اهتمامك يا سيد تشيلتون، ولكنني جاهزة كي أواجه العواقب، إذ إنّ الحياة ليست قصة خيالية، وأعتقد أن الحرب قد علمتكم أنتم كبار السن ذلك».

خرجت من الغرفة رافعةً رأسها، وكأنها راقصة وليس ممرضة، وسحب تشيلتون نفساً من سيجارته كي يجدها احترقت حتى طرفي أصبعيه، فأيقظه ما شعر به من ألم بسبب الحرق بشكل تام، كما لو أنه استمتع بليلة كاملة من النوم الهانئ.

بـدأت أغاثـا تفكّـر فـي الأمر بين جـدران القصر الخالد، إذ جلسـت في الطابق السفلي إلى طاولة الخدم الطويلة في المطبخ، واستبعدت فكرة العودة إلى سونينغديل. امتلك هذا المنزل طاقةً جميلةً على عكس الستايلز، أو لعلها جلبـت هـذه الطاقـة معها، إضافةً إلى الطاقة الجميلة المفاجئة التي تفيض من فينبـار منـذ مغادرتهما الحماسـية مـن نيولاندس كورنر تاركَين المسـؤوليات خلفهما، كان يفترض بها أن تقلق بشـأن تيدي، ولكنها تناسـت الأمر، حيث سـترعاها هونوريـا جيـداً، كمـا أنها لم تقلق بشـأن أرتشـي، واعترفت أن قلقه عليها أسعدها قليلاً.

لقد تلاشت بعض العناصر في هذا العالم، وكانت تكتب كما اعتادت من أجل تسلية نفسها من دون أن تهتم لمَ يُفكر به القراء أو الوكلاء أو المحررين، بالطريقة نفسها التي كانت تتخيل فيها القصص في طفولتها وتختلق شخصيات وهي تلعب حول شـجرة الأروكاريا في أنشـفيلد؛ تشـبه كتابة الروايات العيش في عالم آخر، وقد كانت في أمسّ الحاجة إلى ذلك العالم.

ارتدت في الأيام الماضية ملابس رجاليةً، تعود لسكان المنزل الأصليين، إضافةً إلى معطف الآنسة أوليفر الرث والذي يمنح الدفء في الوقت نفسه، وهـذا مـا أبعـد عنهـا سِـمة الغـرور، لكنها لا تـزال تضع طوق اللؤلـؤ؛ الذي أعطتهـا إيـاه والدتهـا، وقـد وضعـت خاتم اللؤلؤ في الجـزء الخلفي من درج فارغ في غرفة الخدم التي اختبأت فيها. صباح اليوم، حدقت إلى نفسـها في المرآة، ورأت شـعرها المتسـخ والملابس الرجالية التي ارتدها، وفكّرت في أنها تسـتطيع المشـي قرب أي من معارفها من دون أن يتعرفوا إليها عدا من يعرفونها جيداً، ولكن من هم الذين يعرفونها حق المعرفة؟ عجزت عن ذكر شخص واحد منهم، ولا حتى هونوريا التي تفهمها جيداً؛ فهي رفيقة مدفوعة الأجر في نظر أغاثا، أو الذين يسهل التعامل معهم مثل الشاب الإيرلندي الذي أخفاها بعيداً عن الأنظار.

استطاعت أغاثا سماع صوت فينبار عندما راودته الكوابيس حتى في هذا المنزل الكبير، إذ اعتادت أن تنهض من سريرها كل ليلة منذ هروبهما وحتى ظهور نان كي تضع يديها على كتفيه وتقول: «استيقظ يا عزيزي فينبار»، فيفتح الأخير عينيه مباشرةً، ويحتضنها، ويتنفس الصعداء ممتناً؛ لقد حدث ذلك مرتين، وصُدِمت في بعض الأحيان من اندفاعها نحوه بخلافه، وقد رفضت تصديق فكرة التقمص، ولكن إن آمنت بها، فستعتقد أنها وفينبار عرفا بعضهما في الحياة السابقة، فهما يشكلان ثنائياً لا يتفق من الناحية النظرية ولكنه موجود عملياً، وهذا ما جعلها تفكر في الدرك الذي بلغه زوجها والذي أصبح معيارها عن كل الرجال، وعكست طريقة نظره إليها نظرتهم جميعاً، على عكس فينبار الذي مثل نوعاً مختلفاً تماماً من الذكور، وإن وجد شبه غريب وطبيعي تماماً بينهما، فهذا يعني إمكانية وجود شبه آخر.

ستكره والدتها فكرة زواجها من محقق شرطة، ولكنها متوفية وما عاد بوسعها أن تعترض، أليس كذلك؟ وجدت أغاثا نفسها تضحك في أعقاب ذكرى وفاة والدتها، إذ كان ذلك مرعباً ومريحاً في الوقت نفسه.

سألتُها: «ما الذي يضحكك؟».

كنت واقفةً عند المدخل وقد احمر وجهي من ممارسة الحب فضلاً عن شعري الأشعث، ورفعت ذقني وكأنني أتحداها، ولكن وجدت أن رؤيتها لي لم تؤثر فيها، فهي لم تكن تحسدني أو تنوي إيذائي أو تعتبر وجودي نوعاً من التطفل، بل مجرد شيء عابر، ولذلك أستطيع الانضمام إليها طالما سألتزم الصمت، وقد بدا أنها نسيت مسبقاً المهمة التي أوصى بها فينبار.

قالت: «مرحباً يا نان».

قلت: «مرحباً سيدة كريستي».

لم أشعر بالتفاؤل تجاهها كما شعرت هي تجاهي، بل أغضبتني رؤيتها

جالسةً إلى طاولة الخدم رغم أنها ترعرعت في منازل فسيحة تملك أسماء، وامتلاكها شقةً من خمس غرف وخادمة، وحياةً حيث تحقق كل ما ترغب به من العمل في الكتابة، والزواج، وطفلة. لقد بدت الرغبة بالنسبة إليها معادلة للامتلاك، فضلاً عن كون فكرتها عن الضائقة المالية هي الحصول على مئة جنيه في العام مقابل لا شيء؛ لقد قاسى مئة شخص آخر مشقةً متعبةً من أجل الحصول على امرأة مثلها.

قالت بصوت مبتهج عجزت عن تفسير مصدره: «هيا، هلّا ناديتني أغاثا؟ أنا متأكدة أننا نستطيع الاستغناء عن الشكليات حيث إننا هاربتان».

أجبتها: «أنا لست هاربةً، بل في عطلة».

قالت: «إنها عطلة استثنائية، أتساءل عن رأي أرتشي عنها».

التزمتُ الصمت.

قالت: «لقد عرفت أنك لا تحبينه».

جلست إلى الطاولة.

نهضت أغاثا كي تحضر فنجاناً، وسكبت لي الشاي وقالت: «أخشى أنه لا يوجد حليب هنا».

قلت: «أفترض أن أرتشي لا يملك الحق في قول أي شيء عن هذا الأمر بعد».

أجابتني: «هذا صحيح»، كان بمقدورها أن تخبرني عن ليلتها الأخيرة مع أرتشي، ولكنها لم تفعل، إذ كان ذلك لقاءنا الأول بعد انكشاف مخططاتي، وأعتقد أنها أحبت امتلاك مخططها الخاص، وتوقعتُ أنها ستطالبني بالابتعاد عن أرتشي، ولكنها جلست، واكتفت بمراقبتي وأنا أحتسي الشاي.

سألتها: «ما المؤن الموجودة هنا، هل ستكفي طويلاً؟».

أجابت أغاثا: «توجد بعض الأطعمة المعلبة كالفاكهة، ولحم البقر، والسردين، إضافةً إلى بعض الأسماك المدخنة، والكثير من النبيذ إن كان

ذلك ما تبحثين عنه، سبق لفينبار أن خرج بحثاً عن الطعام الطازج في البلدة وأحضـر التفـاح والجبنـة؛ إننـا نملك ما يكفي لفترة طويلـة، ولكنه بالطبع لن يكفينا إلى الأبد، كما أننا لا نعلم متى سيعود أصحاب المنزل إليه».

قلت: «يبدو أنهم سيطيلون الغياب، أليس كذلك؟».

أجابتني: «أجل، ولكن لا يمكننا توقع تصرفات الآخرين».

قلت: «جزء مني يدعوني للصعود إلى الطابق العلوي والامتناع عن الطعام أو الشراب إلى الأبد وأتحول إلى هيكل عظمي بين ذراعيه».

قالـت: «هـل تقصديـن مثل إلفاريا ماديغان وسيكسـتين سـبير؟ إنها قصة مروعة، ولو اسـتطعنا الحديث إلى شـبحيهما، فسـيخبرانا أن الأمر لا يستحق ذلك؛ إنني أتجنب التعمق في القصص الرومانسية، وخاصةً المأساوية منها».

أجبتهـا: «وأنـا أيضـاً»، لقد كذبت في ذلك، سـتفضحها تعابير وجهها في حال أسـعدَتها فكرة كوني ميتةً بين ذراعي فينبار أو في أي مكان آخر ممهدةً الطريق من أجل عودتها إلى زوجها.

قالت أغاثا: «أخبرني فينبار أنك تريدين أن تصبحي كاتبةً».

سألتها: «هل أخبرك ذلك حقاً؟ أعتقد أن ذلك كان صحيحاً في يوم من الأيام»، أهانني ذلك، وتساءلت عما أخبرها إياه أيضاً، في تلك الأثناء، دخل فينبار وهو يفيض حيوية.

قال فينبار: «صباح الخير يا أغاثا»، وكأنهما أعز الأصدقاء.

أجابـت أغاثـا: «صبـاح الخيـر يا عزيـزي فينبار»، كان صوتهـا دافئاً حقاً، وتذكرت كيف أن الجميع أحبه دائماً.

حدثـت بعـض التحولات المنزلية خلال بضع دقائق، حيث أخرج فينبار رغيف خبز من مخزن المؤن، ووجدت أغاثا بعض المرملاد وسكبت الشاي مـن أجلـه؛ لقـد كان حدثاً جديراً أن أشـهده، وجلسـت خلاله من دون تقديم المساعدة. في النهاية، وجدت الطعام أمامي.

سألتني أغاثا عندما جلسنا: «هل سمعتِ شيئاً من رَجُلِنا؟».

ألقيت نظرةً خاطفةً إلى فينبار الذي لم يبدُ عليه أنّه مستاء عندما عرف عن شخص آخر أعرفه.

أجبتها: «لم أسمع عنه شيئاً منذ عدة أيام، كما أنه يجهل مكاني».

قالت: «ها قد أصبحنا اثنتين».

قلت لها: «إنه قلق جداً عليك».

سألتني: «وكيف تعرفين ذلك، وأنت لم تتحدثي إليه؟».

أجبتها: «حسناً، هذا ما كان عليه في آخر مرة تحدثنا فيها».

قالت أغاثا: «منذ عدة أيام، كان قلقه عليّ سيسعدني، ولكن الآن وبكل صراحة لم أعد أكترث».

خفي عني تماماً أن جزءاً من تلك الابتسامة المرسومة على شفتيها يُعزى إلى القبلة التي تبادلتها وتشيلتون ليلة أمس، وكان جل ما أفكر فيه هو أرتشي المسكين الذي كانت امرأتان تتنازعانه قبل أسبوع، واختفتا معاً هذا الأسبوع.

قالت أغاثا: «يريد فينبار أن يطلعك على بعض الأخبار».

سألتها: «أحقاً؟».

قالت: «أود أن أذكرك قبل أن أبدأ أنك أكثر من آذاني خلال حياتي».

عجزت عن احتمال سماع فينبار هذا الحوار، فوضعت يدي على وجهي، ولكن أغاثا تقدمت نحوي وأبعدتهما قائلةً: «لا يفترض بك أن تجعليني أواسيك بعد كل ما اقترفته بحقي».

التفت إلى فينبار ووجدته ينظر إلى أغاثا معتمداً عليها أن تقول ما أراد قوله.

قلت: «لقد حصلت لي بعض الأمور السيئة أيضاً، فقد خسرت ما هو أكثر قيمة من زوج»، فشعرت أن نبرة صوتي حملت شيئاً من التهديد، ولكنني لم أكترث.

قالت أغاثا: «لقد أخبرني فينبار أشياء كنت أجهلها عن ماضيك، وأجزم أن أرتشي يجهلها أيضاً، أليس كذلك؟».

هل كان هذا تهديداً؟ ألقيت نظرة لوم على فينبار لأنه أطلع أغاثا على أمور لا يعرفها إلّا قلة من الناس، بعدها قالت أغاثا شيئاً أدهشني وهي تمسك بيدي: «يؤسفني ما حل بك في إيرلندا، يؤسفني جداً، لقد كان ظالماً وفظيعاً وكريهاً... لن تخبري أحداً بمكاني أليس كذلك؟».

أدركت أن هذا هو الاعتذار الأول الذي يقدم لي عن فترة إقامتي في ساندي كورنر، وعلمت – وما زلت أعلم – أنه منفصل عن سؤالها الأخير تماماً، فأجبتها: «أعدك».

مضت سنوات على الفترة التي اختفت فيها أغاثا كريستي وتناولت التخمينات حالتها الذهنية ونشاطاتها ودوافعها، من دون أن يسألني أحد عن الإجابات، إذ يحب الناس اتباع نسق معين، ولذلك غاب عن تفكيرهم أنني وأغاثا قد نصبح صديقتين في نهاية المطاف، لذلك التزمت الصمت دائماً وأبداً، كي تحميني وليس لتحمي نفسها.

في نهاية المطاف، لقد تجاوزت كل تلك الأمور، وتزوجت مجدداً من – رجل أصغر سناً منها بشكل واضح – وتخطى نجاحها أقصى حدود الخيال، وصبت الأمور في صالحها على نحو يندر أن يحدث في حياة أحدهم، ولن يحدث في حياتي أبداً.

في ذلك الوقت، جلسنا نحدق إلى بعضنا عبر الطاولة الصغيرة في ظل هسيس نار الموقد المريح، رافضتين أن نقول أكثر ما تود إحدانا أن تسمعه، وجلس فينبار بيننا يفكر في أنه يوشك أن ينجز مهمته، جاهلاً أن اسمي سيكون السيدة كريستي أيضاً رغم كل ما قيل وحدث.

هنا ترقد الأخت ماري

أحب الأب جوزيف إنكلترا، وهذا ما جعل منه في العام 1919 رجلاً إيرلندياً استثنائياً. هوجمت دورية بريطانية صغيرة في شهر تموز من ذاك العام في راثكلارين، وقاطع الأب جوزيف خطبته المعتادة ضد الشهوة كي يعلن معارضته على الملأ، وضرب على المنصة أمامه قائلاً: «نذهب إلى الحرب كي ندافع عن التاج والبلاد، ويحاول هؤلاء المغفلون أن ينفصلوا عن التاج».

بعد ظهر أحد الأيام، أخبرتني الأخت ماري كلير قائلة: «هذا مريح، أليس كذلك؟ إنهم لا يستغلون كوننا إنكليز، ففي بعض الأحيان أُفكّر في العودة إلى الوطن أو إلى مناطق إنكليزية، ولكنني أجد ذلك غير ضروري ما دام الأب جوزيف هنا، أعتقد أن كوني إنكليزيةً جعلني المفضلة لديه»، وابتسمت لنفسها أكثر من ابتسامها لي.

مشت بجواري في الوقت الذي تقدمت فيه جميع الفتيات في الممر من أجل الساعة المقدسة؛ وهو طقس يقام في الجمعة الأولى من كل شهر، فالتفتت الأخت ماري ديكلان إليّ وعبست، ولكنني كنت أتحدث إلى راهبة وليس إلى فتاة أخرى، ولذلك تابعت كلامي وأجبتُ: «أحقاً؟»، حاولت أن أجعل نبرة صوتي حيادية في الوقت الذي شحب فيه وجهي، إذ تملكني القلق حول أن تلفت أصولي الإنكليزية انتباه الأب جوزيف.

تابعت الأخت ماري كلير من دون أن تلاحظ ارتباكي قائلة: «لا يعدو جيش التحرير الإيرلندي عن كونه ظاهرة تحركها الحماسة، وسيفاجئني

استمراره شهراً آخر، في حين ستعتقدين أن أولئك الشبان قد خاضوا ما يكفي من القتال، ورأوا كثيراً من الرعب كي ينزلوه على بلادهم».

سألتها: «هل يعرف الأب جوزيف شيئاً عن أصولي الإنكليزية؟».

أجابتني: «لم أسمعه يتحدث عن الأمر أبداً».

وجب أن تبعث تلك الكلمات الراحة في نفسي، حيث شعرت أنني خفية عن أنظار الأب جوزيف، وكأن عباءةً سحريةً أبعدتني عن ناظريه، ولكنني تذكرت مذعورةً أن هذا الأمر قد يتغير.

شدت الأخت ماري كلير على يدي قبل أن ندخل الكنيسة وهي تهمهم نغماتها الغريبة المعتادة؛ لقد امتلكت صوتاً جميلاً، وقد سمعتها عندما كنت مع رفيقاتي التائبات، حيث وقفنا مدة خمس عشرة دقيقةً تقريباً وأذرعنا ممدودة إلى جوانبنا وكأننا صلبنا، وقد جعلت الأخت ماري ديكلان كل من تتحرك تعيد الكرة مجدداً، حتى بقينا ساعةً كاملةً في الكنيسة ذلك اليوم. كان تجنب القشعريرة صعباً عند التفكير في حب القس لإنكلترا. شعرت بيدي طفلتي الصغيرتين تضغطان على جدار رحمي، وكنت ممتنةً لأنها لم ترَ العالم بعد.

يوم الثلاثاء، وصلت فتاة جديدة إلى الدير، وهربت يوم الجمعة من دون أن يعرف أحد كيف استطاعت ذلك، إذ اختفت ببساطة من دون أن تتحدث إلى أي منا. قرعت الأجراس، وذُعرت الراهبات وبعث نجاحها في الهروب وعدم عودتها الشجاعة في نفسي. في اليوم التالي، وخلال عملي في مقبرة الراهبات استرقت النظر عبر القضبان كي أتبيّن الطريق الذي سلكته تلك الفتاة، ورأيت من وراء السور الذي يحيط بالمقبرة مدخل الدير وبوابته الحديدية المزخرفة التي تنفتح من أجل إدخال الزوار، ولاحظت بين الأعشاب المتطاولة أن أحد القضبان كان متآكلاً فأتاح مسافة، ولكنني ما كنت أستطيع المرور عبرها بسبب

حملي؛ ولكن، سأنجب طفلتي عاجلاً أم آجلاً. اقتلعت الفتاتان إلى جواري الأعشاب الضارة، ونظفتا الأشنة عن شواهد القبور بصمت وطاعة، انحنيت وأعدت القضيب المعدني إلى مكانه حتى لا يتمكن من رؤية الثغرة إلا مَن تفحصها عن قرب.

بعد ظهر ذلك اليوم، جلست الأخت ماري كلير بجواري خلال عملي في غرفة الخياطة على ترميم البذلات القديمة برفقة مجموعة من الفتيات، أما الماهرات منا في الخياطة فقد عملن على حياكة معاطف صوفية من أجل الأطفال كي تبقيهم دافئين. دعوت ألا تحتاج طفلتي إلى واحدة منها أبداً، إذ سأخرج من هنا قبل أن تفكر الراهبات في إلباسها إياه، إذ سأحصل على الملابس التي تحتاجها من أي مكان سوى هنا.

جلست الأخت ماري كلير مثلنا على إحدى الكراسي عديمة الظهر، وربتت على ذراعي قائلة: «لا تبدين بخير يا عزيزتي نان».

وصلت راهبتان تحملان طفلين، فوضعت أمهما عدة الخياطة جانباً كي ترضعانهما.

أنجزت قطبة رخوةً، وسألت الأخت ماري كلير: «ماذا تودين أن تكوني إن لم تكوني راهبةً؟».

أجابتني: «أريد أن أكون أماً طبعاً، فالأم أكثر المخلوقات قداسةً على وجه الأرض».

تركت ما كنت أخيطه في حضني، ووضعت يدي على وجهي، وفكّرت في بيس، هل ما زالت أكثر المخلوقات قداسةً بعد وفاة طفلها؟ وقلت: «يا لبيس المسكينة!».

قالت الأخت ماري كلير: «اهدأي، اهدأي... اطمئني، لقد تزوجت بيس الآن، وستنجب طفلاً آخر وتعمّده أيضاً. تستطيع الحصول على عشرة أطفال سمينين يلعبون بسعادة قرب قدميها... تشجعي، فقد جاء حبيب بيس من

أجلها، ولعل حبيبك سيأتي أيضاً، إذ يجب أن يكون الآن قد قرأ الرسالة التي أرسلتها إليه... انظري، لقد أحضرت هديةً من أجلك».

في البداية، ناولتني منديلاً كي أنظف أنفي، ثم أخرجت قطعة خبز ساخنةً خبأتها في ملابسها، وقد وضعت عليها بعض الزبدة الطازجة وناولتني إياها، كانت تلك المرة الأولى التي أحصل فيها على رفاهية كهذه منذ أن تركت المنزل، فنظرت إلى الفتيات الأخريات كي أعتذر منهن.

توقفت عن النحيب، ومسحت الأخت ماري كلير على ظهري في دوائر لطيفة، حيث شعرت بأنها ستكون أماً جيدةً.

قالت: «هيا تناوليها، لن تحسدك صديقاتك على هديتك، أليس كذلك يا فتيات؟».

تابعن جميعهن العمل من دون أن يجرؤن على مواجهة نظراتها الخطيرة، والتي كان يفترض بي أن أراها، ولكن عجزت عن ذلك، فتناولت قليلاً من قطعة الخبز، وشعرت بذوبان الزبدة على لساني؛ كان مذاقها لذيذاً جداً إلى درجة حاجتي إلى منع نفسي عن الاستمرار في إخبار الراهبة أنها أعجبتني.

تلك الليلة، راودني حلم طاف فيه وجه الأب جوزيف المترهل فوق رأسي، وخدشتني يداه العجوزتان اللتان برزت عروقهما، وسمعت تأوهاته وشخيره.

صرخت: «لا، لا، لا»، واستيقظت جالسةً في السرير، ووضعت يدي على وجهي، وشعرت أنهما يدا شخص آخر، وأن المكان غريب تماماً. جلست فيونا إلى جواري، وربتت على ظهري من دون أن تسألني شيئاً، إذ راودتنا الأحلام ذاتها الجيدة والسيئة، ولعل هذه النقطة فقط أثبتت صحة نظرية الأب جوزيف عن تشابهنا.

همست: «أخبريني»، فأخبرتها عن عنوان منزلي في لندن، وكان صوتها ناعماً ومرحاً كصوت الجنيات.

كنا نفوقهن عدداً، فماذا لو تعاضضنا معاً، وأطلقنا ثورةً شاركت فيها مئة فتاة ضد قلة من الراهبات وقس فاسق؟ امتلكنا أشياء كي ندافع عنها أكثر من أي جندي في جيش التحرير الإيرلندي، وأمكننا قهر سجّانينا والعودة إلى العالم واستعادة طفولتنا وشبابنا.

تزوجت بيس من حبيبها الأمريكي في لندن على يد قس إنغليكاني قبل أن يسافرا عبر المحيط الأطلسي، واستقرا في فيلادلفيا. هل بكى والداها بسبب رحيلها إلى الأبد؟ أم أسعدتهما طهارتها من ذنبها وعارها؟

أصبح ذلك مدمراً بالنسبة إليها، لقد افتقدت شقيقيها وأختها الصغيرة التي ستحبها دوماً، ولكنها لن تنسى الخطايا التي ارتكبت في حقها، ولذلك لن تطأ أي كنيسة في حياتها.

في الليل كانت تتشبث بزوجها خوفاً، لكنها لم تلمه على الوصول متأخراً، لقد كانا ضحيةً واحدةً أمام خسارتهما وجميع الجرائم المرتكبة في حقهما، عدا واحدةً فقط قاستها بيس وحدها في كل يوم وليلة عاجزةً عن طرد ذكرى انتهاك القس لها، فضلاً عن ألم ذراعيها الذي لا يصيب إلا الأم التي تخسر طفلها ويرافقها هذا الألم دوماً.

عندما تكون وحدها في النهار، كانت تردد اسم طفلها رونان طوال اليوم بنغمات مختلفة تراوحت بين الحب والتوبيخ والضحك والفخر، وكأن شبحه رافقها وبقي إلى جوارها كما يفترض به أن يكون إن لم تخسره، وعكس كل المشاعر التي كانت ستعيشها بدلاً من التي عاشتها فعلاً.

الاختفاء

اليوم السابع

الجمعة، 10 كانون الأول، 1926

صباح الجمعة، أمطرت السماء في سونينغيديل، مع أن الطقس أصبح دافئاً، فوقفت تيدي أمام نافذة غرفتها حاملةً أرنباً محشواً أعطتها إياه أغاثا قبل أن تسافر برفقة أرتشي حول العالم، وقد أطلقت عليه اسم توتشستون، وأخبرتها وهي تربط شريطاً أزرق حول رقبته قائلة: «وضعت بعضاً من حبي داخل هذا الأرنب، وبذلك ستشعرين بحبي كلما حملته، وسأعانقك عندما تعانقينه».

أصرت تيدي وقالت: «إن توتشستون أنثى وليست ذكراً»، إذ أحبت السيدات أكثر من الرجال، فهن من اعتنين بها دوماً، ولذلك اعتبرت كل لعبة تحمل وجهاً أنها أنثى، حتى كلبها الخشبي المنحوت.

ملأ الناس شوارع سونينغيديل رغم الأمطار، وراقبت تيدي قطرات المطر وهي تضرب زجاج نافذتها، أما الناس الذين انتشروا في الأرجاء مرتدين معاطفهم الواقية من المطر فلم يثيروا اهتمامها؛ لقد اعتادت إحداث جلبة حول الأشياء التي لا تعنيها؛ ثم وضعت توتشستون جانباً، وحملت كلب والدتها الذي وقف قرب قدميها كي يستطيع النظر عبر النافذة أيضاً، فنبح بيتر مرتين عندما رأى الغرباء، ثم هدأ واستسلم في حضنها. اعتادت أغاثا أن تصطحبه معها عندما تسافر، ولكن تيدي شعرت بالسعادة لبقائه هذه المرة في المنزل؛ حيث وجدت متعةً في الاستحواذ عليه وبقائه بالقرب منها؛ ثم نبح

نباحه المضحك الخفيف عندما رأى شخصاً جديداً يسير عند مدخل المنزل.

قالت تيدي: «اهدأ، اهدأ، لا داعي كي تزعج نفسك بشأنه»، ابتعدت عن النافـذة، واسـتعدّت كي ترتدي ملابس المدرسـة، ورجحـت أن تذهب برفقة هونوريا في السيارة نظراً إلى حال الطقس.

أطلقـت الصحافـة علـى عملية البحث عن أغاثا اسـم المطاردة العظيمة، وكأننـا فـي روايـة أو فيلـم، أو حدث رياضي أو حفـل وطني، أو حتى حرب، فانتشـر رجـال الشـرطة والمواطنـون الذين أرادوا المسـاعدة في شـتى أنحاء إنكلترا من أجل تأدية واجبهم.

أخبر أرتشي تومبسون غاضباً وهو يمسك صحيفةً: «لقد أسعدني اعتبارك هذا البحث عظيماً، إذ عجزت عن إيجاد بصمة إبهام».

شـبك تومبسـون ذراعيه، وحدق إلى أرتشـي الذي دخل إلى مكتبه في مركز شـرطة باركشـير وكأنه يوبخ أحد مرؤوسـيه، وقد تمنى تومبسـون طبعاً إيجاد أغاثا حية، ولكن احتمال ذلك تضاءل مع مرور كل يوم، إذ يظهر الناس الأحياء سريعاً على عكس الموتى، وخاصةً إن بذل القاتل جهداً كي يخفيهم.

تابع أرتشي: «تستطيعون إيجاد النساء المتوفيات جميعهن، باستثناء تلك التي تبحثون عنها»، فقد عثروا على جثة وحيدة تعود إلى الآنسة أنابيل أوليفر المسكينة.

حاول تومبسون رفع حاجبه، ولكنه عجز عن ذلك، إذ كانت واحدةً من إيماءات أرتشي الخاصة، وقد انزعج تومبسون عندما وجد نفسه يحاول تقليده.

سأله تومبسون: «هل نبحث عن سيدة متوفاة حقاً؟»، وأراد عن طريق نبرة صوته تذكير أرتشي بمنزلة كل منهما، ومقدار معرفته.

أجاب أرتشي: «لا، إنها على قيد الحياة، أنا أعلم ذلك».

قال تومبسون: «أصبت في عجزنا عن إيجاد النساء. هل تعلم من جعلنا

نفشل في تحديد مكانها أيضاً؟ إنها الآنسة نان أوديا، والتي تبيّن غيابها عن مكان عملها وشقتها»، أخفى تومبسون عن أرتشي حقيقة أنه ليس قلقاً بشأن سلامتها؛ لقد قصد أحد رجال الشرطة شركة إمبيرال بريتش ربر وعلم أنني اتصلت هاتفياً كي أخبرهم أن عطلتي ستطول بضعة أيام أكثر من المتوقع.

وجد تومبسون أن تأجيل التحقيق معي حتى تأكيد وقوع جريمة القتل مناسب جداً.

قال أرتشي: «لا ضرورة لإقحام نان في الأمر أبداً، فهي آخر شخص قد يعرف مكان أغاثا».

سأل تومبسون: «ومن تعتقد أنه الأول؟».

اعتلت نظرة حزينة شاحبة وجه أرتشي، وأحبطت دموعه تومبسون الذي رفض إبداء أي تعاطف معه رغم أن لا علاقة له باختفاء زوجته، إذ أدلى أرتشي بتصريح سيئ إلى ديلي ميل أصر فيه على استحالة إيذاء زوجته نفسها، وأضاف أنها ستلجأ إلى السموم لو أقدمت على ذلك. عجز أرتشي عن تحرير نفسه، إذ كان مثل جميع الناس الذين اعتقدوا أنهم أعلى من التوبيخ قولاً أو فعلاً، فضلاً عن الأثر الواضح الذي تركه في العالم، واستمتع تومبسون في تخيل انهيار أرتشي مثل جميع الناس ذوي السلطة والذين يجدون أنفسهم مرؤوسين من أمثال أرتشي في هذا العالم. لقد رفض تومبسون أن يبدي أي نوع من التعاطف معه، إذ استبعد تماماً أن سبب دموع أرتشي عذابه الحقيقي الذي يعجز عن السيطرة عليه.

قاد أرتشي سيارته إلى منزل والدته وهو يرتجف تحت المطر، إذ ترك معطفه في المنزل على غير عادته، وقد انهمرت دموعه أمام رجل تجنب الخجل أو الإحراج وطرح عليه ذلك السؤال المزعج المغضب كي يفرض سيطرته: «أين هي؟».

ندم على المقابلة التي أجراها مع ميل، وأقسم إنه سيتجنب الصحافة بعدها كي يحمي نفسه وليس أغاثا، ولكنه كان تحت مراقبة الشرطة أصلاً؛ لقد شعر بالخجل. تناقل بعض رجال الشرطة شائعة مفادها أن الأمر ليس إلا حيلةً دعائية، لقد كانت تلك الفكرة سخيفةً تماماً، إذ يستحيل أن تقدم زوجته على شيء كهذا، وإن كانت على قيد الحياة، ألم تقرأ مقالات الصحف المحلية والأجنبية التي ذكرت اسمها في شتى أنحاء العالم؟ لعلها خائفة الآن، وستهاتف أرتشي فور رؤيتها أحد العناوين الذي فضح عمرها أو تسلم نفسها إلى الشرطة، وربما تستقل ببساطة قطاراً وتعود إلى المنزل. لقد أثار مكان وجودها قلق أرتشي، فأين يقع هذا المخبأ الذي عزلت نفسها فيه عن أية أخبار؟ فعجز أرتشي عن التفكير في أي شيء سوى موتها.

وصلت دوروثي سايرس التي عدت نفسها روائيةً ووسيطةً روحيةً إلى سايلنت بول، وادعت إحساسها غياب أغاثا من المنطقة، وذلك ما يمكن اعتباره حيلةً دعائيةً: لقد كانت امرأةً شنيعةً حاولت استغلال مشكلة أغاثا كي تبيع نسخاً أكثر من رواياتها البوليسية، واتصل السير آرثر كونان دويل كي ينقل خبراً سيئاً إلى أرتشي مفاده أنه استشار وسيطاً أكد أن أغاثا فارقت عالمنا الفاني، وقال دويل أيضاً: «نحن نسعى إلى رسالة مباشرة منها»، أنهى أرتشي الاتصال من دون أن ينطق بأي كلمة؛ لقد كانت فكرة الحديث إلى الأرواح غير منطقية تماماً، ناهيك عن قدرتها على معرفة ما عجز مئات الرجال عن اكتشافه.

عندما وصل أرتشي إلى منزل والدته أوقف عمل محرك السيارة، وأسند خده إلى زجاج نافذة السائق، وأغمض عينيه محاولاً أن يستشعر إن كانت أغاثا قد غادرت هذا العالم حقاً. هل يستطيع الرجل أن يعيش مع امرأة لسنوات عديدة، وينام إلى جوارها لياليَ كثيرةً ولا يشعر إن فارقت الحياة؟ لقد نسي أمر انفصالهما جسدياً وعاطفياً، أو وجود كلمة الطلاق في اللغة الإنكليزية.

فكّر أرتشي: «إنها على قيد الحياة، أنا أعلم ذلك».

كانت أغاثا لطيفةً، وذكيةً، وخجولةً، وخلوقة، كما أنها كانت تراعي مشاعر الآخرين، فهي كانت ستشعر بالهلع إن علمت بمقدار الجلبة التي يثيرها اختفاؤها، أضف إلى ذلك أنه من غير المحتمل أن تكون على قيد الحياة ولا تقرأ الصحف، أو تقرأها ولا تسرع بالعودة إلى المنزل.

لكنها على قيد الحياة، ويجب أن تكون كذلك.

* * *

قالت بيغ هيلمسلي: «لطالما رفضتُ أن تتزوج من هذه المرأة، أليس كذلك؟».

رفعت والدته بعد هذا الاستخفاف الكبير عكازها ذا المقبض الفضي، وصوبته ناحية أرتشي كالسيف؛ لقد رفضت بيغ هذا الزواج منذ سنوات عندما جاءها أرتشي وأخبرها أنه يريد أن يخطبها، وكان الأخير حينها مجرد تابع ولم يتوقع فلساً واحداً منها، كما انتقدت ياقة بيتر بان التي ارتدتها أغاثا وأظهرت عنقها[1]، إذ انحدرت بيغ من عائلة إيرلندية كاثوليكية صارمة وكانت واحدةً من اثني عشر طفلاً، أما أغاثا فكانت عارية العنق وتغني في فرقة موسيقية أيضاً، ولهذا، غرقت بيغ في دموعها عندما تزوجا ولازمت السرير بضعة أيام.

قال أرتشي: «لا تستطيعين لوم أغاثا في ما حصل»، رغم أنه لامها بعض الشيء، وتمنى لو أنها وظفت رباطة جأشها في التعامل مع خيانته كما تعلمت منذ الصغر، عندها كل ما كان عليه التعامل معه هو والدته ورد فعل أغاثا العنيف الحتمي بعد اكتشافها أمر نان.

أنزلت بيغ عكازها، وقد جلست وحدها مع أرتشي بعد خروج زوجها الثاني، ويليام، في نزهة سيراً على قدميه، ولذلك كان الوقت مثالياً من أجل

(1) ياقة بيتر بان عبارة عن شكل تطوى فيه الياقة وتعود إلى الممثلة مود آدامز التي ارتدتها خلال تمثيل دور بيتر بان.

الاعتراف، فاقتربت من ابنها، وأمسكت طية صدر سترته وقالت: «أخبرني يا أرتشي، هل أسأت التصرف؟».

تراجع أرتشي سريعاً وسحب معه المرأة العجوز إلى الأمام وأفقدها توازنها ثم قال: «يا إلهي، بالطبع لا يا أمي»، ثم أمسكها من مرفقيها وساعدها على الجلوس على الكرسي.

قالت بيغ وضربت الأرض بعكازها: «يفترض بي أن أطلب من ويليام التوقف عن إحضار الصحف، إذ قد يصاب المرء بسكتة دماغية عندما يقرأ ما تكتبه عن عائلته، أليس كذلك؟ إن الأمر مهين، وسأصبّ جام غضبي على أغاثا عندما أراها إن كانت لا تزال على قيد الحياة».

جلس أرتشي على الأريكة مقابل والدته، وكان سيومئ موافقاً لو لا أزعجه جداً شكها في أنه قتل زوجته، لقد كانت إجابته: «طبعاً لا»، غير دقيقة تماماً، إذ ارتكب شيئاً سيئاً في حق أغاثا، والذي دفعها بدوره إلى الاختفاء، وتذكر العلامات على معصميها وقسوته عليهما، وبذلك، بقي شيء واحد لم يقدم على فعله، ألا وهو قتلها.

* * *

في المساء، عندما عاد إلى منزله، دخن أرتشي غليونه واحتسى كأس ويسكي تلو الأخرى، ثم صعد إلى غرفة تيدي في الطابق العلوي حيث كانت تغطّ في نوم عميق مريح؛ كانت تلك المرة الأولى التي يراها فيها اليوم، وربما المرة الأولى منذ عدة أيام، إذ قضى كلاهما وقته في جزء مختلف من المنزل، ولم تكن رعايتها من مسؤولية أرتشي، فجلس على سريرها قرب بيتر الذي استلقى إلى جوارها، وأراد أن يمسح على جبهتها ولكن خشي إيقاظها، لذلك احتضن الأرنب المخملي المحشو الذي أعطتها إياه أغاثا وبكى.

استلقت تيدي في سريرها مغمضةً عينيها كي يعتقد أرتشي أنها نائمة، إذ أزعجها وجوده قربها، فضلاً عن بكائه؛ فلا يجدر بالآباء أن يبكوا؛ لم تكن خائفة منه، إذ لا تخشى تيدي أحداً، كما جهلت تماماً ما يمكن أن يكونه

الرجال نظرا إلى الحياة التي منحها إياها أرتشي وأغاثا.

في صباح ذلك اليوم، أمطرت السماء في هاروغيت أيضاً، وتساقطت قطرات المطر على نوافذ المنزل الأبدي، فصعدت الدرج بعد الفطور أنا وفينبار وأغاثا، وتابعت أغاثا إلى الطابق العلوي كي تتابع الكتابة. أردت العودة إلى غرفة النوم ولكن فينبار هز رأسه وقال: «سيقلقون عليك في الفندق، ولذلك يفضل عدم لفت الأنظار كثيراً، إلا إذا كنت ستغادرين إنكلترا اليوم برفقتي».

أجبته: «هذا ما أود فعله طبعاً»، وعكس صوتي النقيض تماماً.

قاد فينبار سيارة الآنسة أوليفر – البنتلي – وأوصلني إلى الفندق، وأثبتت السيدة ليش لاحقاً صحة كلامه إذ قالت: «ها أنت ذا يا سيدة أوديا، لقد أوشكنا على إرسال الكلاب في أثرك».

أجبتها: «أنا آسفة على ذلك، ولكنني أحببت التنزه في هذا الريف الجميل».

قالت السيدة ليش: «في هذا الطقس؟ هذا خطير عليك. لماذا لا تحجزين جلسة تدليك يا سيدة أوديا؟».

وعدتها أن أفعل ذلك في وقت لاحق، فأرسلتني إلى غرفة الطعام، لقد فات موعد الفطور ولكنني وجدت الشاي والكعك على الطاولات، فجلست مع أنني لم أكن جائعة وحدقت خارج النوافذ الطويلة؛ لقد احتل فينبار جسدي كاملاً، ثم ارتشفت بعض الشاي الذي برد قليلاً.

سألني أحدهم: «هل أستطيع الانضمام إليك يا سيدة أوديا؟».

التفتت فوجدت تشيلتون، كان وسيماً بغض النظر عن أناقته، ومبهم الملامح؛ لقد عجزت عن سماع خطواته وهو يدخل، إنه يشبه الشبح أكثر منه رجلاً.

قلت: «أخبرني أنك لست من المتصيدين[1]».

جلس رغم أنني لم أوافق بعد وقال: «لست كذلك أبداً. أخبرتني السيدة

(1) أشخاص يتجولون في المكان ويدرسونه من أجل سرقته لاحقاً.

ليش أنك لم تنامي هنا الليلة».

قلت: «هل أخبرتك ذلك؟ ما كان يجدر بها ذلك».

قال تشيلتون: «لقد تملكها القلق عليك، واتضح أنني خبير في مجال السيدات المفقودات».

استخدم تشيلتون ذلك الأسلوب في الكلام الذي يجعل ما يقوله يبدو عميقاً وليس مجرد كلمات عادية، وقد انعكس جماله الداخلي وضميره الصاحي على ملامحه. توقعت أنني سأقع في حبه في اللحظة التي يضع فيها الاصفاد في يديّ، وربما بعد ذلك. لم يكن تشيلتون من نوعية الرجال التي يمكنك أن تلومهم، فقد قاسى مرارة العالم مثل بقيتنا، ويبذل قصارى جهده من أجل التغلب على ذلك. لقد كان مسالماً تماماً نسبةً إلي، إذ لم أخف عندما قال: «لقد ذهبت إلى محقق الوفيات».

سألته: «أحقاً؟».

أجاب: «أجل، لم أحصل على فرصة مناسبة من أجل لقاء الزوجين مارستون المسكينين، ماذا عنك؟».

أجبته: «لا، ما حدث مخيف، وأراهن أنك تسمع قصصاً مشابهةً دوماً عن وفاة أحد الزوجين ثم الآخر بعد فترة وجيزة. أستميحك عذراً يا سيد تشيلتون، أعتقد أنني أود الاستلقاء قليلاً».

وقفت، ودفعت الكرسي إلى الخلف بعنف فأصدرت صوتاً قوياً من احتكاكها بالأرض.

انتابني صداع شديد بدأ من خلف صدغي والذي لا يساعد قليل من النوم على التخلص منه.

قلت: «عمت مساءً يا سيد تشيلتون... أقصد صباحاً».

* * *

تأملني تشيلتون وأنا أغادر، وأشعل سيجارةً، وأخذ الكعكة التي تركتها

وتناول بعضاً منها محبطاً نوعاً ما لأنني لم أعلم بوجوده في المنزل ليلة أمس. هل اعتقد أنني وأغاثا ستتحدث عن تلك القبلة مثل المراهقات.

توقف هطول المطر؛ مسح تشيلتون شفتيه ووقف كي يغادر غرفة الطعام، وفكر في النوم قليلاً، ولكنه أعرض عن ذلك، واتجه إلى مكتبة هاروغيت الصغيرة المريحة، والتي أشرفت عليها أمينتها ذات الشعر الأبيض التي رحبت بقدومه، فسألها عن أي روايات من تأليف أغاثا كريستي.

أجابت الآنسة برنارد: «لقد أعيرت جميعها، إذ سُلِّطت الأضواء على هذه السيدة بعد اختفائها المأساوي»، وحملت الصحيفة اليومية وأرته صورة أغاثا، ثم أرشدته إلى طاولة كدست عليها مجموعة من الروايات الجديدة، فألقى تشيلتون نظرةً عليها لعله يجد شيئاً يعجبني أكثر من رواية ويلي التي رآني آخذها من الرفوف في بيليفورت، والتي استطاع معرفة أنني اخترتها من دون حماسة، واعتقد أن ذلك سيدفعه إلى تكوين صداقة معي رغم مقاومتي. في النهاية استقر رأيه على كتاب الملعقة الفضية، وهو الإصدار الأحدث من سلسلة فورسيت سيغا التي كتبها جون غالسورثي، ثم وضع الرواية تحت ذراعه السليمة، ووقعت عيناه في اللحظة ذاتها على امرأة تجلس إلى طاولة في الغرفة المجاورة وأمامها كدسة من الكتب وقد صبت تركيزها على الكتاب الذي بين يديها: كانت السيدة أغاثا كريستي، وقد ارتدت ملابسها من التنورة والجورب، وبدت أسوأ من الملابس الرجالية بسبب تجعدها وتلوثها بالطين، وهذا ما جعلها ملفتة للنظر كما لو أنها ترتدي ملابس زوجها.

دخل تشيلتون سريعاً إلى الغرفة، واستغرقت أغاثا بعض الوقت كي تنفصل عن كتابها وتنظر إليه قائلة: «لماذا يا سيد تشيلتون؟»، بدا احمرار خديها جميلاً، وقد لمستهما وكأن دفء وجهها قد فاجأها، وخفضت يدها سريعاً وقد أحرجها أكثر كون مشاعرها بارزةً إلى ذلك الحد.

أجاب تشيلتون: «ناديني فرانك من فضلك».

وقف الاثنان وبدا أنهما متفقان على الصمت؛ لقد ارتدت أغاثا معطفاً صوفياً طويلاً، ولكنه بدا قصيراً وواسعاً جداً نظراً إلى أن قياسه لا يناسبها، وساعدها تشيلتون في حمل كدسة الكتب وذهبا إلى المكتبة معاً، وفاجأه أنها أطلقت على نفسها اسم السيدة أوديا.

نظرت الآنسة برنارد إليها وابتسمت، ثم تغيرت ملامحها فجأةً وقالت: «يا إلهي، أنت تشبهين تلك الكاتبة المشهورة التي يسعى المحقق وراءها تماماً»، وأشارت إلى تشيلتون، بينما فتحت الصحيفة مجدداً وأرتهما صورة أغاثا.

يقع اللوم على تشيلتون في ذلك، إذ وجب أن يحذرها من كشف نفسها أمام أمينة المكتبة، وراقب أغاثا تمسك عقد اللؤلؤ خاصتها وشحب وجهها كثيراً، فوضع تشيلتون ذراعه حول كتفيها محاولاً إنقاذها وقال: «توجد بعض أوجه الشبه يا عزيزتي أليس كذلك؟ تكره زوجتي سماع أنها تشبه أحداً آخر يا آنسة برنارد، إذ تريد أن تكون النسخة الأصلية».

التفتت الآنسة برنارد إلى الصورة في ريبة، ثم إلى أغاثا، ثم أجابت وقد بدا عليها أنها لم تقتنع: «حسناً، أتمنى حقاً أن يجدوا تلك السيدة المسكينة على قيد الحياة، ولكن يبدو ذلك مستبعداً بعد مضي كل هذه الفترة؟».

قال تشيلتون: «هذا صحيح».

تركت أغاثا كدسة الكتب، واتجهت إلى الباب مباشرةً، فحملها تشيلتون إضافةً إلى كتاب غالسورثي وودّع أمينة المكتبة.

وبخ أغاثا عندما وصل إليها قائلاً: «أفترض أن ما حدث لم يزعجك، نظراً إلى مغامرتك بالمجيء إلى هنا».

أجابته: «هل رأيت العنوان؟ وصورتي؟ البحث العظيم؟ كيف سأتمكن من العودة ومواجهة العالم مجدداً؟»، وضعت يديها على وجهها، وأسندت جبهتها على صدر تشيلتون الذي لم يكن أطول منها كثيراً، فاضطرت أن تنحني كي تفعل ذلك، ورفع تشيلتون ذراعه كي يحتضنها، فتناثرت الكتب

على الأرض، واستطاع من مكانه رؤية أمينة المكتبة تراقبهما من النافذة.

قال: «أغاثا».

تراجعت، وانحنت كي تجمع الكتب عن الأرض قائلة: «هل تستطيع أن توصلني إلى المنزل الأبدي؟ فأنا أشعر أنني لست على ما يرام».

شغّل تشيلتون محرك سيارة البنتلي بينما جلست أغاثا في المقعد الأمامي بجوار السائق، وقد فاحت من معطف الآنسة أوليفر رائحة ماء الورد. افتقدت أغاثا سيارتها، إذ كانت البنتلي كبيرةً جداً على النوع الذي تفضله، وتذكرت أنها تركتها في مكان خطير، وتمنت أن تكون بخير، وأن يكون بعض الناس الطيبين – حتى إن كان أرتشي بينهم – قد دفعوها إلى الطريق، وأخذوها إلى المنزل حيث تنتمي. لقد حل انهيار اقتصادي بعد وفاة والدها في صغرها، إضافةً إلى أوقات أخرى من حياتها، ففي بداية زواجها لاح شبح المتاعب المالية في الأفق، وصدقت تحذيرات حماتها، وساءت أرقام الحسابات المالية؛ ماذا لو أخبرها أحدهم حينها أنها ستجني مالاً بنفسها يكفي كي تشتري شيئاً مثل عزيزتها موريس كولي؟ ماذا لو عجزت عن رؤيتها مجدداً؟ هل استحق الأمر التخلي عنها هكذا بالإضافة إلى كل شيء آخر مثل ابنتها تيدي كي تتجنب مواجهة أسئلة العالم كله عند عودتها؟

قالت عندما جلس تشيلتون خلف المقود: «أعجز عن تحمل العودة إلى المنزل ومواجهة العالم، ولكن يبدو أنْ لا خيار أمامي، إذ سيزيد استمرار البحث عني الأمر سوءاً. يجب أن توصلني إلى مركز الشرطة مباشرةً؛ أنهِ الأمر هنا مباشرةً فحسب».

أجاب تشيلتون: «أجد نفسي عاجزاً الآن عن فعل ذلك، ليس بعد».

لقد كُلّف عدد كبير جداً من رجال الشرطة كي يبحثوا عنها، وقد حالف الحظ واحداً لطيفاً منهم في إيجادها.

اقتربت من تشيلتون، وأمسكت يده قائلةً: «أنا أكره القصص الغرامية، إذ

يعاكسني الحظ فيها وخاصةً إن نشأت عن الحب من أول نظرة».

قال تشيلتون: «ماذا عن أكثر من نظرة؟».

ضحكت أغاثا، وأفلتت يده، ونظر إلى الأمام لدقائق، ثم قالت أغاثا: «لا تزال أمينة المكتبة تراقبنا، لذلك يفضل أن تنطلق».

* * *

صعدت إلى الطابق العلوي، كي أبدل ملابسي، وليس من أجل الاستلقاء كما أخبرت تشيلتون؛ أكدت حضوري إلى الفندق، وأثبت بقائي في هذا العالم أمام عامة الناس، وخرجت من هناك مباشرةً. كانت قد ارتفعت درجات حرارة الطقس، وأمسكت السماء ماءها؛ المشي هو الحل، فتسارعت خطواتي، وبدأت أركض عندما وصلت إلى مدخل القصر الخالد.

قابلني فينبار على المرج وقال: «انظري ماذا وجدت»، وكأنه علم أنني سأعود على الفور، وقد نصب شبكة تنس وأمسك بعض المضارب والكرات، فلعبنا جولتين وربحتهما بسهولة.

وصلت سيارة سوداء كبيرة، واندفعت عبر المدخل، فرفعت يدي أمام أشعة الشمس كي أستطيع رؤية من جاء، فوجدت تشيلتون وراء المقود، وحينها توقفت أعضائي عن العمل والهواء عن الدخول إلى رئتيّ والدم عن الخروج من قلبي، فقد انكشف مكان أغاثا. هل جاء تشيلتون كي يعتقل فينبار، وربما يعتقلنا جميعاً بتهمة التعدي على ممتلكات الغير؟ أو أسوأ من ذلك، هل سينتهي كل هذا فجأةً ونعود إلى حياتنا الطبيعية وكأن شيئاً لم يكن؟

حدث شيء خالف كل توقعاتي، إذ هتف فينبار فور خروجهما من السيارة: «هل تود اللعب يا سيد تشيلتون؟»، وملأت البهجة صوته، وكأنه يعرفه منذ زمن طويل.

أجاب تشيلتون بشكل عادي تماماً: «لقد لعبت مرةً قبل الحرب أو مرتين فقط، وأخشى أنني لم أعد صالحاً للعب الآن»، وأشار إلى يده المصابة.

قال فينبار: «نحن نستمتع فقط».

أومأ تشيلتون، والتفت إليّ، وكأنه توقع تماماً وجودي هنا وقال: «مرحباً يا آنسة أوديا»، وأكد في لفظه على كلمة آنسة.

قالـت أغاثـا: «لـم يسـبق أن أحببـت ألعاب الكرات أبـداً»، واتجهت إلى الطابق العلوي، كي تعاود ارتداء الملابس الرجالية، ووقفت وفينبار وتشيلتون على العشـب في الخارج. أردت سـؤال تشـيلتون عن الوقت الذي وجد فيه أغاثا، ولكن شـيئاً حال دون ذلك، وأعرضت عن قول شـيء خشـيةً أن تزول التعويذة التي أوصلتنا إلى هنا وكشفتنا جميعاً من دون أن تدمرنا، وقد غمرتني موجة من الحب تجاه تشيلتون لأنه عثر على أغاثا، ولأنه لا يريد أن يكشف عن مكانها في الوقت الحالي.

قلت بدلاً من طرح أي سؤال: «إن المكان ساحر هنا».

وافقني تشيلتون قائلاً: «أجل، بالتأكيد».

عادت أغاثا، واخترت تشيلتون شريكاً نظراً إلى أنني أفضلُهم في اللعب، وأحجمت عن حاجتي من أجل الفوز حينها، وتركت تشيلتون يضرب بعض الكرات التي أمكنني الوصول إليها بسهولة، كما لعبت أغاثا جيداً، رغم إنكارها قدرتهـا علـى ذلـك، فقد أجادت جميع فتيات المجتمع المخملي لعب التنس نسبياً. لعبنا نحن الأربعة، واحمرت أيدينا، وأبقانا السحر دافئين، هو ذاته الذي جمعنـا هنـا معـاً ولم يؤدِّ إلـى كارثة، وتطايرت كرات التنس البالية في الهواء، وتعالت صيحاتنا تعلن النتائج، فضلاً عن صوت ضربات المضارب.

كـم مـن الوقـت لعبنا؟ كيف يحسـب أحدهم الوقت في مكان مجرد من الزمـن؟ قفـز ذلـك الكلـب الأشـعث في وقت ما من بين الشـجيرات في آخر الطريـق، وخطـف الكـرة خلال لعبنا، وأخـذ يركض حاملاً إياها، وهنا، عدت وفينبار إلى شبابنا وطاردناه بدلاً من الاستسلام ببساطة أمام خسارتها، وركضنا في دوائر حتى تعب الكلب، وألقى الكرة أمام قدمي فينبار، فانفجرنا ضاحكين

نفرك فرو الكلب بينما يلعق ذقنينا.

أمسك فينبار الكرة ووقف قائلاً: «تمني أمنيةً».

رأى في تعابير وجهي أنني أعلم كيف تجري هذه الخدعة، إذ إن إعلانك ضمان تحقيق أمنية لا يجعلها كذلك، فترك الكرة، وتلاشت الضحكات، حيث وجدت حدوداً قاتلة أمام قوى فينبار السحرية، فالتفت إلى الأشجار إذ كنت غير مستعدة كي أواجه زوال السحر.

التفتنا حولنا فلاحظنا اختفاء أغاثا وتشيلتون.

لقد صعدا في انسجام صامت إلى الطابق العلوي، حيث استلقت أغاثا على السرير الذي تركته فوضوياً على حاله في ذلك الصباح، إذ اعتادت أن يهتم شخص آخر بأمر ترتيب السرير. أعاد تشيلتون إشعال النار، واستلقى إلى جوارها من دون أن تعترض على ذلك، إذ لا يعدو ذلك عن كونه وهماً خارج حسابات الزمن ومن دون عواقب. أدركت طبيعة المشاعر التي يجب أن تتملكها، لقد أوقدت العاطفة مجدداً بيني وبين فينبار، واستطاعت تمهيد طريقها مجدداً إلى أرتشي، ولكن شعرت بشيء مختلف منحها حريةً أكثر؛ لقد أحست أنها قد تسمح لتشيلتون أن يقبّلها، وينزع ملابسها، وقد تساعده في خلع القطع التي تحتاج أكثر من يد واحدة، وتحتضنه وتستمتع إلى أقصى حد، فإن أصبحت حاملاً فستستطيع العودة إلى أرتشي وإنجاب الطفل على أنه طفله، وسيسعده ذلك، وإن اختفى تشيلتون من حياتها، ووقع طلاقها من أرتشي، فسيحميها تاريخ زواجها من حديث الناس، إضافةً إلى الأموال التي تستطيع جنيها بنفسها؛ كانت قدرتها على النجاح في عالم الرجال واحدةً من أبرز خصائصها المرغوبة، إذ اتبعت القواعد، ولكنها استطاعت تجاوزها أيضاً.

ستصدر رواية أغاثا الجديدة في الشهر القادم، فجلست هادئةً في شقتها الجديدة رغم الذعر الذي سببته عناوين الصحف، وفكرت: «كم شخصاً

سيتعرف إلى اسمي الآن بعد رؤية رواية الأربعة الكبار وراء زجاج متجر بيع الكتب؟»، يعادل الفضول غالباً مقدار الأموال المدفوعة، إذ كان ذلك نقطةً ثانويةً من أجل التفكير فيها، أما الأولى فهي هذه المشكلة، بعيداً عن كل المخاوف الاعتيادية.

بعد فترة من الزمن، استلقى تشيلتون محدقاً إلى السقف، وكانت أغاثا عارية بين ذراعيه، وتكوم عدد من الأغطية فوقهما. قال تشيلتون: «يجب أن أطرح عليك سؤالاً، لقد أخبرتني أن الآنسة أوديا هي عشيقة زوجك».

تنهدت أغاثا وقالت: «أجل»، إذ لا يرغب أحد في إقحام الماضي أو العالم على اتساعه في لحظة كتلك.

تابع تشيلتون: «ولكن ليست هذه النقطة الوحيدة التي تربطكما معاً، أليس كذلك؟».

أجابت أغاثا بصراحة: «لا، فقد اختارت الآنسة أوديا زوجي كي تصبح عشيقته لأنها تعتقد أن ابنتي هي ابنتها»، وبذلك أخبرت تشيلتون كل شيء أطلعها عليه فينبار عن الوقت الذي قضيته في إيرلندا وما آلت إليه الأمور.

هنا ترقد الأخت ماري

وُلـدت ابنتـي الصغيـرة فـي الخامـس مـن آب عـام 1919، في مستشـفى المقاطعـة بمدينـة كورك. يقولـون إنّ الأطفال الأبكار يأتون على مهل وبقوّة، ولكن ليس في حالتي؛ بضع ساعات فقط لا غير، كانت كافية؛ حذّرتني سوزانا من أنّه لن يتم تخييط الجرح بعد ذلك – تمّ تشجيع عقوبة الفتيات أينما وجدن في الدير في سندي كورنر، حتّى في المستشفى – لكنّ القابلة التي حضّرتني كانت لطيفة وذات عينين خضراوين، ولديها نمش يذكرني بأمّي، وكولين. لا شـيء في الطريقة التي عاملتني بها يشـير إلى أنّها كانت تعرف من أين أتيت، على الرغم من أنّها كانت تعرف بالتأكيد، من شعري القصير والزيّ الرمادي، ناهيك عن اليأس الذي وصلت إليه بشأن طفلتي، وكأنّه لن يُسمَح لي بحملها مرّة أخرى.

سألتني القابلة: «حسناً، ماذا ستسمينها؟»، عندها استطعت أن أصدق أنّ أيّ اسم أختاره سيبقى ملكاً لها إلى الأبد.

همستُ: «جينيفيف»، وأنا أمرّر أصابعي على أنفها الصغير، الذي تسطّح أثنـاء معركتـه للخـروج إلى العالـم. لقد حفظنا وجه بعضنا عندما كانت ترضَع للمرة الأولى؛ الأم ستظلّ دوماً أقدسَ شيء على قيد الحياة.

همســتُ للقابلة: «هل ترسـلين لي رسـالة؟»، في الوقت نفســه، غربلتُ خياراتي، وتذكّرت رسائل الأخت ماري كلير إلى فينبار؛ أمّي، ميغس أو لويز، وزوجة عمي روزي، التي لـم تصل أبداً.

اعتلى الحزن وجه القابلة وقالت: «احملي طفلتك يا حلوة»، وعلى سبيل

قول لا، أكملت: «امنحيها كلّ ما لديكِ من حبّ».

وهكذا فعلت طيلت الأيام العشرة المجيدة التي أمضيتها في المستشفى؛ كان سرير طفلتي بجانب سريري، لكن جينيفييف لم تشغله مرّة واحدة، وبدلاً من ذلك، نمنا معاً، وعشّشت رائحة اللبأ والحليب التي تنبعث من شفتيها وهي تنفث أنفاسها الضئيلة الراضية في ذقني.

قد تعتقد أن تلك الأيام العشرة كانت فرصتي، إذ لم يكن هناك بوابة حديديّة، ولم أكن محبوسةً في الليل، ففكرت في الهروب، لكن هذه الأفكار أدّت إلى صور لي وأنا على الطريق في الظلام، ممسكةً بطفلة حديثة الولادة عاجزة، ولا أملك حتّى بنساً واحداً باسمي، كما أن شعري وملابسي يعلنان هويتي للعالم، ويتوسلان إليّ للعودة إلى الدير، أو إلى مكان ما أسوأ.

لذلك أمضيت وقتي بطاعة، ثم عدت إلى الدير، مستلقيةً على سريري في مهجع النوم في تلك الليلة الأولى، بينما كانت جينيفييف مستلقية في الغرفة أدناه حيث لا يمكنني الوصول إليها. اعتقدت أنّني كنت أعرف ما مرّت به الفتيات الأخريات عندما سمعت أطفالهنّ يبكون بينما لم يسطعن الذهاب إليهم، واعتقدت أنّني كنت أشاركهم حزنهم، لكنّني لم أكن أعرف نصف تلك المعاناة، فلو كان بإمكاني شقّ طريقي للخروج من النافذة وتصغير الجدار إلى الحضانة، لفعلت ذلك، وبدلاً من ذلك، حملت ثدييّ المتحجرَين، وقرّرت عدم إطلاق قطرة واحدة حتّى أتمكن من الوصول إليها، ولكن بعد ذلك، سمعت صرخة تأتي عبر ألواح الأرضيّة، وكنت أعرف أنّها جينيفييف، وكان الحليب ينزل من دون أن تحظى طفلتي به.

قالت لي الأخت ماري كلير في الصباح: «يا لكِ من مُرضعة جيّدة»، بينما كانت جينيفييف ترضع بارتياح يائس، ووجنتاها الصغيرتان مجوفتين بسبب

الجهد المبذول، وجهها احمرّ حزناً منذ أوّل ليلة لها بعيداً عن والدتها.

توسّلتُ إلى الراهبة قائلة: «من فضلك، ليس لديك سوى مضيفة ليليّة واحدة، ألا تحتاجين إلى مضيفة أخرى؟ ألا يمكن أن تكون أنا؟».

قالت الأخت ماري كلير بتردّد: «عادة لا تحصل الأمهات الجدد على هذه الوظيفة».

قلت لها: «رجاءً، سأعمل بجدّ، وسأكون جيّدة جدّاً. أعدكِ».

قال الأخت ماري كلير: «سوف أرى ماذا يمكنني أن أفعل».

في تلك الليلة، استلقيتُ على سريري، وكنت بحاجة ماسّة إلى النوم، ولكنّني لم أستطع سوى الاستماع إلى صرخة طفلتي، فنهضت من سريري وذهبت إلى الباب، وهززت المقبض على الرغم من سماعي لقفله بالمفتاح قبل ساعات؛ كان مقفلاً.

همست سوزانا من سريرها: «لا فائدة من ذلك».

بعد سنوات، عندما كنت حاملاً للمرة الثانية، ومتزوجة من أرتشي، كنت أنام وحولي ما لا يقلّ عن خمس وسائد، أما سوزانا فقد استلقت على جانبها والوسادة الرفيعة المخصصة لرأسها مثبتة على بطنها.

جلستُ على سريرها وفركت برفق ظهرها، معتقدة أنّها ستبعدني، لكنّها بدلاً من ذلك تنهدت بارتياح، فأغمضت عينيّ، ورأيتُ المستقبل الصعب الذي كنت أحلم به والذي أحبطته من خلال المجيء إلى إيرلندا بحثاً عن فينبار، ذلك المستقبل الذي كنت سأسرق فيه خاتم زواج جدتي وأهرب به، واستقلّ سفينة إلى أمريكا، وألد في مدينة نيويورك، أو سان فرانسيسكو، كأرملة حرب. كان بإمكاني أن أكون أيّ شخص باستثناء الفتاة التي ستضع مصيرها ومصير طفلها في أيدي الغرباء.

في الصباح رافقتني الأخت ماري ديكلان مع الأمهات المرضعات الأخريات إلى أطفالنا لإطعامهم قبل الصلاة.

عندما جلست على الكرسي مع جينيفييف، دخلت الأخت ماري كلير وقد رسمت ابتسامة انتصار على شفتيها، وقالت: «لقد فعلتُها يا نان، لقد أعطتنا الأم المشرفة إذنها؛ يمكنك أن تكوني المساعدة الليليّة، بدءاً من هذا المساء».

أمسكتُ جينيفييف بإحكام، ورمشت عيناها بإحباط، ورأيت أنّهما تغيرتا من اللون الرمادي الفولاذي لمولود جديد، إلى اللون الأزرق المذهل كعيني أبيها.

مسحتُ اللعاب عن ذقنها، وهيّأتها لترضع حتّى تشبع، قلتُ لها: «يا صغيرتي، هل سمعتِ هذا؟ سنكون بخير، سنكون معاً».

رفضتُ التوقيع على الأوراق التي دفعتها الأخت ماري ديكلان أمامي، والتي تسمح للكنيسة بوضع جينيفييف للتبني،

فوبّختني الأخت ماري ديكلان، قائلةً: «هل هذا ما تريدينه؟ أن تكبر في دار للأيتام؟ إذا كنت تحبينها حقّاً، كنت لتدعيها تحظى بوالدين مناسبين».

أجبتها: «لديها والدان مناسبان».

رمشت الأخت ماري ديكلان منزعجةً، لكنّها كانت هادئة، إذ لا يزال لديها ما يكفي من الإنسانيّة لتشعر بالأسف من أجلي. عندما أتذكر مواقف الراهبات اللطيفة القليلة معي، أشعر بالغضب، إذ كانت تلك المواقف اللطيفة الصغيرة – كما لو أنّ الامتناع عن ضربي كان لطفاً – هي التي أبقتني هناك لفترة طويلة.

كنت ممتنّةً جدّاً للخدمات الصغيرة، كأن يمشي الأب جوزيف بجانبي من دون تردّد، وكانوا يسمحون لي بالسهر طوال الليل، ورعاية جينيفييف والأطفال الآخرين في الحضانة، وفي أيّ وقت يبكي فيه أحد الأطفال، كنت أفكّر في أمّه التي تسمعه في الطابق العلوي، وأحتضن المسكين، وأهزّه حتّى يسود الهدوء. بعد مهمّتي الليليّة، كنت أرضع جينيفييف وأحممها، وأذهب

للصلاة والقدّاس، ثمّ أصعد إلى المهاجع للنوم حتّى وجبة منتصف النهار، ثمّ أعود إلى العمل في تنظيف الأرضيات أو غسل الملابس حتّى المساء.

واصلَت الأخت ماري كلير تقديم المزيد من الطعام لي في السر، حيث كانت تضع البسكويت أو البيض المسلوق في يدي، وتقول: «لا تقلقي، سأبقي جينيفييف مخفيّةً من أجلك، ولن يتبناها أحد، أعدك بذلك. الشاب الخاص بك سيصل في أيّ يوم؛ لقد أخبرته أنّكِ جميلة دائماً. ستكونين من المحظوظات؛ أنا واثقة من ذلك».

ذهبت سوزانا إلى مستشفى المقاطعة للولادة، وعادت إلينا لمدّة ثلاثة أسابيع، ثمّ أُرسلت إلى مغسلة مجدليني في ليمريك، وبقي طفلها في الدير.

قالت الأخت ماري ديكلان عندما أرسلوا سوزانا بعيداً: «لا يمكننا إبقاء المذنبة للمرة الثانية لفترة طويلة، كي لا تلوّث بقيّة الفتيات». كان كلّ من سندي كورنر، وبيليتستاون اختراعات من القرن العشرين، مخصّصة للأمهات والأطفال. تم إنشاء مغاسل مجدليني في الأصل لسجن البغايا، ولكن مع اقتراب الدولة اللإيرلنديّة من استقلالها، أصبحت بشكل متزايد مستودعاً لأيّ فتاة يشتبه في ارتكابها مخالفات جنسيّة، ويمكن أن يشمل ذلك الفتيات اللواتي تمّ اعتبارهن مُغازلات، أو جميلات للغاية؛ الفتيات اللواتي يرتكبن خطأ الاعتراف للقس، أو أحد أفراد الأسرة، بأنّهن تعرضن للتحرش.

الفتيات اللواتي ليس لديهنّ مكان يذهبن إليه بعد سداد ديونهنّ؛ فتيات مثل سوزانا، أثبتن أنّهنّ غير قابلات للإصلاح من خلال مكوثهنّ مرّتين في سندي كورنر.

لكن ما أعرفه، أنّ سوزانا قضت حياتها كلّها في مغسلة مجدليني. ولم تكن المرأة الأولى ولا الأخيرة.

في هذه الأثناء، تمّ تبني الابن الصغير لفيونا، ورفضت الراهبات إخبارها

أين ذهب، وظلت فيونا تقول كلماتها المبهجة: «الراهبات أعلم؛ سيتمتع بحياة أفضل، لم أكن لأقدر أن أوفرها له أبداً». اهتزت يداها، وبدت بشرتها الفاتحة أكثر بياضاً؛ ففي بعض الأحيان كانت تذهب لإحضار الغسيل إلى السطح، ثمّ تتجمد، وتتذكر أنّ طفلها الصغير لم يعد موجوداً لتراه وتقلق بشأنه.

كنت أقول لها في اللحظات التي بدت فيها على وشك الانهيار: «أخبريني»، وكانت وتقول عنوان والديّ في لندن، وتعويذة مهدئة تمثل وقتاً قد يأتي بعد الدير.

مرّة واحدة في الأسبوع في مقبرة الراهبات، كنت أتحقّق للتأكد من أنّ القضيب الحديدي المتآكل والصّدئ لم يتم إصلاحه، ففي الشتاء السابق، كنت قد أتيت ويداي يدا امرأةٍ شابة، وسرعان ما سأغادر بيديّ امرأةٍ عجوز، جافتين ومتشققتين، لكنني كنت قويّةً، وكان من الأفضل أن أذهب في أسابيع الخريف الباردة قبل أن يبدأ البرد القارس. شاخت يداي، ولكنّني ما زلت شابّة، وتحت ثوبي الذي لا شكل له، تضاءل الجزء الأكبر من حملي مع العمل الجاد، والتمريض، ووجبات الطعام الشحيحة.

أقول لنفسي يوماً بعد يوم: «غداً سأسرقها من الحضانة إلى المقبرة؛ سأمرّر جينيفيف عبر قضبان البوابة، وأضعها على العشب، ثمّ سأعصر نفسي من خلال هذه القضبان. سآخذها وأبحث عن طريقي إلى القارب الذي سيقلّنا إلى الوطن؛ إلى إنكلترا». إذا اضطررت إلى السرقة، أو بيع جسدي، فسأفعل ذلك؛ سأفعل أيّ شيء ليحررنا من هذا المكان.

كان ابن سوزانا وجينيفيف الطفلين الوحيدين اللذين يقلّ عمراهما عن الأربعة أشهر؛ في الليل، يمكن تهدئة الأطفال الأكبر سنّاً إذا هززناهم أو تركناهم يمصّون أصابعنا. خلال النهار، كانت الراهبات يطعمن ابن سوزانا خبزاً منقوعاً بالحليب، رغم أنّه بالكاد كان يبلغ من العمر ستّة أسابيع، وعندما

يبكي في الليل، كنت أخرجه من سريره وأرضعه بنفسي.

ذات صباح بعد القداس، نظرت الأخت ماري كلير من فوق كتفي وأنا أحمّم جينيفييف وقالت: «كم هي ممتلئة ووردية».

كان العديد من الأطفال الآخرين نحيفين وباهتين من الرضاعة المتفاوتة، ولكن جينيفييف بدت بصحّة جيّدة كأيّ طفلة تحت رعاية والدتها. رمشت عيناها الزرقاوان اللّامعتان، بينما كنتُ أضع الماء برفق على وجهها، فحملتُها من حوض الصابون إلى الهواء، ثمّ أنزلتها إلى الأسفل حتّى أتمكن من قضم خدها، وضحكَت للمرة الأولى.

قالت الراهبة: «أوه، هل يوجد صوت في العالم أكثر روعة من ضحكة طفل رضيع؟».

كرّرتُ ذلك، ورفعتُ جينيفييف، ثمّ أنزلتها إلى أسفل لأقضم خدها، وضحكَت، واهتزّ بطنها؛ خدشتُ حلقي من قوّة الضحك، وارتجفَت عضلاتي.

خطر في بالي وميض ذكرى؛ كم كنت أحبّ أمّي عندما كنت طفلةً صغيرةً! وكم كنت أشعر بالفرح والأمان لوجودها! كنت أتوق إلى رؤية عيني أمّي الخضراوين، ووجهها المليء بالنمش، وكنت أتمنّى أن تراني الآن، مع طفلتي، وتحبّني بالطريقة نفسها.

رفعتُ جينيفييف إلى الأعلى، ثمّ إلى الأسفل مراراً وتكراراً، وهي تضحك، والراهبة تضحك، وأنا أضحك، وأتنفس رائحة طفلتي الحارّة مع كلّ عضّة حتّى تبلّل الجزء الأمامي من مئزري بالماء. ابتسمتُ وألقيت نظرة صداقة ومحبة على الأخت ماري كلير، فهي لم تكن بديلاً عن والدتي، لكن كان من الجيد وجود أحد الشهود ليضحك معنا.

أخيراً، أخذت الأخت ماري كلير جينيفييف منّي، ولفّتها بمنشفة، وقالت: «اذهبي وارتاحي، وأنا سأجد شيئاً ما أقدّمه لك لاحقاً». وصلت الأخت ماري ديكلان لمرافقة المساعدة الليليّة الأخرى، بينما سأُحبس في المهجع في

الطابق العلوي كي أحظى بساعات النوم القليلة المخصّصة لنا، فألقيت نظرة أخيرة، ووجدت الأخت ماري كلير تحمل جينيفييف بلطف.

* * *

بعد ظهر ذلك اليوم، دفعت بعربة من الملاءات المبللة إلى السطح الذي يطل على الحديقة، وعلّقت الملاءات حتّى تجف في الشمس.

من هناك رأيت رجلاً يخرج من سيارة فخمة وشعره مسرّح إلى الخلف، ولاحظت بريق الثروة من حيث كنت أشاهده من الطابق الثالث؛ كان ليسحر نوعاً معيناً من الفتيات بأناقته، ولكن ليس أنا.

راودني شعور ما حيال هذا الرجل، وظلّ في ذهني، على الرغم من أنّني بالكاد ألقيت نظرة على وجهه.

عندما أحضرت الدفعة التالية من الملاءات المبللة إلى السطح حتّى تجف، رأيت أن سيارته قد غادرت، وفي طريق عودتي إلى غرفة الغسيل تسللت إلى الحضانة؛ في العادة لا أذهب أبداً إلى الأماكن الممنوعة خلال النهار، خوفاً من مقابلة الأب جوزيف، أو خسارة لياليّ مع جينيفييف، ولكن شيئاً ما دفعني بشكل عاجل، فأسرعت تحت القناطر العالية وفوق البلاط متعدد الألوان، أمشي بحذر بسبب خفي ذي النعل الخشبي؛ ستحدث مشكلة لو كانت راهبة أخرى في الحضانة، ولكن إذا كانت الأخت ماري كلير، فلن تمانع في مخالفة القواعد، إذ كانت مستمتعة بذلك لأنها كانت تحب ضحكة جينيفييف.

عندما وصلت إلى هناك، كان سرير طفلتي فارغاً وخالياً حتّى من الملاءات؛ مجرد سرير صغير ملطخ حيث يرقد عدد لا يحصى من الأطفال، حينها سارت الأخت ماري كلير نحوي وذراعاها ممدودتان ونظرة تعاطف وذعر تعلو وجهها الشاب المرح؛ كان هناك شيءٌ آخر أيضاً، كان هناك وميضٌ في عينها، لقد رأيته، فكلّ ما كانت على وشك أن تخبرني به سيكون السبب

الرئيسي في أحداث اليوم.

سألتُها: «أين طفلتي؟».

في سرير آخر، وقف صبي صغير ذو شعر نحاسي لامع يبلغ من العمر ما يكفي للوقوف بنفسه على قدميه، وقد مدّ ذراعيه ليحمله أحدٌ ما، واستدارت الأخت ماري كلير بعيداً عنّي كما لو كانت تستوعبه.

أمسكتُ بكميها المنتفخين، وقلت: «أين جينيفيف؟ أحضريها إليّ الآن، من فضلك».

كانت الراهبة أقصر منّي قليلاً، لكنّها كانت أعرض بكثير؛ قالت لي: «أوه يا نان، عزيزتي المسكينة نان، لا تقلقي على تلك الطفلة».

الراهبات الأخريات دائماً ما يقمن بذلك؛ يطلقن على أطفالنا لقب **الطفل** أو **ذلك الطفل**، كما لو كانوا لا يزالون في الرحم ولن يولدوا إلا عند إعطائهم لأبوين مزيّفين، أو عند نقلهم إلى دار الأيتام المجاورة، ولكن على الأقل في وجودي، حتّى هذه اللحظة، كانت الأخت ماري كلير تدعو دائماً طفلتي جينيفيف.

أجابتني الأخت ماري كلير قائلة: «رحلت طفلتك إلى عائلة ألطف يا نان حيث ستحيا حياةً رائعة».

قلتُ لها: «لا يمكن لأيّ شخص آخر أن يتبنّاها، فهي لي».

قالت الأخت ماري كلير: «نعم يا عزيزتي، بالطبع ستحملك دائماً في قلبها».

سألتها: «أين هي الآن؟».

أجابت الأخت ماري كلير: «حسناً يا نان، لا يفترض بي أن أخبرك، إذ قد أواجه مشكلة كبيرة إن أخبرتك، لكنّني أعتقد أن هذا سيسعدك؛ لقد تبنّتها عائلة إنكليزية؛ عائلة إنكليزية جميلة، وسوف تربيها بشكل صحيح ولائق».

صرخت قائلةً: «أين في إنكلترا؟»، شعرت أنّ صوت صرختي أشبه بزئير الأسد؛ كيف استطعت أن أصرخَ في وجه الأخت ماري كلير؟ كانت صرختي

شرسة بما يكفي لدرجة أنّها تراجعت خطوة إلى الوراء، وبدت أقل ثقة في قدرتها على تهدئتي.

كيف صدّقتها؟ ما زالت يدي تمسك بقماش كمّها.

اقتربت منها، وكاد أنفي يلمسها وقلت: «أحضري لي طفلتي الآن»، لم تكن صرخة هذه المرة وإنّما زمجرة، وأنهيت الجملة في مخيلتي بالقول: وإلاّ قسماً بالله سأقتلك حيث تقفين.

الآن شعرت بغضبي، الآن كانت خائفة، كما لو أنّ التهديد لم يكن في رأسي فقط، لكنّني قلته بصوت عالٍ، فاختفت البهجة عن وجهها مع التعاطف؛ اقتربتُ خطوة منها، فابتعدَت، وأصبحَت الآن قريبة بما يكفي من الجدار لتشعر بحجره البارد.

ما زالت جزيئات جينيفييف تسكن هذه الغرفة، ولا يزال صدى ضحكها يتردّد هنا.

لقد كان الرجل الذي رأيته سابقاً، كنت أعرف؛ هل أحضروها إليه مباشرة؟ أم تركوه يتسوّق وكأنه يختار جرواً؟ ربّما كان قد سار ذهاباً وإياباً بين صفوف أسرّة الأطفال، محدقاً في كلّ طفل، حتّى حدقت عينا جينيفييف الزرقاوان اللامعتان في وجهه؛ إنها يقظة، وجميلة جدّاً، وممتلئة الجسم، ووورديّة اللون، لذا، تستحق أيّ ثمن طلبته الراهبات، وربما أدّت خدعتها الجديدة من أجله وضحكت بشكلٍ ساحر، وعندها قرر أنّه سيأخذها.

سلّمت الأخت ماري كلير طفلتي إليه؛ لقد وضعت جينيفييف بين ذراعي شخص غريب، وابتعدت.

وطوال ذلك الوقت كنت أعمل في المبنى نفسه.

حدّقت الراهبة في وجهي مباشرة؛ أتعتقدون أنّها لن تنسى شكل وجهي طوال حياتها؟ لكنّها في الواقع لم تكن تراني، فكل ما كانت تراه هو لطفها المزيف، الذي بدا وكأنّه شيء حقيقي.

كانت تنظر إليّ وكأنّها تهتم بي، وكأنها لم تترأس بابتسامتها اللطيفة عملية اختطاف طفلتي.

إنّها مجرمة. في هذه القصة حتّى الآن، سردت لكم مجموعة متنوعة من الجرائم، لكن لم تكن أيٌّ منها أكثر شناعةً وعنفاً، وقلة ضمير كهذه؛ سرقةُ طفلتي؛ لا وصف يمكن أن يعادل ما فعلته الأخت ماري كلير بي للتّو.

ارتعشت أصابعي في حين وضعت يديّ حول رقبتها؛ كم كان لهاثها يريحني! لهاث الصدمة أولاً، ثمّ الألم. حاولت أن تصرخ لكنّها لم تستطع، إذ حرصت يداي على عم وصول الأوكسيجين إليها، وانتفخت عيناها، ووصلت يداها إلى ذراعيّ، لكنّني قاومت بقوة الأم التي تحمي طفلتها، قد أكون قد تأخرت لكنّني أحاول، فحاولَت أن تضربني وتبعدني عنها، لكن ضرباتها كانت خفيفة، وكأنّها تعلم أنّه ليس لها الحق في الدفاع عن نفسها.

شعرت بشعور جيّد، شعرت وكأنّها البداية، كنت سأقتلها ثمّ أغادر الدير، وأجد الرجل الثري ذا الشعر الأملس وأستعيد طفلتي، ولكن في البداية كان عليّ إنجاز هذه المهمة الحلوة؛ خنق الأخت ماري كلير حتّى يتحول وجهها إلى اللون الأزرق، وبمجرد وفاتها، كنت سأضرب رأسها بالجدار الحجري ضربة واحدة قاتلة، وعندما تسقط كنت سأحطّم رأسها للمرّة الأخيرة، وأكسر جمجمتها على الأرضية الصلبة ذات اللون الوردي والأزرق القاسي. أصدرت الأخت ماري كلير صوت خوف، الأمر الذي غذّى سعادتي في إيذائها؛ قريباً سوف تموت؛ واستطعت أن أشعر بنبضها تحت يدي، ثابتاً وقابلاً للتوقف، ثم أخذ يتباطأ، وحاولَت الكلام لكنّها لم تستطع، فضغطت أكثر على حنجرتها حتى انتفخت عيناها.

جيّد، ممتاز، جيّد؛ نادراً ما كنت أعرف قوتي، وكانت هذه أوّل لحظة دينيّة أواجهها بين هذه الجدران المقدسة.

ثمّ بكى طفل؛ ربّما كان ابن سوزانا؛ ذلك البكاء الذي ينم عن الجوع

الحـاد واليائـس، وكان قـد بلّل حليبي قميصي والمئزر، فتركتُ الأخت ماري كليـر، ورفعـت يديهـا إلـى عنقهـا، وتحسّسـت الضـرر الذي أحدثتُـه محاولةً استنشـاق الأوكسـيجين مـن الغرفـة؛ كان بإمكاني رؤية الآثـار الحمراء الآن، وبحلول المساء ستصبح باللونين الأسود والأزرق.

حدّقت إلى صدري، والحليب ينسكب من تحت ثوبي، ورائحته الحلوة تملأ الغرفة.

كم ابتعدت جينيفيف الآن؟ كلّ ثانية تمضي تبعدها أكثر عن ذراعيّ. إذا رفعـت يـدي مـرّة أخـرى، إذا قتلت الأخت ماري كلير، فسـأُحتجز إلى الأبد، وستكون هناك محاكمة، وكان والداي سيكتشفان مكاني من خلال الصحف؛ الزانية التي خنقت عروسة المسيح؛ كنت سأقضي بقيّة حياتي في السجن إذا كنت محظوظةً بما يكفي كي لا يتمّ إعدامي.

خلعت حذائي وبقيت بالجارب، وركضت من الحضانة بمئزري المتّسخ وخرجـت مـن الديـر إلـى مقبرة الراهبات. الأطفال مـن دار الأيتام يلعبون في الفنـاء، كنـت أسـمعُ أصواتهـم تصدح في الهواء، وعندمـا وصلت إلى البوابة الحديديّة، كان عليّ فقط ركل القضيب الحديديّ، والاسـتدارة جانباً، وحشـر نفسي للعبور، تماماً كما كنت أتدرب. هربت بعيداً عن الطريق عبر الحقول، وبعد فترة، سمعت من بعيد أجراس الدير، ثمّ صفارة الشرطة؛ كانت الأجراس تقـرع مـن أجلـي، كنـت أعلم أنّ الراهبات سـوف يندفعـن ويصرخن ويهربن بشـكلٍ غيـر مجدٍ، ولكـن كان دوي صفـارات الإنذار لسـبب آخر، ولحسـن الحظ بالنسبة إليّ، كانت الشرطة تعمل في مكانٍ آخر. تعرضت دوريّة الشرطة الملكيّـة الإيرلنديّـة لكميـن في كوبه، وكان جميع رجال الشـرطة يندفعون في ذلـك الاتجـاه. كان مـن الممكـن أن تهرب كلّ فتاة من الدير من دون أن يُعثَر عليهن، فقط لو استطعت أن أخبرهنّ بذلك.

* * *

أولاً ركضت مغمومة، أسرع من أيّ وقت مضى، ورفعت قبعتي وثوبي وأنا أتحرك، ولم أخطئ أبداً، وجريت خارج الطريق، عبر الحقول من دون أيّ انزلاق أو التواء، وبخطوات سريعة وثابتة كما لو كنت في تدريب. مررت بمزرعة حيث جفّ الغسيل على الحبل، متمايلاً في فترة ما بعد الظهيرة الباردة؛ كان يجب أن أتوقف وأسرق الملابس، وأتنكر إذ كان الجزء الأمامي من ثوبي مبللاً بالحليب، وجفّ من ركضي تحت أشعة الشمس، ولكنّني لم أتوقف، فركضت وركضت.

قالت امرأة: «توقّفي يا حبيبتي».

لم أرها، كانت متكئة على سياج الحظيرة مرتديةً بنطالاً وسترة سميكة، وتحمل سيجارة في إحدى يديها، ورفعت الأخرى في الهواء عندما خرجت أمامي وأوقفتني. كان شعرها مجعداً ورمادي اللون، ووجهها محترقاً، وتقف على مقربة كافية منّي، لدرجة أنّني استطعت شم رائحة الويسكي في أنفاسها.

قلت لها: «أرجوك دعيني أذهب».

نظرَت إلى صدري، ثمّ إلى قدميّ وجوربي الممزق؛ كانت قد جفت بقع الحليب الآن؛ ثمّ قامت بنفخ تيار من الدخان في وجهي، وبعدها أسقطت سيجارتها بشكل خطير في التبن، وانتظرت لحظة، قبل أن تدوسها.

سألتني: «وإلى أين أنتِ ذاهبة؟».

أجبتها: «لا أعتقد أنه يجب عليّ أن أخبرك»، بدوت خائفة أكثر مني شجاعة؛ لم يسبق لي أن شعرت بأيّ شيء غير صحيح أكثر من الوقوف دون حراك حيث كان عليّ أن أهرب بعيداً.

خلعت المرأة معطفها ووضعته على كتفي، ثم قالت بصوت خشن يريد أن يكون لطيفاً، مجبرةً نفسها على أن تكون صارمةً: «أعرف إلى أين أنتِ ذاهبة؛ مباشرةً إلى الشاب الذي أتى بك إلى هنا في المقام الأول، لكن عليك

ألّا تذهبي إليه يا عزيزتي. لهجتك تدلّ على أنك من إنكلترا، أنت من هناك، أليس كذلك؟».

كان اسمها فيرا وقد أدخلتني منزلها، وجعلتني أغيّر ملابسي، وأطعمتني، وأعتقد أنّها أخبرتني عن حياتها، والصديقة التي عاشت معها، ومشاعرها تجاه الراهبات وما أسموه مؤسّسة خيريّة. لم أسمع أياً من ذلك، بقيت لوقت طويل لا أسمع شيئاً من أحد. كنت فتاة حافية القدمين إلا من الجورب الممزق، وأسعى يائسة للفوز في سباق ضدّ السيارات والقوارب، فمنذ اللحظة التي اكتشفت فيها أنّني حامل، لم أكن سوى فتاة تسير على قدمين.

وصلت امرأة أخرى، كانت ترتدي أيضاً ملابس عمل كالرجال، وتفوح منها رائحة الدخان والويسكي، قالت لي: «ليباركك الله»، ثمّ قالت لي فيرا: «هذه مارثا».

نظرت مارثا مباشرة إلى ثدييّ المنتفخين والمليئين بالحليب، وقالت: «تعالي معي يا حبيبتي، يمكنني مساعدتك في ذلك».

أدخلتني إلى غرفة النوم الصغيرة وأعطتني ضمادة من القماش لألفها حول ثدييّ، وقالت: «عليكِ أن تتركي الحليب يخرج قليلاً بين الحين والآخر، فهذا سيخفّف الضغط، ولكن ليس كثيراً، للحفاظ على إنتاجك».

بالتفكير في الأمر الآن، أتساءل عن الأطفال في ماضيها، والذين كان عليها أن تتوقف عن إرضاعهم، لكنّني لم أتساءل في ذلك الوقت. أفرغت فيرا ومارثا جرّة تحوي على نقود من فئتي الجنيه والشلن أمامي، وقدّمتا لي ما قد يكون أحد أفضل معاطفهما، وقد ناسبتني أحذية فيرا أكثر؛ فأعطتني زوجاً من الأحذية الجلديّة الناعمة، ثم وضعتاني في مؤخرة عربتهما.

أوعزت إليّ فيرا قائلة: «استلقي ولا تتحرّكي».

وبذلك غادرت سندي كورنر بالطريقة نفسها التي أتيت بها إليها؛ في عربة تجرّها الخيول. غنّت مارثا أثناء تواجدنا في العربة، نفس الأغنية التي

اعتادت الأخت ماري كلير أن تدندنها، والتي كانت تتردّد كمزمار القربة بين سلالم وممرّات الدير، وقد حفظتُ الكلمات أخيراً:

إلى كلّ الفتيات اللطيفات والرائعات والمعطاءات
احذرن، احذرن، وحافظن على حدائقكنّ
لا تدعن أحداً يسرق زعتركنّ

أوصلتني مارثا وفيرا إلى محطّة القطار، حيث اشترتا لي تذكرة إلى دبلن، وقدّمتا لي باقي الأموال من أجل السفينة إلى إنكلترا.

سألتُهما: «كيف سأردّ لكما المعروف؟».

قالت فيرا: «فقط كوني على ما يرام، وكوني سعيدةً».

كان فستان مارثا كبيراً جدّاً، لذا أبقيت المعطف مزرّراً حتّى ذقني، وعندما رست السفينة في ليفربول، كان بعض الجنود الإنكليز ينتظرون إرسالهم إلى إيرلندا، فتساءلت عمّا إذا تمّ سابقاً في تاريخ هذا العالم إرسال جندي لإعادة طفل مسروق لوالدته؟ في الأشهر المقبلة سأبحث عن جينيفييف بكلّ الطرق المنطقيّة وغير المنطقيّة.

خلال الليل، مشيت من لندن على طول الطريق إلى كروكسيل غرين، بحذائي ذي النعل البالي والمثقوب، ونظرت إلى كلّ عربة أطفال، فرأيت أمهات حذرات أو مربيات مع أطفال يعتمرون قبّعاتهم.

بمجرد أن تفقد طفلاً، ستصلك صرخاته من أيّ مكان، ولو عبر أميال، أو من نافذة مفتوحة على بعد شارعين، وستستيقظ في منتصف الليل وتجد نفسك في المكان الخطأ؛ من المفترض أن تكون في مكانٍ آخر معه. أينما كانت جينيفييف، فأنا أعلم أنّها تستيقظ أيضاً فاتحةً عينيها الزرقاوين في الظلام، باحثةً عن شخص واحد في العالم يجيب على كلمة أمّي؛ ليس الأم المتظاهرة بالأمومة، بل أمها الحقيقيّة، فالجسد يعلم ما لا يعلمه العقل.

أخيـراً، عندمـا عـدت إلى المنزل، ووجهي رمادي ومدمّر، وجدت كومة من الرسـائل من فينبار تنتظرني، بعضها مع نقود من أجل الرحلة إلى إيرلندا التي لم يكن يعلم أنّني كنت فيها بالفعل.

كتبَ مراراً وتكراراً: «لماذا لا تجيبين يا نان؟».

لم يخبره والداه قط كيف جلست على عتبة بابهما؛ لم يكن يعرف شيئاً عـن الليلـة التـي أمضيتهـا إلى جانبه، مسـتلقيةً بجانب جسـده المحموم، ولم تكتب له الأخت ماري كلير أبداً، وكنت متأكدةً من ذلك، وحتّى لو كانت قد فعلت ذلك، كان والداه سيلقيان الرسالة بعيداً.

كتـبَ أخيـراً في رسـالة وصلت إلى إنكلتـرا قبلي: «إذا توقفتِ عن حبّي، أريد أن أسمعكِ تقولين ذلك في وجهي. سأحضر إلى لندن لأسمعك تقولين ذلك».

التقطت قلم رصاص وورقة لأكتب له مرّة أخرى، ولكن كان هناك الكثير من الكلام المحزن لأقوله.

عندما كتبت والدتي إلى زوجة عمي روزي لإخبارها بما حدث، سافرت روزي من دبلن إلى سـندي كورنر، وأصرّت على التحدث إلى الأم الرئيسـة، التي أجلستها، وأظهرت لها شهادة وفاة.

الأم: نان أودي.

الطفلة: متوفّاة، وكان مكتوباً بجانب الكلمة، نفس تاريخ اليوم من شهر تشرين الثاني الذي أرسلوها فيه مع الرجل الذي رأيته من أعلى السطح.

كان ذلك من صُنع الأخت ماري كلير، كنت واثقة من ذلك.

بكَـت والدتـي عندما أخبرتني: «أنا آسـفة جـدّاً يا نان»، فهي لـم ترَ صورة جينيفييـف الضاحكـة ذلـك اليـوم، فقلـت لهـا: «أمّـي، جينيفييـف لـم تمت، صدّقيني».

نظرت إليّ أمي حزينة على خسارتي، وربّما وهمي.

ما الذي يمكنني فعله بعد ذلك غير السير في جميع أنحاء لندن وخارجها، رافضةً أن أبتهجَ بحرّيتي، راغبةً في البحث عن جينيفييف، ولكن لا أعرف من أين أبدأ. قوّيت جسدي، وتعافيت، وجف حليبي.

لو أنّني كنت بوعيي لتتبّع الوقت، لكان بإمكاني إخباركم بتاريخ عودتي إلى المنزل والعثور على فينبار جالساً على الرصيف أمام مبنانا، وحقيبته عند قدميه؛ كانت تلك المرّة الوحيدة في حياتي التي لم يقفز فيها قلبي على مرأى منه؛ لم يكن بإمكاني فعل شيء سوى فطر قلبه أولاً بإخباره عن جينيفييف، وثانياً بطرده بعيداً.

لو أنّه أتى بعد ذلك بفترة، عندما كنت على الأقل قادرةً على تفسير أنّني نفسي نان القديمة. بحلول الربيع التالي، كنت أعمل بضع فترات بعد الظهر في بوتون أند بيتس، وكانت ميغس تتدرب كممرضة، ولويزا لا تزال في المنزل ولكنّها مخطوبة، كانت تأخذ دورة في السكرتارية. على طاولة مطبخنا، علمتني الاختزال والطباعة التي من شأنها أن تساعدني يوماً ما في الحصول على وظيفة في شركة المطاط البريطانيّة الإمبراطورية، وبحلول ذلك الصيف، تمكّنت من التجول في العالم بوجه لا يبدو عليه أنّه محطم، أو أنّه يبحث باستمرار.

على الرغم من ذلك، كنت أبحث باستمرار. هل توقفتُ عن البحث أبداً؟ كلا. هل خططتُ للتوقف؟ هل فكّرتُ يوماً أنّه سيأتي وقت، أو لحظة، أعترف فيها بالهزيمة وباستحالة إيجاد جينيفييف؟ بالطبع لا.

بعد أربع سنوات من عودتي إلى إنكلترا، وجدتها بالصدفة؛ بدون أدنى شك، كانت هي.

كنت أزور أختي ميغس في منزلها الجديد في توركواي، حيث كانت تعمل ممرضة.

أخذت ميغس إجازة ليوم واحد وذهبنا في نزهة على الشاطئ حيث

ركضت فتاة صغيرة نحونا عبر ممر للأطفال الصغار. في البداية اعتقدت أنّ الطفلة كانت بمفردها، لكن بينما كانت عيناي تبحثان في ضوء الشمس، رأيت امرأتين بعيدتين عنها بما يكفي لدرجة أنّني بالكاد تمكّنت من تمييز شكليهما، وعندما وجدت الفتاة الصغيرة أنا وميغس في طريقنا، وبدلاً من الركض حولنا، ألقت ذراعيها حول ساقي.

قلتُ لها: «أوه»، وأنا أنظر إلى عينيها الزرقاوين اللامعتين؛ كانت جبهتها عريضة، وذقنها صغيراً ومدبباً، وشعرها داكناً ولامعاً يتطاير إلى الخلف وهي تنظر إليّ. عرفتها في لحظة، وهي عرفتني أيضاً، أنا متأكّدة من ذلك.

قالت ميغس بحدّة بينما انحنيت لضمّ الفتاة الصغيرة بين ذراعيّ: «نان، لا يمكنكِ حمل أطفال الآخرين».

لم توافق الفتاة الصغيرة الرأي، عانقتني بدورها كما لو أنّها تذكرت آخر مّرة احتضنتها والدتها؛ والدتها الحقيقية.

صرخت إحدى النساء: «تيدي، هيّا بنا يا تيدي، يجب أن نعود إلى أشفيلد».

عاد وعي الطفلة إلى حياتها الحاليّة، وتراجعت من بين ذراعيّ، وركضت عائدة إلى المرأتين اللتين استدارتا وسارتا في الاتجاه الآخر، فأمسكتُ بذراع ميغس لأثبت نفسي.

قالت ميغس: «اهدئي يا عزيزتي، سيكون لديكِ طفلة يوماً ما يا نان».

قلتُ بصوت عالٍ: «لديّ بالفعل واحدة»، وقلت داخليّاً، أشفيلد، وردّدت ذلك مراراً وتكراراً في ذهني، حفظتها من دون أدنى شك، وقرّرت اكتشاف كلّ ما يمكن معرفته عن الأشخاص الذين يعيشون هناك.

هل كانت جميلة؟

نعم، أجمل ممّا تتخيلون.

في اليوم الذي جاء فيه فينبار أخيراً ليأخذني، طردتُه بعيداً، وأعدتُ إليه

الأموال التي أرسلها لي رغم اعتراضه،

وبالكاد تحدّثنا قبل ساعة من ذهابه بعيداً، بعيداً عن الأنظار، مثقلاً بالحزن الإضافي الذي حمّلته إياه.

قال فينبار قبل أن يغادر، ودموعه تغسل وجنتيه: «ستعرفين مكاني دائماً، لن أعيش في أيّ مكان من دون أن أرسل إليك الرسائل؛ سوف تغيّرين رأيك يوماً ما، فأنا واثقٌ من ذلك».

يمكن أن تجد الخفاش الأم ابنها في كهفٍ مليء بالآلاف من الخفافيش، حتّى من دون أن تراه بعينيها. عندما يُسرق طفلك، تقيس عمره بالأيام التي تمر، وتنظر إلى وجوه الأطفال الآخرين للتأكد؛ تفعل هذا مرّات عديدة، وتعلم بكامل كيانك أنّك لن تخطئ بالتعرف إليه عندما تجده في النهاية.

أحياناً أتساءل عمّا إذا كانت أغاثا قد تعلّمَت ذلك مني؛ عن أسوأ عنف يمكن أن تمارسه ضدّ شخص ما، وعن تداعياته؛ عن الحروب التي يمكن أن تبدأ، والعدالة التي يجب أن تتحقق، وكلّ ذلك من أجل الانتقام لطفل.

القسم الثالث

«الشرّ لا يمرّ أبداً من دون عقاب يا سيدي،
ولكنّ العقاب في بعض الأحيان يكون سريّا».

هيركيول بوارو



16 أيلول 1926

عزيزي فينبار:

آمل أن تصلك رسالتي هذه وأنت في حالة جيدة بعد كل هذه السنوات؛ يـا إلهـي، أتمنـى أن تصلـك فقط، وأن تكون سـعيداً بهـا. يجب أن أعترف أنه حتى بعد كل ما حدث، وعلى الرغم من أنني لم أجب على رسائلك، فكلما رأيت اسمك على مغلف – كلما رأيت الكلمات مع حبي، فينبار مكتوبة في أسفل الصفحة – يطير قلبي من الفرح.

لـذا، يجـب أن أخبـرك بما وعدت نفسـي أنني لن أفعلـه، وهو ما أخاطر بفعلـه؛ لقـد وجدت طفلتنا، ابنتنـا، حبيبتنا جينيفييف، لقد رأيتها وحملتها بين ذراعيّ، إنها سـعيدة وتتمتع بصحة جيدة وتعيش مع والديها في منزل يسـمى سـتايلز في سـونينغديل، بيركشـاير. ليتك تسـتطيع رؤيتها فقط! إنها تمتلك عينين مثل عينيك، إنها ذكية وشجاعة وجميلة، وتحب الكلاب والكتب. بهذه الطريقة على الأقل أصبحت إحدى أمنياتنا حقيقة.

الشـخصان اللـذان تبنيـا ابنتنا يدعيان أرتشـي بالد وأغاثا كريسـتي، وهنا الجزء الصعب، إذ يخطط أرتشـي كريسـتي لترك زوجته والزواج بي. هل أنا وراء ذلك؟ هل خططت لذلك؟

الجـواب نعـم؛ أعتـرف لك وحدك أنني فعلت ذلك فقط كي أكون جزءاً من حياة طفلتي.

إذا تلقيت مثل هذه الرسالة منك، وإذا أخبرتني أنك على وشك الزواج، فسيحزنني ذلك كثيراً، لكنني كنت سأشكرك على إخباري بنفسك. أتمنى أن

تفهم أن هذا كل ما يمكنني فعله. لقد فات الأوان لإبعادها عن العائلة الوحيدة التي تعرفها، وبهذه الطريقة يمكنني أن أكون زوجة أبيها، ويمكنني النظر إليها، واحتضانها، ومناداتها باسمها الحقيقي عندما تكون نائمة.

أنا لا أحب أرتشي، لكنني لا أستطيع أن أكرهه رغم دوره في كل ما حدث؛ إنه طريقي الوحيد للعودة إلى جينيفييف، ولذلك أنا أفعل ما يجب القيام به. لا شيء يمكن أن يكون مثلنا يا فينبار.

قلبي ملكك دائماً وأبداً.

مع حبي، نان.

الاختفاء

اليوم الثامن

السبت 11 كانون الأول، عام 1926.

أمسـك فينبار بأغاثا في أعلى الدرج في الطابق الثاني، وكانت يده على مرفقها بشكل لطيف؛ كان ذلك بعد منتصف الليل بقليل، وكان المنزل مظلماً. كانـت قـد فوتت العشـاء هي وتشـيلتون، وترغب فقط فـي أخذ بعض الطعام المعلّب.

قـال فينبـار بصـوتٍ أجـشّ ملحـاح: «أغاثـا، مـن فضلك. هـل ترفضين مساعدتي بعد كل شيء؟».

نظرت إليه، وهي تكاد لا ترى وجهه في وميض الشمعة التي تحملها، لكنه جاد بشكل لافت للنظر. قلت في سري: يا لحماقتك يا نان! أي امرأة بذكائها كانـت لتهـرب معـه بمجـرد أن يطلب منها ذلـك، وقد جعلتها هذه الفكرة عن الرغبات المزدوجة والولاء المنقسم، تتعاطف مع أرتشي، بينما كان تشيلتون ينتظرها في الأعلى.

قالت أغاثا: «كل ما يتطلبه الأمر هو كلمة واحدة منك؛ أخبرها، أن الفتاة هي ابنتي، وأنها ليست جينيفيف».

قـال فينبـار: «كلمـة واحـدة؟ يمكنني أن أقول لها عشـرة آلاف كلمة ولن تصدقني أبداً، كما يمكنني أن أظهر لها شهادة ميلاد وستقول إنها مُزورة. ألا ترين أنها مقتنعة بهذا منذ سنوات؟ إن قبول أي دليل بخلاف ذلك يعني فقدان

طفلتها مرة أخرى».

هل توقف فينبار في تلك اللحظة، أو في أي لحظة، وصدق إنكار أغاثا أن تيدي وجينيفييف هما الشخص نفسه؟ عندما قالت أغاثا طفلتها، كانت تعني طفلته أيضاً؟ أشك في أنه فعل، حيث كان ذلك ليتعارض مع هدفه الأساسي. كنتُ قد أخبرته بالفعل أن عيد ميلاد تيدي هو نفس عيد ميلاد جينيفييف.

كانت والدة أرتشي من مقاطعة كورك، ولذلك كان يعرف المكان المثالي لأخذ طفلٍ واعتباره ملكاً له.

قال فينبار إنّ الراهبات ما كن ليعطين طفلاً للبروتستانت؛ كانت والدة أرتشي كاثوليكية؛ ورجاءً، لا تفكر أبداً في إخباري بما لا تفعله الراهبات.

كان فينبار قد ركع أمام تيدي عندما أعطاها الكلب الصغير، ونظر إلى عينيها ونظرت إلى عينيه.

كيف لم يرَ ذلك؟

الإنسان يلتزم بالمهمة المطروحة بين يديه، نحن نؤمن بما يعزز قضيتنا، وأنا لا ألوم فينبار على ذلك. ما سُرق مني سُرق منه أيضاً بشكل كامل، حتى إنه لم يفهم أبداً ما كان عليه أن يقاتل من أجله، كان يعتقد أنه يجب أن يقاتل من أجلي فقط.

قال لأغاثا: «لهذا السبب عليك إقناعها، أنت لم تحاولي حتى».

نظرت أغاثا بعيداً، بعيداً في الظلام، بعد صمتٍ محبطٍ قال لها فينبار: «إذاً، أخبريها كم يؤلمك فقدان زوجك، فنان ليست قاسية، فقط قولي لها إنك لا تستطيعين العيش من دونه».

لم أسمع فينبار يذكر اسم أرتشي، على الأقل مرة واحدة.

قالت أغاثا: «لكن أعتقد أنني أستطيع العيش من دونه، ويمكنك العيش من دونها أيضاً».

قال فينبار: «أعلم أنني أستطيع؛ لقد عشت من دونها طوال الوقت،

ولكنني لا أريد ذلك. أغاثا، ألا تريدين زوجك بعد الآن؟».

قالت أغاثا: «لا يمكنني قول ذلك؛ ليس تماماً. لا أعرف يا فينبار. أنا آسفة، أنا لا أعرف».

لم تكن متأكدة إن كانت تقول ذلك لتهدئته أم أنّ ما تقوله صحيح.

أفلت مرفقها، ولمس خدها براحة يده الخشنة الجميلة، ثم استدار وابتعد.

كرهت ترهل كتفيه، وأرادت أن تمنحه الأمل وفعلت، ولكن هذا ليس كافياً للتخلي عن أملها.

عندما حل النهار، كان أول ما شعرت به أغاثا هو سعادة عارمة. كم كان كل شيء غريباً ومريحاً بشكل رائع!

ويبقى السؤال بعد تنحية كل الأولويات جانباً: ماذا ستفعل الآن؟ بعد أن تركت العالم علناً، فكيف يمكنها العودة بمفردها؟

سألت تشيلتون، ذلك الصباح، وهي مستلقية بين ذراعيه تحت كومة من البطانيات الصوفية: «هل يمكن لامرأة واحدة أن تسبب مثل هذه الضجة، ثم تعود من دون أي تفسير؟».

قال تشيلتون: «بالطبع لا»، كان لتشيلتون طريقة معقدة في لفّ كلتا ذراعيه حولها تمكّنه من الإمساك بها بإحكام شديد لدرجة أنها لم تتمكن من الجلوس والنظر إلى وجهه، أكمل تشيلتون قائلاً: «من الواضح أنه لا يمكنك العودة أبداً؛ عليك البقاء معي».

لمست أصابعها شفتيه، في الوقت الذي كانا ينظران إلى السقف.

قال لها تشيلتون: «لديّ جريمة قتل لأحلها، كما تعلمين».

تحررت من قبضته، وجلست حتى تتمكن من مواجهته؛ كانت هذه المرة الأولى التي تسمع فيها بهذه القصة، فأخبرها تشيلتون عن السيد والسيدة مارستون.

قالت أغاثا وقد ترقرقت الدموع في عينيها: «كم هذا محزن!». لقد نسيت العالم الأوسع وسكانه وسط ألغاز رواياتها المختلفة.

قال لها تشيلتون: «ما رأيك؟ أنت تكتبين روايات بوليسية، فهل يجب أن أتفق مع نظرية ليبينكوت؟».

قالت أغاثا: «أوه، لا يمكنني حل جريمة لم اخترعها، فالهدف من قصة بوليسية جيدة هو توضيح كل شيء؛ أن تضع متغيرات كافية حتى يشك القارئ في حلّه الخاص، ثم في النهاية يمكن أن يكون سعيداً بنفسه لاكتشافه. أتخيل أن شفرة أوكام تنطبق في الحياة أكثر، فعادةً ما يكون الحل الأبسط هو الصحيح».

ابتسم تشيلتون، إذ قد أسعده كثيراً الاستماع إليها.

سألته أغاثا: «ما رأيك؟ هل تعتقد أن ليبينكوت محقٌ بشأن الزوجة؟ لا يوجد سبب للشك في أي شخص آخر، أليس كذلك؟».

أجاب تشيلتون: «لأكون صادقاً تماماً، أجد نفسي غير مهتم بالقدر الكافي».

قبلته أغاثا، وابتسمت ووضعت جبهتها على جبهته وقالت: «لستُ مستعدةً على الإطلاق للعودة إلى المنزل».

وقبلا بعضهما بشكل محموم.

من كان يعرف أنه من الممكن ممارسة الحب بشغفٍ شديد مع استمرار الاستمتاع بالعديد من الأفكار؟ أبقت أغاثا عينيها مفتوحتين، وهي تنظر إلى جدران الغرفة المتشققة، والرجل الذي كان غريباً قبل أيام قليلة، واعتقدت أنها ستكون دائماً ممتنة لهذه الفترة الزمنية، ثم اعتقدت أنها تستطيع أن تجعلها تدوم إلى الأبد. كان بإمكانها أن تبدأ في تسمية نفسها السيدة تشيلتون من اليوم، ويمكن أن يذهبا إلى مكان ما معاً حيث لا أحد يعرفهما؛ لن تضطر أبداً إلى ربط نفسها بهذه الكلمة الرهيبة ألا وهي الطلاق، أو مواجهة حقيقة

هربها والتسبب في مثل هذا الضجيج.

بالعودة إلى بيركشاير، قد تشعر تيدي بالأسى، لكننا جميعاً وبالرغم من الجهود الجبارة التي يبذلها أي شخص منا، نكتسب جروحاً على طول الطريق، أليس كذلك؟ كانت نان ستؤدي دور الأم بحماسة لم ترها ابنتها على الإطلاق.

في النهاية، إذا بقيت أغاثا مختفية، سينسى العالم أنها فُقدت أو كانت موجودة في المقام الأول، وتخيلت نفسها تتخلص من كل شيء وقد تناثرت حياتها القديمة مع الريح، وذابت في الهواء كضبابٍ فوق البحر. يمكن أن تحصل نان على كل شيء – المنزل، الزوج، والطفلة – وسيكون هذا أمراً مروعاً لفينبار، لكن في بعض الأحيان كان على المرء أن يفكر في نفسه.

يمكنها أن تبدأ من جديد وتحت اسمٍ جديد، وألا تأخذ معها شيئاً سوى الكتابة.

يمكنها أن تغيّر لون شعرها، وأن تصبح أنحف أو أسمن، حتى لا يتمكن أحدٌ من التعرف إليها، فهي لم تكن من قبل سوى لغز غير محلول.

بينما كانت السيدة تشيلتون منهمكة على الآلة الكاتبة، وتمشي لمسافات طويلة على الشاطئ، وتتدحرج تحت الأغطية مع زوجها اللطيف الذي كان متيّماً بها.

قال تشيلتون وشفتاه على أذن أغاثا: «حبيبتي أغاثا، لقد كان شعوراً رائعاً أن تصبحي حبيبتي، فالضياع لا يهم».

* * *

بعد فترة وجيزة، في وقتٍ متأخرٍ من الصباح، عاد تشيلتون بالسيارة إلى فندق بيليفورت، وقد وضع معطفه الصوفي البالي على المقعد المجاور له، وكان يقود بيد واحدة. كان المطر من سونينغديل قد شق طريقه شمالاً، وانهمر بلطف، فظهرت ابتسامة على وجهه، وارتعشت شفتاه. لم يكن يعرف

الدور الذي رسمته له أغاثا؛ أن تهرب معه وتصبح السيدة تشيلتون؛ لكنه كان سيوافق على ذلك بكل حب.

للمرة الأولى منذ الحرب شعر وكأنه قد استعاد شيئاً من نفسه؛ ليس براءته، ولا إخوته، ولكن شيئاً رائعاً وفي غاية الأهمية، إرادة للعيش تفوق ألمه على فراق والدته. قبل أيام قليلة فقط، إن سمع بخبر وفاة والدته، لربما كان سيستقل القطار ويعود إلى المنزل، ويُقبل جبين جثتها، ثم يأخذ بندقية والده القديمة ويطلق النار على نفسه، ويرتاح أخيراً.

أما الآن إن سمع الخبر، فسيشعر أنه قادر على الاستمرار لأيام قليلة أخرى، فقط ليرى ما سيحدث. يعتقد تشيلتون أنه عندما ضم أغاثا بين ذراعيه، حدثت المعجزة الأولى من العواطف المتبادلة، ويمكن أن تستمر مشاعر تلك الليلة إلى الأبد. حسناً، لماذا لا تهرب معه الآن؟ بينما كان العالم كله قلقاً، كانت قد ذهبت بالفعل.

عندما ركن تشيلتون سيارته أمام الفندق، رأى السيد ريس وهو يدخن ثم يزفر مطولاً، ويخطو نحو الأمام. جعل المشهد تشيلتون يدرك أنه نسي التدخين لساعات، بل ليوم كامل، فمدّ يده إلى الجيب الداخلي لمعطفه لأخذ علبة السجائر الخاصة به، ثم أوقف نفسه. لم يكن يريد شيئاً مشتركاً مع السيد ريس الذي تخيل أنه من سلالة أرتشي كريستي نفسها؛ ذلك النوع من الرجال الذين لم يشعر تشيلتون بشيء سوى الازدراء تجاههم. لا يعني ذلك أن مثل هؤلاء الرجال قد يهتمون أو يلاحظون، إذ اعتبروا الازدراء مجالهم الخاص؛ محاربون ولا يهتمون إلا بأنفسهم، حتى في أنبل حالاتهم؛ رجال خدموا في الخنادق ورجال خدموا في الجو، وربما كان ريس صغيراً جداً على الانتماء إلى أي من المجموعتين، لكن تشيلتون وضعه بحزمٍ مع المجموعة الأخيرة.

يجب أن أقول إن رأي تشيلتون في أرتشي لم يكن منصفاً، ناهيك عن

قضاء الجزء الأفضل من الليل والصباح في ممارسة الحب مع زوجته، وقد عرف تشيلتون ذلك، لكن التمسك بفكرته السيئة عن الرجل كان جزءاً لا يتجزأ من التشبث بالمرأة.

عندما ترجّل تشيلتون من السيارة، رأى ريس يفعل شيئاً فاجأه، حيث ألقى سيجارته على التراب، وداسها بقدمه، ثم جمع البقايا، ودسها في راحة يده كما لو أنه ينوي رميها بعيداً في وقت لاحق.

لم يظنه تشيلتون أنه من النوع الذي يزيل الفوضى الذي يسببها، وبعد برهة، خرجت السيدة ريس من الفندق مرتديةً معطفاً ومعتمرة قبعة، وابتسمت ابتسامة تعبر عن سعادة لا توصف، وركضت على الفور بين ذراعيه، ونظرت إليه بفرح عميق.

عرف تشيلتون ما يكفي عن العالم حتى لا يتفاجأ بعودة امرأة إلى زوجٍ وحشي، لكن شيئاً ما حول هذا لا يبدو منطقياً، لربما كانت المرأة شخصين مختلفين تماماً.

لاحظ السيد ريس، إدراك تشيلتون لهذا التناقض، فطوق كتفي زوجته بذراعه، وعندما رأت السيدة ريس تشيلتون، تراجعت إلى الوراء بشكلٍ مفاجئٍ إلى حدٍّ ما.

صاح تشيلتون: «طاب يومك سيدة ريس»، وهو يحاول بذل قصارى جهده ليكون مرحاً، فتمتما مرحبَين به بصوت خافت.

انتظر تشيلتون لحظة داخل الفندق، ثم خرج مجدداً، حيث كان الزوجان قد ذهبا، فسار بهدوء والتفت خلفه، حيث وجدهما واقفين معاً، قريبين جداً، ممسكين بمرفقي بعضهما؛ لم يبدوا متحابين فحسب، بل واثقين وحميمين.

لم يجرؤ على الاقتراب بما يكفي لسماع ما يقولانه، لأنهما كانا سيلاحظانه بالتأكيد، ولكنه حاول استراق السمع من حيث كان يقف، وهو

يراقب سراً، وعلى الرغم من عدم تمييز أي كلمات، إلا أنه كان بإمكانه أن يقسم إنهما تحدثا باللهجة الإيرلندية.

* * *

في وقتٍ سابقٍ، عدت أنا وفينبار إلى الفندق في فجر ذلك الشتاء الرمادي؛ قلت: «كنت أفكر، ألا يستطيع أي شخص تدريب الكلاب في إنكلترا وكذلك إيرلندا؟»، ركن السيارة إلى جانب الطريق واستدار نحوي قائلاً: «ماذا تقولين يا نان؟»، فشعرت أنني أعطيته أملاً كاذباً، إذ لم أستطع أن أقدم له ما يريده بالضبط، لكن يمكنني أن أقدم له نسخة منه، وأكملتُ: «أنا أقصد... »، توقفت عن الكلام محاولةً التفكير في كيفية صياغة الكلام، ثم تابعت: «خطتي يمكن أن تبقى في مكانها، ويمكنك أن تكون جزءاً منها؛ فكّرْ يا فينبار. أرتشي يسافر كثيراً، ويعمل طوال اليوم، فقبل عامين فقط غادر إنكلترا لمدة عام كامل، وهكذا يمكن أن نكون معاً في كثير من الأحيان، ويمكنني حتى إحضار جينيفيف إليك أحياناً».

قال فينبار: «يا إلهي يا نان، ماذا أصبحت؟».

كان شعور العار بداخلي دائماً جاهزاً للاشتعال، فقلت بغضب: «لقد أصبحت هكذا منذ شهر آب 1919؛ أصبحتُ أماً تحب طفلتها، ومستعدة لفعل ما هو ضروري؛ هذا ما أصبحت عليه».

ظل فينبار ساكناً لفترة طويلة، وأخيراً قال: «حسناً، يمكننا أن نأخذها نحن الاثنان خارج إنكلترا، إلى أي مكان تريدينه، ونربيها على أنها طفلتنا».

قلتُ له: «كيف أفعل ذلك بها يا فينبار؟ أخطفها؟ لو كانت طفلة كانت سأوافق، لكن الآن؟ ماذا سيفعل ذلك بها؟ وإذا كان هناك جيش يبحث عن أغاثا كريستي، فبالتأكيد سيكون هناك جيش يبحث عن طفلتها؟ ليس لديّ طريقة لإثبات أنها طفلتي، لقد فات الأوان على مثل هذا النوع من العدالة. أتمنى لو لم يكن الأمر كذلك، لكن هذا ما هو عليه».

قال فينبار: «وماذا لو اكتشفت بعد شهر من الآن أنك تحملين طفلي مرة أخرى؟ ماذا ستفعلين عندها؟».

أوه يا فينبار، أوه أيها القارئ. هل يجب أن أعرف وأقدم إجابة لكل شيء؟

أغمضت عيني وبكيت، فضمني فينبار بين ذراعيه، وأمسكني بقوة وهمس في أذني: «كيف يمكنك أن تسمحي لهذا الرجل أن يلمسك إذا كنت تعتقدين حقاً أنه سرق طفلتنا؟».

صمت للحظة، كما لو أنني كنت أفكر في ذلك للمرة الأولى، على الرغم أنني في الحقيقة كنت أفكر في ذلك منذ وقت طويل. لم أَلُم أرتشي بشكل كامل، لقد استفاد من شيء معروض عليه على الفور، من دون التفكير في كيفية حدوث هذا العرض، وهذه هي طريقة تفكير الرجال أمثاله، لكن أرتشي لم يخترع العالم، هو فقط وُلد فيه مثلنا.

قلتُ: «بالطريقة نفسها التي يصنع بها الدبلوماسي السلام بعد الحرب، فوجودي كزوجة له سيكون عقاباً كافياً، خاصة إذا كنت تعيش في مكان قريب».

قال فينبار: «لا أستطيع أن أكون العشيق السري، يفترض بي أن أكون زوجك؛ تعرفين ذلك يا نان؛ علاوةً على ذلك، لست متأكداً من أنني أستطيع مراقبة أرتشي من دون قتله».

ربما كان ذلك مبالغاً فيه، لكنني أعرف أنني قادرة على تشجيع رغبته بما يكفي لأقنعه بفعلها، ولكن لم أستطع المخاطرة بأن يفقد فينبار حريته بسبب قتل أرتشي، أو أن يُقتل أرتشي من أجل هذا الأمر، فمهما كان مذنباً، لم يفعل شيئاً فظيعاً بما يكفي ليستحق الموت كعقوبة.

أكمل فينبار قائلاً: «الإجابة الوحيدة هي أن نغادر هذا المكان معاً».

لم أوافق بصوت عالٍ، كما أنني لم أعارض. في لحظةٍ ما، بينما كان فينبار يحتضنني، أحكم قبضته عليّ، فشعرت أنه صمت يشجعه.

بحلـول الوقـت الذي وصل فيه تشـيلتون إلى فنـدق بيليفورت، كنت قد عدت بالفعل إلى غرفتي، طرق بابي، وعندما فتحتُ له، وضع رواية غالسورثي بين يدي.

قلتُ له: «شكراً لك، هذا لطيفٌ جداً. على الرغم من أنني لا أتخيل أنه سـيكون لـديَ وقـتٌ لقراءتهـا قبـل أن يتوجب عليَ إعادتهـا، إذ يتوجب عليَ العودة إلى لندن في وقت قريب».

قال تشيلتون: «أحقاً؟ اعتقدت أنك ربما ستعودين إلى إيرلندا مع السيد ماهوني».

قلتُ له: «لن أعود إلى إيرلندا أبداً».

يجب أن يكون تشيلتون قد لاحظ؛ لم أقل إنني لن أرحل مع فينبار أبداً.

قـال تشـيلتون: «بالحديـث عـن إيرلنـدا، يجب أن أخبرك بأغرب شـيء؛ سمعت السيد والسيدة ريس يتحدثان للتو، وكان الأمر كما لو أنهما شخصين مختلفين تماماً، ليس فقط لطيفين مع بعضهما، ولكن يبدو أنهما نزلا للتو من قارب أتى من دبلن».

شعرت بحرارة تملأ وجهي، ولم أرده في غرفتي، فقلتُ له: «كما تعلم يا سـيد تشـيلتون، إذا اخترت عدم الكشـف عن مكان السيدة كريستي، ألا يجب أن تعود إلى المنزل؟».

قال تشيلتون بلطف: «أتخيل أن أسباب بقائي مشابهة لأسبابك»، قال كل شيء بلطفٍ، لكن هذا لا يبشر دوماً بالطيبة، أليس كذلك؟

قلـتُ: «ألـن تكـون في ورطة كبيرة عندما يكتشـفون أنها كانت هنا طوال الوقت؟».

قال: «ليست مشكلة إذا لم يرها أحد. أليس كذلك؟».

تذكرت يدي حول عنق الأخت ماري كلير، وتخيلت شاهد القبر خلف الدير، عليه علامة مثل باقي القبور؛ لكن هذا القبر كان لها فقط.

فُتح الباب أسفل القاعة، وظهرت الآنسة الشابة أرمسترونغ بشعرها الأسود، ووجهها اللامع والخالي من أي ماضٍ مزعج؛ لو كان بإمكاني فقط إخراج روحي من جسدي إلى جسدها، وعيش حياتي كلها بشكل مختلف.

قلت: «أوه، يا سيد تشيلتون»، واندفعت ألواح الأرضية لتلتقي بوجهي..

لم يقصد تشيلتون أن يزعجني، على الأقل ليس إلى هذه الدرجة؛ كان جزءاً من وظيفته نزع سلاح الناس وجعلهم عرضة للخطر وجعلهم يتحدثون، لقد فعل ذلك بحكم العادة، وقبل أن أصطدم بالأرض، مد ذراعه السليمة التي تكفي لحماية رأسي من ضربة أشد.

قالت الآنسة أرمسترونغ وهي تقف إلى جانبي: «يا إلهي. هل نضعها في السرير؟».

قلتُ: «لا، أنا بخير»، وجلست وسحبت ياقة ثوبي ثم أكملت: «أنا فقط بحاجة إلى بعض الهواء وبعض الراحة».

قالت الآنسة أرمسترونغ: «اسمحي لي على الأقل أن أسير بك إلى الطابق السفلي لتناول الغداء؛ يُقال إن الجمع بين الهواء البارد والماء الساخن مفيد جداً للصحة، لكنني كنت أشعر بالدوار نوعاً ما منذ وصولنا، ربما هذا ما قتل عائلة مارستون، وكان أشبه بنوع من الصدمة لنظامهما. يجب أن يكون الأمر أسوأ بالنسبة لكبار السن»، ونظرت إلى تشيلتون كما لو كانت تحذره بقلق.

ظل تشيلتون يحدق إليّ بتركيز وسألني: «هل أنت متأكدة من أنك بخير؟».

أجبته: «جيدة جداً. مجرد شعور سخيف قليلاً».

سألت الآنسة أرمسترونغ: «أليست السيدة ريس ممرضة؟».

قال تشيلتون: «لا أظن ذلك».

قالت الآنسة أرمسترونغ: «ربما يمكنك استشارتها لاحقاً».

قلت: «لن يكون ذلك ضرورياً».

قَبِلتُ يد الآنسة أرمسترونغ الممدودة، ووقفتُ على قدمي؛ سآكل معهم قليلاً، ثم سأذهب لرؤية فينبار.

كان عليَ أن أعود إلى لندن. ظللت أخبر نفسي: يوم آخر؛ فقط أعطني يوماً آخر.

راقبني تشيلتون وأنا أخرج برفقة الآنسة أرمسترونغ وذراعها ملفوفة حولي بقلق حقيقي. يمكن للناس أن يكونوا طيبين للغاية، والنساء على وجه الخصوص؛ الطريقة التي تسمح بها امرأة لأخرى أن تتكئ عليها في أوقات الشدة، بشكلٍ طبيعي.

الاختفاء

اليوم الأخير

يوم الجمعة، 3 كانون الأول 1926

هل سُتفاجئون بمعرفة أن معظم النساء، إذا رأين فينبار وأرتشي جنباً إلى جنب، سيخترن أرتشي ليكون الحبيب الوسيم؟ خاصة بعد الحرب؛ بمجرد أن فقد فينبار بريقه البهيج، في حين أن السنوات جعلتني أكثر جاذبية مما كنت عليه كفتاة. شيء ما في الطريقة التي تعلمت بها إخفاء نفسي المحطمة، جعلني أكثر إبهاراً للرجال.

قال أرتشي، وأخذني بين ذراعيه في تلك الليلة في منزل أوين: «أوه يا نان»، لم نكن نعلم ما سيحدث في اليوم التالي، وإذا كنتم تستطيعون أن تغضوا النظر عن أنه حضن زوجته بالطريقة نفسها قبل أربع وعشرين ساعة، فحاولوا أن تفهموا أنه أحبني؛ لقد أحبني حقاً.

هل تعتقدون، كما اعتقد فينبار، أنه كان عليّ أن أكره أرتشي؟ ربما فعلت، عندما بدأ كل شيء، كنت أكرهه، كنت متأكدة من ذلك، وعندما أنظر إلى الوراء الآن، فمن الصعب قول ذلك، لقد تزوجت الرجل بعد كل شيء، وأنجبت منه طفلاً أحبه بشدة وعمق كالطفل الذي فقدته، وأمضيت آلاف الأيام ومئات الآلاف من الساعات مستلقيةً إلى جانبه، مستيقظاً كان أم نائماً.

من هذه الساعة بالذات، الجواب الوحيد الذي يمكنني تقديمه، فيما إذا

كنت أكرهه أو لا، هو: أحياناً، وبطريقةٍ ما؛ إذا كان هذا ما تريدون تسميته بالكراهية.

إذا سُمح لأرتشي في ذلك اليوم والبلد بأكثر من زوجة واحدة، فربما كان لديه عشر زوجات ولكان قد أحبنا جميعاً، مع تفضيلات طفيفة، وهذا لا يعني أنه أحب أغاثا أو أحبني حباً تملكياً. لقد رآني في طريقه، في ملعب الغولف، حيث كان يقف في الخلف، وذراعاه متقاطعتان، ويقيم تأرجحي، وشكلي، وقوس الكرة التي دفعتها؛ كان يقول لي بحضور الجميع: «جيد»، وعندما نكون وحدنا: «جيد، أيتها الفتاة الجميلة».

كان بإمكاني الفوز في لعبة الغولف مع أرتشي، لكنني لم أترك نفسي أفوز أبداً، لقد أرادني أن أكون جيدة، ولكنه لم يردني أفضل منه، كما كان يحب مشاهدتي ألعب التنس في النادي ضد النساء الأخريات، وقد أسعدني أن هذا الجانب مني قد أسعده، فخططت لأسرقه من زوجته على الفور، لكن هذا لا يعني أنني لم أجد متعة في ذلك مطلقاً؛ الركض مرة أخرى، والتأرجح مع المضرب، ثم الفوز.

كل ما قمت به كان لإغواء أرتشي، وسرقته من زوجته، لكن كما اتضح، كنت جيدة في ذلك، بل أكثر من جيدة. ربما كانت بمثابة مباراة تنس، ولا يوجد امرأة أخرى في النادي، أو امرأة أخرى في أي مكان، يمكن أن تنافسني.

قال أرتشي واضعاً يديه على خصري: «أوه يا نان»، كانت شفتاه شهيتين، وكانتا بمذاق الويسكي في المساء. لقد تعلمت الآن كيفية التقوس والهمس، وكيفية التسلق والقهر، وفي الليلة التي سبقت اختفاء زوجة أرتشي، شعرت بضرورة استعادته. الآن، وبعد أن قرر المضي قدماً، لن يكون هناك المزيد من الهفوات أو التردد، وإصراري على وجوده كان أشبه بهجوم سمكة قرش، إما يسبح أو يموت.

ضغطت يدي على فم أرتشـي بقوة كافية لدرجة أنها قد تكون آلمته، ثم أمرته: «اصمت».

أجاب بصوتٍ عالٍ: «نان، أنا أحبك».

أُلقيتُ الأغطية على الأرض، واستقر رأسـي علـى صدره الأملس، ولا تزال أنفاسه تخرج بقوة.

وأكمل: «عزيزتي نان. كم أحبك!».

* * *

في غضون تسـعة أيام، كان سـيخطر ببال أرتشـي أخيراً أن يتساءل بجدية أيـن ذهبـتُ، وسـيكون لديه فتـرة بعد الظهر للهروب مـن فوضى البحث غير المثمر. كان سيسافر إلى لندن، وسيأتي إلى شقتي، وسيصعد الدرج، ويطرق بابي، ثم سـيضع أذنه على الباب عندما لن يجيبه أحد؛ سـيتّضح الصمت في الداخل، وكأنه مكان غير مأهول.

لا شيء في العالم يزيل العلل التي تسببها الزوجة كمرهم العشيقة، حتى عندما كان أرتشي ينصت عبر بابي، كان يعتقد أنني سأفتح الباب وأرحب به ليدخل بابتسامة مغرية، ولن أكون سوى بديل ضعيف، والرضا الذي سأقدمه له سـيكون مؤقتاً وعابراً، يكفي فقط ليساعده على تحمل حزنه الرهيب إلى أن يتم العثور على زوجته.

بقـي بابـي مُغلقـاً، والغرفة على الجانب الآخر منه صامتة، فتحت جارتي العجوز السـيدة كيترينغ بابها، ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها أرتشي، وقد استاءت منه كما فعلت دائماً، فابتسم لها مُجاملاً.

لا يـزال السـؤال يثـور بداخلـه، ومـن المسـتحيل عـدم طرحـه، فسـألها أرتشـي: «مسـاء الخير يا سـيدة كيترينغ. أتسـاءل عما إذا كنت قد رأيت الآنسة أودي؟».

أجابته: «لم أرها منذ أيام، منذ أكثر من أسبوع، على ما أعتقد، لا ألمحها

ولا أسـمع صوتهـا. أتمنـى أن تكـون قـد هربت مع رجلٍ في مثل سـنها»، ثم رمقته بنظرة كالصقور قبل أن تغلق الباب خلفها.

هنـاك كثيـرٌ مـن النسـاء في العالم يسـاعدن الرجال فـي أعمالهم القذرة، ولكن هناك الكثير ممن أخذن جانب بعضهن البعض في لحظات غير متوقعة.

بشـكل غير متوقع أيضاً، سـيجد أرتشـي فترة الراحة التي يريدها، وللمرة الأولـى منـذ أيـام، أصبـح ذهنه فارغاً مـن الحيرة المطلقة. طاف سـؤالٌ على مشاعره للحظة واحدة فقط: أين ذهبت نان؟

نزل الدرج إلى الشارع، وسار بسرعة وأنفاسه متسارعة، غير راغب برفع يديه وتغطية وجهه، لأن البرد سيفسر أي دموع في عينيه. على بعد أميالٍ في هاروغيت لم أكن أفكر في أرتشي؛ بالكاد قليلاً، بالكاد على الإطلاق.

بينمـا كان هـو يفكـر: كم هذا غريب! ما الذي شـجّعها على ذلك؟ عصر المرأة المختفية.

لم يبدأ عصر المرأة المختفية مع أغاثا كريستي. كان قد بدأ قبل ركوب أغاثا في السيارة وانطلاقها بعيداً عن نيولاندس كورنر مع فينبار بوقتٍ طويل، وسوف يستمر لفترة أطول قليلاً؛ لقد اختفينا من المدارس، من مسقط رأسنا، مـن عائلاتنـا ووظائفنـا، وفي يوم من الأيام، كنا سـنمارس أعمالنا، أو نجلس في الفصل، أو نضحك مع الأصدقاء، أو نسير جنباً إلى جنب مع أحبائنا، ثم، سيحدث شيء مريع.

مهما كان ما حدث لتلك الفتاة، ألا تتذكرها؟ إلى أين ذهبت؟

فـي أمريـكا ذهبنـا إلـى منازل فلورنسـا كريتنتون، وفـي إنكلترا إلى منزل كلارك، أو أي منازل تديرها الكنيسة الأنغليكانية في الغالب. في المستشفيات الأسـترالية، أُخـذ الأطفـال من أمهاتهم العاجـزات، أو اللواتي كنَّ تحت تأثير المخـدرات، والبعـض منـا لـم يذهب إلـى أي مكان على الإطلاق، نزفنا حتى

الموت على موائد الجزارين، وقفزنا من الجسور.

عصر المرأة المختفية؛ لقد كان مستمراً منذ الأزل، حيث اختفى الآلاف منا ولم يفتش أي شرطي عنا، ولم تكتب الصحف ولا حتى كلمة واحدة، إذ كنا نغيب طويلاً ونعود بهدوء، إن عدنا على الإطلاق.

كانت خطتي تسير على ما يرام، قبل أن تختفي أغاثا، قبل أن أعرف أن فينبار قد عاد إلى بريطانيا؛ في منزل أوين، كانت ذراعيّ تحتضن بإحكام أرتشي، حيث كان العنصر المهيمن هو الجشع، لكن كانت هناك عناصر أخرى.

قال أرتشي: «أحبك يا نان»، كما لو أنه لا يستطيع أن يقولها بما فيه الكفاية، كما لو أن الكلمات بحاجة إلى أن تتكرر بلا حدود حتى يدع العالم هذه اللحظة تدوم، بسرها اللذيذ المُبهر.

أحببته أنا أيضاً؛ إذا كان هذا هو ما تودون تسميته بالحب.



الاختفاء

اليوم الثامن

السبت 11 كانون الثاني 1926

في خضم كل الاضطرابات، كان عمل أغاثا عالماً آخر يمكنها الذهاب إليه؛ عالماً تزوره بغض النظر عن عالمها، يمكن أن تفقد نفسها هناك غير مباليةً بما يحدث. في القصر الأبدي، كانت تنقر على مفاتيح الآلة الكاتبة: دعهم يبحثون، دع أرتشي يقلق. عندما انهمكت أصابعها بالكتابة، كان العالم كله هو الذي اختفى، وليس هي.

لم أكن محظوظةً جداً، في هاروغيت، في اللحظات التي لم يكن فيها فينبار، راودتني مشاعر الخوف والقلق والشك، وحاولت التركيز على قراءة الرواية التي أعطاني إياها تشيلتون؛ كنت بالكاد قد وصلت إلى الفصل الثاني عندما سمعت طرقاً على بابي، فتحته لأجد السيدة ليش.

قالت لي: «هناك رجل في الطابق السفلي يريد رؤيتك»، عرفت من ملامحها وتجاعيد جبينها، أنها كانت تقصد فينبار، وتغير وجهي فجأة – أضاء – فابتسمت السيدة ليش وسألتني: «أنت لست متزوجة، أليس كذلك يا آنسة أودي».

أجبتها معترفةً: «كلا، أنا لست متزوجة».

ربتت على كتفي لتريحني وقالت: «حسناً، حسناً، اذهبي إلى الطابق السفلي، واخبريه أن يبتهج، هذا كل شيء. ويجب ألا تحضريه إلى غرفتك، فلسنا من هذا النوع من الفنادق».

قلتُ لها: «بالتأكيد، شكراً لك يا سيدة ليش».

كان فينبار جالساً على الأريكة في بهو الفندق وهو يفرك يديه على ركبتيه. وقف، وخرجنا معاً في البرد، حيث تقدمت نحوه، وأدخلت يدي في جيب معطفه، فشعرت بورقة حادة تخز أطراف أصابعي، وسحبت الصورة التي كنت قد أرسلتها له منذ سنوات؛ كانت مقوّسة ومهترئة ومُمزقة الحواف، وفيها ثقوب صغيرة، تشير إلى أنها كانت مُثبتة على أكثر من جدار.

هل سبق لكم أن نظرتم إلى صورة شخصٍ ما – منذ أن كان هذا الشخص صغيراً جداً – وفكرتم، كم هذا مُحزن؟! كل هذا الوعد، كل هذا الأمل؛ ربما كانت الفتاة التي في الصورة قد عرفت الحزن – والدتها المكسورة التي أحضرتها لتلتقط الصورة، رغم كل الصعوبات التي تواجهها – لكنها لم تكن تعرف إلى أين يقودها طريقها. لقد حزنت على أختها، ولكنها كانت واثقة من أنها لا تريد أن يكون مصيرها مثلها، كانت تعلم أن الحرب بدأت، لكنها لم تصدق ذلك تماماً. كيف يمكن لأي حرب أن تصل إلى الشواطئ الإنكليزية؟ هذا غير ممكن. إذا كنتُ قد قدمتُ لتلك الفتاة أي من العقبات التي ستواجهها – كتوقعات – كانت ستقدم حلولاً مُعقدة لكل منها. كان وجه الفتاة في الصورة يعتقد أن هناك أشياء أفضل تنتظرها، كأخذ صورة لجندي سيعود من الحرب تماماً كما كان ويتزوجها، ويصطحبها إلى إيرلندا، حيث سيعيشان بسعادة إلى الأبد.

قلتُ: «أتمنى لو كان لديّ صورة لك من ذلك الوقت. لماذا ترسل الفتيات الصور إلى الجنود وليس العكس؟».

أخذ فينبار الصورة مني بعناية، وكأنها بقايا ثمينة، ثم أعادها إلى جيبه قائلاً: «اسمعيني يا نان. تعالي معي الآن، ولن أحمل هذه الصورة معي بعد ذلك؛ سنأخذ صورة جديدة، ونضعها في ألبوم لنعرضها لأطفالنا».

قلتُ له: «ولكن عندها، لن أكون قادرةً على إظهار نفسي مرة أخرى أمام طفلتنا».

قال فينبار: «كلانا أُصيب بالكثير من الأشياء التي لم نتمنَّها، فأنا لم أرغب في الذهاب إلى الحرب، ولم أرغب أبداً في أن أمرض، ولم أرغب أبداً في مغادرة بلدي، أو حتى باليكوتو، وما لم أرغب به، أكثر من أي شيء آخر، هو ما حدث لك».

أمسكت بيديه وقبلتهما.

فتابع: «سأخبرك بشيء فظيع، لو كان لديّ خيار بأن أحيي كل رجل مات في الحرب منذ عام 1914 حتى الآن - الإيرلنديين والإنكليز والأستراليين والألمان والأتراك، كلهم - أو أن أعيد طفلتنا بين ذراعيك، لكنت سأبقيهم جميعاً أمواتاً».

قلتُ له: «إن كنت تعتقد ذلك يا فينبار، ألا ترى أنني يجب أن أتابع؟».

قال لي: «هناك طريق واحد فقط يعيدك إلى نفسك؛ نفسك الحقيقية يا نان؛ وهذا الطريق هو أن تبقي معي».

قلتُ له: «لكنني لا أريد العودة إلى نفسي، بل أريد الطريقَ إلى جينيفيف»، للمرة الأولى منذ فترة طويلة لم أتخيل وجه طفلتي الصغيرة كوجه الطفلة التي يُزعم أنها تنتمي إلى عائلة كريستي، ولكن كالطفلة التي رأيتها آخر مرة، منذ سبع سنوات، عندما حملتها الأخت ماري كلير بعيداً. تنفست بقوة، كما لو أن رئتيّ تلقتا جرعة من غاز الخردل. ربما كان ألطف شيء يمكن أن تفعله أغاثا كريستي - ليس فقط من أجل فينبار، ولكن من أجلي أيضاً - هو إقناعي بأن الطفلة كان طفلتها بالفعل.

بحلول الوقت الذي وصل فيه تشيلتون إلى الطابق الثاني من القصر الأبدي، كان صوت الآلة الكاتبة لأغاثا مسموعاً؛ نقرة تليها نقرة، نقرات

مبهجة ومثابرة. كان بإمكانه تخيل الطريقة التي سيعيشان بها؛ كان سيعود إلى المنزل كل مساء، ويضع غلاية الماء، وستكون أغاثا مستغرقة للغاية بالكتابة على آلتها الكاتبة لدرجة أنها لن تشعر بوصوله، حتى يأتي إلى الغرفة مع كوب من الشاي. كانت ستقول له أوه، حبيبي، لم أشعر بمرور الوقت، ولن يُمانع تشيلتون ذلك. لقد اعتاد على القيام بكل شيءٍ بنفسه، وسيكون سعيداً بمشاركتها ذلك أيضاً، وسيقول لها تابعي الكتابة، وسأُعدُّ العشاء بنفسي.

الآن، وبمجرد أنه لم يعد غريباً بالنسبة إليها، كانت تفتح له الباب بوجهٍ فرحٍ ومضيء، لأنها تعلم أن عملها لن يكون شيئاً يتشاجران بشأنه، وكان من دواعي سرور تشيلتون أن يسير على أطراف أصابعه بحذر كي لا يُزعجها. لقد أصبح ماهراً في إزالة غلاية الشاي قبل أن تصدر صفيراً، ووضع الكوب بهدوء على الطاولة بجانبها، ومع ذلك ستوبخه لأنه شتت تركيزها. هل يجب أن تقاطعني دائماً؟ كان سيُقبّل رأسها ويذهب خلسةً، تاركاً إياها لعملها.

لكنها في الوقت الحالي تنحت جانباً وتركته يدخل؛ لقد استلقى على السرير الضيق – سريرهما – ومد يده ليأخذ إحدى الأوراق الموضوعة بشكلٍ أنيقٍ على السرير الثاني الخالي، فأخذتها أغاثا من يده، وأعادتها إلى حيث كانت، وعادت إلى مقعدها.

سألها تشيلتون: «ولكن متى يمكنني قراءتها؟».

أجابته: «عندما تطبع وتجلّد، وليس قبل ذلك بلحظة».

عادت إلى الكتابة، وابتسمت، وقد أسعدها اهتمامه.

أثناء نقرها على الآلة الكاتبة، أخبرها بما شاهده بين السيد والسيدة ريس.

سألها بعد فترة: «هل تسمعينني؟ أم أنك تكتبين؟».

أجابته: «أنا أفعل كلا الأمرين»، لكنها وقفت وجمعت القطع المفقودة منه؛ لقد مرت سنوات منذ أن شعر آخر مرة أنه يمتلك ذراعين، لكن أغاثا

لفتهما حول نفسها، ثم قالت بعد مرور وقت ممتع: «لم أكن أعرف أن التقبيل يمكن أن يكون ممتعاً».

لكنها كانت تعلم، أليس كذلك؟ لقد علمت كم يمكن أن يكون التقبيل ممتعاً منذ سنوات، في أيامها الأولى مع أرتشي، عندما كان رجلاً مختلفاً، عندما كان يحميها بدلاً من أن يؤذيها، وما لم تكن تعرفه حقاً، هو كيف يمكن أن يتحول هذا الحب إلى فاجعة. كيف يمكن أن تشعر أنها في عالم لا يوجد فيه شيء لتخسره، وأن تشعر بالسعادة مع محقق شرطة.

ذهب تشيلتون إلى الخزانة وعاد بعلبتي طعام؛ لقد تعهدت بالفعل بعدم تناول طعام معلب مرة أخرى، لكنها وجدت نفسها تتضور جوعاً، لدرجة أنها وجدت أن مذاق هذا الطعام المتكرر رائعاً.

سألته أغاثا: «هل تعرف ماذا أود أن أفعل؟».

أجابها: «الذهاب إلى الحمام».

قالت له: «نزهة طويلة في البرد، يتبعها حمام ساخن».

قال لها: «ما من شيء أفضل من ذلك».

* * *

سارا بخفة، وقد لفّت ذراعه حول ذراعها، حيث كان هناك عدد قليل من السيارات على الطريق. توقف بيطري شاب يقود عربة تجرها الخيول وعرض عليهما الركوب. في البداية، رفضا لكنهما غيرا رأيهما، فركضا وراءه، وناداه، وتسلقا في الخلف عندما أوقف العربة. جلست أغاثا على كيس من القش وسط الأدوات وبدأت تداعب كلب اللابرادور اللاهث الجالس في حضنها، وضحكت عندما لعق الكلب ذقنها، فما كان منها إلّا أن قبّلته.

احمرّ خداها بسبب البرد، وبدا صوت ضحكها كأجراس الريح.

قالت وهي ترفع صوتها فوق صوت الحوافر والمعادن: «أخبرني يا سيد تشيلتون، ما رايك بالكلاب؟».

أجاب تشيلتون: «لا بأس بها»، بينما وضعت أغاثا ذراعيها حول الكلب وضغطت بوجهها على فروه المتسخ، قرر تشيلتون تغيير إجابته: «أنا أحب الكلاب»، وأضاف: «تبدين رائعة؛ تبدين كفتاة صغيرة».

هنا أخطأ تشيلتون، فاختفت ابتسامتها وشحب لونها، وتجعد جبينها ثم قالت: «لكنني لست فتاة صغيرة».

أنزلهم البيطري عند الفندق، وانفصلا بهدوء، تشيلتون إلى غرفة الملابس وأغاثا إلى متجر الهدايا لشراء ثوب سباحة. هذا يعني أن تُظهر نفسها أمام المزيد من الناس، ولكن من كان سيربط ما بين المرأة في الصور، والمرأة ذات الشعر الأشعث التي ترتدي ملابس رجالية؟ لقد رفعت ياقة معطف الآنسة أوليفر الصوفي البسيط حتى بلغ ذقنها على أمل ألا تبدو غريبة تماماً، واشترت من المتجر أبسط ثوب سباحة وجدته، كان باللونين الأخضر والأزرق وبطولٍ يلامس ركبتيها، واشترت قبعة مطابقة أيضاً.

كانت حمامات الكرنك للرجال والنساء ومفتوحة على ردهة تهوئة، رطبة ومليئة بالضباب الناتج عن الماء الساخن، وبالأنفاس القادرة على حجب كل هو مرئي عبر السقف الزجاجي، على عكس حمامات بيليفورت. كان تشيلتون قد نزل بالفعل في الحوض عندما عادت أغاثا من غرفة الملابس مرتديةً رداءً سميكاً تابعاً للمنتجع. تصاعد البخار من حولهما وهي تخلع رداءها وتبتسم لتشيلتون، وتدخل بحذرٍ شديد في الماء الساخن، متأرجحة من الألم والمتعة بينما تنزل في الحوض، ثم تبتسم له مرة أخرى.

شعر تشيلتون بالضيق، وندم على مغادرة القصر، كان خائفاً أن يُكشف أمرهما، وقال: «أغاثا».

نظرت بقلق إلى الآخرين في الحوض، خشية أن يسمعوا اسمها ويربطوه بعناوين الصباح، لكن الشخص الوحيد الذي بدا أنه لاحظ ذلك كان شابة

ذات عينين لطيفتين لا تعتمر قبعة: الآنسة كورنيليا أرمسترونغ.

قالت الآنسة أرمسترونغ: «أوه مرحباً، لا بد أنك السيدة تشيلتون. تعالي وانضمي إلى زوجك؟».

ابتسمت أغاثا، وفرح تشيلتون جداً بقولها: السيدة تشيلتون.

قالت أغاثا: «نعم، لقد ادعى أن هذه رحلة عمل، لكنها بدت لي وكأنها عطلة، ولذلك قررت مرافقته».

قال تشيلتون للآنسة أرمسترونغ: «اعتقدت أنك لا تحبين هذه المياه الساخنة».

قالت الآنسة أرمسترونغ: «أوه، على الإطلاق يا سيد تشيلتون. يجب على المرء أن يستمر في تجربة أشياء جديدة، وعندما فكرت كم كانت ستعارض أمي هذا الحمام بالذات، لم أستطع المقاومة؛ رجال ونساء يستحمون معاً، فهذا فاضحٌ للغاية».

قالتها الآنسة أرمسترونغ كما لو أنها كانت التعبير الأكثر بهجة في اللغة الإنكليزية، ثم تابعت: «أنا مصممة على الاستمتاع بهذا، بغض النظر عما حدث مع السيد والسيدة مارستون»، ثم قالت لأغاثا: «هل أخبرك زوجك؟ عن كل ما يحدث في فندقنا الصغير؟».

أجابتها أغاثا: «نعم، هذا محزن للغاية».

قالت السيدة أرمسترونغ: «ليس لديك فكرة، فأنا متأكدة من عدم قدرة أي رجل على سرد قصتهما بشكل صحيح؛ كانت قصة حبهما شيئاً مميزاً، بعد كل تلك السنوات من الشوق ليكونا معاً، وبعد ذلك عندما وصلا أخيراً، عندما حانت اللحظة التي يتوقان إليها، سُلبت كل سنواتهما القادمة، بهذه البساطة. هناك عبرة في ذلك، ألا تعتقدين ذلك يا سيدة تشيلتون؟ يجب على أي شخص ألّا يضيّع وقته في التعاسة».

قالت أغاثا: «هذا صحيح تماماً، فأنا أفضل أن أقضي وقتي بسعادة».

فكّر تشيلتون: لو أستطيع إقناعها بركوب القطار في الصباح الباكر، عندها يمكننا أن نمضي ما بقي من حياتنا بسعادة.

ما بدا أنه جعل كورنيليا أرمسترونغ سعيدةً في الوقت الحالي، كان نهاية مُفاجئة وحزينة للسيد والسيدة مارستون.

انتقلت الآنسة أرمسترونغ للجلوس بجانب أغاثا مباشرةً، وشعر تشيلتون بالامتنان لأنه لم يكن أي من نزلاء الفندق مُطلعاً على المعلومات حول السم الذي تم اكتشافه في كل من جثتي السيد والسيدة مارستون.

قالت الآنسة أرمسترونغ لأغاثا: «هل تعلمين أن السيدة مارستون كانت راهبة قبل أن تتزوج من السيد مارستون؟».

نظرت أغاثا إلى السيد تشيلتون: «لمَ لم تقل ذلك؟»، وتغير الوضع من اهتمام بدافع التهذيب إلى اهتمام حقيقي.

قال تشيلتون: «هي طلبت مني ذلك، وقالت لي ألّا أخبر أحداً، لكنني أعتقد أن هذا لا يهم الآن». استعد تشيلتون، لأنه كان يعلم أن شيئاً مهماً على وشك أن ينكشف، على أمل ألا يلاحظ أحد تسارع دقات قلبه.

قالت الآنسة أرمسترونغ بصوتٍ مرتبك وحنون: «لقد كانت راهبة، وكان السيد مارستون قساً. أوه، يبدو الأمر وكأنه رواية، أليس كذلك؟ الاثنان مُمزقان وفي حالة حب، وقد عملا كل تلك السنوات جنباً إلى جنب حتى لم يعودا قادرين على التحمل، فتخليا عن وعديهما وهربا، كي يتمكنا من البقاء معاً»، أخفضت الآنسة أرمسترونغ صوتها وهمست: «أتعرفين؟ أنا لست متأكدةً حتى من أنهما قد تزوجا حقاً، ولكن قد يكون هذا لمجرد رغبتي في المزيد من الفضيحة»، وضحكت ضحكة لطيفة ومبهجة.

سأل تشيلتون بحذر: «هل تعلمين من أين جاءا؟».

أجابت الآنسة أرمسترونغ بحماسة، كما لو أنها تتحدث عن مشروع خيري: «دار للأيتام. لقد كانت السيدة مارستون شخصاً مُحباً، كان ذلك

واضحاً وضوح الشمس، وأنا متأكدة من أنها اهتمت بكل أولئك الأطفال بشكلٍ رائع».

سأل السيد تشيلتون: «أنا متأكد من أنها فعلت. هل قالت أين تقع دار الأيتام هذه؟».

أجابت الآنسة أرمسترونغ: «مقاطعة كورك، في إيرلندا، وأتذكر اسم المدينة، اسمها شاعري جداً».

نظر تشيلتون إلى أغاثا قبل أن تتمكن الآنسة أرمسترونغ من نطق اسم سندي كورنر؛ كان بإمكانه أن يرى من تعابير وجهها أن كل شيء أصبح واضحاً في عقلها وكذلك في عقله.

ربما توقعتم أنتم كذلك في تلك اللحظة، مع تشيلتون وأغاثا: السيدة مارستون والأخت ماري كلير كانا الشخص نفسه، أو ربما اكتشفتم ذلك قبل عدة صفحات. لم أستطع إنهاء حياة الأخت ماري كلير في ذلك اليوم في سندي كورنر عندما ضغطت بأصابعي حول عنقها.

كان سقف الحمامات رطباً وعالياً؛ لم يعد تشيلتون يخشى شيئاً، بعدما ظهر الترابط جلياً بين القضيتين، والعنصر الذي يربط بينهما، وهو أنا.

تمتمت أغاثا: «هذا مضحك، حماتي ليست بعيدة عن سندي كورنر».

سألت الآنسة أرمسترونغ السيد تشيلتون: «هل والدتك إيرلندية؟ السيدة مارستون كانت مرحة للغاية، أليس كذلك يا سيد تشيلتون؟».

هزّ رأسه مرة أخرى؛ كان لدى السيدة مارستون نوع محدد من المرح الزائف، ذاك المرح الذي يخفي شيئاً ما، وتمنى أن تكون هناك طريقة لإيصال هذا إلى الآنسة أرمسترونغ الشابة، وبدا وكأنه درس مهم للشباب، يمكن أن يكون المرح أكثر خطورة من الغضب، وعليهم توخي الحذر.

سألت أغاثا: «وإلى أين ستعودين يا آنسة أرمسترونغ؟».

أجابت الآنسة أرمسترونغ: «مونديسلي».

قالت أغاثا: «جميل. أنا أفضل البحر على الريف، حتى في الشتاء. لا تهمني الينابيع الطبيعية الموجودة في أي مكان، فكل هذا جيد، ولكن لا يوجد مكان منعش مثل شاطئ البحر. هل تعلمين أن والدتي تؤمن بأن الماء المالح يعالج كل شيء؟ من البقع حتى أمراض القلب».

قالت الآنسة أرمسترونغ: «والدي يقول الشيء نفسه».

بدت أغاثا مُنتعشة، ومُسترخية في الماء الساخن، فانخفضت حتى غطت المياه أذنيها للحظة، وكأن هناك أحداً ما يعارضها وهي لا تريد أن تسمعه.

هبت رياح باردة من الخارج، قوية لدرجة أن القليل من البرد تسلل إلى الداخل، واهتز السقف الزجاجي كما لو أنه أضعف مما بدا عليه، ورحّب تشيلتون بأغنية الحب التي غنتها أغاثا.

ارتدى تشيلتون وأغاثا ملابسهما، وخرجا وشعرهما لا يزال رطباً.

قالت أغاثا وهما يسيران: «هل تعرف ما أحب أن أتخيله؟».

لم يناقش أي منهما ما عرفاه، لكنهما توصلا إلى اتفاق صامت، وهذا ما اعتبره تشيلتون حباً عندما يعمل عقلكما في تناغم.

يبدو أن أغاثا تعرف أنه في الوقت الحالي هناك أشياء أكثر أهمية من علاقتهما الرومانسية، فقالت له: «أحب أن أتخيل أنها لم تكن نان فقط، بل أن كل امرأة تقيم في فندق بيليفورت لها يد في ذلك، فعندما تفكر في كل الفتيات اللواتي مررن بذلك المكان، يبدو من المؤسف أن ينتقم شخص واحد فقط، بينما استحق الكثيرون هذا الانتقام».

كان هذا آخر شيء توقعه تشيلتون، فقال لها: «أفترض أنني سأضطر إلى الحصول على اعتراف من نان».

قالت أغاثا: «لن تفعل مثل هذا الشيء».

قال تشيلتون: «لكن يا أغاثا، نحن نتحدث عن جريمة قتل؛ ليست لعبة».

قالت أغاثا: «ما يسميه البعض القتل، يسميه البعض الآخر عدالة».

توقف تشـيلتون عن المشـي لكن أغاثا اسـتمرت بخطوات ثابتة، فوضع يديه في جيبيه، وفكر في القتل الذي ارتُكب في الحر.و الجثث تحت قدميه وهو يركض في المنطقة المحرمة.

كل ذلك صادق عليه العالم، بل طالب به، وربما يكون لدى المرأة مقياسٌ مختلـف، للحـالات التـي يكـون فيهـا من المقبـول، أو حتى مـن الضـروري، ارتكاب جريمة قتل.

هنا ترقد الأخت ماري

بعـد فتـرة وجيـزة مـن هروبي، تـم إطلاق سـراح فيونا مـن الدير لتعمل خادمـة لـدى عائلـة في سـندي كورنـر، وكانت تواظب علـى تحضيرخدمات الأب جوزيف في كنيسـة الرعية، وتراكمت الرسـائل التي كانت ترسـلها لي، والتي كانت مليئة بأخطاء إملائية وابتهاجٍ كاذبٍ، كادعائها بأنها لن تكون أكثر سعادة أو أماناً، وأنها تصلي كل يوم من أجل طفلها الصغير؛ فكتبت: «آمل ألا يُخبر من أين أتى، فالراهبات دائماً يعرفن ما هو الأفضل لنا، أليس كذلك؟».

عند قراءة هذا السـطر، مزقت رسـالة فيونا إلى مئة قطعة. كما كتبت لي بيـس: «لا تغضبـي مـن فيونـا، لقد نشـأت على يد الراهبـات، وإذا كان إيمانها بهن يمنعها من الجنون، فمن نحن لنمنعها من ذلك؟».

لم أسـتطع منع نفسـي من الجلوس والكتابة لأخبر فيونا كيف أن طفلها الصغير سيظل دائماً يتذكرها في أعماق عظامه ودمه، فكتبتُ: «لا يترك الطفل رحم أمه بالكامل، إذ لا تزال آثار طفلك – الخلايا التي تشكله – موجودة في داخلك».

كتبتْ مرة أخرى لتخبرني أن الورود في ذلك العام كانت أجمل ما رأته على الإطلاق، وذهبت إلى الدير لتشـتري الحليب والفجل لأسـرتها، وبدت جميع الراهبات في صحة جيدة.

فـي فيلادلفيـا، حاولـت بيس أن تكون سـعيدةً، إذ ينبغـي ألّا يكون الأمر بهذه الصعوبة. كان زوجها رجلاً طيباً يعشقها، ووجد عملاً جيداً بصفته مديراً لحوض بناء سفن، وكانا يعيشان في منزل أبيض في حي لطيف.

انتظر الزوجان أن تُملَأ غرفتا النوم بالأطفال: أراد زوجها ولدين، وفتاتين، ولكن عندما دخلت بيس إلى الغرفتين، لم تتخيلهما خاليتين من أطفال المستقبل، بل خاليتين من رونان، الذي كان يركل ويسبح بداخلها، واعداً إياها بقدومه، ثم ظهر على شكل كتلة باردة لا تتنفس.

كانت تسأل زوجها في وقتٍ متأخر من الليل: «هل تتذكر كم كان جميلاً؟»، وكان يمسكها بين ذراعيه ويقبل شعرها ويتمنى يوماً ما أن تجد طريقة لتجاوز هذا كله.

اعترفت لطبيبها قائلة: «لكن لا يمكنني تجاوزه، لقد تركني خائفةً جداً»، كان أصلع وذا حاجبين داكنين بشكل صادم، ومليئاً بالعاطفة.

قال لها الدكتور ليفين: «أنت بصحة جيدة، فلا داعي للخوف؛ لا تزالين شابة».

سألت بيس طبيبها: «هل تعتقد أن الكاهن هو من تسبب في ذلك؟ في ولادة طفلي ميتاً؟»، كانت قد أخبرته في زياراتها السابقة عن معاناتها، مبررةً له الندوب التي وجدها عندما فحصها للمرة الأولى وقلقه من كون زوجها هو الجاني.

رفع عينيه إلى السقف قبل أن يجيب؛ فكر كثيراً، وكان يرغب في منحها إجابة صادقة، ثم قال أخيراً: «لا أستطيع أن أؤكد هذا، لكنني أعلم أنه لم يساعد».

بكت وراح يربت على كتفها. لم تترك بيس إيرلندا غير قادرة على قبول اللمسات من رجل، فكانت قادرة على تقبل تربيت الدكتور ليفين على كتفها، والاستمتاع بممارسة الحب مع زوجها، إذ لم يسلبها الأب جوزيف ذلك.

لكنها لم تستطع استعادة ما آمنت به من كل قلبها، وكانت تمشي خارج منزلها المريح، وفي يدها كوب من القهوة – قهوة أمريكية الآن، لا مزيد من الشاي – لتودع زوجها وهو يسير في طريقه للحاق بالقطار إلى العمل،

وبمجرد أن يصبح بعيداً عن الأنظار، تبدأ الأمهات في القدوم إلى الساحات الجميلة مع أطفالهن. كانت بيس تتخيل رونان بينهم وهو في عربة الأطفال، ويلاحق قطة في الحديقة، ويلعب بالألعاب، والطباشير على الرصيف.

يجب أن يكون هنا؛ لا بد أن يكون هنا.

كتبت لي: «أريد أن أترك حياتي القديمة ورائي، وأنا أرسل الرسائل إليك وإلى فيونا وأختي كيتي، وبصرف النظر عن ذلك، أنا مهتمة فقط بما هو موجود هنا، هنا والآن».

حتى عندما كتبت الكلمات، كانت تعلم أنها لم تكن صحيحة تماماً؛ لقد أرادت بيس أطفالاً؛ كانت لتملأ الغرفتين في الطابق العلوي بسعادة وفرحة، ولكن كيف ذلك والأب جوزيف على قيد الحياة، على عكس رونان؟ الكراهية في قلبها لا علاقة لها بكونها أماً، ولن يداويها سوى شيء واحد في العالم.

مثل هذا الشيء لا يبدو ممكناً أبداً، حتى وصلت رسالة من فيونا كتبت فيها بعض الأحداث التي تجري في سندي كورنر: لقد وقعت الأخت ماري كلير والأب جوزيف في الحب، ونقضا عهودهما.

كتبت فيونا: «هناك ثرثرة في القرية أكثر من أي وقت مضى، وقد أخبرتني الأخت ماري كلير بأنهما سيتزوجان الشهر المقبل، ثم سيغادران إلى يوركشاير لقضاء شهر العسل في مكان يدعى فندق بيليفورت، وأخبرتني أنه عليّ أن أبدأ بمناداتها بالسيدة مارستون لأن هذا سيصبح اسمها قريباً جداً».

من السهل أن تتخيل بيس الضحكة المُبهجة التي تلت حديث الأخت ماري كلير، فلا بد من وضع خطة بسرعة، لكنها عرفت أنه من الأفضل الانتظار حتى تصل الأخت ماري كلير والأب جوزيف معاً إلى إنكلترا، وكان لديّ الرغبة نفسها بداخلي.

الاختفاء

اليوم الخامس

الأربعاء 8 كانون الأول 1926

عرفت وبيس جيداً أن تشيلتون كان يتنصت عند الباب؛ ليس لأننا سمعناه – كان أهدأ من الفأر – ولكن لأننا توقعنا منه أن يراقبنا، وكنا نعلم أننا سنواجه المخاطر مع خطتنا لقتل شخصين يبدوان بريئين. لم نكن نعلم أننا سنضطر أيضاً إلى التعامل مع زوجة حبيبي، والمحقق الذي كان يبحث عنها، ناهيك عن فينبار، الذي جاء ليعيدني.

قالت بيس بصوت عالٍ: «لقد تلقى دوني برقية»، لدرجة أنني كدت أضحك على اختراعها ذلك، وتابعت: «علينا إنهاء الأمور، والعودة إلى الولايات المتحدة»، جلست على السرير بجانبي، ولفّت ذراعها حول ذراعي، وحدقنا إلى بعضنا. بغض النظر عما سيحدث بعد ذلك، فقد كان الأمر يستحق ذلك.

كان الحصول على السموم سهلاً للغاية، على الرغم من أن شراء سيانيد البوتاسيوم كان غريباً في فصل الشتاء، لعدم وجود دبابير. ذهبت إلى متجرين مختلفين في لندن، أحدهما لشراء سيانيد البوتاسيوم والآخر للأستركنين، وهنا يكمن جمال المدن الكبيرة المكتظة بالسكان، حيث لن يتذكرني أحد أو يفكر في ربط المواد بأي حالة وفاة في يوركشاير. ربما لم يقرأ أرتشي كتاب أغاثا، لكنني قرأته، وكنت أعرف أن السم هو أفضل طريقة للقيام بجريمة قتل سريعة وسهلة؛ من السهل ارتكابها، ولكن من الصعب حلها.

لم تكن الأخت ماري كلير أو السيدة مارستون غافلة وغير واعية، قولاً وفعلاً. في فندق بيليفورت، نظرت إليّ مباشرة، ولكن ليس إلى وجهي؛ كانت فقط تلقي نظرات خاطفة، وكذلك الأمر مع بيس؛ إذ اعتادت السيدة مارستون النظر إلى كل منا والتحدث عن نفسها، تماماً كما كان يحصل في الدير، فابتسمت، وتحدثت، واضعةً يديها الممتلئتين على كتفينا كما لو أنها مغرمة بنا، ولكن عندما ظهرنا مرة أخرى في حياتها، لم تتعرف إلى أي منا، فبالنسبة إليها كانت كل الفتيات متشابهات، وكما قال هاملت: «قد يبتسم المرء ويبتسم، ويكون شريراً».

لكن الرجل لم يكلف نفسه عناء الابتسام، على الأقل بالنسبة إلينا، لكن كان هناك استثناءات لبعض الفتيات. عرف الأب جوزيف بيس لحظة وقوع عينيه عليها في غرفة الطعام في الفندق، ولم تشعر بيس بالخوف بعد قيامها بما يجب القيام به؛ لم تشعر بشيء على الإطلاق؛ كانت فقط سعيدة بمشاهدة انزعاجه، فهي كانت تعرف أنه سيموت قبل أن يتمكن من تنبيه زوجته إلى هويتنا.

تسببت شقيقة بيس، كيتي، وزوجها كارمايكل، اللذين تظاهرا بأنهما زوجان إنكليزيان غير سعيدين، في حدوث الإلهاء الضروري؛ وهو خلاف كبير جذب انتباه جميع الحاضرين، فتمكنت بيس من التقدم وحقن إبرة السم في خاصرة الأب جوزيف، ثم أعادتها بسرية إلى جيب فستانها قبل أن يشعر بالوخز.

لم تكن كيتي – التي تظاهرت بأنها ممرضة – إلى جانبه لمساعدته، بل للتأكد من موته؛ كانت لديها إبرة أخرى في جيبها تحسباً، لكن تبيّن أن ذلك لم يكن ضرورياً.

لم تكن بيس فرحة بمشاهدة الرجل يموت، فهي لم تكن قاسية، لكنها كانت مهمة بغيضة لا بد منها، وبما أن العالم لم يقدم أي عدالة، فكان علينا صنع العدالة الخاصة بنا.

الطفلة الصغيرة كيتي، التي أخبرتني عنها بيس في إيرلندا – تلك الفتاة الجميلة البالغة من العمر اثني عشر عاماً التي أرادت أن تشارك في الخطة – والتي نشأت لتتزوج شاباً ليس فقط ينعم بثروة عائلية، ولكن أيضاً بتطلعات مسرحية. حققت كيتي أعظم أداء في حياتها المهنية بمساعدته، وبقيت هي وكارمايكل في الفندق بعد ذلك، وتابعا الحيلة، لذلك لن يشك أحد في أن الخلاف بينهما مرتبط بموت السيد مارستون.

في غرفتي في فندق بيليفورت، عندما كان تشيلتون يضغط أذنه على الباب، قلت بصوت عال أيضاً: «أتمنى أن يكون كل شيء على ما يرام».

قالت بيس: «نعم، كل شيء على ما يرام، كل شيء ممتاز»، ثم قالت بصوت هامس لا يمكن سماعه بغض النظر عن مدى قرب تشيلتون من الباب: «ستبقى كيتي وكارمايكل، وقد دفعا ثمن غرفتك حتى نهاية الأسبوع المقبل، ولكننا سنرحل، سنعود إلى أمريكا، ويجب أن تأتي معنا».

هززت رأسي رافضة.

قالت بيس: «ابقي في إنكلترا إذا كان يتوجب عليك ذلك، لكن عودي إلى لندن؛ اخرجي من هنا بأسرع وقت ممكن».

قلت لها: «هذا سيجعلني أبدو مذنبةً، أليس كذلك؟»، لكنني لم أفكر في ذلك، بل فكرت في فينبار، فسرعان ما سأضطر لمواجهة حياتي كلها من دونه، لكنني لم أكن مستعدة لفعل ذلك بعد، كنت بحاجة إلى مزيد من الوقت، حتى لو زاد ذلك من خطر الإمساك بي.

عانقتُ بيس، وأمسكتُ بيدها، كنا نمسك بملابس بعضنا، وكل واحدة منا دفنت وجهها في رقبة الأخرى؛ لقد نجحت خطتنا، ولم يعد يهمنا هل سيكتشفها العالم أم لا. بعد أن أخرجت الأب جوزيف من العالم، ستتمكن بيس من الاستمرار في حياتها. لم نكن نعلم أنها كانت تغادر إنكلترا حاملاً بالفعل بطفلة صغيرة، والتي ستولد – بصحة جيدة – في أيلول من ذلك العام.

اهتممت أنا بالأخت ماري كلير، عن طريق إحضار كوب من الشاي إلى بابها.

قالت الراهبة السابقة، عندما ظهرت أمامها عند باب الغرفة: «أوه، يا عزيزتي، ما أجمل أن تأتي إلَي! أخشى ألا أكون قادرة على النوم الليلة»، كان وجهها منتفخاً ومتلطخاً، فغطته بيديها وبكت أكثر.

مشيت إلى سريرها، وجلست إلى جانبها، ووضعت الكوب بين يديها، وقلت بصوت هادئ: «اشربي هذا، وضعت فيه القليل من البراندي»، كنت أرتدي ملابس النوم، وشعري منسدل على كتفي، أما هي فقد جمعت شعرها تحت قبعة النوم، واستطعت أن أرى بريق الكريم على وجهها، فهي لا تزال تعتني ببشرتها على الرغم من حزنها.

قالت لي: «أوه يا حبيبتي. أعطاني الطبيب منوماً، لكن قلقي تغلب عليه»، وأخذت الكوب، وارتشفت منه.

حب الإنكليز للشاي واعتقادهم بأنه حلٌّ لأمراض الحياة، يجعل من السهل تسميمنا.

ثم تابعت قولها: «لا أعرف أين سأذهب غداً. كانت لديّ أنا والسيد مارستون خطة، إذ كنا سنذهب إلى مانشستر، حيث ترعرعت، قبل أن أرسل إلى إيرلندا»، كانت تتحدث مع نفسها، ولم تدرك أنه سبق لي أن سمعت هذه القصة، وأكملت: «لكن عائلتي لم تعد موجودة، فكيف يمكنني القيام بذلك من دون السيد مارستون؟ لم أعش بمفردي قط، كما ترين، لقد اعتدت أن أكون راهبة، أتصدقين ذلك؟».

قلت لها: «أوه، بالطبع أصدقك يا سيدة مارستون».

كانت تبكي وترشف، تبكي وترشف، فجلست إلى جانبها وربت على ركبتها؛ لقد مرت سبع سنوات فقط. أنا الآن في السابعة والعشرين من عمري، وأبدو مقبولةً كما كنت في العشرين. كانت تراني كل يوم، وكانت معي عندما

ضحكت جينيفيف للمرة الأولى، وكانت آخر شخص رأيته يحمل طفلتي؛ حدقت إليها، وأردتها أن تحدق إليّ هي الأخرى.

أعطتني الكوب الفارغ وقالت: «خذي يا عزيزتي».

وضعته على الطاولة بجانب السرير، وسأتأكد لاحقاً من مسح بصمات الأصابع والبقايا.

استلقت الأخت ماري كلير، ومدت يدها، وأمسكت بيدي قائلة: «ستبقين معي، أليس كذلك؟ حتى أنام».

قلت لها: «طبعاً سأفعل»، ثم أغمضت عينيها.

إذا انتظرت، فسيقتلها السم، ولكن على عكس بيس، كنت أرغب في وضع اليد على معذبتي، وسيجد الطبيب الشرعي الإستركنين، ولكنني كنت سأقتلها قبل أن يأخذ السم مفعوله، فدندنتُ بعض الكلمات من الأغنية نفسها التي لطالما كانت مولعة بها، ولكن حتى ذلك لم يجعلها تشك. ابتسمت قليلاً، وقالت بهدوء وهي مغمضة العينين: «أوه، أنا أحب هذه الأغنية».

مرت لحظات، ثم دقت الساعة في الطابق السفلي، فالتقطت وسادة لا شك في أنها كانت تحت رأس الأب جوزيف في الليلة السابقة، ثم هززت الأخت ماري كلير للتأكد من أنها لم تنم، فرمشت عيناها، وابتسمت لها إذ أردتها أن ترى الحب واللطف في وجهي، فابتسمت لي بالمقابل. ثم ضغطت بالوسادة على وجهها.

لقد قمت بمخاطرة واحدة، في المنتصف، أبعدت الوسادة عن وجهها لأقل من ثانية؛ لقد كافأتني الأخت ماري كلير بالتعبير الصادق الثاني في حياتها: الخوف، والصدمة، والألم، وفي تلك اللحظة كنت أستطيع إخبارها من أنا، لكنني أحببت إضافة الارتباك إلى المشاعر الرهيبة التي تغلبت عليها، ولذلك ضغطت الوسادة، وأمسكت بها، حتى توقفت عن الكفاح، حتى توقفت عن التسبب في الأذى، حتى ركن جسدها وتوقفت أنفاسها. عندما

أبعدت الوسادة، لم يكن وجهها يحمل أي ابتهاج أو لطف زائفين، ولم تنطق شفتاها بوعود فارغة. كل ما كان لديها هو عينان فارغتان، مفتوحتان لكنهما لا تبصران، وفم متجمد ومفتوح في محاولة غير مجدية للعثور على الأوكسيجين.

لسنوات جذفت في اتجاهات لم أنوِ الذهاب إليها مطلقاً، وقد ارتكبت أخطاء، وتصرفت عن طريق الصدفة أو بحتمية، لكن في هذه اللحظة، أتيحت لي أخيراً فرصة كتابة قصتي؛ يجب ألّا يصبح الكون ضدي لأنني كوفئت مرة واحدة تقريباً بأيامي في القصر الخالد.

تغير الهواء، وأصبحت الجسيمات المشحونة خاملة عندما كانت الأخت ماري كلير ميتة أمامي، فهدأ الغضب بداخلي، وكأن عاصفة عنيفة قد انتهت.

م تبارحني الرغبة في القتل أبداً، إلى أن أنهيت المهمة.

الاختفاء

اليوم الثامن

السبت 11 كانون الأول 1926

كان فينبار في الطابق السفلي يشعل النار في المطبخ عندما عاد تشيلتون وأغاثا إلى القصر الخالد؛ كان هناك زجاجات نبيذ على الطاولة بجانب صينية عليها ثلاثة أرغفة من الخبز الطازج، وأنواع مختلفة من النقانق، وجبن سوالديل، وعلب خوخ.

قال لأغاثا: «قلت إنك تعبت من التحدث، لذلك ذهبت في مهمة استكشافية صغيرة».

قالت: «ألست حبيبي؟».

عبس تشيلتون قليلاً، بينما جلست أغاثا مرهقة تفكر في هذه الأيام، فهي لا تزال غير قادرة على رؤية شكل واضح للمستقبل. أحضر تشيلتون كرسياً، وجلس إلى جانبها، وأخبر فينبار بصوت هادئ بما توصلوا إليه معاً؛ هوية السيد والسيدة مارستون الحقيقية، ودوري في قتلهما. استمع فينبار بوجه جامد وغامض، وعندما انتهى تشيلتون، قال له فينبار: «جيد».

قال تشيلتون: «جيد؟ بالله عليك يا رجل. لا يمكنك أن تعني ذلك حقاً».

قال فينبار: «لكنني أعني ذلك».

سكبت أغاثا النبيذ في كأس، إذ بدا أن هذه هي الليلة المناسبة لاستثناء امتناعها عن ممارسة الجنس. خطرت ببالها فكرة توجهي إلى السجن، وهذا

ما أسعدها، فهي لن تتخلص مني فحسب، بل ستعاقبني على الألم الذي سببته لها، ولكن حتى قبل هروبنا، الذي كان متبادلاً عن طريق الخطأ، لم يكن مثل هذا الشيء سيجعلها سعيدة، فهي ليست من هذا النوع، ولن تكون كذلك أبداً.

قد تكون أغاثا قادرة على تخيل مؤامرات الانتقام لأشخاص آخرين والمرارة التي دفعتهم إلى ذلك، حتى إنها قد تتعاطف معهم، لكن لن تستطيع أن تتولى أمرهم بنفسها.

سأل فينبار: «ماذا سيحدث بعد ذلك؟».

قال تشيلتون: «أخشى أنني سأضطر لإخبار شرطة يوركشاير بما أعرفه حول هوية السيد والسيدة مارستون، وأن نان وصديقتها مذنبتان؛ أخشى أن يأخذوهما إلى التحقيق».

قال فينبار: «ليس اليوم».

قالت أغاثا موافقةً: «نعم، ليس اليوم».

التفت إليها تشيلتون، كما لو أن فينبار لا يسمع، وقال: «لكن يا أغاثا، سيمنحه ذلك الوقت الذي يحتاجه للهروب معها».

قالت أغاثا: «وهل سيكون ذلك سيئاً للغاية؟ في بعض الأحيان يكون الهروب هو بالضبط ما نحتاج إليه».

بدا تشيلتون مرتاباً، فكم مهمة كان عليه أن يتجاهلها قبل أن ينتهي كل هذا؟ ماذا لو أرادت أغاثا هروب نان كي تعود إلى زوجها؟ على الرغم من أن اعتقالي بالتأكيد سيحقق النتيجة نفسها، وما كان أرتشي ليقف بجانبي خلال محاكمة في جريمة قتل، وربما لم يكن ليقف بجانبي إذا سمعني أتحدث بلهجة الطبقة العاملة التي كنت أتفاداها بعناية.

قالت أغاثا بهدوء، وهي مدركة بسرور قوة تأثيرها على تشيلتون: «يوم آخر، ربما يومان».

يـوم آخـر معفـى مـن الوقت والتداعيـات، يوم آخر بلا مسـؤوليات، يوم آخر تشعر فيه كما لو أن والدتها لم تمت، ولم يتركها زوجها أبداً؛ في الواقع كما لو أن كليهما لم يكونا موجودين على الإطلاق؛ ليجعلها تشعر بالفرح أو الألم، فلماذا لا نمنحهم يومين آخرين؟ أو حتى ألفَ يوم؟

قالت أغاثا مرة أخرى: «يوم آخر، واحد فقط، وسنقرر غداً. هل سنضع خطة؟». كان أسـلوب الاسـتفهام ضربة رائعة من أغاثا، لأنها جعلت تشـيلتون في وضع يسمح له بالمناقشة.

قـال فينبـار: «تعاليـا معـي»، وكأنهم جميعاً قد توصلوا إلـى اتفاق، فأخذ الصينية وغادر المطبخ، وحرك رأسـه بشـكل طفيف، مشيراً إلى تشيلتون كي يجمع كؤوس النبيذ.

كانت الغرفة الكبيرة في الطابق العلوي خالية تقريباً من الأثاث، باستثناء أريكة مغطاة بغطاء مغبرّ، ومجموعة من الوسائد الكبيرة الملقاة على الأرض – كمـا لـو أننـا لـم نكـن أول نـزلاء القصر الخالد، وكأن شـخصاً آخر قد أقام هنـا – كمـا كان هنـاك مجموعـة متنوعة من أقراص الفونوغراف قديمة الطراز على الأرض بجانب الأريكة.

قـال فينبـار: «لقـد وجدتهـا في مخـزن كبير الخدم»، ثـم شـغلها، وملأت الموسيقى الغرفة.

لـم يكـن علـيّ سـوى أن أتبع الموسـيقى حتى أنضم إلـى الحفلة، حيث اسـترخى فينبار على الأرض أمام إحدى الوسـائد الكبيرة، وبيده كأس مليئة بالنبيـذ، وكانـت أغاثا ترقص مع تشـيلتون، ووجههـا متوهج من يوم الحمام؛ لقد بدت جميلة ببنطالها وسترتها كما لو أنها ترتدي فستاناً في قاعة رقص.

استدارت نحوي ثلاثة وجوه، محاولين حجب المعلومات المدمرة عني؛ غداً، يمكن تأجيل كل شـيء إلى الغد؛ أما في الوقت الحالي سـندع اختفاءنا

يمتد لفترة أطول قليلاً. لقد تعلمنا شيئاً واحداً منذ اكتشاف هذا المكان: لم يكن هناك شيء في العالم لا يحتمل الانتظار.

قالت لي أغاثا بنبرة مبهجة، بينما كان تشيلتون يحضنها: «أوه يا نان، تعالي وتناولي بعض الجبن والنبيذ، واستمتعي بالرقص، فمن يدري ماذا سيحدث غداً؟»، قالت ذلك كما لو كنت أفضل صديقة لها في كل العالم.

من الملفت أن أذنيَ لم تسمع هذا على أنه أمر ينذر بالسوء، فبدت وكأنها دعوة، ولو كنت شخصاً من نوع مختلف، ونشأت في بلد وزمان مختلفين، لربما كنت سأقول لها إنني أحببتها، وربما كانت ستبادلني المشاعر نفسها، لكن بدلاً من ذلك، ابتسمنا لبعضنا. يمكن للحزن المشترك أن يخلق دفئاً غير متوقع، قد يضيء كل الطرق المدمرة في عالمنا.

الاختفاء

اليومان التاسع والعاشر

الأحد 12 كانون الأول، والاثنين 13 كانون الأول 1926

لقد بدا العالم بالفعل يفكّ خيوط جريمتنا؛ كانت الآنسة بارنارد، أمينة مكتبة هاروغيت، تلتقط الصحف بحماسة متزايدة، وتنظر إلى كل صورة جديدة، وتعتقد أنها تعرف - تعرف تماماً - أن المرأة التي رأتها كانت كاتبة الغموض المفقودة. أخيراً، اتصلت هاتفياً بقسم الشرطة في ليدز، وسمع الشرطي الذي أجابها اليقين العاطفي في صوتها، وتجاهل مخاوفها تماماً، ولكنها زرعت بذرة شك بداخله.

لكن داخل القصر الخالد، كان كل شيء جميلاً.

في تلك الليلة، بقينا نحن الأربعة مستيقظين حتى الفجر، نرقص ونضحك، وبينما كانت الموسيقى تملأ المكان، والنبيذ يتدفق، شعرت أغاثا بالشباب مرة أخرى، وكأنها تلك الفتاة التي ترجلت عن حصانها عندما طيّرت الريح شعرها المستعار، فجمعته بعواصف من الضحك؛ تذكرت جميع الحفلات المنزلية التي كانت تحضرها كفتاة، تقفز من واحدة إلى أخرى؛ وأحياناً بدافع الضرورة، لأن المال قد نفد، أو لترك أشفيلد، فبدون المجتمع لم يكن لأغاثا مكان تذهب إليه، ولكن عندما كانت ضيفة، تم الاهتمام بكل شيء، وكان كل شيء مشرقاً وممتعاً، لكن ليس بهذا القدر من المرح على الإطلاق، إذ لا أحد على الإطلاق مثل فينبار، ولا أحد مثل تشيلتون بالتأكيد. لقد تردد صدى

غريب ورائع لحياتها القديمة، ولكن مع أغرب الناس وأكثرهم استبعاداً، ومن دون قواعد على الإطلاق.

ماذا ستقول والدتها؟ حاولت التحرر من هذا السؤال، فبقي من دون إجابة، كما فكّرت كيف كانت تراقب كل حركة من حركاتها، وكيف كانت تراقبها حتى في شبابها؛ لا تشربي كثيراً أو لا تشربي أبداً. لا تقولي هذا!. لا تتجولي في الطابق العلوي في غرفة نوم مع رجل ليس زوجك. لقد ماتت والدتها الآن، ولكن الحياة استمرت بطرق جديدة، طرق إنسانية، وهذا كلُّ ما يهمّ الآن، أن تكون عقلانيةً وإنسانيةً؛ حتى لو بدا الأمر في الوقت الحالي أنها لم تعد عقلانية، إلا أن أغاثا امتلكت قيمها الخاصة لما كانت تختبره للمرة الأولى في حياتها – وفقط عبر هذه النافذة الصغيرة – وبالتالي هي فقط من سيحدد مصيرها.

عندما اختفت وتشيلتون في الطابق العلوي، بقيتُ وفينبار في الخلف، نرقص لفترة أطول، ولذلك نسيت العودة إلى فندق بيليفورت، وبقيت غرفتي هناك فارغة مرة أخرى، وبحلول هذا الوقت كانت كارمايكل وكيتي قد غادرا. لقد استمرت حيلة بؤسهما لفترة طويلة بما يكفي لخداع الجميع، ولن يشك بهما أحد على الإطلاق، وهما لم يعودا إلى إيرلندا، بل توجها إلى أمريكا، لزيارة ليزي ودوني في فيلادلفيا، ثم إلى نيويورك، وقبل مغادرتهما، حرصا على دفع رسوم غرفتي لبضعة أيام أخرى، ولن ترسل السيدة ليش أي شخص ليبحث عني، على الأقل حتى الآن؛ لقد عرفت عن قصة حبي مع فينبار، وكانت تهز رأسها بابتسامة سرية، وتتذكر الوقت الذي بدت فيه علاقتها الرومانسية مستحيلة أيضاً.

لقد مضى وقت طويل على حلول الصباح عندما قررنا الذهاب للنوم، بعد الكثير من النبيذ والكثير من الحب.

في ذلك اليوم، لم يتهمني أحد بالقتل.

* * *

في صباح يوم الاثنين في سونينغيديل، استيقظت تيدي مذعورة عندما وجدت والدها نائماً إلى جانبها فوق الأغطية، ولا يزال يرتدي بذلته وينتعل حذاءه، وفمه مفتوح، ولعابه على الوسادة، فقفزت من السرير بأسرع ما يمكن، وصرخت: «العقيد كريستي»، وقررت أن اللهجة الرسمية فقط ستفي بالغرض.

استيقظ أرتشي وقال: «عزيزتي، لا بد أنني نمت».

قالت الفتاة الصغيرة موبخة: «بالطبع».

رفع أرتشي يده إلى جبينه المتجعد؛ هو لم يكن يعرف أنه يبدو وسيماً جداً، رغم كل نقاط ضعفه، لكنه لم يرد أن يكون ضعيفاً، فخلال الأيام العشرة الماضية، أصبح أكثر ما يمقته كونه غير فعال، بغض النظر عن كونه حزيناً ومريضاً.

قال لتيدي، كارهاً صوته المثير للشفقة: «أريد فقط أن أكون سعيداً».

كانت تيدي طفلة في غاية اللطف، فربتت على رأسه وقالت له: «ستكون سعيداً».

كانت المرأة التي تعمل في محل هدايا تفكر في أغاثا كريستي، حالها حال الآنسة بارنارد، لكنها انتظرت حتى يوم الاثنين، لأن يوم الأحد ليس يوماً مناسباً لإحداث أي نوع من الاضطرابات.

أعلنت الآنسة هارلي، عندما دخلت مقر شرطة ليدز قائلة: «لقد رأيت تلك السيدة الروائية المفقودة بأمّ عيني»، كانت امرأة في منتصف العمر، غير محظوظة في الحب، ودائماً ما تشعر بالرغبة في تذكر الرجل الذي كان ينبغي أن يتقدم لخطبتها قبل مغادرته لحرب البوير، ولم تسمع عنه مرة أخرى.

سألها ليبينكوت: «هل أنت متأكدة؟ لديّ رجل يقدم تقارير يومية عن هذه القضية».

في الواقع، أدرك أنه لم يسمع من تشيلتون منذ عدة أيام، ثم تابع قوله: «يقول إنّه لم يرها ولم يلمحها».

قالت الآنسة هارلي: «حسناً، لقد رأيتها حين كانت في متجر هدايا الفندق، وحدقت إلى وجهي مباشرةً، كانت تشبه صورتها تماماً. اشترت ثوب استحمام، وبطاقة بريدية مصورة. اعتقدت أنني ربما أتوهم، لكنني رأيت صورة أخرى لها في الصحف اليوم، وعرفت أنها هي، أنا متأكدة».

فكّر ليبينكوت في سره: هذا ما تحصل عليه عندما لا تتولى الأمور بنفسك، ثم توجه إلى المكتبة لاستجواب الآنسة بارنارد.

قالت الآنسة بارنارد، ممتنة لأنه أخيراً تم الاستماع إليها: «أوه، أنا متأكدة من أنها كانت هي، لقد شحبت بشدة عندما أشرت إلى التشابه بينها وبين الصورة. هل يمكنك القول إن شخصاً آخر يشبهها إلى هذا الحد؟»، ضحكت الآنسة بارنارد، ثم توقفت فجأة عندما رأت ليبينكوت غير مستمتع، ثم تابعت: «أخذت بعض الكتب أيضاً؛ روايات بوليسية، في الغالب».

سألها ليبينكوت: «ما الاسم الذي أعطته لنفسها؟».

أجابت الآنسة بارنارد: «السيدة أودي، قالت إنها تقيم في فندق ومنتجع بيليفورت».

قال ليبينكوت: «بيليفورت؟».

كانت أغاثا كريستي موجودة تحت أنظار تشيلتون طوال الوقت – ناهيك عن عائلة ليبينكوت – أكثر مما يمكن لأي رجل تحمله، وعلى الرغم من ولع ليبينكوت بتشيلتون، إلّا أنه خرج من المكتبة بأصابع مرتعشة، واستعد لفعل كل ما يجب القيام به.

في ذلك المساء، رن جرس الهاتف في ستايلز، ووجدت الخادمة أنّا، أرتشي على مائدة الطعام، وطعامه غير مأكول، ويحمل كأس ويسكي في يده، محدقاً إلى النافذة المظلمة التي تعكس وجهه الحزين.

قالت الخادمة أنّا: «أيها العقيد كريستي، هناك شرطي يريد التحدث إليك عبر الهاتف، يقول إنّه يتصل من ليدز».

الاختفاء



ليلتنا الأخيرة

الاثنين 13 كانون الأول 1926

تمكنتُ وأغاثا عبر السنين، منذ وجودنا في يوركشاير، من سرقة لحظة خاصة أو لحظتين، بالصدفة في لندن، أو في واجب عائلي كجنازة والدة أرتشي، وزفاف تيدي؛ لا يمكنكم تجنب اختلاط العائلات في الماضي والحاضر.

في كل فصل، أتذكر وإياها القصر الخالد على الرغم من أننا لم نمضِ فيه إلا أسبوعاً، في عزّ الشتاء، عندما كان الضباب يغطي نوافذه، والأغصان عارية، والمظلة رائعة، والشمس تسطع باكراً وتتدفق أشعتها عبر الستائر، كما كنا نتخيل العشب المبلل بعد هطول الأمطار حيث تركت أقدامنا آثاراً على الأرض بينما كنا نلعب التنس، وكانت أزهار الأضالية، والزنابق والبريمولا تغطي الحقول، بالإضافة إلى تيدي وهي تجري بين الزهور، وتقطف أكثرها لمعاناً، وتنورتها الملطخة بالطين والعشب، على الرغم من أنها لم تكن موجودة هناك إطلاقاً.

قالت لي ذات مرة: «يبدو أن فقدان الذاكرة ليس كذبة، لأنه لا يزال يبدو حلماً رائعاً، ذلك الحلم الذي تصنعه ليحل محل شيء فظيع».

وبدوري قلت لها ذات مرة: «يجب أن نهرب معاً، يجب أن نعود».

اعترفت أغاثا أنها فكرت في العثور على المالك وشراء القصر الخالد

منـه، لكنهـا لـم تفعـل ذلك، ولـم تعد أي منا إلى هناك، لا معاً ولا منفصلتين، وبقـي ذلـك القصـر مكاناً زرناه فقط في المحادثـات والذاكرة، ولم يعد مرئياً للعالم الخارجي، ولم يكتشفه أحد.

فـي بعـض الليلي يراودني حلم؛ أتخيل القصر مشـرقاً ومجهزاً بالكامل، بحيـث لا يغطـي الغبار الأثـاث، وأرى جينيفيـف، وصغيرتي روزي، وأطفال أختـي لويـزا، وحتـى أطفـال كوليـن، جميعاً يجلسـون في الردهة فـي الطابق العلوي وهم ينظرون إلى الأسفل عبر الدرابزين بعد فترة طويلة من إرسالهم للنـوم، وكان فينبـار هنـاك أيضاً مع تشـيلتون، ووالـداي، وفيونا وابنها، وبيس ودوني ورونان بالإضافة إلى الفتيات الثلاث اللواتي ستنجبهن، وكل أخواتي الثلاث، والعم جاك وزوجته روزي. كبر سيموس وأصبح رجلاً، يضحك كما لـو أنـه لـم يمرض، وألبي إلى جانـب فينبار. كان القصر مليئاً بأضواء متلألئة، والكثير من الشمبانيا، وتصدح فيه الموسيقى؛ ليست مشوشة من فيكتور ولا قديمة، بل كانت أوركسترا حية، فكانت أسعد لحظات في العالـم؛ ذلك الحلم كان كل ما تمنيت الحصول عليه.

نمنا نحن الأربعة معظم اليوم قبل أن ننتقل مرة أخرى إلى الغرفة الكبيرة، واكتفينـا بالطعـام والنبيـذ قبل أن تشـتعل النار، وقد اسـتنفدنا إمدادات الطعام الطـازج، ولـم يغامـر فينبار بالخروج، لذا، فقد عدنا إلى المعلبات الموضوعة على مفرش طاولة كبير من الكتان مصفرّ اللون عند الأطراف.

قال لي فينبار بمجرد سـكب النبيذ: «حان وقت الرحيل يا نان؛ يعتقدان أنك ارتكبت جريمة قتل».

يمكن للناس أن يبدوا جميلين بشـكل خاص في ضوء النار، إذ جلسـت أغاثـا متقاطعـة السـاقين، وبـدت وكأنهـا مستكشـفة فـي ملابـس الرجل التي ترتديها، وشـعرها حيوي ومتعرج، وخداها متوردان، كما بدا تشـيلتون أصغر

بسنوات مما كنت أعتقد وهو يستلقي على جانبه بلا مبالاة. مد فينبار يده وشبك يدي، فقبّلت خده.

قلت له: «هل هما؟».

رفعت أغاثا إليّ طبقاً، لكنني أبعدته لأنني لم أكن جائعة، وقلت لهم: «هل ترغبون بسماع قصة عن الوقت الذي كان من الممكن أن أرتكب فيه جريمة قتل؟».

كانت ليلة جيدة لسرد قصص الأشباح، فالرياح الخفيفة كانت تعصف في الخارج، ولا شيء سوى ضوء النار في الداخل. نحن الأربعة فقط، قريبون وآمنون وفرحون بشكل غريب، فأخبرتهم عن هروبي من الدير، ويدي حول حلق الأخت ماري كلير.

قال تشيلتون: «وكانت هذه السيدة مارستون».

لم أؤكد كلامه، لكنني أخبرتهم قصة شبح أخرى، عن كاهن وفتاة حامل. اقتضت قضبان الحديد، بالإضافة إلى قوانين الله والإنسان، أن نسجن جميعاً داخل دير حجري، وكان للكاهن رخصة ليفعل ما يشاء، وداخل الدير كان هناك مغفرة لخطاياه، لكن ليس لخطايا الفتيات اللواتي أساء إليهن.

لم أسرد كل جزء من القصة، ليس عن كيتي وكارمايكل – لم يكن تشيلتون مثل هيركيول بوارو كما اتضح لاحقاً، ولقد نسي كل شيء عن سماع لهجتهما الإيرلندية – أو اسم بيس الحقيقي، أو المكان الذي تعيش فيه.

قلت: «لم أرتكب جريمة قتل، بل حققت العدالة لنفسي».

سُمِع صوت الباب من الطابق العلوي، فنظرت أغاثا إلى الأعلى متيقظة لأي شيء يمكن أن يشير إلى اكتشافها؛ لم أردها أن تفكر في ذلك، بل أردتها أن تدرك وتعترف بأنها أخذت طفلتي إلى منزلها، وقبلت شيئاً مسروقاً.

قلت لها: «قولي الحقيقة».

وافق فينبار، قائلاً: «نعم، أخبريها، وضعي حداً لهذا، مرة واحدة، وإلى الأبد».

غادر الفرح الغرفة.

قالت أغاثا: «اعتقدت أنكِ تعرفين، اعتقدت أن كليكما تعرفان».

قلت: «أنا أعلم، لكنني أريد أن أسمعك تقولين ذلك، ها أنا قد اعترفتْ، وحان دورك الآن».

قالت أغاثا: «حسناً اذاً، هذا كله صحيح».

وقف فينبار على قدميه مشمّراً عن ساعديه كما لو أنّه سيضربها، وتنبه تشيلتون وجلس مستعداً للوقوف بينهما.

قال فينبار: «أيّ جزء هو الصحيح؟».

قالت أغاثا: «الجزء الذي قالته نان».

قال فينبار: «هذا ليس صحيحاً، وأنت تعلمين أنه ليس صحيحاً».

قالت أغاثا: «أنا آسفة يا فينبار، لكن هذا ما يجب أن أقوله؛ نان محقة؛ لم يكن بإمكاني إنجاب طفل، ولذلك حصل أرتشي على طفل من أجلي. لم أعرف، ولم أفكر بمدى قسوة ذلك. أنا آسفة».

قال فينبار: «نان، لا تستمعي إلى هذا، كانت تقول لي العكس تماماً طوال الوقت، ولا أعرف لماذا تغير قصتها الآن». جثا على ركبتيه، وأمسك يدَي أغاثا، ونظر إليها؛ لم يكن لديه أي دافع خفي، وكان صادقاً في كل كلمة قالها.

قالت أغاثا: «أنا آسفة يا فينبار، أنا حقاً آسفة».

ترك يديها ووقف قائلاً: «أنا لا أعرف لماذا تفعلين هذا، ولن أعرف أبداً».

لكنني عرفت، فحدق الجميع إلى وجهي؛ ربما كنت جميلة في ضوء النار أيضاً.

قد تكون أغاثا قد اعترفت بأن تيدي ابنتي، لأنها لم تعد تريد أرتشي بعد الآن، وكانت تعلم أن تصريحها سيجعلني أعود إليه، وربما أدركت أن زواجها انتهى، وتأكدت أنه بغض النظر عما حدث، سأنظر دائماً إلى ابنتها كما لو أنها ابنتي، وربما شعرت بالأسى لكل ما مررت به، وأرادت أن تجعلني أعتقد أن

تيدي هي طفلتي لأن طفلتي الحقيقية ضاعت مني إلى الأبد، وبهذه الكذبة الطيبة يمكنها إعادتها إليّ، وإن كان ذلك عن طريق الخداع.

ربما كان الأمر أبسط من ذلك، تماماً مثل شفرة أوكام[1]، وربما أخبرتني أن تيدي هي جينيفيف، لسبب واحد فقط: لأنها كانت الحقيقة.

* * *

جلس فينبار على السرير في الطابق العلوي، بينما وقفت أمامه بين ركبتيه، ووضع خصلة من شعري خلف أذني وقال: «هل تتذكرين عندما كان شعرك طويلاً لفترة؟».

لم يسبق له أن رآه أقصر بكثير من ذلك، فأجبته: «أتذكر كل شيء».

قال: «هل ستتذكرين هذا؟».

قلت: «دائماً».

كانت الغرفة مظلمة لولا وهج النار، كذلك كانت وجوهنا مخفية بما يكفي لتبدو وكأنها قد أمضت صيفنا الأول منفتحة على مستقبل لا نعرفه، وكدت أتظاهر بأنني لم أكن أعرف: لن نكون معاً أبداً بهذا الشكل مرة أخرى.

توهجت الغرفة بدفء النار، فالدخان المنبعث من مداخن القصر كان كفيلاً بكشف أمرنا؛ أربعة خارجون على القانون؛ وقد جعلت ألسنة اللهب النوافذ تتوهج. هذه الليلة على وجه الخصوص، عندما أتخيل القصر الخالد، وأتخيل المنظر من الخارج، حيث كانت كل نافذة تتوهج موحيةً أنَ هذا المكان مأهول.

---

(1) شفرة أوكام: مبدأ لحل المشاكل ينص على أنه «ينبغي عدم الإكثار من شيء إذا لم تقتضِ الضرورة لذلك»، أو بعبارة أخرى، أبسط الحلول هو الحل الصحيح في أغلب الأحوال.

الاختفاء

يوم الاكتشاف

الثلاثاء 14 كانون الأول 1926

استيقظت قبل الفجر بوقت طويل، وأضفت مزيداً من الحطب إلى النار؛ يمكن لمالكي القصر العودة في أي لحظة، أو أن يأتي المالكون الجدد، إذا كان هذا وقت انتقال، أو على الأرجح، أن يرسلوا الخدم مقدماً ليهيئوا القصر، فكل من سيدخل من الباب سيجد أدلة على أننا كنا هنا: الرماد في المواقد، واختفاء علب الطعام، والزجاجات الفارغة على رف النبيذ في القبو، وربما بقايا السعادة التي تغمر الغرف وتحوم مثل عث الغبار.

قبّلت رأس فينبار النائم، وخرجت للسير في الطرق الريفية في الضباب، من دون أن أخاف من أي شيء: ليس من الكلاب التي تنبح من حقولهم، أو الهواء المتجمد، أو حتى ظل الرجل الذي سار بجانبي ورفع قبعته؛ إذا كنت قد مشيت بعيداً عن الطريق إلى عالم آخر، فلن يفاجئني ذلك، ولكن بغض النظر عن مدى جمال العالم الآخر، كنت سأفعل كل ما بوسعي للعودة إلى هذا العالم، لأن طفلتي لا تزال تعيش هنا، ويجب ألّا أكون بعيدةً عنها أبداً، ليس في هذه الحياة.

تسللت إلى الدرج في فندق بيليفورت، وزحفت إلى الفراش، حيث نمت لساعات، حتى استيقظت على صوت مألوف وعالٍ بما يكفي للوصول إليّ من الردهة، وهو يبحث عن شخص غيري.

بدوره، استيقظ تشيلتون مبكراً، وجلس على سريره بجانب أغاثا النائمة – لقد قررا الليلة الماضية الانتقال إلى واحدة من أكبر غرف النوم في الطابق الثاني – ولم يسأل أغاثا عن قضية ابنتها – هل يتعارض مع ما قالته له سابقاً؟ – ولا عن الافتراض الذي توصلوا إليه جميعاً، بأنه سيحميني.

قُتل شخصان، وتوقع تشيلتون أن يمضي الأمر.

داعب شعر أغاثا برفق حتى لا يوقظها، ففي مرحلة ما توصلا إلى اتفاق ضمني بعدم قول الكلمات، ولكن الآن بعد أن كانت نائمة بسلام – شفتاها مفتوحتان، ووجهها مغمور بأحلام طفولية – سمح لنفسه بالهمس: «أحبك يا أغاثا». حركت عينيها، ورسمت ابتسامة خجولة على شفتيها؛ لماذا لا يُتوَقَّع من تشيلتون أن يفعل الشيء الخطأ مع نان؟ لقد فعل الشيء الخطأ مع أغاثا.

قليل من الإهمال يولد ضرراً كبيراً. كم عدد الجرائم التي تم إهمالها في جميع أنحاء إنكلترا، بسبب القوة البشرية المكرسة لاكتشاف المرأة التي ترقد بجانبه الآن، آمنة وسليمة؟ فكل ما أراده من الحياة هو أن تداعب أنفاسها الدافئة وجهه من هذا اليوم إلى الأبد.

تسلل من السرير، ومشى نحو النافذة – كان دائماً يفكر بشكل أفضل أثناء مشاهدة منظر طبيعي – وشعر بحركة أغاثا خلفه وهي تستيقظ، فنهضت واتجهت إليه، ومع ذلك لم يستدر نحوها، فرمت بنفسها على ظهره، وطوّقت خصره بذراعيها، وأراحت ذقنها المدببة على كتفه لمشاركته منظر التلال البعيدة التي تحجبها أشجار التنوب.

قالت: «أعتقد أنك تفكّر في نان».

قال: «هذا صحيح».

سألته: «هل تعرف الفنان كلود مونيه؟».

أجابها: «زنابق الماء؟».

قالت: «بالضبط، مات في وقت سابق من هذا الشهر، لقد قرأت في إشعار

عن وفاته أنه قال ذات مرة: لكي نرى يجب أن ننسى اسم الشيء الذي ننظر إليه».

سألها: «وماذا يعني هذا بالضبط؟».

أجابته: «هذه قضيتك، أنت من ينظر إليها، ومن حسن الحظ، أنت المسؤول عن حلّها. لذا، ألا يمكن للحل، أو الاسم، أن يكون أي شيء تريده؟».

قال لها: «أعتقد أن ذلك ممكن».

قالت: «جيد»، ثم ابتعدت عنه وكأن الأمر قد حسم، وتابعت: «ثم ماذا؟ لا يمكننا البقاء هنا إلى الأبد».

جلست على طرف السرير.

ركع تشيلتون أمامها وأمسك يديها قائلاً: «يمكن أن يكون هناك المزيد من الأيام، أو يمكن أن يكون هناك كل الأيام. إذا رحلنا اليوم، أنت وأنا معاً، دعي الاختفاء يستمر مدى الحياة. لِمَ لا؟».

قالت: «لِمَ لا؟».

لم يرد أن يضع حداً للفرح الذي ينفجر في داخله بالحديث عن التفاصيل؛ يمكنهما حل ذلك لاحقاً: ما هي وجهتهما، وإذا كانا سيرحلان بسيارة، أو قطار.

قال تشيلتون: «سأعود إلى بيليفورت، وأجمع أشيائي، ثم يمكننا وضع خطة».

قالت له: «سأذهب معك وأستنشق بعض الهواء».

قال لها: «لكن يا حبيبتي، علينا عدم التواجد معاً».

قالت: «هذا سيجعل حياتنا معاً صعبة إلى حدّ ما، أليس كذلك؟»، ضحكت واعتمرت قبعته وشدتها على جبينها، وتابعت: «لن يتعرف عليّ أحد، حتى إنهم قد يظنونني أخاك».

ربما كان تشيلتون منزعجاً من كلمة أخ، ولهذا السبب لم يحتجّ. ربما أغاثا تمنت – في قلبها، وكانت غير قادرة على الاعتراف بذلك – أن يتم العثور عليها بعد كل شيء، أو ربما، بنظرهما، كل الخطوات التي اتخذاها حتى الآن لم تصادف أي خطر، فلماذا لا يخطوان خطوة أخرى؟ لقد أثبت المشهد البسيط أنه خطة جيدة للاختباء.

* * *

بينما كانت أغاثا في الطابق العلوي في غرفة فندق تشيلتون تساعده في جمع أغراضه، وصل أرتشي وليبينكوت إلى فندق بيليفورت، وقامت السيدة ليش بإدخالهما إلى المكتبة، وأحضرت لهما دفتر النزلاء ليلقيا عليه نظرة.

نظرت عينا أرتشي على الفور على اسم عائلتي، أودي، وأشار إليه قائلاً: «هذا هو خط يد زوجتي».

كما لو أنه نسي اسمي تماماً وكذلك خطي؛ خفة عقل، أربكت كلاً منا. إنه خط إحدى امرأتيه، لا يهم من منهما. ربما ولد الخطأ على الأرجح بسبب الأمل، إذ أراد زوجته أمام عينيه، وعلى قيد الحياة. وإذا محى وجودي من خلال تخصيص اسمي وخط يدي لها، فيمكنه تصحيح كل شيء، كما يمكنه أن يحضرها أخيراً، آمنة وبصحة جيدة.

لم يكن يعلم أنني لم أمحَ، بل كنت فقط في الطابق العلوي، قدماي فوق رأسه مباشرةً، تتحركان فوق ألواح الأرضية، وسقط قلبي في أحشائي، وأنا أضغط أذني على الباب.

كانت السيدة ليش مصرة: السيدة في الغرفة 206، السيدة جينيفيف أودي، ولم تكن الروائية المفقودة.

قالت السيدة ليش: «السيدة أودي معنا منذ أكثر من أسبوع، وأنا أعرف وجهها جيداً؛ إنها سيدة صغيرة، أصغر سناً، وشعرها داكن».

قال ليبينكوت للسيدة ليش: «من الصعب تحديد لون الشعر من خلال

الصورة، لقد رأيت صوراً لأمي أقسم إنها ليست لها؛ شكل فني شيطاني إذا سألتني».

قالت السيدة ليش: «حسناً، أنا أعرف والدتي في الصور، وأعرف السيدة أودي، وهذه ليست هي».

دخل السيد ليش إلى الغرفة، ورحّب بابن عمه بمصافحة قوية، ثم حدق إلى الصورة وقال: «أعتقد أن السيدة أودي يمكن أن تكون المرأة المفقودة».

قالت السيدة ليش: «يا إلهي، سيمون»، فهو لم يكن يضع نظارته.

ابتسم السيد ليش وقال: «ستكون دعاية رائعة، أليس كذلك يا سام؟ سيذكر فندق بيليفورت في كل صحف البلاد؛ الفندق الذي اختارته أغاثا كريستي»، لم يكن قد سمع عن أغاثا كريستي أبداً حتى هذه اللحظة، ولكن إذا كان اسمها قد انتشر في الصحف خلال أيام قليلة بسبب اختفائها، فلا بد أنها مشهورة للغاية.

وضع ليبينكوت، والسيد ليش، وأرتشي خطة؛ اتفقوا على ألا يواجه أرتشي زوجته بالذهاب إلى غرفتها، أو الوقوف أسفل الدرج بانتظار نزولها لتناول الفطور، وبدلاً من ذلك انتظرها في غرفة الرسم، حيث أخفى وجهه خلف صحيفة مفتوحة، بينما انتظر ليبينكوت في الردهة للتدخل.

قال السيد ليش لابن عمه: «أكدت لي إيزابيل أن السيدة أودي في غرفتها، وعادةً ما تتناول وجبة طعامها عند النهوض».

لم يلبث أن أنهى جملته، حتى نزل تشيلتون وأغاثا الدرج، كانا متقاربين للغاية، وقد نسيت اعتمار قبعتها، كما لو كانت تعتقد أنها لم تعد مرئية للعالم الخارجي، وبإمكانها التحرك من دون أن تُكتشف. لم تكن ذراع تشيلتون حول خصرها لحسن الحظ، لكن يده كانت تتحرك أثناء حديثه، وتلامَسَ مرفقاهما بطريقة بدت حميمة.

تفاجأ ليبينكوت عند رؤيتهما، وانصدم؛ الصدمة الأولى كانت بسبب

جرأتهما، والثانية بسبب التغيير الذي طرأ على تشيلتون في الأيام القليلة التي تلت آخر مرة رآه فيها، إذ بدا تشيلتون أطول قامة، وكان شعره مسرّحاً بعناية، كما بدا مرتاحاً وسعيداً بشكل رهيب، بالنسبة إلى شخص كان يحقق في قضية اختفاء، وربما جريمة قتل مزدوجة.

لكن المرأة كانت أكثر ما فاجأه، إذ بدت أصغر من مما بدت عليه في صورها، وكذلك مرتاحة وسعيدة ومتوهجة، وكانت ترتدي ملابسها وكأنها انتهت لتوها من حراثة أحد الحقول؛ لم تبدُ له المرأة التي تقف أمامه واعية لمحيطها بصرف النظر عن رفيقها.

قال ليبينكوت: «السيدة كريستي»، وبهذه الطريقة، انفجرت الفقاعة، فنظرت أغاثا وتشيلتون أسفل الدرج، وأسدلا أيديهما إلى جوانبهما.

كان ليبينكوت رجلاً طيباً في العموم، لكن نبرته في تلك اللحظة – نبرته المفاجئة والغاضبة التأديبية – تضمّنت عبارة إضافية ضمنية:

سيدة كريستي، كيف تجرؤين أيتها السيدة كريستي؟ ما الذي تعتقدين أنك تفعلينه بحق السماء؟ نبرة يسرف جميع الرجال في استخدامها، تهدف إلى إعادة الشخص إلى الواقع، إلى السلوك السليم الذي يليق به. تلاشت مناعتها، وظهر العار الذي تعجبت من غيابه.

قال ليبينكوت بصوت مغاير تماماً: «حسناً يا سيد تشيلتون. أرى أنك وجدتها».

كان أرتشي يستمع من خلف صحيفته في غرفة الرسم قبالة القاعة الرئيسية، ولم يعد يحتمل الانتظار، كان عليه أن يرى ما إذا كانت هي حقاً، فتخيّل سيناريوهين: الأول، وهو أن يمتع ناظريه بزوجته أغاثا، حية وبصحة جيدة، ويتأكد من أن هذا الكابوس بأكمله قد انتهى أخيراً، والثاني، وهو أن يراها كشخص غريب تماماً، وهنا سيبرز طريق مسدود آخر، ومضيعة للوقت،

وعندها ستبقى حياته إلى الأبد في حالة من التدقيق العام والأسئلة التي لم تتم الإجابة عنها.

دخل القاعة حيث كانت أغاثا تقف مرتدية بنطلوناً وسترة من الصوف المحبوك. إذا كان قد لاحظ تشيلتون وقربه منها، فقد يشك في شيء ما، لكنّ تشيلتون لم يكن من النوع الذي يلاحظه أرتشي ما لم يكن بحاجة إلى شيء ما منه، فلو كان أرتشي قد دخل إلى غرفة ورأى تشيلتون قريباً منه، فربما سيسلمه معطفه وقبعته.

غمرت الراحة جسد أرتشي، كما لو تمت تهدئته بواسطة حقنة، فقد تخيل جثة زوجته هامدة في العديد من الأماكن؛ في قاع بحيرة، في حفرة، داخل صندوق سيارة؛ تخيّلها بكل الطرق التي كتبتها أغاثا في رواياتها. إذ لم يكن أرتشي رجلاً واسع الخيال. الآن، شعر بأن الفزع قد غلب على وجهها، ولم يخطر بباله أنها لم ترد أن يُعثر عليها؛ كان عليه أن يدرك، من نظرة واحدة، أنه فقدها.

قال أرتشي: «أغاثا».

قالت أغاثا بصوت مرتفع بشكل غير طبيعي، لتحذرني في حال كنت في الفندق، إذ لم ترد أن يلقى القبض على كلتينا.

أشار أرتشي إلى باب المكتبة بيدين مرتجفتين وكأنه رجل يبلغ المئة من عمره؛ هذا ما فعلته به هذه الأيام الأحد عشر، ولكن كانت هناك أشياء يجب أن تقال على انفراد قد تعيده إلى حالته السابقة.

وقفت أغاثا متجمدة كتلميذة استدعاها مدير المدرسة بسبب سوء التصرف، وقد اندفعت في وجهها وبقوة تيار مياه جارف تدفق بعد انهيار سدّ، عناوين الجريدة وكل قرائها، والقوى البشرية المهدورة في البحث عنها، وكل القلق الذي تسببت به، ومغادرتها المنزل من دون أن تودع طفلتها، وكل شيء استطاعت أن تغض النظر عنه.

لم تجرؤ على النظر إلى تشيلتون، فابتعدت عنه، وأحنت رأسها، ثم نزلت الدرج ودخلت المكتبة بطاعة وجلست على طرف الأريكة البالية، كما لو كانت قلقة من أن توسخها، فجأة أدركت كيف كانت تقدم نفسها للعالم، في هذه الملابس غير اللائقة والشنيعة، ومن دون مجوهرات، وكأنها قنفذ قبض عليه وهو يلعب في الشوارع.

لكن أرتشي فعل شيئاً غير متوقع تماماً، عندما كان وحده في الغرفة معها، نظر إلى وجهها المحرج - الجميل، المألوف - وركع على ركبتيه واضعاً وجهه في حضنها، محصناً من أي روائح غريبة، واحتضنها بذراعيه.

قال بصوت أقرب للبكاء: «أنت على قيد الحياة، هل أنت بخير؟».

قالت بصوت ضعيف بشكل مخيف: «نعم»، كانت تعلم أنه يفترض بها أن تقول ذلك مرة أخرى، لكنها لم تستطع إجبار نفسها على ذلك.

أمسك بيدها، وقبّل البقعة العارية حيث كان يجب أن يكون خاتم زواجها، ثم أخرج الخاتم من جيبه، وأعادها إلى إصبعها مسامحاً إياها على الهروب والتسبب في كل هذا القلق؛ يبدو أن مسامحتها على كل ما فعله أمر مفروغ منه.

سألها أرتشي السؤال الذي لا مفر منه، والذي كان يتوجب عليه طرحه: «أين كنت؟ أين ذهبت؟ ماذا فعلت؟»، على الرغم من أنه تم العثور عليها في المكان الذي من المفترض أن تكون فيه.

أول ما فكّرت في قوله كان: هنا، جئت الى هنا، لكن هذا لم يكن صائباً، ولذلك قالت الشيء التالي الذي خطر في بالها، والتي شعرت بطريقة ما أنه أقل كذباً، لأن كل شيء أصبح غريباً ومربكاً للغاية، بالإضافة إلى أنها لم تكن الطرف الوحيد الذي لديه قصة على المحك؛ كانت قد قررت بالفعل أن تحميني، ولن تتراجع عن ذلك أبداً.

قالت: «لا أستطيع التذكر».

وهذا سيظل قائماً لبقية حياتها.

الاختفاء

يوم الاكتشاف

الثلاثاء 14 كانون الأول 1926

في الطابق العلوي حزمت أمتعتي بسرعة قدر استطاعتي، وسحبت حقيبتي عبر القاعة إلى غرفة كورنيليا أرمسترونغ؛ ستعتقدون أنها أغلقت بابها بعد حالتي الوفاة غير المبررتين في الفندق، إلا أن روحها الحازمة الواثقة التي أبقتها في الفندق بمفردها، جعلتها تتركه مفتوحاً. عندما دخلت، كانت جالسة تمشط شعرها بغرور وتنظر نحوي. لم أطرق الباب.

وضعت إصبعي على شفتي وقلت لها: «رجاءً، هل يمكنني ترك هذه الحقيبة معك؟ وهل تعديني بعدم إخبار أي شخص بوجودها هنا؟ أو أنني كنت هنا؟».

تجمدت الآنسة أرمسترونغ للحظة، ثم وقفت، وأخذت حقيبتي، ثم وضعتها تحت سريرها وقالت: «لن أقول شيئاً».

وضعت يدي على قلبي وقلت: «عزيزتي، إنك فتاة شجاعة. إذا لم أعد لأخذها، فكل شيء بداخلها هو ملكك».

أومأت برأسها وقالت: «لا تكوني سخيفة، بالطبع ستعودين»، لم يمضِ وقت طويل بعد ذلك، حين كنت أقرأ أخباراً عنها بالصدفة في صحيفة الديلي ميرور. بعد مرور أشهر فقط على وجودنا في هاروغيت، قامت الآنسة أرمسترونغ برحلة لاستكشاف أنقاض المسرح التذكاري في ستراتفورد أبون

آفون، والتي احترقت بالكامل مؤخراً.

أثناء سيرها مباشرةً نحو الأنقاض، لفتت انتباه زميل مغامر، صغير ووسيم بشكل استثنائي، وتزوجا في غضون أسبوعين، وانتقلت معه إلى منزله في ديربيشاير، تماماً كالنهاية السعيدة الرومانسية التي كانت تتوق إليها. نظراً لأنني لم أتمكن أبداً من استعادة أمتعتي، فأنا أعتقد أنها كانت ترتدي سترة الكشمير واللؤلؤ الصناعي خاصتي عندما التقيا.

في الوقت الحالي، صافحتها مودعةً، ثم تسللت إلى أعلى الدرج، وأنا أحمل حذائي، وعندما نظرت إلى الأسفل، رأيت أرتشي يتبع زوجته إلى المكتبة. قد تخبره أغاثا كيف استهدفته، وأغريته، لسبب وحيد هو أنني اعتقدت أن ابنتهما هي ابنتي، وأنني كنت أعرف طوال الوقت تقريباً مكان وجود زوجته ولم أخبره بذلك، وأنني ارتكبت جريمة قتل وحرّضت على أخرى، وتساءلت: أي من هذه الأفعال قد يجدها أرتشي الأكثر فظاعة؟

لماذا يجب أن أقلق إذا كان سيسامحني؟ عندما غادر أرتشي سندي كورنر، وقاد سيارته بعيداً مع تلك الطفلة التي اشتراها ودفع ثمنها، وأخذها إلى المنزل وكأنها الماس يهديه لزوجته، هل فكّر ولو لثانية واحدة في أم هذه الطفلة؟

كان عليّ أن أغتنم هذه الفرصة، فذهبت مسرعة بجوار تشيلتون المسكين المذهول، والسيد والسيدة ليش، والسيد ليبينكوت المذعور، وبمجرد أن انتعلت حذائي، انزلقت خلف مقود سيارة الشرطة المستعارة من تشيلتون؛ مهما كانت وجهته التالية، فعليه أن يسافر سيراً على القدمين؛ وقدت السيارة بطريقة خرقاء، عازمة على العودة إلى القصر.

لحسن الحظ، سحب السيد ليش ليبينكوت إلى غرفة الرسم، قبل أن يتمكن المأمور من توبيخ تشيلتون ولومه.

اغتنم تشيلتون الفرصة، وقال للسيدة ليش بينما كانت تسير من غرفة

الطعـام إلـى مكتـب الاسـتقبال: «سـيدة ليش، هـل يمكننـي أن أتحدث إليك للحظة؟».

العقـل شـيء رائـع، فاسـتطاع تشـيلتون أن يتصـرف بسـرعة، وتحـدث بكلمـات بالـكاد مسـموعة، بينما كان عقله يركّـز فقط على الرعب الناتج عن ذلك؛ سيهرب هذا الزوج المتغطرس مع أغاثا.

قـال للسـيدة ليـش: «عليـك أن تسـاعديني، علـى الأقـل بكتـم التناقض الحاصل. اسـمعيني، كانت أغاثا كريسـتي هنا في فندق بيليفورت طوال هذا الوقـت، وتـم تسـجيلها تحت اسـم السـيدة جينيفيف أودي، لقـد كانت تأخذ حمامات علاجية وتدليك».

قالت السـيدة ليش: «بالطبع لا، وكنقطة انطلاق أيها السـيد تشـيلتون، أنا لا أكذب مطلقاً»، عقدت السـيدة ليش ذراعيها، وبدا صوتها موسـيقياً بشـكل أكبر؛ فأي شخص يقول إنه لم يكذب قط، فقد كذب لمرة واحدة على الأقل.

قـال تشـيلتون: «هـل تسـمحين لـي أن أخبـرك؟ لقـد أنهيت اسـتقصائي بخصوص حادثة مارستون، وقررت أنه لا يوجد قاتل»، خرج ليش وليبينكوت من غرفة الرسم في الوقت المناسب لسماع هذا البيان، وتراجعت السيدة ليش ببطء، محاولةً استيعاب ما إذا كان قد تم عرض صفقة عليها.

قالت السـيدة ليش: «لا داعي لنشـر هذا الكلام، فالسـيدة مارستون قتلت زوجها ثم انتحرت».

صفق السـيد ليش ببهجة كبيرة وقال: «بالضبط، تماماً كما اعتقدت سـام طوال الوقت، أليس كذلك؟ سـنبقي كل ما حدث بيننا، وسـنقول إن السـيدة أغاثا كانت موجودة هنا، صدقيني يا إيزابيل ستزدهر الأعمال، وما عليك سوى الانتظار».

تنهدت السيدة ليش، وعندما التفت زوجها ليقول شيئاً لابن عمه، همس تشيلتون في أذنها: «سيساعد ذلك الآنسة أودي وصديقها كثيراً».

أخيراً، أومأت السيدة ليش موافقةً؛ لقد فضّلت فكرة الكذب لمساعدة نان على الكذب لإنقاذ سمعة فندقها؛ همست قائلةً: «كنت أعرف أنها كانت آنسة وليست سيدة؛ لديّ حاسة سادسة لهذا النوع من الأمور؛ آمل أن تتزوج ذلك الرجل الوسيم الحزين، فأنا أحب النهاية السعيدة يا سيد تشيلتون».

قال تشيلتون: «ونحن أيضاً، جميعنا نتمنى ذلك».

فتح باب المكتبة، وخرج أرتشي وأغاثا، لم يرد تشيلتون في تلك اللحظة أي شيء أكثر من أن يلفت انتباهها؛ لكنها ظلت تنظر إلى الأرض بثبات، كطفل أُدِّب بشكل صحيح.

قال تشيلتون، في محاولة لإعادة الصفة الرسمية إلى صوته: «سيدة كريستي، أظن أنه من الأفضل أن تعودي إلى غرفتك، حتى نتمكن من إجراء مقابلة».

قال أرتشي: «لن تفعل شيئاً كهذا، لقد تم حل هذه القضية، ولم تكن هناك جريمة، سوء تفاهم فقط، ولا حاجة لمزيد من الشرطة، لقد اكتفينا منهم لبقية حياتنا».

تساءل تشيلتون عما إذا كان قد تحدث بمثل هذا اليقين، وكان يؤلمه أن يلاحظ أنه كلما التفت أرتشي إلى زوجته، تحدث بهدوء أكبر.

قال أرتشي: «أغاثا حبيبتي، اذهبي واجمعي أغراضك، يجب أن نعود قبل أن تكتشف الصحافة الخبر. أخشى أنه سيكون عليك التعامل معهم في الأسابيع المقبلة».

صعدت أغاثا الدرج إلى غرفتي، أيضاً من دون أن تلقي نظرة على تشيلتون، ولذلك اتخذ خطوة، كما لو كان يتبعها، لكن ليبينكوت أمسك به من كمه.

في غرفتي في الطابق العلوي من الفندق، نظرت أغاثا حولها، كما لو

أن المكان الذي تتداخل فيه هوياتنا قد يفضح أي سرّ لم تكن تعرفه، عني أو عنها. سقطت عيناها على شيء أرجواني اللون، على شال ملقى على الكرسي بجانب الطاولة، فالتقطته وجلست. كان القلم والورقة اللذين اشتريتهما لا يزالان على المكتب غير مستخدمَين.

أخذتهما أغاثا، وكتبت الكلمات بحيث لا يمكن التعرف إلى خط يدها، ثم طوت قطعة الورق إلى نصفين، وكتبت بأحرف كبيرة **المحقق تشيلتون**. لم تقلق من أن يجدها شخص آخر ويقرأها، إذ كانت تعلم أنه سيكون هنا للبحث عن أدلة لحظة مغادرتها الفندق.

لفت أغاثا شالي حول كتفيها، كما لو أنه سيحوّل ملابسها الرجولية إلى شيء أكثر وقاراً، وخرجت من الغرفة، ونزلت الدرج إلى زوجها الذي كان واقفاً في انتظارها، ووجهه مرتاحاً من جديد، وبدت عليه ملامح الحب والأمل التي لم ترها منذ فترة طويلة.

سألها أرتشي بصوت خائف: «أين أغراضك؟»، بدا قلقاً من أنها قررت البقاء.

قالت أغاثا: «لا يوجد شيء أحتاج إليه هنا».

سارت أمامه، وتوجها إلى السيارة التي تنتظر أمام الفندق، وشدت شالي الجديد بإحكام حول كتفيها. وفي طريق العودة إلى سونينغديل، ألقى عليها أرتشي بكل الأسئلة التي أربكته لدرجة الجنون:

«لماذا تركت سيارتك بهذه السرعة؟».

«كيف تمكنت من الوصول إلى يور كشير؟».

«لماذا ترتدين هذه الملابس؟».

«ألم تشاهدي الصحف؟ ألا تعرفين عدد الأشخاص الذين يبحثون عنك؟ لا أصدق أنك كنت ستبقين بعيدةً لو علمت بكلّ هذا».

لم تجب، لكنها فتحت النافذة، إذ كانت بحاجة إلى الهواء البارد لإحيائها،

فارتجف أرتشي. قبل أسبوعين كانت ستغلق النافذة على عجل، ولكنها قررت الآن أنه عليه تحمّل هذا الهواء البارد. تذكرت خاتمها وقلادة اللؤلؤ اللذين تركتهما في القصر؛ سيغطي ثمنهما تكاليف مكوثهم هناك، وجميع المؤن التي سرقوها، وعادت إليها طرق التفكير المشروعة من جديد.

قال أرتشي بحزم: «أغاثا كريستي، هل تعلمين عدد الأشخاص الذين كانوا يبحثون عنك؟».

قالت: «أنا لا أتذكر»، وشاهدت المناظر الطبيعية من خلال النافذة، وكلما ضغط عليها للحصول على تفسير، كلما كانت تكرر ذلك الجواب مراراً وتكراراً: لا أتذكر، لأن قولها لأي شيء يقارب الحقيقة لن يتسبب بإفساد حياتي فحسب، بل ربما يجعلها تنتهي – حيث كانت تريد بشدة أن تكون، قبل وقت قصير– مع أرتشي، إلى الأبد.

عندما وصلا إلى المنزل في سونينغديل لمواجهة الصحافة، أخبرهم أرتشي – الذي كانت وظيفته حماية زوجته على الرغم من مخيلته المحدودة – بالإجابة التي قدمتها له.

إنها لا تتذكر.

كتبت في سيرتها الذاتية: «العام المقبل في حياتي هو العام الذي أكره أن أتذكره».

عندما قرأتُ هذه الجملة بعد سنوات، وجدت نفسي مبتسمةً، كما كنت أفعل غالباً عندما أقرأ أجزاء صغيرة من ذكرياتنا في كتبها، لقد نثرت ذكريات صغيرة في كتبها، ولم أكن أعرف أبداً أين ومتى سأقرأها.

كان أرتشي يسألني عندما أحضر أحدث رواياتها إلى الفراش: «هل يجب أن تقرأي كل واحدة؟».

وكنت دائماً أجيب: «أنا آسفة، لكنّ رواياتها ممتعة جداً».

ربما كرهت أغاثا تذكر بعض الأوقات من تلك السنة، ولكن ليس السنة

بكاملها، بالتأكيد، ليس بكاملها.

شاهد تشيلتون أرتشي يقود سيارته بعيداً مع أغاثا، ثم عاد إلى الفندق، وكان يعلم بأن السيد ليش وليبينكوت ينظران إليه، وكان يعلم أنه سيجاهد للبقاء متماسكاً، لكن لم يكن الأمر كذلك، إذ لم يشعر بالخدر، بل شعر فقط بغياب الشعور، وهو ما منحه الأمل بشكل غريب.

قال ليبينكوت بشكل صارم: «تشيلتون، أعتقد أن عليك أن تفسّر لي ماذا يحدث».

قال تشيلتون: «لقد كلفت بإيجاد أغاثا كريستي، وقد وجدتها».

استدار تشيلتون وصعد الدرج، قبل أن يتمكن ليبينكوت من الرد، صعد درجتين في خطوة واحدة. كان باب الآنسة أودي مفتوحاً بشكل جزئي، فدفعه للداخل حيث أصدر صوتاً قوياً؛ لا شك أن السيد ليش سيزيّت المفاصل قبل وصول النزيل التالي.

لاحظ ورقة مطوية على المكتب، مكتوب عليها اسم تشيلتون بأحرف بسيطة، فلمسها، وشمها. لو كانت تعيش هنا، في الأيام العشرة الماضية، في عالمها الخاص، لكانت ستفوح منها رائحة يارلي أولد إنكلش لافندر، ولكن بدلاً من ذلك، وبسبب التفاعل القصير الذي أجرته مع الورقة، حين أسندت معصمها عليها وهي تكتب، فاحت من الورقة رائحة دخان الخشب والصنوبر، والقليل من العرق. فتح الورقة بعناية؛ كان يعتقد أنها قد كتبت: أنا آسفة أو أحبك، وأمل أن تكون قد تركت له تعليمات بشأن المكان الذي يجب أن يلتقيا فيه، وخطوتهما التالية للتمكن من الهروب معاً.

لكنها كتبت: «من فضلك احتفظ بالآلة الكاتبة الخاصة بي، والأهم من ذلك أوراقي؛ يجب أن أستعيد أوراقي بسرية وفي أسرع وقت ممكن»، قلبها مرة، ثم مرتين، لكن هذا كان كل ما كتبته.

بالنسبة لي:

عندما كنت فتاة وقعت في حب البحر؛ لقد وقعت في حب اللون الأخضر المستحيل، والاحتفالات الطويلة المبهجة، والناس اللطفاء. أخبرت والدي، في الصيف الأول الذي عدت فيه من إيرلندا: «إنها أشبه ببلد مليء بأعياد الميلاد». وضحك وقال: «أنت تجعلينني أتساءل لماذا غادرتها»؛ لم يكن أي منا يعرف ما يخبئه لنا المستقبل، عندها كنت أحبه دون تحفظ.

عندما كنت فتاة، وقعت في حب الأغنام التي تجوب سفوح التلال الزمردية، والكلاب التي تطاردها، وانقضاض النوارس والزقزاق، ورطوبة الهواء، وزبد البحر الذي يرش الأرض، والصوت الخافت للإيرلنديين الذي أزعجتني والدتي فيه كلما عدت إلى لندن.

ووقعت في حب فتى، سلبتني السنوات حبي للجميع ما عداه؛ لم يكن شريكي لكنه كان ضحية مثلي، وهو الشخص الوحيد على وجه الأرض الذي يمكنه أن يفهمني، وعرفت أنني إذا رأيته مرة أخرى، فإن تصميمي سيتلاشى. لم ير فينبار جينيفييف أبداً، ولم يحملها قط، ولم يعلم أبداً أنها موجودة إلا بعد رحيلها بالفعل، لذا، قد يستمر في محاولاته لجذبي بعيداً، وإذا رأيته مرة أخرى، فقد أستسلم.

فكّرت في كورنيليا أرمسترونغ، والخيط غير المرئي – يو لاو – لكن ليس ذلك الذي بيني وبين فينبار، بل الذي بيني وبين جينيفييف؛ كان بإمكاني أن أشعر بها ككائن حي، ملموس، وأن يصل قلبي إلى قلبها.

وافق تشيلتون على عدم ملاحقتي بتهمة القتل العمد، فشعرت بالأمان على افتراض أنه سيتغاضى عن سرقة السيارة أيضاً، وبغض النظر عن كل هذا، أي شيء سأقوم به لاستعادة أرتشي، سيصب في مصلحة تشيلتون.

إذا اجتمع شمل أغاثا وأرتشي، فلن أتمكن من الوصول إلى تيدي مرة أخرى، فأنا كنت بحاجة لرؤيتها مرة أخرى على الأقل، كنت بحاجة لإخبارها

بأنه في حال وجدت نفسها في مشكلة، فسأكون إلى جانبها، وسأعتني بها، مهما تطلب الأمر. لا أعرف لماذا اعتقدت أن ذلك سيساعدها؛ ربما لأن والدتي قالت لي ذلك ذات يوم.

أحبك؛ أرسلت الرسالة لفينبار عبر تخاطري، وهو أمر لم أكن أعتقد أنه ممكن، لكنني ما زلت آمل وصليت أنه - رغم الهجر - سيسمعها ويفهمها. ربما كان جزء مني يأمل بالعودة إلى لندن لأجد نفسي بعيدةً عن عالم كريستي. كان فشل الخطة التي عملت عليها بمفردي لمدة ثلاث سنوات هو الفرصة الوحيدة لي ولفينبار لنكون معاً، وإذا كان عليَّ قبول فشلها، فليكن، لكنني لن أكون أبداً الشخص الذي يتركها.

في هذه الأثناء، كان على تشيلتون أن يذهب سيراً على قدميه إلى القصر - لم يعد خالداً - ليجلب ما طلبته منه أغاثا؛ الآلة الكاتبة الخاصة بها، وكل ما كتبته في خضم هذه المغامرة. لن تفكر في الأعمال في السنين القادمة؛ قصة قصيرة أو اثنتين وبداية روايتها لغز القطار الأزرق. لطالما قالت إنّها الأقل تفضيلاً من بين جميع كتبها، لكنها نشرتها. لقد نشرت كل ما كتبته، حتى القصة القصيرة الحافة التي انتهت بموت شبيهتي في أسفل الجبل، كما نشرت في العام التالي في مجلة بيرسون، مع تغيير النهاية بحيث لم يتم دفعي من فوق الجبل، بل قفزت بنفسي.

لم يكن لدى تشيلتون أي خطط لنقل الآلة الكاتبة والأوراق الخاصة بأغاثا إلى سونينغديل، كان سيأخذها معه إلى بريكشام، حتى تلاقيه هناك.

سأل فينبار عندما أخبره تشيلتون أنه تم اكتشاف أغاثا: «ولكن أين نان؟»، وضع تشيلتون يده على كتف فينبار.

منحني تشيلتون بالفعل هدية الحرية، إذ لم يتبقَّ لديه أي دافع ليتمنى له حلّ قصتنا الرومانسية لصالحه.

أجابه تشـيلتون: «أنا آسـف. إذا لم تعد نان بحلول الليل، فلا أتوقع أنها ستعود أبداً».

قال فينبار: «سـتعود»، لكنه لم يكن متأكداً، ثم تابع كي يؤكد له عودتي: «إذا رأيتها، أخبرها أنني سـأنتظرها في باليكوتون، ومسـتعد للذهاب إلى أي مكان تفضله في العالم. يمكنها أن تجدني هناك عندما تعود إلى رشدها».

لكنني للأسف، لم أعد.

عام جديد 1928

لا داعي للتخمين، أنتم تعرفون بالفعل، لم يستمر لمّ شمل أغاثا وأرتشي، إذ لم تعد أغاثا تشعر بتلك الحاجة الماسة لمواصلة زواجها، وبدلاً من البقاء في ستايلز والحزن على خسارة القصر الخالد، غادرت هذه المرة إلى الأبد، واصطحبت معها تيدي.

كل ما كان عليَ فعله هو الظهور مرة أخرى أمام أرتشي، فابتسمت له، وابتسم لي.

لكنها في النهاية أعادت تيدي إلى ستايلز، وبحلول ذلك الوقت كنت أنا وأرتشي متزوجَين، حيث كنت أضع في اصبعي خاتم ألماس بدلاً من خاتم كلادا الذي أعطاني إياه فينبار. ستبقى تيدي معنا لمدة عام كامل بينما كانت أغاثا تغامر بمفردها، كانت هذه أول رحلة لها على متن قطار الشرق السريع، وكانت قد خططت للذهاب في العديد من الرحلات.

جلبت هونوريا الطفلة إلينا من لندن، وكنت قد خططت أن أكون في الطابق السفلي مع أرتشي لاستقبال تيدي عند وصولها، ولكن عندما ركنت السيارة، وجدت نفسي غارقة في الانفعال غير راغبة في أن يشهد زوجي ذلك. لقد رأيت تيدي عدة مرات منذ عودتي إلى أرتشي، ولكن هذه ستكون المرة الأولى التي سنقيم فيها معاً في المنزل نفسه بصفتي زوجة أبيها الرسمية.

سألني أرتشي وهو يطوق خصري بذراعه: «هل أنت بخير؟»، لقد تعلم أن يكون حريصاً قليلاً بعد زواجه الأول.

أجبته: «نعم أنا بخير، فقط أشعر بصداع خفيف، سأصعد إلى الطابق العلوي وأرتاح».

عندما صعدت الدرج سمعتهما؛ هونوريا وتيدي؛ صوت عميق وصارم، وآخر يافع وخفيف، ومشيت عبر صالة المنزل، الذي أصبح الآن منزلي، وذهبت إلى الحضانة، ولم يعد أحد هنا يوبخني لتطفلي، إذ ستعود هونوريا إلى لندن.

أجبت أرتشي عندما سألني كيف سنتدبر الأمر: «يسعدني الاهتمام بها بنفسي، في الحقيقة أود القيام ذلك».

لقد اعتنيت بها لسنوات، كنت أهرع إليها عندما تستيقظ باكيةً من حلم رهيب، وكنت أمسك يدها وأضع ذراعي حول كتفيها، عندما قطب الطبيب ركبتها المجروحة، وعندما تزوجت خلال الحرب العالمية الثانية، بحفل صغير ومتسرع من دون حضور أرتشي، حرصت أغاثا على إرسال برقية حتى أكون إلى جانب تيدي.

التقطت سوني، الكلب الذي نحته فينبار لتيدي، عن حافة النافذة، وكان بإمكاني سماع تيدي تمشي بسرعة متجهة نحو القاعة. قد يكون الشخص الأكثر ذكاءً في التاريخ هو من صاغ عبارة صوت خطوات الأقدام الصغيرة؟ لقد ملأ صوت خطواتها المنزل كموسيقى تعيش بداخله، وقررت ألا تكون عيناي دامعتين عندما استدير نحوها.

قالت تيدي وهي تدخل من الباب: «نان، كنت أبحث عنك»، لتجدني أحمل الكلب سوني في يدي.

أعدت سوني إلى حافة النافذة وركعت، واحتضنت وجه تيدي بيديّ. كانت عيناها الزرقاوان اللامعتان تنظران إلى وجهي، فضممتها بين ذراعي. أعتقد أن شعرها – أصبح أدكن منذ أن رأيتها آخر مرة – تفوح منه رائحة البحر الإيرلندي.

قلت لها: «كنت أبحث عنك أيضاً».

عاد فينبار إلى باليكوتون، حيث تلقى خبر زواجي من أرتشي، لقد أرسلت له رسالة أوافيه بالأخبار، مع خصلة من شعر تيدي؛ في غضون سنوات قليلة سيتزوج بفتاة إيرلندية. كان يؤلمني أن أفكر في الأمر، وفي الوقت نفسه، تمنيت له السعادة، لقد أحببته بما يكفي لأتمنى له أن يحظى بكل الكلاب في العالم، وكل الكتب في العالم، وكل شيء خططناه لأنفسنا. لقد أنجب ثلاثة أبناء، ويمكنني أن أتخيل كم أحبهم واستمتع بوجودهم، قبل أن يموت صغيراً، بسبب سرطان نهش رئتيه؛ هديته الأخيرة من غاز الخردل.

يبقى الغضب قائماً عندما يفكر المرء في الحرب، وكقراء تتوصل أذهاننا إلى الاستنتاجات التي طال انتظارها، على الرغم مما نعرف بأنه صحيح متظاهرين بأنه لا توجد حرب عالمية ثانية ستأتي لقصف إنكلترا مرة أخرى، وهو ما لا ينبغي لأحد أن يتحمله مرة واحدة في العمر، ناهيك عن مرتين؛ هذه القصة تمثلني؛ ليس لديّ أي ولاء للتاريخ الذي لم يقدم لي أي معروف على الإطلاق. لا أزال عاجزة عن إنهاء قصتي مع فينبار، حتى في مخيلتي، لأن أي نهاية معه هي نهاية بعيدة عن طفلتنا، ولكن يمكنني إنهاء قصة أغاثا كما أحب.

دعونا نتوقف لحظة أخرى ونعود بالزمن إلى الوراء، فبعد شهر واحد من مغادرة فندق بيليفورت مع زوجها والعودة إلى ستايلز، طلبت أغاثا من هونوريا تعبئة حقيبة لتيدي، وبعد وضع رسالة إلى أرتشي على المنضدة في القاعة الأمامية، ذهبت لتتفقد البريد الصباحي ووجدت طرداً صغيراً أرسله السيد آرثر كونان دويل، وعندما فتحته وجدت زوجاً من القفازات الجلدية الجميلة التي لم ترها من قبل في حياتها، مما جعل ملاحظته: مسرور جداً لسماع أنك بأمان في المنزل. اسمحي لي بإعادة هذين القفازين إلى مالكهما الشرعي؛ محيرة أكثر؛ ومع ذلك، لم تستطع رفض هديته بالتحديد، وكان الجو بارداً، فارتدت القفاز.

قبل أن تغادر، حرصت على جمع الموظفين الصغار في ستايلز، وقالت لهم بوضوح: «سأذهب إلى آشفيلد، وسآخذ تيدي معي، وإذا شك أي شخص في مكان تواجدي، فمن فضلكم أرسلوه إلى توركواي، فإذا لم أكن في المنزل، فسأكون على الشاطئ».

حملت أغاثا كلبها وتيدي ووضعتهما في سيارتها العزيزة القديمة موريس كاولي، وانطلقت متجاوزةً كل الحفر المائية دون حوادث. كانت البركة الصامتة متلألئة، عاكسةً السماء الزرقاء الباردة كما لو أنه لم يُسحب أي شخص ميت من أعماقها الطينية. قادت سيارتها على طول مجرى النهر، حيث عثر على أنابيل أوليفر، وضغطت بيدها على صدرها كنوع من التحية؛ تحية امتنان، وشكر، وحزن.

كان لدى تشيلتون منزل خاص به بحلول ذلك الوقت، في بريكسهام؛ كوخ على البحر، قريب بما يكفي من منزل والدته بحيث يمكنه تفقدها يومياً، وعلى الرغم من أنه يئس تماماً من فكرة رؤية أغاثا مرة أخرى، إلا أنه عرف في اللحظة التي سمع فيها طرقاً على الباب أنها هي. فتح الباب ليجدها واقفة هناك في الغسق البارد، مرتدية تنورة وبلوزة تحت معطف من الفرو، وكان شعرها مبعثراً بشكل جميل، وابتسامتها واسعة ومتحررة، وكانت تحمل تيدي التي نامت في السيارة، بينما استند وجه الطفلة الصغيرة على كتفها.

قال تشيلتون: «جلبت لك أغراضك، كل شيء هنا».

قالت له: «شكراً لك».

تنحى جانباً لتتمكن من الدخول، ثم أغلق الباب بهدوء خلفها، وهز الكلب الصغير ذيله عند قدميها، وكأنه يريد أن يتم تقديمه بشكل صحيح.

أشار تشيلتون بيده السليمة قائلاً: «هنا»، تبعته أغاثا إلى غرفة النوم الاحتياطية، ووقفت بهدوء بينما كان يسارع إلى وضع الملاءات على السرير، ثم وضعت تيدي – المعزولة تماماً عن العالم، كما حال الأطفال النائمين –

ورفعت اللحاف حتى ذقنها، وقبلت جبهتها.

قال تشيلتون: «إنها جميلة».

قالت: «نعم، بالتأكيد».

قفز الكلب إلى السرير وانحنى بجانب الطفلة. راقب تشيلتون وأغاثا تيدي وهي تنام للحظة، وشاهدا صعود وهبوط صدرها؛ أنفاس الطفل تختلف عن أنفاس البالغين، إنها أعمق وأثمن؛ ثم أغلقا الباب بإحكام، ودخلا المطبخ معاً. كان الكوخ صغيراً ومريحاً، ولم يكن السقف مرتفعاً.

سألها: «أتشربين كوباً من الشاي؟».

أجابته: «لا، لا، شكراً»

وهنا تعانقا، لقد استمر العناق لفترة طويلة، وشعر تشيلتون بالسعادة والامتنان لكونه على قيد الحياة.

أوه، دعونا نعيد له القدرة على استخدام ذراعه اليسرى؛ ارتفعت ذراعه بطريقة سحرية، والتفت حولها بقوة كافية للتعبير عن أنه لن يسمح لها بالرحيل.

في وقت ما بعد منتصف الليل، تعانق الاثنان في سريره، وقالت أغاثا: «إنه كوخ جميل، وقريب من أشفيلد، سأستقر وتيدي هناك في الصباح».

قال: «نعم، احرصي أن تكوني هناك عندما يأتون بحثاً عنك»، وضحك الاثنان، وقد انتشرت السعادة في المنزل الصغير، حتى تيدي، ابتسمت أثناء نومها في الغرفة الأخرى.

ذكّرها تشيلتون قائلاً: «أنت لا تحبين قصص الحب».

قالت: «ليس دائماً، لكنني أحب هذه القصة».

يجب أن ينتهي الغموض بكشف القاتل، وهذا ما حدث، كما يجب أن تنتهي المهمة باستعادة الكنز، وهذا ما حدث بالفعل، ويجب أن تنتهي قصة الحب المأساوية بموت أو انفصال عاشقيها، لكن قصة الحب الرومانسية، يجب أن تنتهي بلمّ شمل عاشقيها.

خارج حدود هذه الصفحات، سوف تمضي الحياة إلى الأمام، لكن هذه قصتي، بإمكاني أن أجعل أي شيء يتحقق بغض النظر عن المستقبل الذي أصبح الآن من الماضي، كما يمكنني أن أترك لكم صورة واحدة، ويمكننا التظاهر بأنها ستدوم إلى الأبد.

لذلك، على الأقل في هذا القسم من قصتنا، دعونا نتوقف هنا؛ مع تشيلتون وأغاثا، يمشيان معاً على الشاطئ في توركواي، متشابكي اليدين، وكلبها الصغير يقفز من صخرة إلى أخرى، وكلاهما يبتسمان تحت السماء الزرقاء اللامعة، كصورة ثابتة في عوالم اليوم، ثابتة فقط لبعض الوقت، مثل كل شيء، ولا داعي للسؤال أو المضي قدماً بعد هذه اللحظة.

دلّل نفسك بدلاً من ذلك، وأغلق هذه الرواية ذات النهاية السعيدة.



منذ أحد عشر يوماً وأغاثا كريستي مختفية، هذا الاختفاء يجعلنا نبحث عن جوابين لسؤالين أساسيين: ما الأمر الذي يجعل امرأة يائسة إلى حدّ يحملها على تدمير زواج امرأة أخرى؟ وما هو الأمر الفظيع الذي قد يحمل شخصاً على الانتقام عن طريق القتل؟
في العام 1925، تسللت الآنسة نان أوديا إلى العالم الثري والهش للمؤلفة أغاثا كريستي وزوجها أرتشي، وأصبحت جزءًا من حياة الزوجين قبل أن تستولي على قلب أرتشي، وتحاول باستماتة أن تتزوجه، ولكن اللافت في الأمر أن رغبتها في الزواج منه لم تكن وليدة الفترة التي تعرفت فيها إليه، بل تعود لفترة طويلة سابقة، فقد بدا الأمر قبل سنوات، في إيرلندا، عندما كانت نان فتاة يافعة، وكانت تجمعها علاقة حب جميلة وراسخة مع أحد الشبان، وكان من المقدّر أن تنتهي علاقتهما بالزواج، قبل أن تفرق بينهما الحرب العالمية الأولى، والإنفلونزا الإسبانية.
إن هذه الرواية تجيب عن سلسلة من الأسئلة من قبيل ما الذي قد يحمل أنثى على القتل؟ وماذا سيفعل شخص بدافع الحب؟ وما هي الجريمة التي لا تغتفر؟



تعيش **نينا دي غرامونت** (المعروفة أيضًا باسم مارينا غيسنر) في ولاية كارولينا الشمالية الساحلية مع زوجها الكاتب ديفيد غيسنر، وهي تدرّس في جامعة نورث كارولينا ويلمنغتون، من أعمالها السابقة:

- قابلني في النهر
- كل شيء صغير في العالم
- ثرثرة الزرزور
- أيلول الماضي
- المسافة التي تفصل بيننا.

telegram @soramnqraa







